مدهشة، صادمة، مشوّقة.. *Gillian Flynn*

لم أستطع أن أتركها . . *Stephen King*

الأكثر مبيعاً على قوائم النيويورك تايمز فور صدورها

رواية

امرأة في النافذة

ترجمة: الحارث النبهان

آ.ج. فين

منشورات الرمل

آ. ج. فين

امرأة في النافذة

الكتاب: امرأة في النافذة (رواية)
تأليف: آ. ج. فين
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 432 صفحة
الترقيم الدولي: 1-014-472-614-978
الطبعة الأولى: 2018

العنوان الأصلي للكتاب
THE WOMAN IN THE WINDOW BY A.J. FINN

الناشر:

منشورات الرمل
An Imprint of Dar Altanweer

آ. ج. فين

امرأة في النافذة

رواية

ترجمة

الحارث النبهان

منشورات الرمل

هذا عمل من نسْج الخيال. وكل ما فيه من أشخاص وأماكن وأحداث ليس إلا ثمرة مخيلة كاتبه، أو هو مستخدَمٌ استخداماً قصصياً على نحو لا يصح معه اعتباره حقيقةً. كما أن أي شبه بأحداث حقيقية أو بأشخاص حقيقيين من أهل المنطقة، أحياء كانوا أو أمواتاً، أو بمؤسسات حقيقية، ليس إلا مجرَّد مصادفة.

إلى جورج

لديّ إحساس يقول إن في داخلك، في مكان ما داخلك
هنالك ما لا يعرف أحدٌ عنه شيئاً.

«ظِلٌّ من شك» ـ 1943

الأحد

24 تشرين الأول

1

كاد زوجها يعود إلى البيت. سوف يمسك بها هذه المرة.

لا ستائر على الإطلاق في البيت رقم 212، ولا شيء يحجب النوافذ ـ هذا البيت المنفصل الأحمر بلون الصدأ، الذي سكن فيه ذات مرة الزوجان مُوت، المتزوجان حديثاً، حتى وقت لم يمض عليه الكثير... إلى أن انفصلا. لم أقابل أبداً أياً منهما، لكني كنت أبحث عنهما في الإنترنت أحياناً: حسابه على موقع LinkedIn، وصفحتها على فيسبوك. لا يزال سجل هدايا الزواج الخاص بهما موجوداً على موقع محلات Macy. ولا يزال يمكنني أن أشتري لهما زهوراً.

مثلما كنت أقول: ليس في هذا البيت شيء يستر نوافذه. وهكذا، فإن البيت رقم 212 يحدّق عبر الشارع بعيون فارغة. بيتٌ داكن الحُمرة، بيت بارد... فأرد على تحديقه بتحديق مثله وأنظر إلى سيدة البيت تقود صاحبها إلى غرفة نوم الضيوف.

ما قصة هذا البيت؟ إنه المكان الذي يذهب الحب إليه حتى يموت.

هي امرأة جميلة، حمراء الشعر (حمرة شعرها حقيقية!)، ولها عينان خضراوان بلون العشب وسلسلة شامات صغيرة جداً ممتدة كأنها درب

يجتاز ظهرها. وهي أكثر جمالاً من زوجها، أكثر جمالاً بكثير من زوجها: د. جون ميلر، معالج نفسي ـ نعم، إنه استشاري للثنائيات ـ واحد من 436000 جون ميلر من الموجودين على الإنترنت. لكن هذا النموذج تحديداً يعمل بالقرب من «منتزه غرامرسي» ولا يقبل الدفع عن طريق التأمين الصحي. يقول عقد البيع إن الرجل دفع 3,6 مليون دولار ثمناً لهذا البيت. لا بد أن أعماله تسير سيراً حسناً.

أما في ما يتعلق بالزوجة، فأنا أعرف أكثر... وأقل أيضاً! لا يمكن القول إنها ربة منزل بكل معنى الكلمة، هذا واضح. انتقل الزوجان ميلر إلى هذا البيت منذ ثمانية أسابيع، ولا تزال النوافذ عارية... تسك تسك! إنها تمارس اليوغا ثلاث مرات في الأسبوع. تنزل درجات السلم قفزاً، وقد حملت حصير اليوغا الصغير ملفوفاً تحت ذراعها كأنه سجادة سحرية، ويشد على ساقيها بنطلون رياضي ماركة Lululemon. لا بد أنها تعمل عملاً تطوعياً في مكان ما ـ تخرج من البيت بعد الساعة الحادية عشرة بقليل أيام الإثنين والجمعة، أي في وقت نهوضي من الفراش تقريباً، ثم تعود بين الخامسة والخامسة والثلاثين دقيقة، تماماً عندما أجلس لأشاهد فيلمي المسائي. (فيلمي المختار لهذه الأمسية: «الرجل الذي عرف أكثر مما يجب»، لقد أعدت مشاهدته حتى الآن عدداً لا يُحصى من المرات. أنا هي المرأة التي تشاهد أكثر مما يجب).

لاحظت أنها تحب تناول شراب بعد الظهر، مثلما أحب أنا أيضاً. فهل تحب تناول شراب في الصباح أيضاً؟... مثلما أحب أنا؟

لكن سنّها سر غامض رغم أنها أصغر من السيد ميلر، بكل تأكيد، وأصغر مني (هي أكثر رشاقة أيضاً)؛ وأما اسمها فلا أستطيع إلا أن أخمنه تخميناً. أطلقت عليها اسم ريتا، لأنها تبدو شبيهة بريتا هَيوورث في فيلم «غيلدا». «لست مهتمة على الإطلاق» ـ تعجبني هذه الجملة التي تقولها ريتا في الفيلم. وأما عن نفسي، فإنني مهتمة أشد الاهتمام. لست مهتمة بجسدها:

الخط الناتئ الشاحب الذي يرسمه عمودها الفقري، ولوحا كتفيها اللذان كأنهما جناحان مطويان، وحمّالة الصدر الزرقاء السماوية التي تحتضن ثدييها.. كلما لاح شيء من هذا في عدستي، أي شيء منه، فإنني لا أنظر إليه ـ لكنني مهتمة بالحياة التي تعيشها. حيواتها. عندها حياتان أكثر مما لديّ. اجتاز زوجها زاوية الشارع منذ لحظة، تماماً بُعيد الساعة الثانية عشرة، بعد وقت قصير من إغلاقها باب البيت الأمامي وصاحبها يسير خلفها. هذا خروج عن المألوف: أيام الأحد، يعود د. ميلر إلى البيت في الثالثة والربع؛ لا يتغير هذا أبداً.

لكن الدكتور الطيب يسير قادماً على الرصيف الآن. أنفاسه تخرج من فمه صاخبة، وحقيبته تتأرجح في إحدى يديه، وخاتم الزواج يلمع. أضبط العدسة على قدميه: حذاء بنيٌّ محمَرّ ماركة أكسفورد يلمع طلاؤه، يجمّع ضياء شمس الخريف وينفضه عنه مع كل خطوة.

أرفع عدسة الكاميرا إلى رأسه. لا تُفوّت كاميرتي (Nikon D5500) تفاصيلَ كثيرة، خاصة في وجود عدسات Opteka: شعر حرون غير معتنًى به جيداً، ونظارة رقيقة من النوع الرخيص، وجُزر صغيرة من شعر غير محلوق جيداً في المنخفضات الضحلة على خديه. تبدو لي عنايته بحذائه أكبر من عنايته بوجهه.

أعود إلى البيت رقم 212، حيث يخلع كل من ريتا وصاحبها ثيابهما مسرعين. يمكنني الاتصال بخدمة الاستعلام عن الأرقام الهاتفية، فأتصل بالبيت وأحذِّرها. لكن لن أفعل هذا. أتابع ما يحدث مثلما نُصوّر الطبيعة: لا نتدخل في الحياة البرية.

لعل د. ميلر صار الآن على مسافة نصف دقيقة من باب البيت. يُخلّف فم زوجته أثراً لامعاً على رقبة الرجل. تخلع بلوزتها.

أربع خطوات أخرى. خمس، ست، سبع. عشرون ثانية الآن، على أكثر تقدير.

تمسك بربطة عنق صاحبها بين أسنانها وتبتسم له ابتسامة عريضة. تعبث يداها بأزرار قميصه. يطبق الرجل فمه على أذنها.

يقفز زوجها فوق بلاطة مقتلعة من الرصيف. خمس عشرة ثانية.

أكاد أستطيع سماع صوت ربطة العنق تنسحب حول ياقة القميص. تقذف بها إلى الناحية الأخرى من الغرفة.

عشرُ ثوان. وبسرعة، أقرّب الصورة من جديد فيكاد خطم الكاميرا يُنتزع من مكانه. تغوص يده في جيبه، ثم تخرج حاملة حزمة مفاتيح. سبع ثوان.

تفك ربطة شعرها فينسكب شلالاً متأرجحاً على كتفيها.

ثلاث ثوان. إنه يصعد الدرجات أمام الباب الخارجي.

تلف ذراعيها حول ظهره وتقبّله قبلة عميقة.

يُدخل زوجها المفتاح في القفل. يديره.

أُقرّب الصورة من وجهها، فأرى عينيها تنفتحان على اتساعهما. لقد سمعتْ.

ألتقط صورة.

وعندها، تنفتح حقيبته فجأة.

تسقط مجموعة أوراق من الحقيبة فتبعثرها الريح. أعود بالكاميرا إلى وجه د. ميلر، إلى صيحة «خراء» الهشة التي رسمتها شفتاه. يضع الحقيبة على عتبة البيت ويدوس بحذائه اللامع على بضع أوراق حتى يثبتها، ويلتقط بيديه بضع أوراق أخرى. علقتْ ورقة هاربة في أصابع شجرة. لا يلاحظها.

ريتا من جديد، تدخل ذراعيها في كمّيها، وتربط شعرها مثلما كان. تخرج من الغرفة مسرعة. صاحبها الحائر في أمره يقفز من السرير ويستعيد ربطة عنقه فيدسها في جيبه.

أفلتُ أنفاسي التي حبستها... مثل هواء يخرج من بالون. لم أدرك أنني كنت أحبس أنفاسي.

ينفتح الباب الأمامي: تندفع ريتا نازلة الدرجات وتنادي زوجها. يستدير. أظنه يبتسم ـ لا أستطيع الرؤية. تتوقف، ثم ترفع بضع أوراق التصقت بالرصيف.

يظهر صاحبها بالباب واضعاً إحدى يديه في جيبه. يرفع اليد الأخرى بالتحية. يلوح له د. ميلر. يصعد إلى الباب فيلتقط حقيبته، ثم يتصافح الرجلان. يدخلان معاً، وريتا من خلفهما.

لا بأس! ربما في المرة المقبلة.

الاثنين

25 تشرين الأول

2

مرت السيارة منذ لحظة؛ مرت بطيئة قاتمة كأنها عربة دفن الموتى. لمعت مصابيحها الخلفية في الظلام.

أقول لابنتي: «جيران جدد».

«أي بيت؟»

«خلف الحديقة. البيت رقم مئتان وسبعة». إنهم هناك الآن، يبدون مثل أشباح في ضياء الغسق الخافت. ها هم يخرجون صناديق من السيارة.

تبتلع ابنتي ما في فمها.

أسألها: «ماذا تأكلين؟» إنها ليلة صينية، بالطبع. وهي تأكل «لو مين».

«لو مين».

«لا يجوز أن تأكلي وأنت تتحدثين مع أمك».

تبتلع من جديد ثم تمضغ. «مام». هذه إشارة حرب بيننا؛ إنها تختصر كلمة ماما، عكس رغبتي، فتجعلها كلمة قصيرة فظة. يقول لي إد: «اتركيها وشأنها» ـ لكنه لا يزال بابا.

تقول أوليفيا مقترحة: «عليك أن تذهبي وتسلمي عليهم».

«أحب أن أفعل هذا يا بطيختي».

أندفع صاعدة السلم إلى الطابق العلوي حيث الرؤية أفضل. «أوه:

هنالك قرعات الهالوين في كل مكان. الجيران كلهم لديهم قرع. ولدى آل غراي أربع منها». بلغتُ فسحة السلم حاملة كأسي في يدي والنبيذ يبلل شفتي. «ليتني كنت أستطيع أن أجلب لك قرعة. قولي لبابا أن يأتي لك بواحدة». أرتشف النبيذ، وأبتلع. «قولي له أن يأتي باثنتين، واحدة لك وواحدة لي».

«لا بأس».

ألمح نفسي في مرآة الحمام الصغير المظلمة: «هل أنت سعيدة يا حبيبتي؟».

«نعم».

«ألا تشعرين بالوحدة؟» لم يكن لديها أبداً أصدقاء حقيقيون في نيويورك. كانت شديدة الخجل، صغيرة كثيراً.

«لا».

أنظر إلى الظلمة في أعلى السلم، أنظر إلى العتمة في الأعلى. خلال ساعات النهار، يسقط ضياء الشمس عبر القبة الزجاجية التي فوقي. أما في الليل، فهي عين كبيرة مفتوحة تحدّق في أعماق بئر السلم. «ألست مشتاقة إلى بنتش؟»

«لا». لم تكن على علاقة طيبة مع القط أيضاً. لقد خمشها صبيحة عيد الميلاد، ضربها بمخالبه على معصم يدها... ضربتين سريعتين متقاطعتين. ظهرت ثلاثة خطوط دامية على جلدها فكاد إد يرميه من النافذة. بحثتُ عنه الآن فوجدته ملتفاً على نفسه فوق الأريكة في غرفة المكتبة، ينظر إليّ.

«دعيني أتكلم مع بابا، يا بطيختي». صعدت الدرجة التالية. كانت حافة البساط على السلم قاسية تحت قدمي. راتان![1] كيف كُنا نفكر؟ إنه يتسخ بكل سهولة.

يحييني: «مرحباً، أيتها القوية. جيران جدد؟»

---

(1) – الراتان نسيج خشن من عيدان نباتية مضفورة.

«نعم».
«ألم يكن لديك جيران جدد منذ فترة قريبة؟»
أجيبه وأنا أستدير وأبدأ هبوط السلم من جديد: «كان هذا منذ شهرين. البيت رقم مئتان واثنا عشر. آل ميلر».
«وفي أي بيت هؤلاء الجدد، الآخرون؟»
«مئتان وسبعة، خلف الحديقة».
«الحي يتغير».
أصل إلى فسحة السلم، أدور فيها. «لم يأتوا معهم بأشياء كثيرة. سيارة فقط».
«أظن أن عمال النقل سيأتون في وقت لاحق».
«أظن هذا».
صمتٌ. أرتشف جرعةً من كأسي.
الآن، أنا في غرفة المعيشة من جديد، عند الموقد. ظلال متراكمة في الزوايا. يبدأ إد القول. «استمعي...»
«إن لديهم ابناً».
«ماذا؟».
أكرر وأنا أضغط بجبهتي على زجاج النافذة البارد: «هنالك ولد». لا تزال هذه الناحية من حي هارلم تنتظر مصابيح الصوديوم في الشوارع... لا تنيره الآن إلا قطعة من القمر تشبه حز الليمون؛ لكنني قادرة على تمييز أشباحهم: رجل وامرأة وصبي طويل القامة ينقلون الصناديق إلى باب البيت... أضيف قائلة: «إنه صبي مراهق».
«مهلاً يا عزيزتي».
أقول قبل أن أتمكن من إيقاف نفسي: «أتمنى لو كنتَ هنا».
فاجأني هذا. فوجئ إد أيضاً؛ فاجأه صوت كلماتي. لحظة صمت.
يقول بعدها: «أنت في حاجة إلى مزيد من الوقت».
أظل صامتة.

«يقول الأطباء إن التواصل أكثر مما يجب ليس صحياً».
«أنا هي الطبيبة التي قالت ذلك».
«أنت واحدة منهم».
أسمع فرقعةً خلفي. شرارة لهب في الموقد. تهدأ ألسنة اللهب، وتدمدم عند الحاجز.
يسألني: «لماذا لا تدعين أولئك الجيران الجدد إلى زيارتك؟».
أفرغ كأسي: «أظن أن هذا كافٍ لهذه الليلة».
«آنا».
«إد».
أكاد أسمع صوت تنفسه: «آسف لأنني لست هناك، معك».
أكاد أستطيع سماع قلبي: «وأنا أيضاً».
لحق بي القط بنتش إلى الأسفل. ألتقطه فأرفعه بذراع واحدة، ثم أدخل المطبخ. أضع الهاتف على طاولة المطبخ. سأشرب كأساً أخرى قبل أن أنام.
أُمسك الزجاجة من عنقها، ثم أستدير إلى النافذة، صوب الأشباح الثلاثة على الرصيف. أرفعها كأنني أرفع نخبهم.

الثلاثاء

26 تشرين الأول

3

كنا قد وضعنا خطة لبيع البيت في مثل هذا الوقت من السنة الماضية؛ بل اتصلنا بأحد الوكلاء العقاريين أيضاً. ستذهب أوليفيا في أيلول المقبل إلى مدرسة في وسط المدينة، كما أن إد وجد لنا عملاً معقولاً في Lenox Hill. يعدني قائلاً: «سيكون هذا ظريفاً. وسأركّب كرسي اغتسال في المرحاض، من أجلك أنت». أربّت على كتفه.

تسأل أوليفيا: «ما هو كرسي الغسل؟».

لكنه ذهب، وذهبت هي معه. وهكذا جُرح قلبي من جديد في الليلة الماضية، وتذكرت الكلمات التي وضعناها في الإعلان الذي كتبناه من أجل بيع البيت: جوهرة من القرن التاسع عشر في هارلم، معلَم من معالم المنطقة جرى ترميمه بكل حب! بيت عائلة رائع! أظن أن كلمتي «معلم» و«جوهرة» قابلتان للنقاش. أما «هارلم» فلا نقاش فيها، وكذلك «القرن التاسع عشر» (بُني البيت سنة 1884). يمكنني أن أشهد أيضاً على صحة عبارة «جرى ترميمه بكل حب»، وبتكلفة كبيرة أيضاً. ماذا عن «بيت عائلة رائع»، هذا صحيح!

ميداني، والمواقع التي فيه:

القبو: أو «الميزونيت» كما يقول وكيلنا العقاري. أخفض من مستوى

الشارع، ممتد على مساحة البيت كله، وله باب منفصل. مطبخ، وحمام، وغرفة نوم، وغرفة مكتب صغيرة كانت مكان عمل إد طيلة ثماني سنوات ـ كانت المخططات تملأ طاولته؛ وقد ألصق خلاصات مقاولات المشاريع على الجدار. القبو مؤجَّر الآن.

الحديقة: شرفة مسقوفة، مسقوفة حقاً، يمكن الدخول إليها من الطابق الأول. فسحة مبلَّطة بالحجر الأبيض؛ وزوج مهمل من كراسي الحدائق؛ وشجرة زينة فتية تقف متكاسلة في الزاوية القصية، تقف مهلهلة وحيدة كأنها مراهقة لا أصدقاء لها. كم أودّ أن أحتضنها.

الطابق الأول: اسمه الطابق الأرضي، إن كنت بريطانياً، أو «الطابق الأول»، إن كنت فرنسياً. (لستُ بريطانية ولا فرنسية، لكنني أمضيت بعض الوقت في أكسفورد خلال دراستي، في «ميزونيت»... هكذا شاءت المصادفة ـ كما بدأت دراسة اللغة الفرنسية عبر الإنترنت في شهر تموز الماضي). المطبخ ـ مفتوح على غرفة المعيشة و«فاخر» (هذا تعبير الوكيل العقاري، من جديد)، وفيه باب خلفي ينفتح على الحديقة، وباب جانبي مؤدٍّ إلى موقف السيارة. أرضيات من خشب البتولا الأبيض، لكنها صارت الآن مبقعة بآثار برك صغيرة من نبيذ ميرلو (merlot). وفي الصالة غرفة الزينة مع حمام صغير ـ إنني أسميها الغرفة الحمراء. لون يطلق عليه كاتالوج بنجامين مور اسم «أحمر الطماطم». غرفة معيشة فيها أريكة وطاولة قهوة وعلى أرضها سجادة فارسية لا تزال ناعمة وثيرة تحت الأقدام.

الطابق الثاني: غرفة المكتبة (هذه الغرفة لإد؛ رفوف ممتلئة كتباً تمزقت كعوبها وعلتها طبقة من الغبار، متراصة كأنها أسنان)، ثم طاولة المكتب (مكتبي؛ مكان احتياطي، متسع، ولاب توب ماكنتوش مستقر على طاولة من صنع IKEA ـ إنه رقعتي الشطرنجية على الإنترنت). حمام صغير آخر، لكنه أزرق اللون، «نشوة سماوية»... تعبير أكثر طموحاً من أن يناسب غرفة صغيرة فيها مرحاض. خزانة عميقة في الجدار ربما أحولها

ذات يوم إلى غرفة لتظهير الأفلام، إن قررت الهجرة من التصوير الرقمي إلى التصوير على الأفلام التقليدية. أظن أنني بدأت أفقد اهتمامي!

الطابق الثالث: غرفة النوم الرئيسية، ومعها حمّام. أمضي شطراً كبيراً من وقتي في السرير هذه السنة. فراش من ذلك النوع الذي يدعونه باسم «أنظمة النوم»؛ إنه قابل للتكيف مع الجسم بطريقتين في آن واحد. لقد برمج إد ناحيته من الفراش لكي تصير طرية كالريش؛ أما ناحيتي أنا فمبرمجة لتكون صلبة. قال لي مرة وهو ينقر بأصابعه على غطاء الفراش: «أنت تنامين على حجر».

قلت له: «وأنت تنام على غيمة».

ثم قبَّلني، قبلني قبلة طويلة بطيئة.

بعد رحيلهما، وخلال تلك الشهور السوداء الفارغة عندما كنت لا أكاد أستطيع انتزاع نفسي من الفراش، كنت أتقلّب ببطء مثل موجة طويلة متعرّجة، أتقلب من طرف الفراش إلى طرفه الآخر فألفّ الغطاء حولي ثم أفكه من جديد.

وأيضاً غرفة نوم للضيوف، ولها حمامها.

الطابق الرابع: قسم الخدم في وقت من الأوقات. أما الآن فهنا غرفة نوم أوليفيا وغرفة نوم احتياطية ثانية. في بعض الليالي، أجوب غرفتها كأنني شبح. وأقف بعض الأيام، في باب الغرفة وأنظر إلى حركة ذرات الغبار البطيئة في ضوء الشمس. تمر أسابيع لا أزور فيها الطابق الرابع أبداً. لقد بدأ يذوب ويتحول إلى شيء في الذاكرة، مثل إحساسي بالمطر على جلدي.

على أية حال، سوف أكلّمهما غداً مرة أخرى. وأما الآن، فما عدت أرى أثراً لهؤلاء الناس خلف الحديقة.

الأربعاء

27 تشرين الأول

4

يندفع مراهق رشيق الحركة طويل الساقين خارجاً من باب البيت رقم مئتين وسبعة كأنه حصان ينطلق عند خط البداية في السباق، ثم يجري في الشارع صوب الشرق فيمر أمام نوافذي. لم تسنح لي فرصة النظر إليه جيداً ـ استيقظت باكراً بعد أن طال سهري في الليل مع فيلم «Out of the Past»، وأحاول الآن تقرير ما إذا كان تناول جرعة من النبيذ في هذا الوقت أمراً حكيماً. لكني ألمح شعره الأشقر وحقيبة الظهر معلقة من كتف واحدة. ثم يختفي.

أتناول كأساً، ثم أصعد متثاقلة وأجلس إلى مكتبي. أتناول كاميرتي.

يمكنني أن أرى الأب في مطبخ البيت مئتين وسبعة. رجل طويل عريض تنيره من الخلف شاشة التلفزيون. أضع الكاميرا على عيني وأقرّب الصورة: إنه برنامج «Today» على الشاشة، أفكر في أنني يمكن أن أنزل إلى الطابق السفلي وأشغّل التلفزيون من عندي فأتابع البرنامج مع جاري، أو يمكن أن أتابعه من هنا، على شاشته هو، عبر هذه العدسة.

أقرر أن أفعل هذا.

مر وقت غير قليل منذ أن نظرت إلى واجهة بيتي آخر مرة، لكن Google يتيح مزية التجول في الشارع: حجر أبيض، وأقواس شبه فنيّة في داخلها

إطارات النوافذ. يمكنني من هذه الزاوية أن أرى جانب البيت فقط. ومن خلال تلك النوافذ الشرقية، أرى صورة واضحة للمطبخ، وأرى ردهة الطابق الثاني وغرفة النوم التي فوقها.

البارحة، وصل فوْج من عمال نقل الأثاث. جاؤوا بأرائك وأجهزة تلفزيون وخزانة عتيقة. كان الزوج يوجّه حركتهم. لم أرَ الزوجة منذ ليلة انتقالهم. أتساءل: كيف هو شكلها؟

كنت على وشك الانتصار في لعبة شطرنج على موقع Rook&Roll بعد ظهر هذا اليوم عندما سمعت جرس الباب. اندفعت نازلة وأوقفت جهاز الإنذار بصفعة من كفي، ثم فتحت قفل الباب فوجدت المستأجر عندي واقفاً هناك يبدو «في حالة مهمَلة»، كما يقولون. إنه وسيم، له فك متطاول وعينان تشبهان فتحتين مظلمتين في السقف. عينان داكنتان، عميقتان. كأنه الممثل غريغوري بيك بعد سهرة متأخرة. (لست الوحيدة التي أرى هذا. لاحظت أن ديفيد يحب أن تكون له رفيقة من وقت لآخر. بل سمعت... في حقيقة الأمر).

يقول لي: «أنا ذاهب الليلة إلى بروكلين».

أمرر أصابع يدي في شعري وأقول: «حسنٌ».

«حسنٌ!»

«هل تريدين مني أي شيء قبل ذهابي؟».

يبدو هذا أشبه بعرض، كأنه جملة من فيلم من أفلام الجريمة الساخرة الغامضة من الناحية الأخلاقية. فقط، ضمي شفتيك معاً، وتابعي.

«أشكرك. لست في حاجة إلى شيء».

ينظر إلى ما هو خلفي نظرة مائلة. «هل هنالك حاجة إلى تغيير بعض المصابيح؟ يبدو لي المدخل مظلماً».

أقول له: «أحب الإضاءة الخافتة»... داكنة، هكذا أحب الرجال أيضاً... أكاد أضيف هذا. أليست هذه هي النكتة في فيلم *Airplane*؟ «أتمنى لك وقتاً...» ممتعاً؟ طيباً؟ مليئاً بالجنس؟... «طيباً». يستدير ويذهب.

أقول له محاولة أن أبدو لعوباً: «تعرف أنك تستطيع الدخول مباشرة من باب القبو. هنالك فرصة لأن تجدني في البيت». آمل في أنه سيبتسم. مضى عليه شهران هنا ولم أره يبتسم مرة واحدة.

يومئ برأسه. ثم يذهب.

أغلق الباب، وأدير المفتاح في القفلين.

أتأمل شكلي في المرآة. تجاعيد ناتئة حول العينين. حفنة من شعر داكن يخالطه بعض الشيب هنا وهناك؛ شعر مسترخٍ متهدِّل على كتفي؛ شعر قصير خشن تحت إبطي. بطني مرتخٍ. ونقراتٌ كثيرة على فخذي. جلدي يكاد يكون صارخ الشحوب، وفيه عروق بنفسجية ممتدة على ذراعيَّ وساقَيّ.

نقرات، وشعر متهدل، وشعر قصير خشن، وتجاعيد. إنني في حاجة إلى عمل كثير. كنت جذابة في وقت ما، كما يقول البعض، وكما يقول إد. «كنت أفكر فيك كأنك ابنة الجيران»؛ قالها بحزن قبيل النهاية.

أنظر إلى أصابع قدمي ممتدة على البلاط ـ أصابع طويلة جميلة؛ شي من أفضل ما لدي، بل هي عشرة أشياء. لكنها تبدو الآن مثل وحوش مفترسة صغيرة. فتشت في خزانة الأدوية حيث تكوّمت زجاجات الأقراص واحدة فوق أخرى كأنها أعمدة طوطمية. عثرت على مقص الأظافر، أخيراً. ها هي مشكلة أستطيع حلها.

الخميس

28 تشرين الأول

5

بالأمس، نُشر عقد البيع على الإنترنت. جيراني الجدد هم ألستير وجين روسل. دفعا 3,45 مليون دولار من أجل مسكنهما المتواضع. يخبرني Google أن ألستير مساهم في شركة استشارية متوسطة الحجم كان مقرها في بوسطن. أما هي فلا يمكن اقتفاء أثرها ـ جرّبوا كتابة جين روسل على أحد محركات البحث!

لقد اختارا منطقة حيوية نشطة.

بيت آل ميلر، على الجهة الأخرى من الشارع (اترك كل أمل، أنت يا من تدخل هذا المكان) واحد من خمسة بيوت أستطيع مراقبتها من نوافذ بيتي الجنوبية. وإلى الشرق من ذلك البيت، يقع بيتان رماديان متماثلان تماماً: الأفاريز الصندوقية نفسها تتوّج النوافذ، والأبواب الأمامية لها لون زجاجات الشراب الخضراء نفسه. في البيت الذي إلى اليمين ـ أظنه رمادياً أكثر قليلاً ـ يعيش هنري وليزا واسرمان... يعيشان هنا منذ زمن بعيد. قالت لي السيدة واسرمان مباهية عندما انتقلنا للعيش في هذا البيت: «أربعة عقود، ونستمر». لقد مرت علينا لكي تخبرنا («في وجهكم مباشرة») كم تكره («وزوجي هنري أيضاً») وصول «أسرة ثرية أخرى» إلى هذا الحي الذي «كان على الدوام حياً حقيقياً».

غضب إد كثيراً. وأطلقت عليها أوليفيا اسم «الأرنبة الثرية المحنّطة».

لم يكلمني رجال واسرمان (أطلقنا على الأسرة كلها هذا الاسم) منذ ذلك الوقت، رغم أنني أعيش وحدي الآن... صرت أسرةً ليس فيها أحد غيري. لا يبدو أنهم يكنّون أية مشاعر صداقة تجاه من يسكنون البيت الرمادي الآخر: أسرة اسمها غراي (اسم مناسب للبيت تماماً).[1] بنتان توأمتان مراهقتان. يملك الأب حصة في شركة تعمل في مجال بيع وشراء المحلات التجارية، والأم مضيفة متحمسة لمجموعة مهتمة بقراءة الكتب. كان الكتاب الذي وقع عليه اختيارهم لهذا الشهر، وأعلنوا في صفحتهم على موقع Meetup، كتاب «جودي الغامضة». إنهن يناقشنه الآن في غرفة آل غراي الأمامية: ثماني نساء في أواسط العمر.

قرأت هذا الكتاب أيضاً، وتخيَّلت أنني واحدة من تلك المجموعة آكل الفطائر معهن (لا أحب هذا)، وأرتشف النبيذ (هذا، أستطيع فعله). لو كنت هناك لسألتني كريستين غراي: «ما رأيك في جودي، يا آنا؟». لو حدث هذا لأجبتها بأنني أجدها غامضة بعض الشيء، ولضحكنا جميعاً. إنهن يضحكن الآن في حقيقة الأمر. أحاول أن أضحك معهن، أتناول رشفة من كأسي.

إلى الغرب من بيت آل ميلر، يقع بيت آل تاكيدا. الزوج ياباني، والأم بيضاء، أما ابنهما فجميل جمالاً سماوياً. إنه يعزف التشيلو: يتمرن في الشهور الدافئة قبالة نوافذ الصالة المفتوحة. هكذا كان إد يفتح نوافذنا أيضاً. رقصنا ذات ليلة من ليالي حزيران مضى منذ زمن بعيد، أنا وإد، على أنغام مقطوعة من مقطوعات باخ. رحنا نتمايل في المطبخ، رأسي على كتفه، وأصابعه متشابكة خلف ظهري، بينما كان الصبي ماضياً في عزف تلك المقطوعة على الجهة الأخرى من الشارع.

في الصيف الماضي، أتت موسيقاه صوب بيتي، واقتربت من غرفة

(1) - Gray (غراي) تعني رمادي اللون.

المعيشة، ثم نقرتْ على زجاج النافذة نقراً مهذباً: دعيني أدخل. لم أدعها تدخل؛ لم أستطع... أبداً لا أفتح النوافذ، أبداً ـ لكنني بقيت قادرة على سماع تمتمتها ترجوني: دعيني أدخل! دعيني أدخل!

البيت رقم مئتان وستة - مئتان وثمانية، بيت مزدوج فارغ مبني من الحجر البني. وهو محاذٍ تماماً لبيت آل تاكيدا. اشترته شركة محدودة المسؤولية قبل تشرينين، لكن أحداً لم يأت للعيش فيه. هذه أحجية! لمدة طالت أكثر من سنة، ظلت السقالات منصوبة على واجهته كأنها حدائق معلقة؛ ثم اختفت بين عشية وضحاها ـ كان هذا قبل شهور قليلة من رحيل إد وأوليفيا، ومنذ ذلك الحين، لا شيء.

هذه مملكتي الجنوبية، وهؤلاء هم رعاياها. لا أصدقاء لي من بين هؤلاء الناس؛ بل لم أقابل معظمهم أكثر من مرة أو مرتين. هذه حياة المدينة على ما أظن. لعل «رجال واسرمان» منشغلون بشيء ما. أتساءل إن كانوا يعرفون ما جرى معي.

هنالك مدرسة كاثوليكية مهملة تلاصق بيتي من جهة الشرق، بل هي تميل عليه عملياً: مدرسة القديسة ديمفنا. متهاوية منذ أن انتقلنا إلى هذا البيت. كنا نهدد أوليفيا بأن نرسلها إليها، إن أساءت السلوك. حجارتها بنية مُنقّرة، ونوافذها قاتمة بفعل ما تراكم عليها من أوساخ. أو... هذا ما أتذكره على الأقل، فقد مر وقت طويل منذ أن نظرت إليها آخر مرة.

وإلى الغرب مباشرة، تقع الحديقة: رقعتان عرضيتان صغيرتان من العشب، ومن خلفهما رقعتان، ودرب ضيق مبلط بالقرميد يصل بين شارعنا والشارع الآخر الواقع مباشرة عند الجهة الشمالية من الحديقة. شجرة دلب تقف مثل حارس في أول الدرب، وشجرة دلب أخرى تقف مثل حارس في آخره. تلتهب أوراقهما في ضوء الشمس. وسياج حديدي منخفض حتى الأرض له زركشات من الجهتين. سياج «طريف جداً» كما قال وكيلنا العقاري الذي صرت أستشهد بتعابيره.

وبعد الحديقة يأتي البيت رقم مئتان وسبعة. باعه أصحابه القدامى، آل

لورد، منذ شهرين. ثم تركوه سريعاً وطاروا جنوباً إلى فيلا للتقاعد عند شاطئ ثيرو. ثم جاء ألستير وجين روسل.

ألستير وجين روسل! لم تسمع معالجتي الفيزيائية باسمها أبداً. قلت لها: «الرجال يفضلون الشقراوات».

أجابتني: «ليس هذا ما تقوله تجاربي».

بينا أصغر مني سناً؛ لعل هذا هو السبب.

حدث ذلك كله في وقت سابق من هذا اليوم. قبل أن أتمكن من مجادلتها، فتلتْ بينا إحدى ساقيَّ فوق الساق الآخر، ثم قلبتني على جانبي الأيمن. تركني الألم مبهورة الأنفاس. قالت مؤكدة لي: «إن أوتار ركبتيك في حاجة إلى هذا».

قلت لاهثة: «يا عاهرة».

ضغطتْ ركبتي في اتجاه الأرض. قالت: «أنت لا تدفعين لي حتى أتساهل معك».

قلت متألمة: «هل يمكنني أن أدفع لك حتى تنصرفي؟».

تزورني بينا مرة في الأسبوع حتى تساعدني في كره الحياة، هكذا أحب أن أقول، وحتى توافيني بآخر أخبار مغامراتها الجنسية التي هي مغامرات مثيرة مثل مغامراتي! لكن الشيء الوحيد المختلف في حالة بينا هي، أنها انتقائية كثيراً. تقول متذمّرة ويسقط شلال شعرها فوق كتفها: «يستخدم نصف الرجال في تلك التطبيقات على الإنترنت صوراً عمرها خمس سنين. ونصفهم الآخر من المتزوجين. والنصف الآخر لا يزال عازباً... لسبب ما».

هذه ثلاثة أنصاف! لكن المرء لا يستطيع مناقشة أمور الرياضيات مع شخص يعجن عموده الفقري.

انضممت إلى موقع Tinder للمواعدة منذ شهر «حتى أرى، فقط»... هكذا قلت في نفسي. كانت بينا قد شرحت لي، أن Tinder يوافق بينك وبين أشخاص لهم تجارب تشبه تجاربك. لكن، ماذا لو كانت تجاربي

لا تشبه تجارب أي شخص؟ ماذا لو أنك تبحرين دائماً عبر أربعمئة متر مربع، على عدة طوابق، معدة لك مسبقاً... ولا شيء يتجاوز حدودها؟

لست أدري. كان ملف ديفيد أول ملف شخصي أراه في ذلك الموقع، فألغيت حسابي على الفور.

مرت أربعة أيام منذ أن لمحت جين روسل. من المؤكد أن جسمها لا يشبه جسم جين روسل الأصلية:[1] ليس لها ثدياها المندفعان، ولا خصرها النحيل... لكن، أنا لست كذلك أيضاً. لم أر الابن إلا في تلك المرة، صباح الأمس. إلا أن الزوج ـ رجل عريض المنكبين له حاجبان فيهما بعض الشيب وأنف كبير ـ ظاهرٌ دائماً في البيت: يخفق البيض في المطبخ، أو يقرأ في الشرفة المسقوفة، أو يلتفت صوب غرفة النوم من حين لآخر كما لو أنه يبحث عن شخص ما.

(1) - Jane Russell (1921-2011) ممثلة أميركية. واحدة من أبرز رموز الجنس في سينما هوليوود خلال عقدي الأربعينيات والخمسينيات.

الجمعة

29 تشرين الأول

6

لديّ درس في اللغة الفرنسية اليوم، ولديّ فيلم فرنسي لهذه الليلة، *Les Diaboliques*، زوج وضيع، وزوجته «الصغيرة المحطمة»، وعشيقة، وجريمة قتل، وجثة مختفية. هل يستطيع أحد أن يعثر على جثة مختفية؟

لكن نداء الواجب يأتي قبل كل شيء. ابتلعت أقراص الدواء وجلست أمام مكتبي فنقرت على فأرة الكمبيوتر، ثم أدخلت كلمة المرور. سجلت الدخول إلى موقع Agora.

في أي ساعة، في الساعات كلها، هنالك ما لا يقل عن بضع عشرات من مستخدمي الموقع موجودون على الخط: مجموعة كبيرة منتشرة في أنحاء العالم. أعرف أسماء بعضهم: تاليا من منطقة الخليج؛[1] وفيل في بوسطن؛ ومحامٍ من مانشستر له اسم لا يشبه أسماء المحامين، ميتزي؛ وبيدرو من بوليڤيا الذي لا أظن أن لغته الإنجليزية العرجاء أسوأ من فرنسيتي المبسَّطة الساذجة. وأما الأسماء الأخرى فهي مختارة، كما اتفق، بما في ذلك اسمي ـ ففي لحظة حرجة، اخترت اسم Annagoraphobe، لكنني لم ألبث أن قدمت نفسي لمستخدم آخر على الموقع على أنني

---

(1) - المقصود منطقة الخليج في ولاية كاليفورنيا الأميركية (Bay Area).

طبيبة نفسية، فانتشر الخبر سريعاً. وهكذا صار اسمي الآن thedoctorisin (الدكتورة موجودة)... سوف تراك الآن.

إن بحثنا عن ترجمة كلمة Agoraphobia، نجد أنها تعني رهاب السوق، أو رهاب الأماكن العامة. وأما في الممارسة العملية، فنجد أن هذا المصطلح يشير إلى مجموعة من اضطرابات القلق. جرى أول توثيق لهذا التعبير في أواخر القرن التاسع عشر. وبعد قرن من ذلك جرى «تصنيفه باعتباره جسماً تشخيصياً مستقلاً»، رغم استمرار اعتباره، بشكل واسع، من جملة حالات الاضطرابات الهلعية. إن شئت، يمكنك قراءة كل ما يتعلق به في الدليل التشخيصي الإحصائي للاضطرابات العقلية، الطبعة الخامسة. يشيرون إليه بالرمز *DSM–5*. أجد هذا الرمز طريفاً مسلياً على الدوام، لأنه يعطي انطباعاً بفيلم من عدة أجزاء. هل أعجبك «الاضطرابات العقلية 4»؟ سوف تحب أجزاءه الأخرى.

تتميز الأدبيات الطبية بقدر غير مألوف من سعة المخيلة عندما يتصل الأمر بالتشخيص. «إن المخاوف المرتبطة برهاب الأماكن العامة... تشتمل على حالة كون المرء وحيداً خارج البيت، أو وجوده ضمن حشد من الناس، أو وقوفه في أحد طوابير الانتظار؛ وكذلك وقوفه فوق جسر». ما الذي يمكن أن أمتنع عن تقديمه مقابل أن أقف الآن فوق جسر؟ إلى الجحيم... ما الذي لا يمكن أن أقدمه حتى أقف في طابور انتظار؟ تعجبني هذه أيضاً: الجلوس في المنتصف في أحد صفوف المقاعد في المسرح، في وسط المسرح... لا يقبلون بأقل من هذا.

من الصفحة 113 إلى الصفحة 133، إن كنت مهتماً بهذا الأمر!

هنالك أشخاص كثيرون من بيننا (المصابون بشدة أكثر من غيرهم، والذين يعانون اضطراب الشدة النفسية الذي يلي الإصابات) لا يستطيعون مغادرة بيوتهم، بل يختبئون من العالم المزدحم الفوضوي الذي في

الخارج. يخاف بعضنا جموع الناس المتحركة، ويخاف بعضنا الآخر حركة السيارات في الشوارع. أما أنا فأخاف السماء المتسعة، والأفق الذي لا نهاية له، وأخاف أن أجد نفسي مكشوفة، وأخاف الضغط الساحق لما هو خارج البيت. يطلق «الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض العقلية ـ 5» تسمية غامضة على هذه الحالة: «الأماكن المفتوحة» من غير أن يضيف شيئاً في ما يتعلق بذلك ضمن هوامشه التي يبلغ عددها مئة وستة وثمانين هامشاً.

بما أنني طبيبة، يمكنني القول إن من تعاني هذه الحالة تبحث عن بيئة تستطيع التحكم فيها. هذا هو الوصف السريري للحالة. وأما باعتباري واحدة ممن يعانينها (هذه هي الكلمة الصحيحة)، فأقول إن رهاب الأسواق لم يخرب حياتي إلى هذا الحد من قبل.

تحييني الشاشة الترحيبية في موقع Agora. أتفحص لوحة الرسائل وأستعرضها. ألازم بيتي منذ ثلاثة شهور. أفهمك يا Kala88... أنا موجودة هنا منذ قرابة عشرة شهور، ولا يزال الوضع مستمراً. هل لوجود المرء على صفحة *Agora* علاقة بالحالة المزاجية؟ يبدو هذا أشبه برهاب اجتماعي... شيء يشبه حالة من يبالغ في الاستيقاظ باكراً. أو قد يكون شيئاً على علاقة باضطرابات الغدة الدرقية. ما زلت غير قادرة على العثور على عمل. أوه، يا ميغان ـ أعرف هذا، ويؤسفني هذا. أنا لست في حاجة إلى عمل (بفضل إد)، لكنني مشتاقة إلى مرضاي. أنا قلقة على مرضاي.

تصلني رسالة من منتسبة جديدة إلى الموقع. أحيل صاحبة الرسالة إلى «دليل النجاة» الذي كتبته خلال فصل الربيع: «إذن، أنت مصابة باضطراب هلعي» ـ أظن أن هذه العبارة تبدو مرحة إلى حد مقبول.

سؤال: كيف آكل؟

إجابة: مريلة زرقاء مكوية، طعام طازج صحي... يتوفر في الولايات

المتحدة كثير من خيارات الطعام التي يمكن طلبها إلى البيت! أما من يقيمون في الخارج، فأظنهم قادرون على العثور على خدمات تشبه هذه.

سؤال: كيف أتناول الدواء؟

إجابة: في الولايات المتحدة، تقوم الآن الصيدليات الكبرى كلها بإيصال الدواء إلى البيت. في حال وجود مشكلة، يمكن إخبار الطبيب لكي يتحدث مع الصيدلية المحلية.

سؤال: كيف يمكنني المحافظة على نظافة بيتي؟

إجابة: عليكم تنظيفه! يمكن أن تستعينوا بشركة تنظيف، أو أن تفعلوا ذلك بأنفسكم.

(أنا لا أفعل هذا ولا ذاك. صار بيتي في حاجة إلى تنظيف).

سؤال: ماذا عن التخلص من القمامة؟

إجابة: يمكن لشركة التنظيف أن تتولى أمرها، أو يمكنكم طلب المساعدة من أحد الأصدقاء.

سؤال: كيف أتجنب الإصابة بالملل؟

إجابة: والآن... هذا سؤال صعب...

وهكذا دواليك. إنني مسرورة بهذه الوثيقة... على وجه الإجمال. أتمنى لو أستفيد منها بنفسي.

الآن، ظهرت نافذة محادثة على شاشتي.

«Sally4th»: مرحباً يا دكتورة!

أستطيع أن أشعر بابتسامة تتراقص على شفتي. سالي: ستة وعشرون عاماً، مقيمة في بيرث، تعرضت لهجوم في وقت سابق من هذه السنة، في يوم عيد الفصح. كُسرت ذراعها ولحقت بعينيها ووجهها إصابات شديدة. لم تُعرَف هوية مغتصبها ولم يتم توقيفها. أمضت سالي أربعة شهور لا تخرج من البيت، كانت معزولة وحدها في أكثر المدن عزلة في العالم، لكنها بدأت تخرج من البيت منذ أكثر من عشرة أسابيع ـ تقول لي إن هذا

جيد لها. طبيب نفسي، معالجة نفسية، وأقراص بروبرانولول. إن أدوية «حاصرات بيتا»[1] لا يعادلها شيء.

«thedoctorisin»: أهلاً بك! هل كل شيء على ما يرام؟

«Sally4th»: كل شيء بخير! قمت بنزهة هذا الصباح!!

إنها مغرمة كثيراً بإشارات التعجب، حتى وهي في أعماق اكتئابها.

«thedoctorisin»: وكيف كانت نزهتك؟

«Sally4th»: لا أزال حية! ☺

إنها تحب هذه الأشكال أيضاً.

«thedoctorisin»: أنت قادرة على النجاة والاستمرار! كيف هو دواء إنديرال؟

«Sally4th»: جيد. انخفضت الجرعة إلى 80 ملغ.

«thedoctorisin»: مرتان في اليوم؟

«Sally4th»: مرة واحدة!!

«thedoctorisin»: إنه الحد الأدنى للجرعة! رائع! ماذا عن الآثار الجانبية؟

«Sally4th»: جفاف في العينين، فقط.

إنها محظوظة. أتناول الدواء نفسه (مع أدوية أخرى) ويصيبني من حين لآخر صداع يكاد يشق رأسي. يمكن أن يؤدي بروبرانولول إلى الإصابة بالشقيقة واضطراب نَظْم القلب وقِصَر النفس والاكتئاب والهلوسة وتحسس جلدي شديد وغثيان، وإسهال وتناقص الشهوة الجنسية وأرق وإحساس بالنعاس.

---

(1) β–Blockers: تشكل مجموعة واسعة من المركبات الكيميائية القادرة على الارتباط مع مستقبل بيتا ومنعه من إطلاق استجابته الحيوية. لذلك تشكل هذه المضادات فئة من الأدوية تستخدم لمعالجة حالات شتى من الأمراض القلبية الوعائية. (المصدر: ويكيبيديا).

قال لي إد ذات مرة: «لا يحتاج هذا الدواء إلا مزيداً من الآثار الجانبية».
قلت مقترحة: «انفجار مفاجئ».
«وجنون».
«وموت معذِّب بطيء».
«thedoctorisin»: هل أصابتك أية نكسات؟
«Sally4th»: أصابتني دوخة الأسبوع الماضي.
«Sally4th»: لكني تجاوزتها.
«Sally4th»: طبقت تمارين التنفس.
«thedoctorisin»: هل استخدمتِ الكيس الورقي؟
«Sally4th»: أحسست بأنني حمقاء، لكنها وسيلة ناجحة.
«thedoctorisin»: إنه ناجح، أحسنت؟
«Sally4th»: شكراً. ☺
رشفة من نبيذي. تظهر نافذة حوار أخرى: أندرو... رجل تعرفت إليه في موقع لهواة الأفلام الكلاسيكية. سلسلة غراهام غرين؟
أتمهل لحظة. «المثل الساقط» واحد من أفلامي المفضلة ـ الساقي الفاشل، والطائرة الورقية القاتلة ـ مر خمسون عاماً منذ أن شاهدت فيلم «وزارة الخوف». وبالطبع، الأفلام القديمة هي ما جمعنا معاً، أنا وإد.
لكني لم أشرح حالتي لأندرو. «غير موجودة حالياً» تلخِّص الأمر كله.
أعود إلى سالي.
«thedoctorisin»: هل أنت مستمرة مع طبيبتك النفسية؟
«Sally4th»: نعم ☺ شكراً لك. صرت أذهب إلى الطبيبة مرة في الأسبوع فقط. تقول إن تقدمي ممتاز.
«Sally4th»: مفتاح الحل هو الأطباء والراحة.
«thedoctorisin»: هل تنامين جيداً؟
«Sally4th»: لا تزال تأتيني أحلام بشعة.
«Sally4th»: وأنت؟

«thedoctorisin»: إنني أنام كثيراً.

لعلي أنام أكثر مما يجب. يجب أن أخبر د. فيليدنغ بهذا. لست واثقة من أنني سأخبره.

«Sally4th»: ماذا عن تقدمك؟ هل أنت مستعدة للقتال؟

«thedoctorisin»: لست سريعة مثلك! اضطراب الشدة النفسية وحش مخيف. لكني قوية.

«Sally4th»: نعم، أنت قوية!

«Sally4th»: دخلت الموقع لأنني أردت أن أطمئن على أصدقائي هنا... أفكر فيكم جميعاً!!!

ما كدت أودع سالي حتى اتصل بي معلم اللغة الفرنسية عبر سكايب. «بونجور إيف»، هكذا تمتمت في نفسي. تريثت لحظة قبل الإجابة. أدرك أنني تواقة إلى رؤيته ـ ذلك الشعر الذي بلون الحبر، وذلك التورد الداكن على جلده. وذلك الحاجبان اللذان يتصلان وينعقدان فيصيران مثل العدد ثمانية عندما تحيره إجاباتي... يحدث هذا كثيراً.

إذا حاول أندرو الاتصال بي مرة أخرى، فسوف أتجاهله الآن. قد أتجاهله إلى الأبد. السينما الكلاسيكية: هذا ما هو مشترك بيني وبين إد فقط. لا أريده أن يكون مشتركاً بيني وبين أي أحد آخر.

أقلب الساعة الرملية على مكتبي، وأنظر إلى الهرم الصغير الذي ينبض مع انهمار حبات الرمل عليه. وقت كثير كثير. سنة تقريباً. لم أخرج من البيت منذ سنة تقريباً.

لا بأس... تقريباً لم أخرج من البيت. تمكنت من المغامرة والخروج من البيت خمس مرات خلال ثمانية أسابيع. كنت أخرج إلى الحديقة. مظلتي هي «سلاحي السري» كما يقول د. فيلدينغ. مظلة إد في حقيقة الأمر: أداة غريبة كسيحة من أجل ضباب لندن. يقف د. فيلدينغ، وهو غريب كسيح أيضاً، كأنه فزاعة طيور في الحديقة بينما أدفع الباب فأفتحه، تتقدمني المظلمة. نفحة من الربيع وزهوره. أنظر بإمعان إلى جسم المظلة،

إلى أضلاعها وقماشها. قماش قوي داكن، أربعة مربعات سود على كل طية من طياتها، وأربعة خطوط بيضاء في الاتجاهين. أربعة مربعات وأربعة خطوط. أربعة سود وأربعة بيض. نفس عميق. أعد حتى أربعة. زفير، ثم أعد حتى أربعة. أربعة. إنه الرقم السحري!

المظلة مرفوعة أمامي مباشرة، كأنها سيف، كأنها ترس.

وعندها، أخطو إلى الخارج.

زفير، مرة، اثنتان، ثلاث، أربع.

شهيق، مرة، اثنتان، ثلاث، أربع.

يلمع النايلون في الشمس. أنزل الدرجة الأولى (إنها أربع درجات؛ شيء طبيعي) وأرفع المظلة في اتجاه السماء، أرفعها قليلاً، وأنظر نظرة سريعة إلى حذائه، وإلى أسفل ساقيه. وأرى بطرف عيني كيف يحيط بي العالم ويقترب مني كأنه ماء على وشك أن يغمر قمرة الغوص.

يصيح بي د. فيلدينغ قائلاً: «تذكري أن لديك سلاحك السري».

أود أن أجيبه بأن هذا ليس سراً... مجرد مظلة ملعونة أحملها تحت سماء صافية.مكتبة الرمحي أحمد

زفير... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة؛ ثم شهيق، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ـ وعلى نحو غير متوقع، ينجح الأمر. يقودني فأنزل الدرجات (زفير، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة)، ثم يقودني لأجتاز بضعة أمتار فوق العشب (شهيق، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة)، إلى أن ينبع الخوف في داخلي، ثم يفيض... مدٌّ يرتفع فيبتلع نظري ويغرق صوت د. فيلدينغ. ثم... من الأفضل عدم التفكير في ذلك.

السبت

30 تشرين الأول

7

إنها العاصفة.

ترتجف شجرة الزينة خائفة، وتتلامع الحجارة البيضاء، تتلامع رطبة داكنة. أتذكر عندما سقطت مني كأس أمام البيت ذات مرة. انفجرت كأنها فقاعة، ويتطاير النبيذ على الأرض فغمر عروق الزخارف الحجرية، نبيذ داكن أحمر كالدم يزحف في اتجاه قدميّ.

أحياناً، عندما تكون السماء مدلهمّة بالغيوم، أتخيل نفسي في الأعلى، في طائرة أو فوق غيمة، وأتخيل أنني أنظر إلى هذه الجزيرة من فوق: الجسور وحبالها الممتدة من شاطئها الشرقي، والسيارات تدفعها قوة ما في اتجاه الجزيرة كأنها حشرات محتشدة حول مصباح.

مر زمن طويل منذ أن أحسست بالمطر آخر مرة. أو بالريح ـ بمداعبة الريح، أكاد أقول هذا لولا أنه يبدو مثل شيء يقرأه المرء في الروايات العاطفية التي يبيعونها في السوبر ماركت.

لكن هذا صحيح. والثلج أيضاً! إلا أنني لست راغبة أبداً في الإحساس بالثلج من جديد.

كان عصير التفاح الأخضر الذي طلبته إلى البيت هذا الصباح ممزوجاً بعصير الخوخ. أعجب كيف يمكن أن يحدث هذا!!

رحنا نقارن بين حياتي وحياته ليلة التقينا أول مرة في نادٍ سينمائي في عرض لفيلم «تسع وثلاثون درجة». قلت لإد إن أمي فطمتني على الأفلام الكلاسيكية وأفلام الإثارة القديمة. وفي مراهقتي، كنت أفضل صحبة جين تيرني وجيمي ستيورات على صحبة زملائي وزميلاتي في الصف. قال إد الذي لم يكن قد شاهد فيلماً بالأبيض والأسود قبل تلك الليلة: «لا أعرف إن كان هذا شيئاً حلواً أم حزيناً». وبعد ساعتين من ذلك، كان فمه على فمي.

أتخيله يقول لي: تقصدين أن فمك كان على فمي.

في السنوات التي سبقت ولادة أوليفيا، كنا نشاهد فيلماً كل أسبوع، على الأقل. شاهدنا كل أفلام التشويق التي عرفتها في طفولتي: «تعويض مزدوج»، و«المصباح الغازي»، و«المخرِّب»، و«الساعة الكبيرة»... كنا نعيش بالأبيض والأسود في تلك الأيام. كانت تلك فرصة لي حتى أزور أصدقاء قدامى، أما بالنسبة لإد فكانت فرصة للتعرف على أصدقاء جدد. وقد وضعنا قوائم أيضاً. أفلام على شاكلة «الرجل النحيل» صنّفناها من الأفضل (الأفلام الأصلية) إلى الأسوأ. أغنية «الرجل النحيل». أهم الأفلام من محصول سنة 1944 الوافر. وأفضل لحظات جوزيف كوتن.

أستطيع أن أضع قوائم بنفسي، بالطبع. فعلى سبيل المثال: أفضّل أفلام هيتشكوك التي لم يصنعها هيتشكوك بنفسه. ها هي:

«الجزار»، فيلم كلود شابرول المبكر الذي تمنى هيتشكوك (كما قال لوريه) لو أنه كان مخرجه. «ممر مظلم» مع هيمفري بوغارت ولورين باكال - فيلم «فالنتاين» في سان فرانسيسكو، كل شيء ملفّع بالضباب... فيلم سبق أي فيلم آخر بأن يضع بطله فيه نفسه تحت السكين حتى يتخفى. «نياغارا» من بطولة مارلين مونرو. و«مسخرة» لأودري هيبورن. «ذعر مفاجئ!» من بطولة حاجِبَي جون كروفورد. «انتظر إلى أن يحل الظلام»: أودري هيبورن من جديد، امرأة عمياء محبوسة في شقة في القبو. قد أجن إذا حُبست في شقة في قبو.

والآن، الأفلام التي أتت بعد هيتشكوك: «المختفي» بنهايته الصادمة المفاجئة. «مسعور»: قصيدة بولانسكي الموجهة إلى الرب. «آثار جانبية» الذي يبدأ مثل محاضرة من إحدى شركات الأدوية الكبرى ثم يتلوّى كأنه ثعبان ماء فيتحول إلى جنس آخر مختلف تماماً.

لا بأس.

الأفلام الشائعة كالبعوض. «فلنشاهده من جديد يا سام»: «كازابلانكا» الذي يزعمون أنه واحد من تلك الأفلام رغم أن هذا ما لم يقله بوجي ولا بيرغمان. «إنه حي»: لا يحدد فرانكشتاين جنس وحشه، بل هو، بقسوة هكذا، «حي» فقط. تظهر عبارة «هذا بديهي يا عزيزي واتسون» في أول أفلام شارلوك هولمز الناطقة؛ لكنها لا تظهر في أي مكان في مجموعة كانون دويلز.

لا بأس.

ماذا بعد؟

أفتح اللاب توب، وأزور صفحة Agora. رسالة من ميتزي، من مانشستر؛ تقرير عن سير العمل في كازينو Dimples2016 في أريزونا. لا شيء يستدعي الاهتمام.

في الردهة الأمامية في البيت رقم مئتان وعشرة، يحمل ابن تاكيدا قوسه ويعزف على التشيلو. وأبعد من ذلك قليلاً في اتجاه الشرق، يجري أفراد عائلة غراي الأربعة هاربين من المطر فيصعدون الدرجات أمام بيتهم ضاحكين. وخلف الحديقة، يملأ أليستير روسل كأس ماء عند مغسلة المطبخ.

8

الوقت عصر. وأنا أسكب نبيذ بينو نوار الكاليفورني في كأس كبيرة، فأسمع صوت جرس الباب. تسقط الكأس من يدي. تنفجر الكأس، ويمتد لسان طويل من النبيذ فيلعق خشب البتولا الأبيض على الأرض.

أصيح: «اللعنة!» (شيء لاحظته: تزداد شتائمي ويعلو صوتي بها في غياب الآخرين. لو كان إد هنا لأصابه الفزع. أصابني الفزع أنا أيضاً).

أتناول قبضة من مناديل المطبخ الورقية فيرن جرس الباب من جديد. أقول في نفسي: من هذا، بحق الجحيم؟... هل قلت هذا؟ ذهب ديفيد منذ ساعة متوجهاً إلى شرق هارلم ـ راقبته ذاهباً من نافذة مكتبة إد ـ ولم أطلب إرسال مشتريات إلى بيتي. أنحني وأضع المناديل على بركة النبيذ والزجاج، ثم أسير إلى الباب.

أرى في شاشة الإنترفون ولداً طويل القامة في سترة ضيقة يحمل صندوقاً صغيراً أبيض بين يديه. إنه الصبي من بيت آل روسل.

أضغط الزر وأقول: «مرحباً؟»... كلمة أقل ترحيباً من «أهلاً»، وأكثر احتراماً من «من هذا بحق الجحيم؟»

يقول الصبي، بل يكاد يصرخ: «أسكن في البيت الذي خلف الحديقة». صوته حلو حلاوة غير معقولة... «طلبت مني أمي أن أعطيك هذه». أنظر إليه وهو يدفع بالعلبة صوب الجهاز؛ ثم يدور حول نفسه بحركة بطيئة، وقد رفع ذراعيه بالعلبة فوق رأسه لأنه لم يعرف أين هي الكاميرا.

بدأت أقول له: «يمكنك أن...» هل أقول له أن يتركها هناك؟ أظن هذا ليس بالتعامل المقبول بين الجيران؛ لكنني لم أستحم منذ يومين... وقد يعضه القط أيضاً.

لا يزال واقفاً هناك حاملاً العلبة عالياً.

أنهي جملتي... «تدخل»، ثم أضغط زر فتح الباب.

أسمع صوت القفل ينفتح وأتحرك في اتجاه الباب، بحذرٍ مثلما يقترب قطي بنتش من أشخاص لم يألفهم ـ أو كما كان يفعل في الماضي عندما كان أناس غير مألوفين يزورون هذا البيت.

يتقدم ظل من الزجاج المغشّى، ظل مشوش رشيق كأنه ظل شجيرة. أدير مقبض الباب، ثم أفتحه.

إنه طويل القامة حقاً، وجه طفل وعينان زرقاوان وشعر رملي أشقر

وندبة باهتة كأنها حزٌّ في حاجبه ممتد حتى جبهته. لعله في الخامسة عشرة. يشبه صبياً عرفته ذات يوم، قبّلته ذات يوم... مخيم صيفي في ولاية مين، منذ ربع قرن. إنه يعجبني.

يقول لي: «أنا إيثان».

أقول من جديد: «ادخل».

يدخل البيت ويقول: «المكان مظلم هنا».

أضغط مفتاح النور على الجدار.

أنظر إليه متفحِّصة، وينظر في الغرفة متفحصاً: اللوحات، والقط المستلقي على الكرسي الهزاز، وكومة المناديل الغارقة ذائبة على أرض المطبخ. «ماذا جرى؟»

أقول: «إنها حادثة عارضة. أنا آنا؛ آنا فوكس». أقول هذا لأنه يمكن أن يبدأ الكلام بطريقة رسمية. أنا كبيرة إلى الحد الكافي، لأن أكون أمه (الشابة). يصافحني، ثم يقدم إليّ العلبة... علبة لامعة أنيقة يلفها شريط. يقول خجلاً: «هذه لك».

«ضعها هناك. هل آتِ لك بشيء تشربه؟».

يذهب في اتجاه الأريكة: «هل يمكنني أن أشرب كأساً من الماء؟».

«طبعاً»... أعود إلى المطبخ وأرفع حطام الكأس عن الأرض... «هل تريد ثلجاً؟».

«لا، شكراً».

أملأ الكأس، ثم أملأ كأساً أخرى لنفسي متجاهلة زجاجة نبيذ بينو نوار المنتظرة على طاولة المطبخ.

العلبة جاثمة على طاولة القهوة إلى جانب كمبيوتري. لا تزال صفحة Agora مفتوحة على الشاشة بعد أن تحدثت مع DiscoMickey حديثاً طويلاً قبل قليل، لأنه كان يتوقع أن تصيبه نوبة ذعر. لا تزال عبارته الأخيرة «شكراً لك» ظاهرة بخط كبير على الشاشة. أجلس إلى جانب إيثان وأضع كأسه أمامه. أغلق الكمبيوتر وأتناول العلبة عن الطاولة قائلة:

«حسنٌ، لنر ما لدينا هنا». أفك الشريط، وأرفع الغطاء، فأخرج شمعة من عش قماشي في داخل العلبة... شمعة فيها أزهار وعيدان محبوسة داخلها كأنها حشرات محبوسة في الكهرمان. أقربها من وجهي وأنظر إليها.

يتطوع إيثان بالتوضيح: «خزامى».

«هذا ما ظننته...» أشمها... «أحب الخزامى». أشمها من جديد... «أحب رائحة الخزامى».

يبتسم ابتسامة صغيرة، ترتفع زاوية فمه قليلاً كأن خيطاً شدَّها إلى الأعلى. أدركُ أنه سيصير رجلاً وسيماً... خلال بضع سنين فقط. هذه الندبة في حاجبه... سوف تحبها النساء. لعل البنات يحببنها منذ الآن. أو الصبيان!

«طلبت مني أمي تقديمها إليك... منذ أيام».

هذه لفتة ذكية. على الجيران الجدد أن يقدموا لك الهدايا.

قال: «جاءت سيدة إلينا بالفعل. قالت لنا إننا لسنا بحاجة إلى بيت كبير لأننا أسرة صغيرة».

«أراهنك أنها السيدة واسرمان».

«صحيح».

«تجاهلوها».

«لقد تجاهلناها».

ينزل بنتش من مقعده ويقترب منا حذراً.

ينحني إيثان باتجاهه، ويضع يده مفتوحة على السجادة، راحتها إلى أعلى. يتوقف القط لحظة، ثم ينسل في اتجاهنا ويتشمَّم أصابع إيثان ثم يلعقها.

يضحك إيثان.

يقول لي كأنه يبوح بسر: «أحب ألسنة القطط».

«وأنا أحبها أيضاً». أرتشف جرعة ماء. عليها نتوءات صغيرة... «إبر صغيرة»... أقول هذا من باب الاحتياط، فلعله لا يعرف معنى كلمة

نتوءات. أدرك أنني لست واثقة من كيفية الحديث مع مراهق. لم يتجاوز أكبر مرضاي الثانية عشرة. «هل أشعل الشمعة؟».

يرفع إيثان كتفيه، ثم يبتسم: «بالتأكيد».

أجد علبة الكبريت في درج المكتب، علبة حمراء بلون الكرز، كتب عليها «القط الأحمر». أتذكر عندما تناولت العشاء في ذلك المطعم مع إد. لقد مضى على هذا أكثر من سنتين. أو لعلها ثلاث سنوات. أتذكر أننا تناولنا طاجن الدجاج، وأذكر أنه امتدح النبيذ كثيراً. في تلك الأيام، لم أكن أشرب كثيراً مثلما أفعل الآن.

أشعل عود الكبريت، ثم أشعل الشمعة. أقول عندما يرتفع مخلب اللهب الصغير فيخمش الهواء: «انظر إلى هذا»... يُزهر ضياء الشمعة، وتتألق زهورها. «ما أجملها!».

هدوء ناعم. يدور بنتش حول ساقي إيثان، ثم يقفز إلى حضنه. يضحك إيثان ضحكة كأنها عواء مُشرق.

«أظنه يحبك».

يقول: «أظنه يحبني». يداعب بإصبعه ما خلف أذنيّ القط ويربت عليه برقّة.

«إنه يكره معظم الناس. مزاجه رديء».

هرير منخفض كأنه صوت محرك هادئ. بنتش مستمتع فعلاً.

يبتسم إيثان: «هل هو قط بيتيٌّ فقط؟».

«إن لديه فتحة للخروج في باب المطبخ...» أشير إلى الفتحة... «لكنه يلازم البيت معظم الوقت». يتمتم إيثان: «ولد طيب». بينما يدس بنتش نفسه تحت إبطه.

أسأله: «هل يعجبكم بيتكم الجديد؟».

يداعب رأس القط بأصابعه ويقول بعد صمت قصير: «أشتاق إلى بيتنا القديم».

«أفهم هذا. أين كنتم تعيشون سابقاً؟» أعرف إجابة هذا السؤال، أعرفها بالطبع.

«بوسطن».

«ما الذي أتى بكم إلى نيويورك؟»

أعرف إجابة هذا السؤال أيضاً.

«حصل والدي على وظيفة جديدة». أعرف أنهم نقلوه، لكنني لا أريد مناقشة هذا... «غرفتي هنا أكبر». يقول هذا وكأن الفكرة لم تخطر في باله إلا هذه اللحظة.

«قام الأشخاص الذين كانوا في البيت قبلكم بتجديدات كبيرة».

«تقول أمي إنهم جددوا كل شيء».

«بالضبط. جددوا كل شيء. وقد دمجوا بعض الغرف في الطابق العلوي أيضاً».

يسألني: «هل سبق لك دخول بيتنا من قبل؟».

«ذهبت إليه عدة مرات. لم أكن أعرفهم معرفة جيدة تماماً... أقصد مالكي البيت. لكنهم كانوا يقيمون احتفالاً في العطلة كل سنة، وهذا ما جعلني أذهب إليهم». في حقيقة الأمر، زرت ذلك البيت آخر مرة منذ سنة تقريباً، وكان إد معي هناك. رحل بعد أسبوعين من ذلك.

بدأت أعصابي المتوتِّرة تسترخي. أظن في لحظة من اللحظات أن السبب هو جلوسي مع إيثان ـ إنه حلو الكلام، لين المعشر... حتى القط يحبه ـ ثم أدرك أنني أنتقل إلى حالة التحليل، إلى أرجوحة الأخذ والعطاء عبر الأسئلة والإجابات. الفضول والإحساس بالتعاطف: هذه أدوات مهنتي.

وللحظة خاطفة، للحظة فقط، أعود إلى ذلك المكان، إلى مكتبي في الشارع ثمانية وثمانين ـ شرق، إلى الغرفة الصغيرة المخفية الغارقة في ضوء خافت... كرسيان عميقان متقابلان، وسجادة زرقاء مثل بركة بينهما. وهسيس مشع الحرارة.

ينفتح الباب، وهناك، في فسحة الانتظار، هنالك الأريكة والطاولة الخشبية وأكوام من أعداد مجلتي هايلايتس ورينجر ريك. سلة المهملات ممتلئة بقطع من لعبة Lego، وآلة الضجيج الأبيض[1] تخرخر في الزاوية.

وباب ويسلي. ويسلي... شريكي في العمل، المشرف عليّ في الدراسة، الرجل الذي أمّن لي عملاً خاصاً. اسمه ويسلي بريل؛ لكننا كنا ندعوه ويسلي بريّانت.[2] ويسلي صاحب الشعر المتسخ والجوارب غير المتطابقة، صاحب الذهن السريع كالبرق والصوت المرعد الهادر. أراه في مكتبه جالساً شبه مستلقٍ في مقعده الوثير وقد اتجهت ساقاه صوب وسط الغرفة مثل سهمين، وكتاب مستند إلى حضنه. النافذة مفتوحة تعُبّ الهواء الشتوي. لقد كان يدخن. يرفع رأسه وينظر.

يقول لي: «مرحباً، فوكس».

يكرر إيثان ما قاله قبل قليل: «غرفتي هنا أكبر من غرفتي القديمة».

أعتدل في جلستي وأضع ساقاً فوق الأخرى. تجعلني هذه الجلسة أشعر بالغرابة... أتساءل: متى جلست هكذا آخر مرة؟... «إلى أي مدرسة ستذهب؟».

يقول: «سأدرس في البيت. أمي تعلمني». وقبل أن أتمكن من قول شيء رداً على ذلك، يومئ برأسه صوب صورة موضوعة على حافة الطاولة: «هل هي أسرتك؟».

«نعم. هذا زوجي، وهذه ابنتي. اسمه إد واسمها أوليفيا».

«وهل هما في البيت؟».

«لا، لا يعيشان هنا. نحن لسنا معاً».

---

(1) – جهاز كهربائي يصدر نوعاً من الصوت المتواصل الذي يبدو مثل صوت جدول ماء أو مثل حفيف أوراق الأشجار في النسيم. يستخدم للمساعدة في الاسترخاء أو النوم من خلال طمس الأصوات المزعجة الآتية من الوسط المحيط.

(2) – بريّانت، «Brilliant» = ذكي، لامع.

يمسد على ظهر بنتش: «أوه! كم عمرها؟».
«إنها في الثامنة. كم عمرك أنت؟».
«أنا في السادسة عشرة. أبلغ السابعة عشرة في شهر شباط».
يشبه هذا ما تقوله أوليفيا لو كانت مكانه. سنّه أكبر من مظهره.
«ولدت ابنتي في شهر شباط أيضاً في يوم الفالنتاين».
«أنا في الثامن والعشرين من شباط».
أقول له: «كان ذلك شديد القرب من السنوات الكبيسة».
يومئ برأسه: «ما عملك؟».
«أنا طبيبة نفسية، أعمل مع الأطفال».
يكشر قليلاً: «ما الذي يجعل الأطفال في حاجة إلى طبيب نفسي؟».
«أسباب كثيرة. بعضهم يعاني مشكلات في المدرسة، وبعضهم يعاني مشكلات في البيت. وبعضهم يعيش أوقات عصيبة بعد الانتقال للعيش في مكان جديد».
لا يقول شيئاً.
«بما أنك ستدرس في البيت، فأظن أن عليك أن تجد أصدقاء خارج المدرسة».
يتنهد ويقول: «عثر لي أبي على فريق سباحة حتى أنضم إليه».
«منذ متى تسبح؟».
«منذ أن كنت في الخامسة».
«هذا يعني أنك سباح ماهر».
«لا بأس بي. يقول أبي إن لديَّ قدرات جيدة».
ثم يعترف متواضعاً: «إنني جيد تماماً في السباحة. وأنا أعلّمها أيضاً».
«هل تعلّم السباحة؟».
«أعلم أشخاصاً من أصحاب الإعاقات. لا أقصد الإعاقات الجسدية».
«هل تقصد إعاقات النمو؟».
«صحيح. مارست ذلك كثيراً في بوسطن. وأود ممارسته هنا أيضاً».

«وكيف بدأت العمل معهم؟».

«أخت صديقي مصابة بمتلازمة داون، وقد تابعتْ الألعاب الأولمبية منذ سنتين فرغبت في تعلم السباحة. وهكذا علمتها، ثم جاء أطفال آخرون من مدرستها. وعندها، صرت منخرطاً في هذا...» يبحث عن كلمة مناسبة... «المشهد... على ما أظن».

«هذا شيء عظيم».

«أنا لا أحب الحفلات والأشياء التي من هذا القبيل».

«تقصد أنها ليست... مشهدك أنت».

يبتسم ويقول: «معك حق... لست كذلك أبداً».

يميل برأسه وينظر إلى المطبخ، ثم يقول: «يمكنني أن أرى بيتك من غرفتي. إنها هناك». أستدير لأنظر. إن كان يستطيع رؤية البيت، فهذا يعني أن غرفته تطل ناحية الشرق، قبالة غرفة نومي. الفكرة مقلقة قليلاً... إنه صبي مراهق بعد كل حساب. أتساءل في نفسي، للمرة الثانية، إن كان هذا الصبي مثلياً.

ثم أرى أن عينيه صارتا زجاجيتين، دامعتين قليلاً.

«أوه». أنظر إلى يميني حيث يجب أن تكون المناديل التي وضعتها على الأرض، حيث كانت على الأرض. لكنني أرى صورة في إطار، ابنتي أوليفيا تبتسم لي وقد سقطت سن من أسنانها.

يقول إيثان: «آسف».

أقول له: «لا، لا تكن آسفاً. ما الأمر؟».

يفرك عينيه: «لا شيء».

أنتظر لحظة. أذكِّر نفسي بأنه طفل... طويل القامة، بدأ صوته يخشوشن قليلاً، لكنه طفل.

يقول: «أنا مشتاق إلى أصدقائي».

«أفهم هذا. بالطبع».

«لا أعرف أحداً هنا». تجري دمعة على خدِّه. يمسحها بأسفل راحة يده.

«الانتقال صعب. لقد لزمني بعض الوقت حتى أتعرف على الناس عندما انتقلت إلى هنا».

ينشق أنفه بصوت مرتفع: «متى انتقلت؟».

«منذ ثماني سنوات. بل صارت الآن تسع سنوات، في الحقيقة. أتيت من كونيتيكيت».

ينشق أنفه من جديد، ثم يمسحه بإصبعه: «ليست بعيدة مثل بوسطن».

«ليست بعيدة مثلها. لكن الانتقال من أي مكان يظل صعباً». أود أن أحتضنه. لن أحتضنه... امرأة تعيش وحدها في المنطقة تعابث طفل الجيران.

نجلس برهة صامتين.

يسألني: «هل يمكنني الحصول على مزيد من الماء؟».

«سأجلبه لك».

«لا، لا بأس». يهم بالنهوض فيقفز بنتش من حضنه ويتكوم تحت طاولة القهوة.

يسير إيثان صوب مغسلة المطبخ. ومع تدفق الماء من الصنبور، أنهض وأقترب من التلفزيون فأفتح الدرج الذي تحته.

أناديه: «هل تحب الأفلام؟» لا يجيبني. أستدير في اتجاهه فأراه واقفاً عند باب المطبخ ينظر إلى الحديقة، وإلى جانبه تلمع الزجاجات في سلة المهملات التي يعاد تدويرها.

يستدير وينظر إليّ بعد لحظة: «ماذا؟».

أكرر سؤالي: «هل تحب الأفلام؟» يومئ برأسه... «تعال وانظر. لدي مكتبة DVD. مكتبة كبيرة جداً. أكبر مما يجب كما يقول زوجي».

يغمغم إيثان وهو يجتاز الغرفة قادماً في اتجاهي: «ظننت أنكما منفصلان».

«حسن... هو لا يزال زوجي». أنظر إلى الخاتم في يدي اليسرى، وأديره في إصبعي... «لكنك محق». أشير إلى الدرج المفتوح... «إذا أحببت أن تستعير شيئاً فأهلاً وسهلاً. هل لديك مُشغّل DVD؟».

«لدى أبي مشغّل DVD يمكن وصله إلى كمبيوتره».

«هذا وافٍ بالغرض».

«قد يسمح لي باستعارته».

«فلنأمل هذا». بدأت تتشكل عندي الآن فكرة عن ألستير روسل.

يسألني: «ما نوع الأفلام؟».

«معظمها أفلام قديمة».

«هل هي بالأبيض والأسود؟».

«معظمها بالأبيض والأسود».

«لم أشاهد أبداً أي فيلم بالأبيض والأسود».

أنظر إليه مستغربة: «إنني أدعوك إلى مشاهدتها. أفضل الأفلام على الإطلاق كانت بالأبيض والأسود».

يبدو عليه الشك، لكنه ينظر إلى ما في داخل الدرج. قرابة مئتي قرص، مجموعة «كريتريون آند كينو»، مجموعة هيتشكوك من إنتاج شركة يونفرسال، مجموعة مختارة من «الأفلام السوداء»، حرب النجوم (أنا مجرد إنسان). أنظر إلى ما هو مكتوب على كعوب العلب الأخرى: الليل والمدينة. الدوامة. جريمة قتل يا حبيبتي. أقول له: «هذا»، وأسحب إحدى العلب وأقدمها إلى إيثان.

يقرأ اسم الفيلم: «يجب أن يحل الليل».

«هذا فيلم جيد يمكنك البدء به. فيلم إثارة، لكن من غير رعب».

«شكراً»... يتنحنح، ثم يسعل. يقول قبل أن يشرب الماء: «آسف. لدي حساسية من القطط».

أنظر إليه: «لماذا لم تقل هذا قبل الآن؟».

أنظر غاضبة إلى القط.

«إنه لطيف جداً. لم أرِد إزعاجه».

أقول له: «هذا شيء سخيف... لكن على نحو لطيف!».

يبتسم، ثم يقول: «من الأفضل أن أذهب». يعود إلى طاولة القهوة ويضع كأسه عليها وينحني ليخاطب بنتش عبر زجاج الكأس: «لست ذاهباً بسببك يا صديقي. أنت ولد طيب». ينتصب واقفاً ويمسح يديه على فخذيه ليزيل عنهما وبر القط.

«هل تريد أداة إزالة الأوبار؟ حتى تزيل وبره عنك! لست واثقة من أنني لا أزال أحتفظ بتلك الأداة».

«لا حاجة إليها». ينظر من حوله... «هل أستطيع استخدام الحمام؟».

أشير إلى الغرفة الحمراء: «تفضل».

خلال وجوده في الحمام، أنظر في المرآة المثبتة عند خزانة أدوات الطعام. لا بد لي من الاستحمام اليوم، بالتأكيد. غداً على أبعد تقدير!

أعود إلى الأريكة وأفتح كمبيوتري. أجد أن DiscoMickey قد كتب لي: «أشكرك على مساعدتك. أنت بطلتي».

أرتجل بضعة ردود سريعة إلى أن أسمع صوت اندفاع الماء في المرحاض. يخرج إيثان من الحمام بعد لحظة من ذلك، وهو يفرك كفيه ببنطلون الجينز. يقول لي: «سأذهب الآن». يسير إلى الباب بخطوات واسعة، وقد دس يديه في جيبيه... مشية صبي مدرسة.

أتبعه وأقول له: «أشكرك كثيراً على هذه الزيارة».

يقول وهو يفتح الباب: «أراك في الحي».

أقول في نفسي: لا، لن تراني... أقول له: «ستراني بالتأكيد».

9

أشاهد فيلم «لورا» من جديد بعد ذهاب إيثان. لا توحي بدايته بأنه فيلم ناجح: يلتهم كليفتون ويب الطعام فيهيمن على المشهد كله، ويجرّب

فينسنت برايس الكلام بلهجة جنوبية، وفي كل مكان صلصة الخل مع الزيت. لكن الفيلم ناجح جداً، و.... أوه، تلك الموسيقى.

تذمرت الممثلة هايدي لامار ذات يوم قائلة: «لقد أعطوني نص الحوار في الفيلم، لكنهم لم يعطوني التفاصيل».

أترك الشمعة مشتعلة.

تنبض وتتقافز حبّات اللهب الصغيرة. ثم أبدأ دندنة موسيقى بداية فيلم لورا، وأفتح هاتفي حتى أبحث في الإنترنت عن مرضاي. حتى أبحث عن مرضاي السابقين. فقدتهم جميعاً قبل عشرة شهور. فقدت ميري ذات السنوات التسع التي تعاني نتيجة طلاق والديها. وفقدت جوستين، في الثامنة، الذي توفي شقيقه التوأم بعد إصابته بسرطان الجلد؛ وفقد آن ميري التي كانت لا تزال تخشى الظلام رغم بلوغها الثانية عشرة، فقدت رشيد (في الثانية عشرة، متحول الجنس). وإميلي (في التاسعة، مشكلة تنمّر). فقدت أيضاً صبياً في الحادية عشرة لديه اكتئاب يتجاوز كل حد معقول؛ كان اسمه جوي[1]... هكذا كان اسمه من بين الأسماء كلها. فقدتُ دموعهم ومشاكلهم وغضبهم وارتياحهم. فقدت تسعة عشر طفلاً، بل عشرون طفلاً... إذا حسبت ابنتي أيضاً.

أعرف مكان أوليفيا الآن؛ أعرفه بالطبع. أما الآخرون، فأنا أحاول البحث عنهم. لا أحاول ذلك كثيراً (لا يفترض بطبيبة نفسية أن تتحرى عن مرضاها، بما في ذلك مرضاها السابقون)، بل كل شهر أو نحو ذلك عندما يُغرقني الحنين... سأبحث في الإنترنت. لدي بضع أدوات بحث في الإنترنت أستطيع استخدامها: حساب فيسبوك وهمي؛ أو حساب قديم على LinkedIn. لكن، عند البحث عن أشخاص صغار، لا يفلح شيءٌ حقاً إلا Google.

بعد أن قرأت عن مشاركة آفا في بطولة التهجئة، وانتخاب ثيو إلى

---

(1) - جوي، «Joy» = فرح، بهجة!

مجلس الطلاب في المدرسة المتوسطة، وبعد البحث في ألبومات إنستغرام لدى والدة غريس والبحث في حساب بين على تويتر (عليه حقاً أن يُفعّل بعض إعداد الخصوصية في حسابه)، وبعد مسح دموعي عن وجنتي وتجرع ثلاث كؤوس من النبيذ الأحمر، أجد نفسي عائدة إلى غرفة نومي لأتصفح الصور على هاتفي. وبعد ذلك، أتكلم مع إد مرة أخرى.

أقول له مثلما أفعل دائماً: «احزر من؟».

يجيبني: «أرى أنك ثملة حقاً... أيتها اللاعبة».

«لقد كان يوماً طويلاً». ألقي نظرة إلى كأسي الفارغة وأحس شيئاً من وخز الذنب... «ما الذي تفعله أوليفيا؟».

«إنها تستعد من أجل الغد».

«أوه! وما الزي الذي اختارته؟»

يقول إد: «شبح».

«أنت محظوظ».

«ماذا تعنين بهذا؟».

أضحك وأقول: «لقد اختارت السنة الماضية أن تكون سيارة إطفاء».

«أوه، هذا يستغرق أياماً».

«لقد استغرق مني أياماً».

أستطيع سماع ابتسامته.

عبر الحديقة، ثلاثة طوابق إلى الأعلى، وعبر النافذة، في أعماق غرفة مظلمة، أرى تألق شاشة كمبيوتر. صار الوقت قبيل الفجر، وصارت الشمس موشكة على البزوغ. أرى طاولة مكتب، ومصباح مكتب، ثم أرى إيثان يخلع سترته. أنا متأكدة الآن: غرفتا نومنا متقابلتان حقاً.

يستدير فأرى عينيه تنظران إلى الأرض، ثم يخلع قميصه. أشيح بنظري جانباً.

الأحد

31 تشرين الأول

10

ضوء النهار الضعيف يتسرب عبر نافذتي. أنقلب في سريري فيصطدم ردفي بالكمبيوتر. كانت سهرة طويلة مع لعبة شطرنج سيئة. تعثر الحصانان، وانهار الفيلان!

أجرجر نفسي لكي أستحم، وأجرجر نفسي خارجة من الحمام، ثم أجفِّف شعري بمنشفة، وأضع مزيل الرائحة تحت إبطي. مستعدة للقتال، كما تقول سالي. عيد هالوين سعيد!

لن أفتح الباب لأحد هذا المساء، بالطبع. سوف يذهب ديفيد في السابعة ـ أظنه قال إنه ذاهب إلى قلب المدينة. لا بد أن هذا ممتع.

اقترح عليَّ في وقت سابق أن نترك أمام الباب صحناً فيه سكاكر.

قلت له: «أي طفل يأتي سيأخذه خلال دقيقة واحدة، الصحن والسكاكر معاً».

بدا منزعجاً وقال لي: «لم أكن طبيباً نفسياً للأطفال».

«لست في حاجة لأن تكون طبيباً نفسياً للأطفال، عليك فقط أن تكون قد مررت بمرحلة الطفولة».

«إذاً سأطفئ الأنوار وأتظاهر بأنه لا أحد في البيت».

أزور موقع الأفلام. أجد أندرو على الخط. وضع رابطاً إلى مقالة

بولين كايل عن فيلم «الدوامة» ـ «سخيف»، و«ضحل» ـ وتحت ذلك الرابط، وضع كايل قائمة بعنوان: ما أفضل أفلام الكوميديا السوداء التي يمكن للمرء مشاهدتها؟ (الرجل الثالث. اللقطة الأخيرة فقط)

أنهي قراءة مقالة كايل، ثم أكتب رسالة إلى أندرو. لكنه يخرج من الموقع بعد خمس دقائق.

لا أستطيع تذكر آخر مرة أمسك فيها يدي شخص ما.

11

ضربة.

إنه باب البيت من جديد. أنا متكورة على الأريكة الآن أشاهد فيلم «*Rififi*» ـ سلسلة طويلة من السرقات، ونصف ساعة من غير كلمة واحدة ومن غير نغمة موسيقية... أصوات المشهد نفسه فقط، وصوت اندفاع الدم في أذنيك. لقد اقترح عليَّ إيف قضاء مزيد من الوقت مع الأفلام الفرنسية. أظنه لم يكن يفكر في الأفلام نصف الصامتة عندما اقترح ذلك. يا للخسارة!

ثم تلك الضربة المكتومة على الباب من جديد.

أزيح البطانية عن ساقيّ وأنهض واقفة على قدمي، وأبحث عن جهاز التحكم لأوقف الفيلم.

ضوء الغسق في الخارج. أسير إلى باب الغرفة، ثم أفتحه.

ضربة.

أخطو إلى الصالة ـ المكان الوحيد في البيت الذي لا أحبه ولا أثق فيه، المنطقة الرمادية الباردة بين مملكتي والعالم الخارجي. إنها مظلمة قليلاً في هذه اللحظة، وقت الغسق، والجدران القاتمة كأنها أيدٍ موشكة على الإمساك بي.

خطوط من زجاج مغشى على باب البيت. أقترب من أحد تلك الخطوط وأنظر من خلاله.

صدمة يهتز لها الزجاج. قذيفة صغيرة أصابته: بيضة، انفجرت وتناثرت أحشاؤها على الزجاج. أشهق وأسمع نفسي أشهق. عبر لطخة البيض، أرى ثلاثة أطفال في الشارع: وجوههم متألقة، وابتساماتهم جريئة. أحدهم مستعد ببيضة أخرى في قبضة يده.

أترنح في مكاني وأستند بيدي إلى الجدار.

هذا بيتي! هذا بابي!

تتقلص حنجرتي. وتنبجس الدموع من عيني. أشعر بالمفاجأة، ثم بالخجل من نفسي.

ضربة. ثم، أصير غاضبة.

لا أستطيع فتح الباب وطردهم. لا أستطيع الاندفاع إلى الخارج ومواجهتهم. أضرب بيدي على الباب، أضربه...

ضربة. أصفع الباب برأسي.

أضربه بقبضة يدي. أدمدم، ثم أزمجر فيتردد صوتي بين الجدران وتصير الصالة المظلمة الصغيرة غرفةً للصدى.

إنني عاجزة.

لا، لست عاجزة... أستطيع سماع د. فيلدينغ يقول هذا.

شهيق، اثنان، ثلاثة، أربعة.

لا، لست عاجزة.

لست عاجزة. كافحت قرابة عشر سنين حتى أنهيت الجامعة. وأمضيت في التدريب خمسة عشر شهراً في مراكز وسط المدينة. مارست العمل سبع سنين. أنا قوية... هكذا وعدْت سالي.

رددت شعري إلى الخلف، وتراجعت إلى غرفة المعيشة. انتزعت نفَساً طويلاً من الهواء، ثم ضغطت بإصبعي على زر الأنترفون.

قلت بصوت كالفحيح: «ابتعدوا عن بيتي». من المؤكد أنهم سوف يسمعون صرختي في الخارج.

ضربة. تضغط أصابعي على الإنترفون من جديد: «ابتعدوا عن بيتي!»

ضربة.

أجتاز الغرفة مترنحة، ثم أصعد درجات السلم وأدخل غرفة مكتبي مسرعة. وأذهب إلى النافذة. ها هم. إنهم متجمعون في الشارع كأنهم لصوص يحاصرون بيتي. ظلالهم طويلة من غير نهاية في ضياء النهار المحتضر. أضرب على الزجاج.

يشير أحدهم في اتجاهي، ثم يضحك. يلوِّح بيده كأنه يرمي كرة. يطلق بيضة جديدة.

أضرب على الزجاج بقوة أكبر، بقوة كافية لخلع إطار النافذة. هذا بابي. هذا بيتي.

تغيم عيناي.

وفجأة أجد نفسي مندفعة إلى الأسفل. فجأة، أجد نفسي وقد عدت إلى الصالة المظلمة. وقع خطواتي الحافية على بلاط الأرض، ويدي على مقبض الباب. يطبق الغضب قبضته على حلقي، وتسبح عيناي. أستنشق نفساً، ثم نفساً آخر.

شهيق، اثنان، ثلاثة، أربعة.

أفتح الباب بقوة. يصفعني الضوء والهواء.

تمر لحظة... صمت مثل الصمت الذي كان في الفيلم، صمت بطيء مثل غروب الشمس. البيوت المقابلة. الأطفال الثلاثة بيني وبينها. والشارع من حولهم. سكون وهدوء، ساعة متوقفة.

أستطيع أن أقسم على أنني سمعت صوت فرقعة، كأنها شجرة مقطوعة تسقط.

وعند ذلك...

وعند ذلك، تسقط الشجرة في اتجاهي، تتضخم، تندفع الآن، صخرة قذف بها منجنيق تصيبني بقوة كبيرة، تضرب بطني فأنحني طاوية جسدي. ينفتح فمي كأنه نافذة. تدخله الريح وتجلده. أنا بيت فارغ، عوارض سقف منخورة وهواء يعوي. ينهار سقفي مصدِراً أنيناً...

وأنا أطلق أنيناً أيضاً، أنزلق، أنهار، تنسحب إحدى يديّ على الأرض وتندفع الأخرى في الفضاء. عيناي تتدحرجان وتعودان: حمرة أوراق الأشجار المتوهِّجة، ثم ظلام. ينقشع الظلام عن امرأة في ملابس سوداء، أرى الأشياء بيضاء غُسلَ عنها كل لون إلى أن يمسح هذا الابيضاض المنصهر عينيَّ ويتجمع هناك ثقيلاً، عميقاً. أحاول الصراخ فتمسح شفتاي الرمل. أذوق طعم الإسمنت. أذوق طعم الدم. أحس بأطرافي غارقة في الأرض، عالقة في الأرض. تتموج الأرض تحت جسدي. ويتموج جسدي تحت الهواء.

أتذكر في مكان ما في زاوية قصية من دماغي أن هذا حدث لي مرة من قبل، حدث على هذه الدرجات نفسها. أتذكر كيف تراجعت الأصوات وكيف تكسر العالم الغريب، ساطعاً، واضحاً. أصوات تقول: سقطت، جارة، شخص ما، مجنونة... أما الآن، فلا أسمع شيئاً.

ذراعي على رقبة شخص ما، وشعر أخشن من شعري، يلامس وجهي. قدماي تنتقلان واهنتين على الأرض في الخارج، ثم على أرض البيت. وأنا الآن في الداخل، في برودة الصالة القارسة، ثم في دفء غرفة المعيشة.

12

صوت يقول لي: «لقد تعثرتِ وسقطتِ!».

تستعيد رؤيتي ألوانها مثل صورة كاميرا فورية. إنني أنظر إلى السقف، إلى المصباح المرتفع الذي يبادلني التحديق... كأنه عين من زجاج.

«سأحضر لكِ شيئاً... ثانية واحدة...».

أترك رأسي يميل جانباً. أشعر بالمخمل على أذني. هذه أريكة غرفة المعيشة... أريكة الإغماء!

«ثانية واحدة، ثانية واحدة...».

أرى امرأة واقفة عند المجلى. ظهرها في اتجاهي. ستارة من شعر أسود ممتدة على طول ذلك الظهر.

أرفع يديّ إلى وجهي فأضعهما على أنفي وفمي؛ شهيق، ثم زفير.

الهدوء. الهدوء. أطرافي تؤلمني.

تقول لي المرأة: «كنتُ متجهة إلى البيت المجاور عندما رأيت هؤلاء القذرين الصغار يقذفون بالبيض. قلت لهم: ماذا تفعلون أيها الصغار القذرون؟ وعند ذلك رأيتك، على نحو ما... تندفعين خارجة من الباب ثم تسقطين كأنك كيس من...» تتوقف قبل أن تنهي جملتها. أتساءل إن كانت تريد القول كيس من الخراء. لكنها تستدير حاملة كأساً في كل يد: كأسٍ مليئة ماء، وكأساً فيها شيء كثيف ذهبي اللون. آمل أن يكون هذا براندي... أتت به من خزانة الشراب.

تقول لي: «لا فكرة عندي إن كان البراندي مفيداً حقاً لك. أشعر كأنني في فيلم *Downton Abbey*. وأنا منقذتك!».

أغمغم قائلة: «أنت المرأة التي تعيش خلف الحديقة». تخرج الكلمات متعثرة على لساني مثلما يخرج سكير من حانة. أنا قوية. شيء يدعو إلى الإشفاق!

«ما هذا؟».

في تلك اللحظة، رغماً عن نفسي، أقول: «أنت جين روسل».

تتوقف وتنظر إلي مستغربة، ثم تضحك فتلمع أسنانها في الضوء الخفيف: «وكيف تعرفين هذا؟»

«ألم تقولي إنك كنت ذاهبة إلى البيت المجاور». كنت أحاول جاهدة أن أنطق الكلمات نطقاً واضحاً كما لو أن ذلك عبارة يصعب نطقها... «لقد زارني ابنك».

رحت أتفحَّصها عبر أهداب عيني المُسدلة. إنها من النوع الذي يمكن أن يدعوه إد، محبِّذاً، امرأة ناضجة: ردفان ممتلئان، وشفتان ممتلئتان، وصدر عامر، وجلد نضر، ووجه بهيج، وعينان زرقاوان كلهب الغاز. إنها في بنطلون جينز كحلي اللون وكنزة سوداء لها فتحة عنق دائرية مع قلادة

فضية مستقرة على صدرها. أظنها في أواخر الثلاثينيات. لا بد أنها كانت طفلة عندما أنجبت ابنها.

مثلما حدث لي مع ابنها... أعجبتني هذه المرأة من النظرة الأولى.

تتقدم من الأريكة فتصطدم ركبتها بركبتي.

«اجلسي لأرى إن كنت مصابة بارتجاج دماغ». أطيعها وأتحامل على نفسي فأجلس بينما تضع الكأسين على الطاولة ثم تجلس قبالتي، حيث جلس ابنها يوم أمس. تلتفت إلى التلفزيون وترفع حاجبيها.

تقول حائرة: «ماذا تشاهدين؟ فيلماً بالأبيض والأسود».

أمد يدي إلى جهاز التحكم فأطفئ التلفزيون. تصير الشاشة خاوية.

تقول جين: «المكان مظلم هنا».

أسألها: «هل يمكنك إضاءة المصابيح؟ أحس قليلاً أنني... لا أستطيع إكمال جملتي».

«بالتأكيد». تمد يدها خلف الأريكة فتضغط مفتاح الإنارة الأرضية. تتوهج الغرفة.

أميل برأسي إلى الخلف وأحدِّق في حافة التشكيل الزخرفي المكسورة قليلاً، في السقف. شهيق، اثنان، ثلاثة، أربعة. إنها في حاجة إلى إصلاح. سوف أطلب هذا من ديفيد. زفير، اثنان، ثلاثة، أربعة.

تضع جين مرفقيها على ركبتيها وتقول لي: «إذن... ما الذي حدث هناك، في الخارج؟»

أغمض عيني: «نوبة هلع».

«أوه، يا عزيزتي. ما اسمك؟».

«اسمي آنا، آنا فوكس».

«آنا. لم يكن هنالك إلا حفنة من الأطفال الأغبياء».

«لا، ليس هذا ما أفزعني. أنا لا أستطيع الخروج». أطرق برأسي وأمد يدي إلى كأس البراندي.

تتابع كلامها بعد أن أشرب الكأس: «لكنك خرجت من البيت. لم يكن الخروج صعباً عليك».

«ما كان يجب أن أخرج. ما كان يجب أن أخرج من البيت».

«لم لا؟ هل أنت مصاصة دماء لا تستطيع الخروج إلى الشمس؟».

هذا صحيح من الناحية العملية، هكذا أقول لنفسي وأنا أنظر إلى ذراعي فأراها بيضاء كأنها بطن سمكة. أجيبها: «إنني مصابة برهاب الأماكن المفتوحة؟»

تضغط على شفتيها: «هل هذا سؤال؟».

«لا. لكني لم أكن واثقة من أنك تعرفين هذا التعبير».

«أعرفه بالطبع. أنت لا تطيقين الأماكن المفتوحة».

أغمض عيني من جديد وأومئ برأسي.

«لكني كنت أظن أن رهاب الأماكن المفتوحة يعني أنك لا تستطيعين الذهاب إلى التخييم، مثلاً. أي النشاطات التي تجري في الخارج».

«لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان».

يصدر عنها صوت يوحي بالاستغراب: «ومنذ متى تعيشين هذه الحالة؟».

أشرب آخر قطرات البراندي في كأسي: «منذ عشرة شهور».

لا تتابع أسئلتها. أتنفس بعمق، ثم أسعل.

«هل أنت في حاجة إلى موسِّع للقصبات، أو أي شيء؟».

أهز رأسي نفياً: «ذلك يزيد الوضع سوءاً. إنه يرفع معدل ضربات قلبي».

تفكر في ما قلته: «وماذا عن استخدام كيس ورقي؟».

أضع الكأس على الطاولة وأمد يدي إلى الماء: «أعني... إنه يكون مفيداً أحياناً، لكني لست في حاجة إليه الآن. أشكرك على إدخالي إلى البيت. أنا في غاية الحرج».

«أوه، لا تـــ...».

«لا، أنا في غاية الحرج، فعلاً. محرجة جداً. أعدك أن هذا لن يصير عادة عندي».

تضغط على شفتيها من جديد. فم شديد الحيوية. ألاحظ هذا. قد تكون مدخّنة، لكنني لا أشم غير رائحة مُطرّي الجلد... «أفهم أن هذا حدث من قبل؟ كنت خارجة من البيت، و...؟».

أكشر مبتسمة وأقول: «حدث في الربيع الماضي. جاء الشخص الذي يقوم بإيصال المشتريات وتركها عند الباب فظننت أنني يمكن أن... فقط... أخرج وآخذها».

«ولم تستطيعي».

«لم أستطع. لكن، كان في الشارع عدد كبير من المارّة في ذلك الوقت. لم يستوعبوا سريعاً أنني لست مجنونة أو متشردة».

تنظر جين في أرجاء الغرفة: «أنت لست متشردة بالتأكيد. هذا المكان... رائع». تتفحّص الغرفة كلها، ثم تخرج هاتفها من جيبها وتنظر إلى الشاشة. تنهض واقفة وتقول: «عليَّ أن أعود إلى البيت».

أحاول النهوض معها، لكن ساقيَّ لا تستجيبان لي. أقول لها: «ابنك طفل في غاية اللطف. أحضر لي هذه...» ثم أضيف: «شكراً لك».

تنظر إلى الشمعة على الطاولة وتلمس القلادة المعلقة من عنقها: «إنه ولد طيب. كان طيباً على الدوام».

«شكله أيضاً لطيف جداً».

«كان شكله لطيفاً دائماً!».

تضغط زراً صغيراً في جانب القلادة فتنفتح. تنحني في اتجاهي والقلادة تتأرجح في الهواء. أفهم أنها تريد أن أمسكها. هذه بادرةٌ فيها قرب شديد... هذه المرأة الغريبة المنحنية فوقي... يدي على قلادتها. أو... قد أكون غير معتادة على التواصل البشري!

أرى داخل القلادة صورة صغيرة، صورة لامعة حية: صبي صغير في الرابعة، أو نحو ذلك... شعر أصفر مشاغب، وأسنان كأنها سياج من

الأوتاد أصابه إعصار. ندبة على حاجبه. إنه إيثان، لا مجال للخطأ.

«كم عمره في هذه الصورة؟».

«خمس سنين. لكنه يبدو أصغر، ألا تظنين هذا؟»

«لو سألتني لقلت لك أربع سنين».

«بالضبط».

أفلت القلادة من يدي، وأسألها: «متى صار طويلاً هكذا؟».

تقطع طريق أسئلتي بطريقة لطيفة: «في وقت ما بين ذلك والآن!» ثم تضحك. ثم تقول فجأة: «ألا يزعجك أن أذهب الآن؟ ألن تصيبك مشكلة في التنفس؟».

«لن تصيبني مشكلة تنفس».

تسألني وهي تنحني فوق طاولة القهوة ـ على الطاولة ألبوم صور... ألبوم غير مألوف. لا بد أنها أتت به معها: «هل تريدين مزيداً من البراندي؟»، تضع الألبوم تحت ذراعها وتشير إلى كأسي الفارغة.

كذبت عليها: «سوف أكتفي بالماء».

«لا بأس». تتوقف لحظة ونظرها مثبت باتجاه النافذة... تكرر ما قالته: «لا بأس... أرى شخصاً وسيماً جداً آتياً في اتجاه البيت». تنظر إلي... «هل هو زوجك؟»

«أوه، لا. إنه ديفيد. إنه مستأجر عندي. في القبو».

تقول ضاحكة: «هل هو مستأجر عندك؟ ليته كان مستأجراً عندي».

لم يُقرع الجرس هذا المساء؛ لم يقرع الجرس ولا مرة واحدة. لعل النوافذ المظلمة جعلت الأطفال الذين يدورون على البيوت من أجل السكاكر والحلوى يبتعدون عن هذا البيت. أو... لعلها بقايا البيض الجافة على الباب.

أندس في فراشي باكراً.

في وقت ما خلال دراستي التخصصية، التقيت طفلاً في السابعة من عمره مصاباً بما يطلقون عليه اسم «متلازمة كوتار». إنها ظاهرة نفسانية

يظن الشخص المصاب بها أنه ميت. حالة نادرة، وإصابة الأطفال بها شيء أكثر ندرة. عادة ما تكون المعالجة الموصى بها في هذه الحالة نظاماً دوائياً من مضادات الذّهان؛ وفي الحالات المعقّدة، تستخدم الصدمات الكهربائية. لكنني أفلحت في معالجته بالكلام فقط. كان هذا أول نجاح كبير لي، وهو ما لفت انتباه ويسلي إليّ.

لا بد أن يكون ذلك الطفل الصغير في مرحلة متقدمة من مراهقته الآن، في سن إيثان تقريباً، أقل من نصف سني. أفكر فيه هذه الليلة وأنا أحدِّق في السقف أشعر بأنني ميتة، أنا نفسي. ميتة، لكنني لم أرحل بعد... أنظر إلى الحياة تتحرك وتفور من حولي، وأنا عاجزة عن التدخل فيها.

الاثنين

1 تشرين الثاني

13

عندما نزلت إلى المطبخ هذا الصباح، وجدت ورقة مدسوسة تحت باب القبو. عليها كلمة واحدة: البيض.

أنظر إلى الورقة بتمعّن؛ أحار في أمرها. هل يطلب ديفيد مني إعداد فطور له؟ لكني أقلب الورقة فأرى على الوجه الثاني كلمة نظفت. لقد نظف البيض. شكراً لك يا ديفيد.

بدا لي تناول البيض فكرة حسنة. لماذا لا أفطر بيضاً.

وضعت في المقلاة ثلاث بيضات وأعددت لنفسي بيضاً مقلياً. بعد دقائق معدودة كنت جالسة إلى مكتبي أمصمص بقايا صفار البيض وأفتح صفحة موقع Agora.

الصباح فترة ازدحام في هذه الصفحة. غالباً ما يعيش المصابون برهاب الأماكن المفتوحة حالة قلق حاد بعد الاستيقاظ. وبالتأكيد، نحن كثر هذا اليوم. أنفق ساعتين في تقديم المواساة والدعم؛ وأنصح مستخدمي الموقع ببعض الأدوية المختارة (إيميبرانين هو الدواء المفضل عندي هذه الأيام رغم أن إكساناكس يظل مطروحاً دائماً). أتأمل مناقشة تتناول المنافع (التي لا مجال للمناقشة فيها) للمعالجة التجنبية. وأشاهد، نزولاً عند طلب Dimples2016، مقطع فيديو تظهر فيه قطة تعزف على الطبول.

أنا على وشك الخروج من الموقع والانتقال إلى صفحة لعب الشطرنج لكي أنتقم لهزائمي يوم السبت؛ لكن نافذة الرسائل تظهر على شاشتي.

DiscoMickey: أشكرك مجدداً يا دكتورة على مساعدتك لي في ذلك اليوم.

نوبة الهلع. ظللت يومها أنقر على لوحة المفاتيح قرابة ساعة كاملة عندما كان DiscoMickey «مذعوراً»، بحسب كلماته.

Thedoctorisin: أهلاً بك في أي وقت. هل أنت أحسن الآن؟

DiscoMickey: أحسن بكثير.

DiscoMickey: قبل أن أكتب لكِ، كنت أتحدث مع سيدة جديدة في الموقع. تسألني إن كان هنالك اختصاصيون في هذا الموقع. أرسلت إليها «الأسئلة المتكررة كثيراً».

إنه يحيل شخصاً جديداً إليّ. أنظر إلى الساعة.

Thedoctorisin: قد لا يكون لدي وقت كثير اليوم. لكن، وجّهها إلي.

DiscoMickey: جيد جداً.

خرج DiscoMickey من المحادثة.

بعد لحظة فقط، تظهر محادثة نافذة أخرى. GrannyLizzie. أنقر على الاسم لأنظر إلى معلومات المستخدِم. السن: سبعون. مكان الإقامة: مونتانا. تاريخ الانضمام: قبل يومين.

أنظر إلى الساعة من جديد. يستطيع الشطرنج أن ينتظر قليلاً من أجل امرأة من مونتانا في السبعين من عمرها.

ينبئني شريط في أسفل الصفحة بأن GrannyLizzie تكتب. انتظر لحظة، ثم لحظة أخرى. إما أن رسالتها طويلة، أو أنها بطيئة بسبب تقدمها في السن. كان والدي ووالدتي يكتبان على لوحة المفاتيح بإصبع واحدة من كل يد، مثل طيور الفلامنكو عندما تسير في المياه الضحلة. كانت كتابة كلمة «مرحباً» وحدها تستغرق منهما نصف دقيقة.

GrannyLizzie: مرحباً، يا من هناك!

يبدو هذا ودوداً. قبل أن أستطيع الرد، يظهر سطر جديد.

GrannyLizzie: أعطاني Disco Mickey اسمك. أريد مشورتك. أريدها كثيراً!

GrannyLizzie: أريد بعض الشوكولاتة أيضاً، لكن هذه مسألة أخرى...

أفلح أخيراً في كتابة كلمتين لها.

Thedoctorisin: مرحباً بك! هل أنت جديدة في هذا المنتدى؟

GrannyLizzie: نعم، أنا جديدة.

Thedoctorisin: آمل أن يكون Disco Mickey قد جعلك تحسين بالترحاب هنا.

GrannyLizzie: نعم، لقد فعل هذا!

Thedoctorisin: كيف أستطيع مساعدتك؟

GrannyLizzie: حسن، لا أظنك تستطيعين مساعدتي في ما يتعلق بالشوكولاته!

هل هي مترددة أم متوترة؟ سأنتظر قليلاً.

GrannyLizzie: المسألة هي...

GrannyLizzie: ولا أحب أن أقول هذا...

قرع طبول...

GrannyLizzie: لست قادرة على الخروج من بيتي منذ شهر.

GrannyLizzie: وهكذا... هذه هي مشكلتي!

Thedoctorisin: يؤسفني سماع هذا. هل تسمحين لي بأن أخاطبك باسم ليزي؟

GrannyLizzie: بالتأكيد.

GrannyLizzie: أعيش في مونتانا. أنا جدة أولاً، ومعلمة فنون ثانياً!

سوف نتحدث عن هذا كله. لكني أكتب لها الآن:

Thedoctorisin: ليزي هل حدث شيء خاص في الشهر الماضي؟

فترة صمت.

GrannyLizzie: توفي زوجي.

Thedoctorisin: أفهم هذا. ماذا كان اسم زوجك؟

GrannyLizzie: ريتشارد.

Thedoctorisin: تؤسفني هذه الخسارة التي أصابتك يا ليزي. كان اسم والدي ريتشارد أيضاً.

GrannyLizzie: وهل توفي والدك؟

Thedoctorisin: توفي هو وأمي منذ أربع سنوات مضت. أصيبت أمي بالسرطان، ثم أصابته سكتة بعد خمسة شهور. لكني كنت مقتنعة دائماً بأن بعضاً من أحسن الناس يحملون اسم ريتشارد.

GrannyLizzie: إنه اسم الرئيس نكسون أيضاً!!

جيد؛ هنالك تقارب ينشأ بيننا.

Thedoctorisin: منذ متى وأنت متزوجة؟

GrannyLizzie: منذ سبعة وأربعين عاماً.

GrannyLizzie: التقينا في العمل. وكان حباً من النظرة الأولى!

GrannyLizzie: كان معلم كيمياء. وأنا كنت معلمة فنون. توجهان مختلفان!

Thedoctorisin: هذا مدهش! وهل لديك أطفال؟

GrannyLizzie: لديّ ولدان وثلاثة أحفاد ذكور.

GrannyLizzie: ولداي ظريفان، لكن أحفادي جميلون!

Thedoctorisin: أنت محاطة بكثير من الصبيان.

GrannyLizzie: هذا صحيح!

GrannyLizzie: الأشياء التي أراها!

GrannyLizzie: والأشياء التي أشمها!

أنتبه إلى نبرة كلامها: نشطة، مبتهجة دائماً. وألاحظ لغتها: غير رسمية، لكنها واثقة؛ ثم إنها دقيقة، أغلاطها قليلة جداً. إنها ذكية، منطلقة. لكنها

تهتم بالتفاصيل أيضاً... تكتب الأعداد كتابة، وتكتب الكلمات من غير اختصار. لكن، قد يكون هذا ناتجاً عن سنها. مهما يكن الأمر، فإنها شخص راشد أستطيع العمل معه.

GrannyLizzie: بالمناسبة، هل أنت «صبي»؟

GrannyLizzie: أعتذر إن كنت «صبياً». أطرح هذا السؤال، لأن هنالك «بنات» طبيبات أيضاً! حتى هنا في مونتانا.

أبتسم. إنها تعجبني.

Thedoctorisin: إنني دكتورة... امرأة.

GrannyLizzie: هذا جيد! نحن في حاجة إلى المزيد من أمثالك.

Thedoctorisin: أخبريني يا ليزي... ماذا حدث بعد وفاة ريتشارد؟

تخبرني بما جرى. تخبرني كيف أحست، عند العودة من الجنازة، أنها شديدة الذعر من مرافقة المعزين إلى خارج باب البيت. تخبرني أنها، في الأيام التي أعقبت ذلك، أحست كأن العالم الخارجي يحاول دخول البيت، وهكذا فقد أسدلت الستائر. تخبرني عن ولديها المقيمين بعيداً في الجنوب الشرقي، وعن ارتباكهما وقلقهما.

GrannyLizzie: علي أن أخبرك، ولندع المزاح كله جانباً، أن هذا محزن جداً.

حان وقت العمل.

Thedoctorisin: شيء طبيعي أن يكون كذلك. أظن أن ما يحدث هو أن وفاة ريتشارد قد غيرت عالمك تغييراً عميقاً. إلا أن العالم الخارجي ظل يتحرك من غيره. هذا شيء يصعب كثيراً أن يواجهه المرء، ويصعب أن يتقبله.

أنتظر ردها. لا شيء.

Thedoctorisin: قلت لي إنك لم تزيلي أي شيء من حاجيات ريتشارد؛ وهذا ما أفهمه جيداً. ولكنني أحب أن تفكري في الأمر.

صمت طويل.

ثم:

GrannyLizzie: أنا ممتنة كثيراً لأنني وجدتك. حقاً، حقاً.

GrannyLizzie: هذا شيء يقوله أحفادي. سمعوه في فيلم «شْرِك». حقاً، حقاً.

GrannyLizzie: هل تسمحين بأن أتحدث معك مجدداً عما قريب؟

Thedoctorisin: حقاً، حقاً!

لم أستطع منع نفسي من قول هذا لها.

GrannyLizzie: إنني، حقاً، حقاً، ممتنة لـ (Disco Mickey) لأنه وجهني إليك. أنت رائعة.

Thedoctorisin: هذا من دواعي سروري.

أنتظر خروجها من المحادثة، لكنها مستمرة في الكتابة.

GrannyLizzie: انتبهت الآن إلى أنني لا أعرف اسمك!

أتردد. لم أقل اسمي لأحد على موقع Agora. لم أقله حتى لسالي. لا أريد أن يجدني أحد، ولا أريد أن يربط أحد بين اسمي ومهنتي بحيث يعرفني، بحيث يفك القفل الذي وضعته على نفسي. لكن هنالك شيئاً في قصة ليزي يمس قلبي: هذه الأرملة المتقدمة في السن، الوحيدة المفجوعة بزوجها، ترسم لنفسها وجهاً شجاعاً تحت هذه السماوات الهائلة. يمكنها إلقاء النكات بقدر ما تريد، لكنها حبيسة البيت. وهذا شيء مخيف.

Thedoctorisin: اسمي آنا.

تظهر على شاشتي رسالة أخيرة منها، وأنا موشكة على الخروج من الموقع.

GrannyLizzie: أشكرك يا آنا.

تخرج GrannyLizzie من المحادثة.

أحس بالدم يجري مبتهجاً في عروقي. لقد ساعدت أحداً ما. إنني على صلة بالعالم. عليك فقط أن تكوني على صلة بالعالم. أين سمعت هذا؟ إنني أستحق شراباً.

سرت نازلة إلى المطبخ وأنا أميل برأسي إلى كتفي ثم إلى كتفي الآخر، وأسمع فرقعة عظام رقبتي. يلفت نظري شيء في الأعلى: في أبعد نقطة من السقف، تماماً عند قمة السلم في الطابق الثالث، هنالك بقعة قاتمة تنظر إلي ـ أظنها عند الباب المفضي إلى السطح، تماماً إلى جانب السقف الزجاجي فوق السلم.

أدق باب ديفيد. ينفتح الباب بعد لحظة. أجده حافياً في قميص مجعّد قصير الكمَّين وبنطلون جينز متهدّل. أدرك أنني أيقظته من نومه. فأقول له: «آسفة. هل كنت في السرير؟».

«لا».

لقد كان في السرير. «هل يمكنك أن تنظر إلى شيء هنا؟ أظن أنني رأيت بقعة رطوبة في السقف».

نتجه إلى الطابق العلوي فنمر أمام مكتبي وغرفة نومي فنصل إلى فسحة الدرج بين غرفة أوليفيا وغرفة النوم الاحتياطية الثانية.

يقول ديفيد: «سقف زجاجيّ كبير».

لا أعرف إن كان هذا مديحاً فأقول: «إنه موجود في البيت من الأصل»... أقول هذا حتى أقول شيئاً... فقط.

«هل هو بيضاوي؟».

«نعم».

«لم أر الكثير مما يشبهه».

«بيضاوي؟».

لكن الكلام انتهى. إنه ينظر إلى البقعة.

يقول لي: «هذا عفن ناتج عن الرطوبة». يقولها بصوت هادئ كأنه طبيب يحاول أن يكون لطيفاً وهو يخبر شخصاً عن مرضه.

«هل يمكن غسلها؟».

«لن يكون هذا كافياً».

«ما الذي يجب فعله؟».

يتنهد: «علي أولاً أن أتفقد السطح». يمد يده إلى سلسلة باب السطح القلاب ويشدها. ينفتح الباب وينزلق سلم في اتجاهنا مصدراً صوت احتكاك معدني شديد. يتدفق ضياء الشمس. أخطو جانباً مبتعدة عن الضوء. قد أكون مصاصة دماء حقاً!

يسحب ديفيد السلم إلى الأسفل حتى يصطدم بالأرض. أنظر إليه وهو يصعد درجات السلم. بنطلونه الجينز مشدود على مؤخرته. ثم يختفي. أناديه: «هل ترى شيئاً؟».

لا إجابة.

«ديفيد؟».

أسمع صوت قرقعة. وتسقط رشقة ماء لامعة في ضياء الشمس كأنها مرآة فتنسكب على فسحة الدرج. أتراجع إلى الخلف. فأسمع ديفيد يقول: «آسف، إنه وعاء سقاية».

«لا بأس. هل ترى شيئاً؟».

لحظة صمت. ثم يأتي صوت ديفيد من جديد... كأنه يعجب لما يراه: «إنها غابة هنا».

كانت هذه فكرة إد، منذ أربع سنين، بعد وفاة أمي. قال لي مقرراً: «أنت في حاجة إلى مشروع ما»؛ وهكذا شرعنا في تحويل السطح إلى حديقة: أحواض زهور، ورقعة من أجل الخضار، وصف من الشجيرات القزمية. وكان المعلم الأهم في تلك الحديقة، وهو ما دعاه وكيلنا العقاري (بالفرنسية) باسم «قطعة من المقاومة». كرمة معرّشة بعرض ست أقدام وطول اثنتي عشرة قدماً، تعريشة تصير مثل نفق ظليل بأوراقها اليانعة في فصلَي الربيع والصيف. وعندما أصيب أبي بالنوبة الدماغية بعد فترة من ذلك، وضع إد مقعداً تذكارياً تحت هذا النفق. حمل هذا المقعد التذكاري نقشاً باللاتينية يقول «صوب النجوم، رغم الفاجعة». كنت أجلس على

المقعد في أمسيات الربيع والصيف في الضياء الذهبي الأخضر فأقرأ كتاباً وأرتشف كأساً.

كدت أنسى أمر حديقة السطح في الآونة الأخيرة، ولم أفكر فيها إلا نادراً. لا بد أنها صارت في حالة برية تماماً.

جاءني صوت ديفيد مؤكداً أفكاري: «إنها نامية كثيراً... كأنها غابة».

ليته ينزل الآن.

يسألني ديفيد: «هل لديك هنا كرمة أيضاً؟ كرمة عليها غطاء من التاربولين؟».

كنا نغلفها هكذا في كل خريف. لم أجبه بشيء؛ تذكرت ذلك فحسب.

«عليك أن تكون حذرة عندما تصعدين إلى هنا. انتبهي حتى لا تدوسي على السقف الزجاجي».

ذكّرته بحالتي: «لا أعتزم الصعود إلى هناك».

قرقع الزجاج عندما وضع قدمه عليه. سمعته يقول: «سهل الكسر. والأغصان ممتدة فوقه. سوف تغطي النافذة كلها». مرت لحظة أخرى... «شيء لا يصدق أبداً. هل تحبين أن ألتقط صورة لما أراه هنا؟».

«لا، شكراً لك. ماذا نفعل ببقعة الرطوبة؟».

هبطت إحدى قدميه على السلم، ثم ظهرت الأخرى: «نحن في حاجة إلى شخص اختصاصي». وصل إلى الأرض، ثم أعاد السلم إلى مكانه... «حتى يعزل السطح. لكنني أستطيع استخدام أداة إزالة الطلاء حتى نتخلص من البقعة في الداخل». أعاد غطاء الفتحة إلى مكانه في السقف... «سأنظّف المنطقة، ثم أضع عليها مادة تمنع التبقع، وبعدها طبقة من الطلاء».

«هل لديك هذه الأشياء كلها؟»

«سأحضر مانع التبقّع والطلاء. وسوف يكون أمراً مفيداً أن نحصل على بعض التهوية هنا».

أتجمد وأقول: «ماذا تعني بهذا؟».

«نفتح بعض النوافذ. لست مضطرة إلى استخدام هذا الطابق».

«أنا لا أفتح النوافذ. لا أفتحها في أي مكان».

يرفع كتفيه ويقول: «سيكون هذا مفيداً».

أستدير في اتجاه السلم. يسير في اتجاهي. ننزل صامتين.

أقول له: «أشكرك لأنك نظفت الباب الخارجي من البيض». أقول له هذا بعد أن صرنا في المطبخ، أقوله حتى أقول شيئاً، لا أكثر.

يسألني: «من فعل هذا؟».

«بعض الأولاد».

«هل تعرفينهم؟».

«لا». أصمت لحظة... «لماذا؟ هل يمكنك أن تعاقبهم من أجلي؟».

يرمش بعينيه. أتابع كلامي: «آمل أنك مرتاح في الأسفل!» إنه هنا منذ شهرين، منذ أن قال لي د. فيلدينغ إن وجود مستأجر سيكون مفيداً لي: شخص يؤدي مهام صغيرة من أجلك، ويرمي القمامة ويساعدك في المحافظة على البيت بشكل عام، إلخ، وهذا كله مقابل تخفيض بسيط في الأجرة. كان ديفيد أول من استجاب للإعلان الذي نشرته عبر موقع Airbnb. أتذكر إحساسي بأن رسالته كانت مقتضبة، بل حتى جافة، إلى أن رأيت الرجل وأدركت أنه يحب الكلام. كان قد انتقل لتوّه من بوسطن، وكان شخصاً خبيراً في الأعمال اليدوية، غير مدخن، لديه سبعة آلاف دولار في البنك. اتفقنا في تلك الأمسية على أن يستأجر المكان.

قال وهو يرفع رأسه ناظراً إلى المصابيح الغائرة في السقف: «نعم. هل هنالك سبب يجعلك تحرصين على إبقاء المكان مظلماً هكذا؟ سبب طبي، أو شيء من هذا القبيل؟».

أحس الدم يصعد إلى وجهي: «يشعر كثير من الناس في...» ما الكلمة المناسبة هنا؟... «في وضعي بأنهم مكشوفون إذا كانت الإضاءة قوية». أشير إلى النافذة... «ثم إن في هذا البيت قدراً كبيراً من الضوء الطبيعي على أية حال».

يفكر ديفيد في هذا ثم يهز رأسه.

أسأله: «هل لديك ضوء كافٍ في شقتك؟».

«لا بأس بها».

أومئ برأسي وأقول: «إذا وجدت المزيد من مخططات إد في الأسفل، فأخبرني بذلك. إنني أحتفظ بها».

أسمع صوت فتحة بنتش التي في الباب، ثم أراه ينسل داخلاً المطبخ.

أقول له، رغم أنني أخطأت التوقيت... فهو متجه صوب باب القبو: «أنا أقدر حقاً كل ما تفعله من أجلي. أعني... فيما يتعلق بالقمامة وأعمال البيت، وكل شيء». وأضيف مرتبكة: «أنت تنقذني».

«على الرحب والسعة».

«هل يمكنك أن تستدعي أحداً لإصلاح السقف...».

«بالتأكيد».

يقفز بنتش على السجادة التي بيننا ويسقطُ شيئاً من فمه. أنظر إلى ما أتى به.

فأرٌ ميت.

أنكمش في مكاني.

يسعدني أن أرى ديفيد ينكمش أيضاً. إنه فأر ضئيل فراؤه زيتي اللون، وله ذيل أسود صغير مثل دودة. لقد أشبع قطي جسده عضاً ونهشاً.

ينظر إلينا بنتش معتزاً بنفسه.

أقول له موبخة: «لا»، فيخفض رأسه.

يقول ديفيد: «لقد أظهر بطولته على هذا المسكين.

أنظر إلى الفأر وأسأل بنتش: «هل أنت من فعل هذا؟»، ثم أتذكر أنني أستجوب قطاً.

يقفز مبتعداً عن السجادة.

يهمس ديفيد: «انظري إليه». ألتفت فأرى بنتش عند طرف السجادة منحنياً إلى الأمام، متأهباً، عيناه الداكنتان تلمعان.

أسأل ديفيد: «هل تدفنه في مكان ما؟ لا أريد أن يتعفن في سلة القمامة».
يتنحنح ديفيد ويقول: «غداً الثلاثاء، يوم جمع القمامة. سوف أخرجها الآن. هل لديك جريدة؟».
«وهل يحتفظ أحد بجرائد هذه الأيام؟».
أحسست أن عبارتي هذه كانت حادة أكثر مما أردت. أتابع سريعاً: «لديّ كيس نايلون».
أجد كيس النايلون في الدرج. يمد ديفيد يده، لكنني أستطيع فعل هذا بنفسي. أقلّب الكيس وأدخل يدي فيه ثم أمسك بجثة الفأر بحذر. تهزني رجفة صغيرة.
أقلب الكيس على الفأر، ثم أربطه من أعلاه. يأخذه ديفيد مني ويفتح غطاء سلة القمامة ويرمي الفأر الميت فيها.
عندما يخرج ديفيد كيس القمامة من السلة، أسمع صوتاً في الطابق السفلي. أنابيب المياه تغني، والجدران تبدأ الكلام فيما بينها. أحد ما يستحم هناك.
أنظر إلى ديفيد. لا تظهر عليه أي رد فعل، بل يربط الكيس من أعلاه ويحمله قائلاً: «سوف أضعه في الخارج»، ثم يتجه صوب باب البيت.
ليس الأمر كما لو أنني كنت موشكة على سؤاله عن اسمها!

15

«احزري من؟».
«مام».
أتناسى انزعاجي من استخدامها هذه الكلمة وأقول لها: «كيف كان الهالوين؟».
«جيد».
إنها تمضغ شيئاً ما. آمل أن يتذكر إد مراقبة وزنها.
«وهل حصلت على كثير من السكاكر والحلويات؟».

«الكثير! أكثر من أي وقت مضى».
«وما الذي أعجبك أكثر شيء؟ M&M's بالتأكيد».
«Snickers».
لا بأس في أن تصحح ابنتي معلوماتي.
تقول موضِّحة لي: «إنها صغيرة جداً. كأنها Baby Snickers».
«هل يعني هذا أنك تناولت طعاماً صينياً على العشاء؟ أم أنك تعشّيت Snickers فقط».
«الاثنان معاً».
يجب أن أتحدث مع إد. لكنه يتخذ موقفاً عدائياً عندما أتحدث معه. يقول لي: «إنها ليلة واحدة في السنة. لا مشكلة إن تعشت هكذا».
«لا أريد أن تتعرض للمشاكل».
يصمت.... ثم أسمعه يقول: «مع طبيب الأسنان؟».
«بل أقصد وزنها».
يتنهد ويقول: «أستطيع الاهتمام بها».
أجيبه متنهِّدة: «لا أقول لك إنك لا تستطيع».
«هذا ما بدا في جملتك».
أضرب بيدي على جبهتي: «المسألة هي أنها لا تزال في الثامنة، يشهد كثير من الأطفال زيادة وزن كبيرة في هذه السن».
«سأنتبه لها».
«أتذكر أنها مرت بمرحلة من زيادة الوزن قبل وقت قصير».
«هل تريدين أن تكون هزيلة؟»
«لا، فهذا أمر سيئ أيضاً. أريد أن تكون في صحة جيدة».
يقول لي: «جميل. سوف أقبّلها قبلة منخفضة السعرات الحرارية. قبلة دايت!.»
أبتسم. رغم ذلك، أحس أن الوضع لا يزال متوتراً عندما يودّع أحدنا الآخر.

الثلاثاء

2 تشرين الثاني

16

في أواسط شهر شباط ـ أي بعد قرابة ستة أسابيع من انحباسي في البيت، وبعد تحققي من أن حالتي لا تتحسن ـ اتصلت بطبيب نفسي كنت قد استمعت إليه يلقي محاضرة في مؤتمر طبي في بلتيمور منذ خمس سنين. كان عنوان المحاضرة «مضادات الذهان التقليدية واضطراب الشدة النفسية التالي للرضح». لم يكن يعرفني في ذلك الوقت. إنه يعرفني الآن.

كثيراً ما يظن الناس الذين ليسوا على معرفة بالمعالجة النفسية، أن المعالج النفسي يكون على الدوام شخصاً محتضناً ناعم الكلام: يمد المرء نفسه على أريكته مثلما يمد الزبدة على الخبز، ثم يذوب. «ليس الأمر هكذا بالضرورة»، كما تقول إحدى الأغاني. الحالة الأولى: د. جوليان فيلدينغ.

الحالة مختلفة بسبب شيء واحد على الأقل: ما من أريكة هنا. نلتقي كل ثلاثاء في غرفة مكتبة إد. يجلس د. فيلدينغ في مقعد جلد قرب الموقد؛ وأجلس أنا في كنبة مرتفعة الظهر عند النافذة. صحيح أنه يتكلم بهدوء، إلا أن صوته يصرّ مثل باب عتيق. إنه دقيق، محدد تماماً، كما يجب أن يكون المعالج النفسي الجيد. قال عنه إد أكثر من مرة: «إنه من نوع الأشخاص الذين يخرجون من تحت الدوش عندما يريدون التبول!».

يقول د. فيلدينغ بصوت يشبه الصرير: «إذن، تقولين إن مجادلةً جرت بالأمس بينك وبين إد حول أوليفيا. هل تظنين أن هذه الأحاديث بينكما مفيدة؟». يسقط شعاع من شمس بعد الظهر على وجهه فيجعل عدستي نظارته تشبهان شمسين صغيرتين.

أدير رأسي وأسترق نظرة إلى بيت آل روسل. أتساءل عما تفعله جين روسل الآن. أود أن أشرب شيئاً.

تجري أصابعي على رقبتي. أعود وأنظر إلى د. فيلدينغ. إنه يراقبني. الغضون في جبهته أكثر عمقاً. لعله متعب... أنا متعبة بالتأكيد. كانت هذه الجلسة حافلة: أخبرته عن نوبة الذعر التي أصابتني (بدا مهتماً، قلقاً)، وأخبرته عما جرى بيني وبين ديفيد (بدا غير مهتم)، وأخبرته عن حديثي مع إد ومع أوليفيا (بدا مهتماً من جديد).

أنظر بعيداً مرة أخرى، أنظر من غير أن تطرف عيناي ومن غير أن أفكر، أنظر إلى الكتب على رفوف إد. تاريخ محقّقي بِنكرتون. ومجلدان عن نابليون. وعمارة منطقة الخليج. قارئ واسع المجال! هكذا هو زوجي. هكذا هو زوجي المُبعَد عني.

يقول د. فيلدينغ: «يبدو أن هذه الأحاديث تسبب لك مشاعر مختلطة». هذه طريقة تقليدية في كلام المعالجين النفسيين: «يبدو». «ما أسمعه». «أظنك تقولين». نحن ننقل كلام المريض. نحن مترجمون.

«إنني دائماً...» أبدأ القول وأحس أن الكلمات لا تطاوعني عندما تتشكّل في فمي. هل أستطيع الكلام عن هذا من جديد؟ نعم، أستطيع... «أفكر دائماً... لا أستطيع الكف عن التفكير في تلك الرحلة. يزعجني أنها كانت فكرتي».

لا تأتيني إجابة من الناحية الأخرى من الغرفة، رغم أنه ـ أو ربما لأنه ـ يعرف هذا، يعرف كل شيء عن هذا، بل سمعه مرات كثيرة. سمعه مرات كثيرة.

«أتمنى دائماً أنها لو لم تكن فكرتي. أتمنى لو أنها لم تكن أفكاري.

أتمنى لو كانت فكرة إد. أو فكرة أحد آخر. أتمنى لو أننا لم نذهب أبداً...»

أشبك أصابعي... «بالتأكيد».

يقول لي برقة: «لكنكم ذهبتم».

أشعر كأن شيئاً لسعني.

«لقد رتَّبتم عطلة عائلية. لا يجوز أن يشعر أحد بالخجل من هذا».

«في نيو إنغلاند! في الشتاء!».

«يذهب أناس كثيرون إلى نيو إنغلاند في الشتاء».

«كان هذا شيئاً غبياً».

«كان هذا شيئاً ذكياً».

«كان شيئاً غبياً إلى حد غير معقول».

لا يجيبني د. فيلدينغ بشيء. تتنحنح أنابيب التدفئة المركزية... كأنها تزفر.

«لو لم أفعل هذا لبقينا معاً».

يرفع كتفيه ويقول: «ربما».

«بل بالتأكيد».

أشعر بثقل نظراته عليّ.

أقول: «قدمتُ المساعدة إلى أحد ما يوم أمس. كانت امرأة من مونتانا. إنها جدة. لا تستطيع مغادرة بيتها منذ شهر».

لقد اعتاد هذه الانتقالات المفاجئة ـ يسميها «قفزات عصبية». رغم معرفتنا، كلانا، إنني أتعمد تغيير الموضوع عن قصد. لكنني أتابع كلامي وأخبره عن GrannyLizzie، وكيف كشفت لها عن اسمي.

«ما الذي جعلك تفعلين هذا؟».

«أحسست أنها تحاول التواصل». أليس هذا ما... نعم، هذه هي: أليس هذا ما وجّهنا أستاذنا فورستر إلى فعله «تواصلوا فقط»؟ رواية «نهاية هاورد»... الاختيار الرسمي لنادي جولي للكتب. «... أردت مساعدتها. أردت أن أتيح لها التواصل معي».

يقول لي: «كان هذا كرماً منك».

«أظن هذا».

يعدّل جلسته: «يبدو لي أنك تحاولين الذهاب إلى مكان تستطيعين فيه ملاقاة الآخرين وفق شروطهم، لا وفق شروطك أنت فقط».

«هذا محتمل».

«هذا تقدم».

يتسلل بنتش إلى الغرفة ويبدأ الدوران حول قدميّ وهو ينظر إلى حضني. أضع ساقاً فوق ساق.

يسألني فيلدينغ: «كيف تسير المعالَجة الفيزيائية؟».

تجول يدي على ساقيّ ووسطي كأنني أقدم جائزة في لعبة ما. يمكنك أيضاً أن تفوزي بهذا الجسد المهمل ذي الثمانية والثلاثين عاماً! أقول له: «كان شكلي أفضل». ثم... أضيف قبل أن يتمكن من تصحيح ما قلته: «أعرف أن هذا ليس برنامجاً من أجل اللياقة».

لكنه يصحِّح ما قلته رغم ذلك: «هو ليس برنامج لياقة فقط».

«صحيح، أعرف هذا».

فهل يسير هذا البرنامج سيراً حسناً؟»

«لقد شفيت. كل شيء أحسن الآن».

ينظر إليّ بهدوء.

هذا حقيقي. عمودي الفقري جيد، وأضلاعي ليست محطمة. ولم أعد أعرج أيضاً.

«صحيح، لاحظت هذا».

«لكنني في حاجة إلى بعض التمرينات. ثم إنني أحب بِينا».

«أفهم أنها صارت صديقة لك».

أقول مُقِرة: «على نحو ما. إنها صديقة أدفع لها أجراً».

«تأتيك يوم الأربعاء... هذه الأيام، أليس كذلك؟».

«عادة».

يقول: «جيد». كما لو أن يوم الأربعاء تحديداً يوم مناسب للنشاطات الرياضية. لم يلتقِ بِينا أبداً. لا أستطيع تصورهما معاً. لا أحس أنهما يشغلان الحيز نفسه.

آن وقت انتهاء الجلسة. أعرف هذا من غير أن أنظر إلى الساعة المنتصبة فوق رف الموقد، تماماً مثلما يعرفه د. فيلدينغ. بعد سنوات من الممارسة، يستطيع كل منا أن يوقّت الخمسين دقيقة، بالثانية تقريباً. يقول لي: «أريد أن تستمري على أقراص حاصرات بيتا بالجرعة نفسها. أنت تتناولين مئة وخمسين ميليغراماً من دواء توفرين. سوف نزيدها إلى مئتين وخمسين». يعبس قليلاً، ثم يتابع: «إنني أقرر هذا استناداً إلى ما تحدثنا فيه اليوم. يجب أن يكون مفيداً في تحسين مزاجك».

أحاول تذكيره: «يصيبني تشوش حقيقي على الجرعة الحالية».

«تشوش؟».

«أو غشاوة، على ما أظن. أو الاثنان معاً».

«هل تعنين الرؤية؟».

«لا، لا أعني بصري. إنه أكثر...» لقد تحدثنا عن هذا. ألا يتذكر؟ أم... هل تحدثنا عنه فعلاً؟ تشوش. غشاوة. إنني في حاجة حقيقية إلى كأس من الشراب... «تكون لديّ أحياناً أفكار كثيرة في وقت واحد. كأن في عقلي طرقاً كثيرة متقاطعة يحاول كل من يسيرون فيها أن يعبروا التقاطع في الوقت نفسه». أضحك ضحكة مكتومة صغيرة منزعجة بعض الشيء.

يعقد د. فيلدينغ حاجبيه، ثم يتنهد: «لا بأس، ليس الطب علماً من العلوم المضبوطة. أنت تعرفين هذا».

«أعرف، أعرف».

«أنت تتناولين عدداً غير قليل من الأدوية المختلفة. سوف نصحّح جرعاتها، واحداً بعد الآخر، إلى أن نصل إلى الجرعات الصحيحة».

أومئ برأسي، أعرف معنى كلامه. يظن أن حالتي تتراجع. ينقبض صدري.

«جربي جرعة المئتين وخمسين ميليغراماً لتري كيف يكون الوضع. إذا أحسست بأن هنالك مشكلة، فإننا نستطيع البحث عن شيء يساعدك في التركيز».

سألته: «منشط للذهن؟ أديرال!» كم مرة سألني الآباء والأمهات إن كان أديرال مفيداً لأطفالهم، وكم مرة رفضت ذلك رفضاً قاطعاً؟... والآن... أطلبه لنفسي. لقد تغيرَّ الكثير.

يقول: «دعينا نتحدث عن هذا عندما يأتي وقته». يكتب بقلمه في دفتر الوصفات، ثم ينتزع الورقة ويعطيني إياها. أرى الورقة تهتز في يده. هل هي رعشة مجهولة السبب أم انخفاض في سكر الدم؟ آمل أن هذا ليس علامة مبكرة من علامات داء باركنسون. لكني لست في وضع يسمح لي بسؤاله عن هذا. آخذ الورقة من يده.

أقول له وهو يقف ويمسّد ربطة عنقه: «شكراً لك. سوف أستخدم هذه الأدوية».

يومئ برأسه: «إذن، إلى اللقاء في الأسبوع المقبل». يستدير متجهاً إلى الباب ثم يستدير صوبي مرة أخرى: «آنا».

«نعم».

يومئ برأسه من جديد: «من فضلك، املئي تلك الوصفة».

بعد ذهاب د. فيلدينغ، أسجل طلب الوصفة عبر الإنترنت. سوف يصلني الدواء في الخامسة بعد الظهر. هذا وقت كاف لتناول كأس أو ربما لتناول كأسين.

لكن، ليس بعد! أحرك فأرة الكمبيوتر إلى زاوية مهملة على الشاشة. وبتردد أفتح ملف إكسل: ملف الأدوية.

أسجل في هذا الملف المعلومات المتعلقة بالأدوية التي أتناولها، الجرعات كلها، والتعليمات كلها، وجميع المكونات الموجودة في هذا المزيج الدوائي كله. أرى أنني توقفت عن تحديث هذا الملف منذ شهر آب.

د. فيلدينغ محقٌّ كعادته: إنني أتناول عدداً غير قليل من الأدوية. لا تكفي أصابع اليد الواحدة لإحصائها كلها. ثم إنني أعرف ـ أجفل عندما أفكر في هذا ـ إنني لا أتناولها مثلما يجب، ولا عندما يجب، ولا دائماً. أضاعف الجرعة أحياناً، وأنساها أحياناً، وأتناول الأدوية وأنا ثملة... سيغضب د. فيلدينغ كثيراً. يجب أن أحسّن سلوكي. لا أريد أن يفلت كل شيء من يدي.

أغلق الملف وأخرج من البرنامج. حان الآن وقت ذلك الشراب.

17

كأس الشراب في يدي، والكاميرا في اليد الأخرى. أجلس في زاوية غرفة مكتبي متخذة موقعاً بين النافذتين الجنوبية والغربية، وأستعرض الحي كله ـ «تفقد الموجودات» كما يحب إد أن يقول. ها هي ريتا ميلر عائدة من اليوغا، يلمع عرقها عليها، وهاتف خلوي ملتصق بأذنها. أضبط وضع الكاميرا حتى أقرّب الصورة أكثر. إنها تبتسم. أتساءل إن كان صاحبها على الناحية الأخرى من الخط. أو لعله زوجها. أو... لا هذا ولا ذاك.

البيت التالي، أمام الرقم مئتين وأربعة عشر، أرى السيدة واسرمان وزوجها هنري يهبطان الدرجات التي أمام بيتهما. إنهما منطلقان لكي ينشرا العذوبة والضياء!

أتحول بالكاميرا إلى جهة الغرب: شخصان يسيران متكاسلين أمام البيت المتنقل هناك. يشير أحدهما إلى مصاريع نوافذه. أتخيله يقول «خشب جيد».

يا ربي! إنني أخترع الأحاديث الآن.

وبحذر، كما لو أنني لا أريد أن يضبطني أحد ـ لا أريد هذا في حقيقة الأمر ـ أنتقل بالكاميرا عبر الحديقة، صوب بيت آل روسل. المطبخ مظلم فارغ وقد أسدلت ستائره جزئياً كأن نوافذه عيون نصف مغمضة. لكنني

أصعد طابقاً إلى الأعلى فأرى في الردهة، ضمن النافذة تماماً، جين وإيثان جالسين على أريكة صغيرة مخططة. إنها في كنزة صفراء بلون الزبدة، تكشف مسافة صغيرة من الخط الفاصل بين ثدييها. قلادتها متدلية هناك كأنها متسلق جبال فوق هوّة عميقة.

أدير العدسة قليلاً فتصير الصورة أكثر وضوحاً. إنها تتكلم بسرعة، ثم تبتسم فتظهر أسنانها. تتحرك يداها حركة سريعة. عيناه على كمبيوتره، لكن تلك الابتسامة الخجلى تلوي شفته.

لم أذكر آل روسل في حديثي مع د. فيلدينغ. أعرف ماذا سيقول؛ وأستطيع تحليل نفسي ـ لقد وجدت في هذه الأسرة، هذه الأم وهذا الأب وطفلهما الوحيد ـ صدى لأسرتي أنا. على مسافة باب واحد في الشارع، هنالك الأسرة التي كانت لديّ، والحياة التي كانت حياتي... رغم أنها حياة ضاعت ولن تعود، لكنها هنا، تماماً خلف الحديقة. وماذا إذاً؟ أسأل نفسي، لعلي أقول هذا فحسب، فأنا لست متأكدة من شيء هذه الأيام.

أرتشف النبيذ، ثم أمسح شفتيّ وأرفع الكاميرا من جديد. أنظر في العدسة.

إنها تنظر إليّ.

تسقط الكاميرا في حضني.

لا مجال للخطأ: حتى بعيني المجردة، أستطيع أن أرى بوضوح نظرتها الثابتة وشفتيها المنفرجتين.

ترفع يدها وتلوح لي.

أريد أن أختبئ.

هل ألوّح لها؟ هل أشيح بوجهي؟ هل أرفرف بعيني في اتجاهها، من غير معنى، كما لو أنني كنت أصوّب الكاميرا في اتجاه شيء آخر، في اتجاه شيء قريب منها؟ لم أرَكِ هناك؟

لا.

أقفز واقفة على قدمي فتتدحرج الكاميرا على الأرض.

أقول لنفسي: «أتركيها»... أقول هذا بالتأكيد... وأهرب من الغرفة، أهرب إلى ظلمة السلم.

لم يضبطني أحد من قبل، أبداً. لا د. ميلر وريتا ميلر، ولا آل تاكيدا، ولا آل واسرمان، ولا أسرة غراي. لم يضبطني آل لورد قبل انتقالهم من بيتهم، ولا الزوجان موت قبل فراقهما. لم تضبطني سيارات التاكسي العابرة، والمارة في الشارع. لم يضبطني حتى ساعي البريد الذي اعتدت تصويره كل يوم، أمام كل باب. أمضيت شهوراً أنظر إلى هذه الصور وأعيش تلك اللحظات من جديد إلى أن صرت غير قادرة على مجاراة العالم خلف نافذتي. لا تزال هنالك استثناءات قليلة، بالطبع... تثير أسرة ميلر اهتمامي. أو أنها كانت تثير اهتمام قبل وصول أسرة روسل.

ثم إن تلك العدسة الإضافية على الكاميرا أفضل من المنظار المقرّب.

لكن خجلي من نفسي يسري في جسدي الآن كأنه تيار كهربائي. أفكر في كل شخص وفي كل شيء صورته بهذه الكاميرا: الجيران، والأغراب، والقبلات، والأزمات، وقضم الأظافر، سقوط القطع النقدية الصغيرة، والخطوات، والسقطات. ابن تاكيدا بعينيه المغمضتين وأصابعه على أوتار التشيلو. آل غراي يرفعون كؤوسهم عالياً متبادلين أنخاباً مرحة. السيدة لورد في غرفة معيشتها تشعل شموعاً فوق قالب حلوى. الزوجان الشابان، آل مُوت، خلال أيام موت زواجهما يصرخ كل منهما على الآخر عبر ردهة بيتهما الحمراء بلون الفالنتاين، وحطام مزهرية على الأرض بينهما.

أفكر في القرص الصلب في كمبيوتري وقد ملأته هذه الصور المسروقة. أفكر في جين روسل عندما نظرت إليَّ عبر الحديقة من غير أن تطرف عيناها. أنا لست غير مرئية، أنا لست ميتة. أنا حية، يراني الناس. وأنا خجلة من نفسي أيضاً.

أفكر في الدكتور برولوف في فيلم «المفتون»: «يا فتاتي العزيزة، لا يمكنك مواصلة الاصطدام بالواقع والقول إنه غير موجود».

تمر ثلاث دقائق فتعود خطواتي إلى غرفة المكتب. أريكة آل روسل خالية. أسترق نظرة إلى غرفة إيثان فأراه هناك منكباً على كمبيوتره.

وبحذر أرفع الكاميرا عن الأرض. لم يصبها سوء.

ثم، أسمع جرس الباب.

18

تقول لي عندما أفتح لها الباب: «لا بد أنك ضجرة ضجراً قاتلاً»، ثم تضمّني وتلف ذراعيها حولي. أضحك لها، لكنها ضحكة عصبية... «أراهن أن هذه الأفلام كلها، بالأبيض والأسود، قد أصابتك بالملل».

تندفع فتسبقني. لم أقل أية كلمة بعد.

تبتسم وهي تضع يدها في حقيبتها: «أحضرت لك شيئاً. وهي باردة أيضاً». زجاجة ريزلينغ متعرقة. يتحلّب فمي. مضى زمن طويل منذ شربت نبيذاً أبيض آخر مرة.

«أوه، ما كان يجب أن...»

لكنها كانت متجهة صوب المطبخ في تلك اللحظة.

صرنا جالستين نتجرع النبيذ بعد عشر دقائق فقط. تشعل جين سيجارة فيرجينيا سْلِم، ثم سيجارة أخرى، وسرعان ما يملأ الدخان الهواء ويطوف فوق رؤوسنا ويتجمع سحابة تحت مصابيح السقف. صار طعم الدخان في النبيذ أيضاً. أكتشف أنني لا أمانع في هذا؛ يذكرني بالجامعة، وبلياليٍ من غير نجوم أمام حانات نيو هيفن، وبرجال لهم أفواه بطعم الرماد.

تقول لي وهي تنظر إلى طاولة المطبخ: «لديك هنا الكثير من نبيذ ميرلو».

أقول موضّحة: «إنني أطلبه بالجملة، فأنا أحبه».

«وهل تطلبينه مرات كثيرة؟».

«بضع مرات في السنة، لا غير»... مرة في الشهر، على الأقل!

تومئ برأسها، ثم تسألني: «أنت على هذه الحال... قلت لي، منذ متى؟ ستة أشهر؟».

«قرابة أحد عشر شهراً».

«أحد عشر شهراً!» تزمّ شفتيها على شكل حرف O... «لا أستطيع الصفير، لكنني أتظاهر بأنني أصفر».

تطفئ سيجارتها في طبق صغير عميق أستخدمه لتناول حبوب الإفطار، ثم تمسح أظافرها وتنحني إلى الأمام كما لو أنها تصلي... «إذن، ماذا تفعلين طيلة اليوم؟».

أقول... بنبرة نبل: «أقدّم المشورة للناس».

«أي ناس؟».

«أشخاص عبر الإنترنت».

«آه!».

أضيف قائلة: «ثم إنني أتلقى عبر الإنترنت دروساً في اللغة الفرنسية وألعب الشطرنج أيضاً».

«هل تلعبين الشطرنج عبر الإنترنت؟».

«نعم، عبر الإنترنت».

تمر بإصبعها على كأسها ملاحِقة الخط الذي يرسمه النبيذ في داخله. تقول لي: «هذا يعني أن الإنترنت صار نوعاً من... نافذتك على العالم».

«حسن، وكذلك هي نافذتي الحقيقية». أقول هذا وأشير إلى النافذة الزجاجية من خلفها.

تقول: «منظارك المقرّب». يحمرُّ وجهي خجلاً... «إنني أمزح».

«إنني آسفة جداً لأنني...».

تلوّح بيدها وتشعل سيجارة جديدة. «آه، اسكتي!». يتسرّب الدخان من فمها... «هل لديك رقعة شطرنج حقيقية؟».

«وهل تلعبين الشطرنج؟».

تضع السيجارة في الطبق الصغير: «كنت ألعب الشطرنج. فلنر ما

لديك». نكون في منتصف جولة الشطرنج الأولى عندما يرن جرس الباب. إنها الخامسة تماماً ـ إنها الأدوية من الصيدلية. تقول جين مستغربة: «أدوية يوصّلونها إلى البيت!» وتصيح بصوت حاد وهي عائدة من الصالة: «هل لها نفع؟»

أجيبها وأنا أفتح زجاجة ثانية: «لا بد منها». إنها زجاجة نبيذ ميرلو هذه المرة.

«الآن، صارت جلستنا حفلة».

نتابع اللعب ونحن نشرب، ونتحدث. كل منا أم لطفل وحيد، هذا ما كنت أعرفه؛ وكل منا تحب الإبحار، وهذا ما كنت أعرفه. تفضّل جين الزوارق الزوجية، أما أنا فأفضل الفردية أكثر... أو كنت أفضلها، على أية حال.

أخبرها عن شهر العسل مع إد... كيف استأجرنا زورقاً شراعياً من طراز آليريون طوله ثلاثٌ وثلاثون قدماً، ثم أبحرنا بين الجزر اليونانية متجوّلين بين سانتوريني وديلوس، بين نكسوس وميكونوس. أقول متذكرة تلك الأيام: «نحن الاثنين فقط... نجول في أرجاء بحر إيجه».

تقول جين: «هذا يشبه فيلماً هادئاً هدوء الموت».

أبتلع بعض النبيذ: «أظنهما كانا في المحيط الهادئ في فيلم هادئ هدوء الموت».

«حسن... باستثناء هذه النقطة، يشبه إبحاركما ذلك الفيلم».

«وأيضاً، ذهبا في تلك الرحلة للشفاء من آثار أحد الحوادث».

«لا بأس، هذا صحيح».

«ثم أنقذا شخصاً مختلاً عقلياً حاول قتلهما».

«هل ستتركينني أوضّح فكرتي أم لا؟».

تجلس عابسة مفكرة في رقعة الشطرنج بينما أذهب لأبحث في البراد عن قطعة من شوكولاته توبليرون ثم أقطّعها بسكين المطبخ. نجلس إلى الطاولة، ونأكل الشوكولاته. شوكولاته للعشاء. تماماً مثلما فعلت أوليفيا.

«هل يأتيك زوار كثر؟». تسأل هذا وهي تداعب فيلها، ثم تزلقه عبر رقعة الشطرنج.

أهز رأسي ثم أبتلع النبيذ الذي في فمي: «لا يأتيني أحد. أنت وابنك فقط».

«لماذا؟ أو لمَ لا؟».

«لست أدري. توفي أبي وأمي؛ وقد كنت أعمل كثيراً إلى حد لم يتسنَّ لي تكوين أصدقاء».

«ولا أحد من العمل».

أفكر في ويسلي. أقول لها: «كانت عيادة فيها شخصان فقط. وهكذا فقد تضاعف عمل شريكي وجعله مشغولاً كثيراً».

تنظر إليّ: «هذا محزن».

«أعرف أنه محزن».

«أليس لديك حتى هاتف؟».

أشير إلى الهاتف الأرضي القابع فوق زاوية طاولة المطبخ، ثم أربّت على جيبي: «هاتف قديم، هاتف آيفون قديم، لكنه يعمل. إذا اتصل بي طبيبي النفسي، أو إذا اتصل بي أي شخص آخر... المستأجر مثلاً».

«مستأجرك الوسيم».

«نعم، مستأجري الوسيم».

أرشف قليلاً من كأسي ثم أستولي على وزيرها.

«هذه قسوة منك!» تنفخ ذرة رماد سقطت على الطاولة، ثم تنفجر ضاحكة.

بعد جولة الشطرنج الثانية، تطلب مني أن آخذها في جولة في البيت. أتردد، أتردد لحظة فقط. كان ديفيد آخر شخص يتجول في المكان كله، وقبل ذلك... لا أستطيع التذكر... حقاً. لم تتجاوز بِينا الطابق الأرضي أبداً. كما أن د. فيلدينغ يجلس في غرفة المكتبة فقط. تبدو الفكرة نفسها شديدة الحميمية كما لو أنني أقود عاشقاً جديداً في أرجاء بيتي.

لكني أوافق، ثم أرافقها في البيت غرفة غرفة، وطابقاً طابقاً. الغرفة الحمراء: «أشعر بأنني محبوسة في وعاء دموي». غرفة المكتبة: «ما أكثر هذه الكتب! هل قرأتها كلها؟» أهز رأسي نفياً... «هل قرأت أي كتاب منها؟» أقهقه ضاحكة.

غرفة أوليفيا: «أليست صغيرة بعض الشيء؟ صغيرة جداً. إنها في حاجة إلى حيز أكبر حتى تستطيع النمو، مثل غرفة إيثان». لكن تعليقها على مكتبي يكون مختلفاً: «أوووه، آآآه، يمكن للفتاة أن تنجز الكثير في هذا المكان».

«حسن، أكثر ما أفعله هنا لعب الشطرنج والحديث مع المحتبسين في بيوتهم... إن كنت تستطيعين إطلاق اسم إنجاز أشياء كثيرة على هذا».

«انظري» تضع كأسها على طوار النافذة وتدس يديها في جيبي بنطلونها الخلفيين. تنحني صوب النافذة، وتقول وهو تنظر إلى بيتها ويصير صوتها منخفضاً في ما يشبه البحّة: «ها هو البيت».

كانت مرحة كثيراً، منطلقة كثيراً، فجعلتني رؤيتها تبدو جادة، هكذا أجفل بعض الشيء كأن إبرة اخترقت ملابسي فوخزتني!

أجيبها: «ها هو البيت».

«جميل، أليس كذلك؟ بيت جيد».

«إنه كذلك».

تواصل النظر إلى الخارج دقيقة بعد ذلك. ثم نعود إلى المطبخ.

أيضاً، بعض وقت من ذلك، تسألني جين وهي تتجول في غرفة المعيشة بينما أجلس مفكرةً في نقلة الشطرنج التالية: «هل تستفيدين كثيراً من هذه؟». الشمس تنحدر سريعاً نحو الغروب؛ وجين تبدو في كنزتها الصفراء تحت هذا الضياء الهش كأنها طيف يسبح في بيتي.

إنها تشير إلى المظلة المستندة إلى جدار بعيد كأنها شخص ثمل.

أجيبها: «أكثر مما تظنين». إميل إلى الخلف في مقعدي وأصف لها أسلوب معالجة د. فيلدينغ في فناء البيت الخلفي، وأصف سيْري

المضطرب خارجةً من الباب، هابطة الدرجات خلفه، ومظلتي المفتوحة تحميني من النسيان. أحدِّثها عن صفاء الهواء في الخارج، وعن هبَّة الريح.

تقول جين: «شيء مثير للاهتمام».

«أظن الكلمة الأصح هي أنه سخيف».

تسألني: «لكن، هل ينجح الأمر؟».

أرفع كتفي قائلة: «نوعاً ما».

تقول، وهي تداعب مقبض المظلة كأنها تداعب رأس كلب: «لا بأس، شكراً لك يا مظلة».

«اسمعي، متى عيد ميلادك؟».

«هل تريدين أن تشتري لي هدية؟».

«مهلك، مهلك».

أقول: «إنه يقترب، في الحقيقة».

«عيد ميلادي يقترب أيضاً».

«الحادي عشر من تشرين الثاني».

تنظر إليَّ نظرة بلهاء: «إنه عيد ميلادي أيضاً».

«أنت تمزحين».

«لست أمزح. الحادي عشر من تشرين الثاني».

أرفع كأسي: «في صحة الحادي عشر من تشرين الثاني». نشرب نخب ذلك التاريخ.

«هل لديك ورقة وقلم؟».

أجلب ورقة وقلماً من الدرج وأضعهما أمامها. تقول لي جين: «فقط، اجلسي هناك. أريدك أن تبدي جميلة». أمسح أهداب عيني بأصابعي.

تبدأ الرسم على الورقة؛ ضربات حادة قصيرة. أنظر إلى وجهي يتشكل تحت قلمها: العينيان العميقتان، والوجنتان الطريتان، والفك السفلي الطويل. أقول لها: «احرصي على إظهار أسناني السفلية الناتئة». لكنها تطلب مني الصمت.

تواصل الرسم ثلاث دقائق، ترفع خلالها كأسها إلى شفتيها مرتين، ثم تقول: «انتهى»، وتقدم لي الورقة.

أتمعَّن في الرسم. تشابه مدهش: «هذا عمل ماهر حقاً!».

«أليس كذلك؟».

«هل تستطيعين رسم أشياء أخرى؟».

«هل تقصدين صور أشخاص آخرين غيرك؟ لك أن تصدقي أو لا تصدقي، أستطيع هذا».

«لا، أعني حيوانات أو طبيعة صامتة».

«لست أدري، إنني مهتمة بالناس أكثر، مثلك أنت». وبنوعٍ من التباهي، تخربش إمضاءها في زاوية الورقة... «تا تا! عمل أصلي منَ أعمال جين روسل».

أضع الرسم في درج المطبخ، ذلك الدرج الذي أحتفظ فيه بمفارش الطاولة الجيدة. سيتسخ، على الأرجح، إذا لم أضعه هناك.

«انظري إلى هذه كلها». إنها تشير إلى الأدوية المبعثرة على الطاولة كأنها أحجار كريمة.

«ما الذي يفعله هذا؟».

«أي واحد؟».

«الوردي. ذو الأضلاع الخمسة. لا، ذو الأضلاع الستة».

«تقصدين العلبة المسدسة».

«صحيح».

«هذا دواء اسمه إديرال. من حاصرات بيتا».

تنظر إليه شزراً، وتقول: «إنه من أجل النوبات القلبية». ومن أجل نوبات الهلع أيضاً، فهو يبطئ معدل ضربات القلب.

«وذلك الدواء الآخر، العلبة البيضوية الصغيرة، البيضاء».

«آريبيرازول. دواء تقليدي مضاد للذهان».

«يبدو هذا أمراً خطيراً».

«يبدو خطيراً، وهو خطير فعلاً... في بعض الحالات. أما في حالتي أنا، فهو مجرد إضافة. يبقيني عاقلة. ويجعلني سليمة أيضاً».

تهز رأسها: «وتلك العلبة؟».

«إيميبرامين. توفرانيل. للاكتئاب. يستخدمونه أيضاً لمن يبللون فراشهم».

«هل تبللين فراشك؟».

«قد أبلّل فراشي اليوم». أقول هذا ثم آخذ رشفة من كأسي.

«وهذا الدواء؟»

«بيمازيبام. أقراص منومة. أستخدمها في وقت لاحق».

تومئ برأسها: «هل يجوز أن تتناولي أي دواء من هذه الأدوية مع الكحول؟».

أبتلع ريقي: «لا يجوز».

أبتلع الأقراص كلها ثم أتذكر أنني تناولتها هذا الصباح.

تلقي جين برأسها إلى الخلف وينبعث الدخان من فمها مثل نافورة: «أرجوك، لا تقولي لي شاه ـ مات». تقهقه ضاحكة... «لا يستطيع كبريائي تقبل ثلاث هزائم متتابعة. تذكري أنني لم ألعب منذ سنين».

أقول لها: «هذا واضح». تبتسم، ثم تضحك كاشفة عن حشوات الأسنان الفضية في فمها.

أنظر إلى القطع التي ربحتها منها: الفيلين، والقلعتين، ومجموعة بيادق. لم تكسب جين إلا فيلاً واحداً. وحصاناً واحداً. تراني أنظر إلى القطع فتقلب الحصان وتقول: «انتهى أمر الحصان. استدعي طبيباً بيطرياً».

أقول لها: «أنا أحب الخيول».

«انظري إلى ما يحدث... لقد استعاد حياته بأعجوبة». تضع الحصان واقفاً من جديد وتمر بإصبعها على رأسه الرخامي.

أبتسم وأفرغ ما بقي في كأسي من نبيذ أحمر. تصب لي المزيد فأقول: «تعجبني أقراطك أيضاً».

تمد أصابعها إلى واحد منها، ثم إلى الآخر... مجموعة صغيرة من اللآلئ في كل أذن.

تقول لي: «إنها هدية من صديق قديم».

«ألا يمانع ألستير في أن تضعيها؟».

تفكر في الأمر قليلاً ثم تضحك: «أشك في أنه يعرف». تدير العجلة الصغيرة في رأس قداحتها بإبهامها وتجعل اللهب يُقبّل سيجارة جديدة.

«تشكّين في أنه يعرف أنك تضعين هذه الأقراط أم في أنه يعرف مصدرها؟».

تستنشق الدخان، ثم تنفثه من جانب فمها.

«هذا وذاك. الاثنان معاً. إنه صعب أحياناً». تضرب سيجارتها ضرباً خفيفاً على حافة الطبق... لا تسيئي فهمي... إنه رجل جيد، وأب جيد أيضاً. لكنه مَيّال إلى التحكم».

«وما السبب؟».

تسألني: «هل تحللين شخصيتي يا د. فوكس؟». صوتها خفيف، رقيق، لكن عينيها باردتان.

«إن كنت أحلل أحداً، فهو زوجك، لا أنت».

تعُبّ الدخان من جديد، ثم يتجهَّم وجهها: «إنه هكذا دائماً. لا يثق كثيراً. على الأقل، لا يثق بي كثيراً».

«وما الذي يجعله هكذا؟».

تقول: «أوه، لقد كنتُ بنتاً شقية! متهتكة. هذه هي الكلمة الصحيحة. إنها... الكلمة التي يستخدمها ألستير، على أية حال. صُحبة سيئة، واختيارات سيئة».

«إلى أن التقيتِ ألستير».

«وحتى عند ذلك. استغرق الأمر بعض الوقت إلى أن استطعت تنظيف نفسي». لا يمكن أن يكون قد استغرق وقتاً طويلاً، هكذا أظن... فمن مظهرها، أرى أنها كانت في أوائل العشرينيات عندما صارت أماً.

إنها تهز رأسها الآن: «صاحبتُ شخصاً آخر بعض الوقت».

«من كان هذا الشخص؟».

تكشّر وتقول: «هل كان هذا صائباً؟ الأمر لا يستحق الذكر. إننا نرتكب الأخطاء جميعاً».

لا أقول شيئاً.

«ثم إن الأمر انتهى. لكن حياتي العائلية لا تزال...» تداعب أصابعها الهواء... «تحمل تحديات كبيرة. هذا هو التعبير الصحيح».

«الكلمة الصحيحة»، أقولها بالفرنسية.

«يبدو أن تلك الدروس في اللغة الفرنسية مثمرة تماماً». تبتسم كاشفة عن أسنانها وترفع سيجارتها إلى أعلى.

أتابع السؤال: «ما الذي يجعل حياتك العائلية مليئة بالتحديات؟».

تخرج الدخان من فمها. تتشكل حلقة دخان دائرية وتطير في الهواء.

أقول لها رغماً عن نفسي: «افعلي هذا من جديد». تطلق حلقة دخان أخرى. أدرك الآن أنني سكِرت.

تتنحنح وتقول: «هل تعرفين؟... ليس هذا شيئاً واحداً. الأمر معقد. ألستير يمثل تحدياً أيضاً. كل أسرة تمثل تحدياً».

«لكن إيثان ولد جيد». ثم أضيف... «أقول هذا لأنني شخص يعرف الولد الجيد عندما يراه».

تنظر في عيني: «يسعدني أنك تظنين هذا. أنا أظن هذا. هذا ما أراه أنا أيضاً». تنفض رماد سيجارتها من جديد... «لا بد أنك مشتاقة إلى أسرتك».

«صحيح. مشتاقة كثيراً. لكنني أتحدث معهم كل يوم».

تومئ برأسها. عيناها سابحتان قليلاً؛ لا بد أنها سكرت أيضاً. تقول لي: «رغم ذلك، ليس هذا مثل أن تكونوا معاً هنا. أليس كذلك؟».

«لا. ليس مثله بالتأكيد».

تومئ برأسها مرة ثانية: «إذن، يا آنا... عليك أن تلاحظي أنني لا أسألك عن السبب الذي جعل الأمور تجري في هذا الاتجاه».

أقول لها: «زيادة الوزن؟ الشيب المبكر؟».

أوه... إنني ثملة حقاً!

تشرب من كأسها: «رهاب الأماكن المفتوحة».

«حسن...» إن كنا نتبادل الثقة، فإن عليّ أن أتكلم... «أصابني هذا بعد حادثة، مثلما يحدث مع الجميع». أتململ في جلستي... «أصبت بالاكتئاب. أصابني اكتئاب شديد جداً. ليس هذا بالشيء الذي أحب أن أتذكره».

لكن أراها تهز رأسها: «لا، لا، ليس هذا... ليس الأمر من شأني. وأظن أنك لا تستطيعين دعوة الناس لإقامة حفلة في بيتك. أفكر فقط أنه علينا أن نجد لك هوايات إضافية... إلى جانب الشطرنج وأفلامك التي بالأبيض والأسود».

«والتجسس على الناس».

«والتجسس على الناس».

أفكر في الأمر ثم أقول لها: «كانت لي هواية التقاط الصور».

«يبدو لي أنها لا تزال لديك».

تستحق عبارتها ابتسامة صغيرة. أقول: «صحيح ما تقولين. لكنني أعني التصوير خارج البيت. إنه ممتع لي».

«شيء يشبه ما نجده على موقع *Humans of New York*؟».

«بل شيء أشبه بتصوير الطبيعة».

«في مدينة نيويورك؟».

«بل في نيو إنغلاند. كنا نذهب إليها بعض الأحيان». تستدير جين صوب النافذة. تقول مشيرة في اتجاه الغرب: «انظري إلى هذا»، فأفعل مثلما قالت لي: غروب مثير، وبقايا ضياء الغسق، والبيوت تبدو على

خلفية هذا الضوء كأنها مصنوعة من ورق. وطائر يرسم دوائر بالقرب من هذا... «إنها طبيعة، أليس كذلك؟».

«نعم، بالمعنى المجازي، بعضها. لكني أعني...».

جادة تماماً، نظرة عينيها هادئة، وصوتها متوازن. عيناها تلاقيان عيني، تمسكان بهما... تقول مصرة على فكرتها: «العالم مكان جميل...»لا تنسي هذا». تتراجع إلى الخلف، ثم تسحق سيجارتها في الطبق الصغير... «ولا تغفلي عنه!».

أبحث عن هاتفي في جيبي، ثم أصوبه إلى الكأس وألتقط صورة. أنظر إلى جين.

تتمتم قائلة: «فتاة جيدة!».

19

أرافقها إلى الصالة بعد السادسة بقليل. تقول لي: «لدي شيء أقوم به، شيء هام جداً».

أجيبها: «وأنا كذلك».

ساعتان ونصف ساعة. متى كنت أستطيع الكلام مع أي شخص... أي شخص!... مدة ساعتين ونصف ساعة؟ أجعل ذهني يعود إلى الخلف، أمده مثل خيط صنارة الصيد، أمده عبر الشهور وعبر الفصول. لا شيء. لا أحد. لم يحدث هذا منذ لقائي الأول مع د. فيلدينغ، منذ زمن بعيد أواسط الشتاء ـ وحتى في ذلك الوقت، ما كنت قادرة على الكلام أكثر من هذا لأن قصباتي التنفسية كانت لا تزال مصابة.

أشعر بأنني شابة من جديد، وأكاد أحس شيئاً من الدوار. لعله النبيذ، لكنني أشك في أنه النبيذ. يا دفتر مذكراتي العزيز... اليوم، صارت لي صديقة!

في وقت لاحق من ذلك المساء، يرن جرس الباب وأنا ناعسة أتابع فيلم «ريبيكا».

ألقي بالبطانية جانباً، وأسير إلى الباب بخطى متثاقلة. يأتي صوت الممثلة جوديث مزمجراً من خلفي: «لماذا لا تذهب؟ لماذا لا ترحل عن ماندرلي ؟».

أنظر إلى شاشة الأنترفون. رجل طويل القامة عريض المنكبين نحيل الوسط له أنف مدبب. يستغرق الأمر لحظة قبل أن أعرف هذا الشخص... اعتدت رؤيته بالألوان الحية... إنه ألستير روسل.

أقول، أو أقول في نفسي: «والآن، ماذا تريد؟».

أظنني قلت هذا حقاً! من المؤكد أنني لا أزال ثملة. ما كان يجوز أن أبتلع تلك الأقراص أيضاً.

أضغط الزر. ينفتح قفل الباب. ويصدر الباب أنيناً. أنتظر إلى أن يتوقف الصوت. عندما أفتح الباب، أراه واقفاً هناك، شاحباً، مضيئاً في الظلام. مبتسماً. أسنانه قوية مزروعة في لثتين قويتين. عينان صافيتان، وعلى محيطهما خطوط صغيرة.

يقول: «أنا ألستير روسل. نحن نعيش في البيت رقم مئتان وسبعة، خلف الحديقة».

أمد له يدي وأقول: «تفضل، أنا آنا فوكس».

يتجاهل يدي الممدودة ويظل واقفاً في مكانه: «لا أريد أن أكون متطفّلاً، حقاً... وأنا أعتذر لأنني أزعجك في وسط شيء ما. أظنك تتابعين فيلماً».

أومئ برأسي.

يبتسم من جديد متألقاً كأنه واجهة متجر في عيد الميلاد: «أردت أن أعرف فقط إن كان أحدٌ قد زارك هذا المساء؟».

أعبس، وقبل أن أستطيع الإجابة، يأتي صوت انفجار من خلفي. إنه مشهد تحطم السفينة. يصيح البحارة: «السفينة تجنح! فلينزل الجميع!»، ثم صوت اصطدام كبير.

أعود إلى الأريكة، وأوقف الفيلم. عندما أستدير لأصير في مواجهة

ألستير من جديد، أجد أنه قد خطا خطوة داخل الغرفة. أراه غارقاً في الضوء الأبيض، وقد تجمعت الظلال في بقعتين من ظلام تحت وجنتيه المرتفعتين. يبدو مثل جثة. ومن خلفه، يتثاءب الباب في الجدار كأنه فم مظلم.

«هل تغلق الباب من فضلك؟».

يغلق الباب فأقول له: «شكراً»... ثم تنزلق الكلمة على لساني انزلاقاً «إنني أتلعثم».

«هل أتيتك وقت النوم؟».

«لا، لا بأس. ألا تريد أن تشرب شيئاً».

«أوه، شكراً، لا أريد شيئاً».

أقول موضحة: «عنيت الماء».

يهز رأسه متأدباً، ثم يكرر السؤال: «هل كان لديك زوار الليلة؟».

حسن، لقد نبهَتْني جين. لا يبدو ألستير شخصاً متحكماً، ليست له عينان جامدتان وشفتان رقيقتان؛ إنه يبدو أشبه بشخصية مرحة من فيلم «أسد في الخريف»، بلحيته التي خالطها الشيب وشعر رأسه المتراجع سريعاً. أتخيله مع إد يصيران صديقين، صداقة شباب، يشربان الويسكي ويتحدثان عن قصص الحرب. لكن المظاهر...، لست أدري!

هذا ليس من شأني، بالطبع. مع ذلك، لا أريد أن أظهر في موقفٍ دفاعي. أقول له: «كنت وحدي طيلة الليلة. أشاهد مجموعة من الأفلام».

«ما هذا الفيلم؟».

«إنه ريبيكا. واحد من أفلامي المفضلة. هل أنت من...؟» ألاحظ عندها أنه يشاهد شيئاً خلفياً وقد ظهر العبوس على حاجبيه. أستدير فأرى رقعة الشطرنج. لقد وضعتُ الكؤوس في آلة غسل الأطباق. وأفرغت بقايا السجائر وغسلت الطبق الصغير. لكن لوحة الشطرنج لا تزال هناك وقد تناثرت عليها القطع الحية والميتة. كان ملك جين الساقط قد تدحرج جانباً. أستدير في اتجاه ألستير. وأقول موضحة، من غير اهتمام: «هذا!

يحب المستأجر عندي أن يلعب الشطرنج». ينظر إليَّ مضيّقاً عينيه. لا أعرف ما يدور في ذهنه. عادة، لا أجد صعوبة في هذا، ليس بعد ستة عشر عاماً أمضيتها في العيش في رؤوس أشخاص آخرين. لكن، لعلّي الآن غير قادرة على قراءة وجهه، لأنني توقفت عن ممارسة عملي. أو لعل هذا بسبب الشراب! ثم... الأدوية أيضاً.

«هل أنت ممن يلعبون الشطرنج؟».

تمر لحظة قبل أن يجيبني: «لم ألعب منذ زمن بعيد. هل أنت هنا مع المستأجر فقط؟»

«لا، إنني... نعم. أنا لا أعيش مع زوجي. ابنتنا معه أيضاً».

«حسنٌ...» يلقي نظرة أخيرة في اتجاه رقعة الشطرنج، ونظرة في اتجاه التلفزيون. ثم يتحرك نحو الباب: «أقدر تضحيتك بوقتك. وأعتذر لأنني أزعجتك».

أقول وهو يسير عابراً الصالة: «لا مشكلة، من فضلك، أنقل إلى زوجتك شكري على الشمعة».

يستدير في مكانه وينظر إليّ.

«أحضرها إيثان».

يسألني: «متى أحضرها؟».

«منذ بضعة أيام. يوم الأحد...». لحظة ـ ما اليوم؟... «أو يوم السبت».

أشعر بالانزعاج؛ لماذا يهتم بتحديد اليوم؟... «هل لهذا أية أهمية؟».

يقف لحظة وفمه نصف مفتوح. ثم يبتسم ابتسامة سريعة غائبة الذهن ويخرج من غير أية كلمة أخرى.

قبل أن أستلقي في سريري، أسترق نظرة عبر النافذة صوب البيت مئتين وسبعة. ها هم هناك. أسرة روسل. مجتمعين في الردهة. جين وإيثان على الأريكة، وألستير على كنبة تقابلهما. أراه يتكلم مندفعاً. رجل جيد وأب جيد.. هكذا قالت لي!

من عساه يعرف ما يجري في أسرة من الأسر. تعلمت هذا عندما كنت

في الجامعة. قال لي ويسلي بعد أول مصافحة بيننا... كانت أصابعه صفراء من النيكوتين: «من الممكن أن تنفقي سنين كثيرة مع أحد المرضى، لكنه يظل يفاجئك دائماً».

سألته: «وكيف هذا؟».

جلس خلف مكتبه ومال بكرسيه إلى الخلف وقال: «من الممكن أن تستمعي إلى أسرار شخص ما وإلى مخاوفه ورغائبه. لكن هذه الأشياء موجودة دائماً إلى جانب أسرار ومخاوف أشخاص آخرين، أشخاص يعيشون معه في المكان نفسه. هل سمعت بتلك الجملة عن أن الأسر السعيدة متشابهة كلها؟».

قلت له: «الحرب والسلم».

«بل آنا كارينينا. لكن هذا ليس مهماً. الفكرة هي أن هذا الكلام غير صحيح. ما من أسرة، سعيدة أو غير سعيدة، تشبه أسرة أخرى تمام الشبه. تولستوي مليء بالكلام الفارغ. تذكري هذا».

أتذكر هذا الآن، وأنا أدير العدسة برفق وأضبط الصورة. صورة عائلية. لكنني أخفض الكاميرا عند ذلك.

الأربعاء

3 تشرين الثاني

20

أجد ويسلي في رأسي عندما أستيقظ.

أجد ويسلي، وأجد صداعاً شربت كثيراً حتى أصل إليه. أنزل إلى غرفة المكتب كأنني أسير عبر الضباب، ثم أجري إلى الحمام وأستفرغ. نشوة رائعة!

إنني أستفرغ بدقة ممتازة، هذا ما اكتشفته. يقول إد إن من الممكن أن أصير محترفة. دفقة ماء واحدة فيختفي كل شيء. أغسل فمي. وأضع بعض اللون على وجنتيّ. ثم أعود إلى غرفة المكتب.

خلف الحديقة، أرى نوافذ بيت روسل فارغة، وغرفهم مظلمة. أنظر إلى البيت فأراه ينظر إلي. أكتشف أنني اشتقت إليهم.

أنظر إلى الجنوب حيث سيارة تاكسي متهالكة تجرجر نفسها في الشارع، وامرأة تسير خلفها بخطى واسعة حاملة كأس قهوة في يدها، وفي يدها الأخرى رسن كلب صغير. أنظر إلى الساعة في هاتفي. إنها العاشرة وثمان وعشرون دقيقة. كيف استيقظت في وقت مبكر إلى هذا الحد؟

صحيح: نسيت قرص تيمازيبام. لا بأس، غلبني النوم قبل أن أتذكره. إنه يفقدني الوعي ويجعلني أغرق في النوم كأنني صخرة.

تدور ذكريات الليلة الماضية في رأسي كأنها تحدث أمامي الآن، تدور كأنها

أضواء ساطعة مبهرة، كأنها تلك اللعبة في فيلم «غرباء في قطار». هل حدث هذا حقاً؟ نعم: فتحنا زجاجة النبيذ التي أتت بها جين، وتحدثنا عن الزوارق، والتهمنا الشوكولاته، والتقطت صورة، وتحدثنا عن أسرتينا، وصففت أقراص الدواء على الطاولة، ثم شربنا المزيد. لا، لم يكن ترتيب الأحداث هكذا.

ثلاث زجاجات من النبيذ ـ أو، هل كانت أربع زجاجات؟ حتى إن كانت كذلك، يمكنني أن أشرب أكثر. شربت أكثر. «أقراص الدواء»... أقول هذا مثلما يصيح المحقق «وجدتها»... جرعتي الدوائية. أتذكر أنني تناولت جرعة مضاعفة يوم أمس. لا بد أن هذا بسبب الدواء. قهقهت جين بعد أن ابتلعتُ تلك الأقراص كلها وأتبعتها بجرعة نبيذ. قالت لي: «أراهن أنها ستجعلك تسقطين على مؤخرتك».

رأسي يؤلمني كثيراً، ويداي ترتجفان. أجد علبة دواء الصداع في أعماق درج مكتبي فأضع ثلاثة أقراص في فمي. جاء موعد انتهاء صلاحية الدواء ومضى منذ تسعة شهور. يتشكل الطفل ويولد خلال تسعة شهور. هكذا أقول في نفسي. تُخلق حياة بأسرها.

أبتلع قرصاً رابعاً، من باب التحسب فقط. ثم... ثم ماذا؟ نعم: ثم جاء ألستير يسألني عن زيارة زوجته.

حركة خلف النافذة. أرفع رأسي وأنظر. إنه د. ميلر خارجاً من بيته متجهاً إلى عمله. أقول له: «أراك في الثالثة والربع. لا تتأخر». كانت تلك قاعدة ويسلي الذهبية... لا تتأخري: «بالنسبة لبعض الناس، هذه أهم خمس عشرة دقيقة في الأسبوع كله. لذا، لا تتأخري مهما يكن لديك شيء تفعليه أو لا تفعليه! لا تتأخري».

ويسلي الذكي. مرت ثلاثة شهور منذ أن تفقدت أمره آخر مرة. أمسك فأرة الكمبيوتر وأزور Google. يتحرك المؤشر في نافذة البحث كأنه ضوء نابض.

أرى أن ويسلي لا يزال أستاذاً مساعداً موهوباً، ولا يزال ينشر المقالات في التايمز وفي عدد من المجلات التخصصية المختارة. ولا يزال يمارس

المهنة أيضاً، بالطبع، رغم أن المكتب انتقل إلى يوركفيل خلال الصيف. أقول «المكتب»، لكنه لا يضم غير ويسلي وموظفة الاستقبال، فويبي، ومعها الجهاز المربع الذي يقرأ البطاقات. معهما أيضاً كرسي ويسلي الدوار المصنوع من الجلد والخشب، كرسي ماركة إيميز. إنه يعشق كرسي إيميز.

يعشق إيميز، لكنه لا يعشق أشياء كثيرة أخرى. لم يتزوج ويسلي أبداً: محاضراته هي حبه، ومرضاه هم أطفاله. كان يحذرني قائلاً: «إياك أن تشعري بالأسف تجاه د. بريل المسكين يا د. فوكس». أتذكر هذا تماماً: سنترال بارك، وبجعات رقابها مثل علامات الاستفهام، وشمس الظهر العالية فوق أشجار الدردار. كان قد طلب مني قبل قليل أن أنضم إليه لأكون شريكته في العمل. قال لي: «حياتي ممتلئة كثيراً. وهذا ما يجعلني في حاجة إليك، أو إلى شخص مثلك. هناك أطفال كُثر نستطيع أن نساعدهم إذا عملنا معاً».

لقد كان محقاً كعهده دائماً.

أبحث في Google/ الصور. يثمر البحث مجموعة صغيرة من الصور ليست من بينها واحدة حديثة العهد تماماً، وليست فيها واحدة تعطيه مظهراً حسناً على نحو خاص. قال لي ذات مرة: «أنا لست ناجحاً في الصور». لم يكن يتذمّر. كانت هالة كثيفة من دخان السيجار تسبح فوق رأسه، وكانت أظافر يده مبقعة مشقّقة.

أكّدتُ على ما قاله: «هذا صحيح، صورك ليست ناجحة».

ينعقد حاجباه الكثيفان ويقول: «صحيح أم غير صحيح؟ أنت قاسية هكذا على زوجك».

«هذا ليس صحيحاً تماماً».

يضحك ضحكة خشنة ويقول: «لا يمكن أن يكون شيئاً ما صحيحاً تماماً. إما أن يكون صحيحًا أو غير صحيح. إما أن يكون حقيقياً أو غير حقيقي».

أجبته: «صحيح تماماً».

يقول إد: «احزري من؟».

أتململ في جلستي وأقول: «هذه جملتي أنا».

«يبدو من صوتك أنك في حالة سيئة تماماً».

«هكذا يبدو، وهكذا أحسّ».

«هل أنت مريضة؟».

أجيبه: «كنت مريضة». لا يجوز أن أخبره شيئاً عن ليلة أمس. أعرف هذا، لكنني أضعف مما يجب. ثم إنني أريد أن أكون صادقة مع إد.

يقول معترضاً: «لا يمكن أن تفعلي هذا يا آنا. ليس وأنت تتناولين الأدوية».

«أعرف هذا».

ندمت منذ الآن على إخباره بأي شيء.

«لكني جاد في ما أقول».

«قلت لك إنني أعرف هذا».

صوته أكثر رقة عندما يتكلم من جديد. يقول: «جاءك زوّار كثر في الآونة الأخيرة. قدر كبير من التنبيه. لعل هؤلاء الناس في البيت الذي خلف الحديقة...».

«آل روسل».

«... لعلهم يستطيعون ترْكك وشأنك بعض الوقت».

«طالما أنني لا أفقد الوعي ويغمَى علي في الخارج، فأنا واثقة من أنهم سيتركونني وشأني».

«أنت لست من شأنهم».

أراهن أنه يقول في ذهنه: «وهم ليسوا من شأنك».

يتابع قائلاً: «ماذا يقول د. فيلدينغ؟».

بدأت أشك في أن إد يطرح هذا السؤال عندما يكون حائراً. أجيبه: «إنه أكثر اهتماماً بالعلاقة بيننا».

«علاقتك بي؟»

«علاقتي بكما معاً».

«آه».

«إد، اشتقت إليك».

لم أكن أريد قول هذا ـ بل لم أدرك أنني كنت أفكر في هذا. إنه اللاوعي، من غير رقابة. أقول موضّحة: «آسفة... كان هذا شيئاً لم أقصده».

يصمت برهة.

وأخيراً يقول: «حسن، والآن إد هو مَن يكلمك».

اشتقت إلى هذا أيضاً... إلى أسلوبه الغبي في التورية. كان يقول لي كثيراً إنني وضعت اسمي «آنا» في «المحللة النفسية»... لمجرد أن حروف اسمي الثلاثة موجودة في هاتين الكلمتين. وكنت أجيبه مشمئزة: «هذا شيء فظيع».

فيجيبني: «تعرفين أنك تحبين هذا». كنت أحب هذا حقاً.

يعود صامتاً من جديد.

وبعد ذلك: «إذن، ما الذي تشتاقين إليه عندي؟».

لم أكن أتوقع هذا. أبدأ القول آملة في أن تكمل الجملة نفسها بنفسها: «أشتاق إلى...» ثم ينهمر كل شيء مثل شلال، مثل ماء مندفع إلى مجراه، مثل انهيار سد. «أشتاق إلى طريقتك في لعب البولينغ»... أقول هذا لأنها الكلمات الغبية الأولى التي تأتي إلى لساني... «وأشتاق إلى أنك غير قادر على ربط شراع الزورق. أشتاق إلى جروح وجهك الصغيرة عندما تحلق ذقنك. أشتاق إلى حاجبيك».

بينما أتكلم، أجد نفسي أصعد درجات السلم، ثم أدخل غرفة النوم... «أشتاق إلى أحذيتك. أشتاق إلى أن تطلب مني القهوة في الصباح. أشتاق إلى تلك المرة عندما وضعت الماسكارا التي أستخدمُها فانتبه إليك

الجميع. أشتاق إلى ذلك الوقت الذي كنت تطلب مني فيه أن أطبخ شيئاً. أشتاق إلى تهذيبك مع عمال المطاعم والمقاهي».

أنا مستلقية في سريري الآن، في سريرنا... «أشتاق إلى البيض الذي تقليه»... مخفوقاً، أو من غير خفق... «أشتاق إلى حكاياتك قبل النوم»... ترفض البطلاتُ الأمراء وتفضلن متابعة دراسة الدكتوراه بدلاً منهم... «أشتاق إلى ذلك التعبير الذي يظهر على وجهك فيجعلك تشبه نيكولاس كيج». لا، هذا في حاجة إلى تعبير أكثر قوة... إنه يشبه بطل فيلم *Wicker Man*... «أشتاق إلى أنك بقيت وقتاً طويلاً تظن أن كلمة ضلّل يجب أن تلفظ ظلّل».

يجيبني: «يا لها من كلمة صغيرة مضلّلة! إنها تظلّلني».

أضحك ضحكة مبللة... أكتشف أنني أبكي: «اشتقت إلى نكاتك الغبية، الغبية. اشتقت إلى رؤيتك تكسر جزءاً من قطعة الشوكولاته حتى تأكلها بدلاً من قضم القطعة الملعونة بفمك مباشرة».

«انتبهي إلى كلماتك».

«آسفة».

«ثم إنها تكون ألذ مذاقاً بتلك الطريقة».

«اشتقت إلى قلبك».

صمت.

«اشتقت إليك كثيراً».

صمت آخر.

ألتقط أنفاسي التي تقطعت: «أحبكما كثيراً. أحبكما، كليكما».

لست أقول أشياء من تلك التي اعتدت قولها... لا شيء من ذلك يمكنني تمييزه... ثم إنني مدربة على اكتشاف الأشياء المكررة. أنا مشتاقة إليه فحسب، مشتاقة إليه وأحبه. إنني أحبه.

إنه الصمت. الصمت الطويل، العميق. أتنفس.

يقول لي برفق: «لكن، يا آنا، إذا...».

أسمع صوتاً في الأسفل. صوت هادئ، حركة بسيطة، لا أكثر. لعلها طقطقة في الجدران.

أقول لإد: «انتظر لحظة».

أسمع عند ذلك صوت سعال جاف، وصوت شيء يشبه اللهاث. أسمعه بوضوح.

هنالك أحد في مطبخي.

أقول لإد: «عليَّ أن أذهب الآن».

«ماذا...».

لكني بدأت الحركة في اتجاه الباب. الهاتف في قبضة يدي وأصابعي تضع الرقم 911، وإبهامي مستعد لطلب المكالمة. أتذكر آخر مرة طلبت هذا الرقم. في الحقيقة، اتصلت بالشرطة أكثر من مرة، أو حاولت الاتصال بهم. سوف يجيبني أحد هذه المرة.

أنزل درجات السلم ببطء وراحة يدي تنزلق على الدرابزين. أحس أن الدرجات غير مرئية تحتي في الظلام.

ألتف حول الزاوية فيبدأ الضوء تسلله إلى السلم. أتجه صوب المطبخ بخطوات متسللة. يرتجف الهاتف في يدي. أرى رجلاً عند آلة غسل الأطباق. ظهره العريض في اتجاهي.

يستدير الرجل. أضغط زر طلب المكالمة.

22

يقول ديفيد: «مرحباً».

يا للهول! أستعيد أنفاسي، ثم أسرع فألغي المكالمة. أدس الهاتف في جيبي.

يقول ديفيد: «إنني آسف. قرعت الجرس منذ نصف ساعة، لكنني أظنك كنت نائمة».

أقول: «لا بد أنني كنت في الحمام».

لا تبدو عليه أية ردة فعل. لعله أحس حرجاً تجاهي... شعري ليس مبللاً... «وهكذا دخلت عبر باب القبو. أرجو ألا يكون هذا مزعجاً لك».

أقول له: «لا بأس، بالطبع! يمكنك المجيء في أي وقت». أسير إلى لأملأ كأساً من الماء. أعصابي متوترة... «ما الذي أردته مني؟».

«أبحث عن أداة قَطع».

«أداة قطع؟».

«أريد مشرطاً».

«هل تقصد ذلك الشيء الذي يفتحون به الصناديق؟».

«بالضبط».

أقول: «... مشرااااط...» ماذا أصابني؟

لحسن حظي، يتابع ديفيد كلامه: «بحثت تحت هذه المغسلة، وبحثت في الدرج عند جهاز الهاتف. بالمناسبة، سلك الهاتف غير موصول. أظنه أنه لا يعمل».

لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة كان فيها هذا الهاتف يعمل.

«أنا واثقة من أنه لا يعمل».

«هل تريدين أن أعالج أمره؟».

لا حاجة إلى ذلك... أقول هذا في رأسي.

أعود في اتجاه السلم: «لديّ مشرط في خزانة الأدوات، هناك في الأعلى». أقول هذا لكني أراه يسير خلفي من غير أن أطلب منه ذلك.

أبلغ فسحة السلم فأستدير وأفتح باب الخزانة الجدارية الكبيرة. مظلمة في الداخل كأنها عود ثقاب قد احترق. أجذب الخيط المتدلي من المصباح العاري. الخزانة أشبه بغرفة صغيرة ضيقة عميقة فيها كراسي البحر المطوية مستندة إلى الجدار عند نهايتها. وعلب للطلاء مصفوفة كأنها أصص زهور على الأرض... فيها أيضاً ورق جدران عليه صور راعيات ورجال نبلاء، وصور غريبة لولد شقي. صندوق أدوات إد جالسٌ

على الرف لم يمسه أحد. لو كان هنا لقال: «وهكذا، أنا لست ماهراً في استخدام الأدوات. من له جسم كجسمي ليس في حاجة إلى ذلك».

أفتح العلبة وأبحث فيها.

«ها هو»... يقول ديفيد مشيراً إلى العلبة: «غمْد بلاستيكي أصفر. ونصل حاد بارز من نهايته».

«ها هو».

أمسك بالمشرط فيقول ديفيد: «انتبهي».

«لن أجرحك». أناوله المشرط بحذر. النصل في اتجاهي أنا.

يقول: «أقول لك أن تنتبهي حتى لا تجرحي نفسك».

تسري في داخلي لمحة سرور كأنها شعلة لهب لا تزال برعماً صغيراً: «ماذا تريد أن تفعل بالمشرط... على أية حال؟».

أجذب الخيط من جديد فتصير الخزانة ليلاً من جديد. ديفيد لا يتحرك. خطر في ذهني ونحن واقفان هناك، أنا في ثوبي البيتي وديفيد حاملاً المشرط، أننا واقفان هذه المرة متقاربين أكثر من أي وقت مضى. يستطيع أن يقبلني، ويستطيع أن يقتلني.

«طلب مني جارنا أن أقوم بشيء من العمل لديه، في بيته. فتح بعض الصناديق والتخلص من بعض الأشياء التي لا لزوم لها».

«أي جار؟».

«في البيت الذي خلف الحديقة. اسمه روسل». يبتعد عن الخزانة متجهاً إلى السلم.

أسير خلفه وأسأله: «كيف وجدك روسل؟».

«لقد وضعت بعض الإعلانات. رأى واحداً منها في المقهى، أو في مكان ما...» يستدير وينظر إليّ: «هل تعرفين روسل؟».

أجيبه: «لا أعرفه حقاً. جاء إليّ البارحة، هذا كل شيء».

عدنا إلى المطبخ. «لديه بعض الصناديق التي يريد فتحها وإخراج ما

فيها، ويريد أيضاً تجميع بعض قطع الأثاث في القبو. يجب أن أعود في وقت ما بعد الظهر».

«لا أظنهم في البيت الآن».

ينظر إلي مضيّقاً عينيه: «كيف تعرفين هذا؟».

لأنني أراقب بيتهم. «لا يبدو لي أن في بيتهم أحداً». أشير إلى البيت مئتين وسبعة من خلال نافذة المطبخ، لكنني أرى نافذة غرفة المعيشة تضيء في تلك اللحظة. أرى ألستير واقفاً هناك ممسكاً بهاتفه بين خده وكتفه. شعره يقول إنه نهض من السرير منذ لحظات.

يقول ديفيد متجهاً إلى باب الصالة: «ها هو الرجل. أعود في وقت لاحق. أشكرك على المشرط».

23

أريد أن أعود إلى الحديث مع إد... سأقول: «احزر من»؛ إنه دوري هذه المرة... لكنني أسمع أحداً يرن جرس الباب بعد لحظة واحدة من خروج ديفيد. أذهب لأرى ما يريده.

أرى امرأة واقفة بالباب. امرأة رشيقة لها عينان واسعتان. هذه بِينا! أنظر سريعاً إلى هاتفي: الثانية عشرة تماماً، بالضبط! يا إلهي!

تقول موضِّحة: «سمح لي ديفيد بالدخول. كلما رأيته، أجد أنه صار أكثر وسامة. إلى أين سينتهي هذا؟».

أجيبها: «لعل عليك أن تفعلي شيئاً في ما يتعلق بهذا الأمر».

«لعل عليك أن تطبقي فمك وتستعدي للتمرينات. اذهبي وارتدي ملابس حقيقية».

أفعلُ مثلما قالت لي. وبعد أن أفرد الحصير نبدأ التمرينات، هناك على أرض غرفة المعيشة. مضت عشرة شهور تقريباً منذ لقائي الأول مع بينا (قرابة عشرة شهور منذ أن خرجتُ من المستشفى بعمود فقري متكدم

وحنجرة مصابة). صارت كل منا شديدة التعلق بالأخرى بعد هذا الزمن كله. بل لعلنا صرنا صديقتين... هكذا يقول د. فيلدينغ.

تضغط على ظهري فيرتعش مرفقاي: «إنه يوم دافئ. يجب أن تفتحي إحدى النوافذ».

أدمدم قائلة: «لن يحدث هذا».

«أنت تضيّعين نهاراً جميلاً».

«إنني أضيّع أشياء كثيرة».

بعد ساعة من ذلك، وبعد أن صار قميصي الخفيف ملتصقاً بجلدي، تساعدني بينا لأنهض على قدمي. تسألني: «ألا تريدين تجربة حيلة المظلة؟».

أهز رأسي نفياً. يلتصق شعري بعنقي: «لا أريد اليوم. ثم إنها ليست حيلة».

«هذا يوم جميل من أجل فعْل ذلك. طقس لطيف معتدل في الخارج».

«لا... إنني... لا».

«هل تعانين صداعاً نتيجة كثرة الشرب؟».

«صحيح، أيضاً».

تطلق زفرة صغيرة: «هل جرّبت المظلة مع د. فيلدينغ هذا الأسبوع؟»

أقول كاذبة: «نعم».

«وكيف جرى الأمر؟».

«جرى جيداً».

«وكم استطعت السير؟».

«ثلاث عشرة خطوة؟».

تنظر إلي بينا متفرسة في وجهي: «لا بأس. ليس هذا سيئاً بالنسبة إلى سيدة في مثل سنك».

«إنني أتقدم في السن أيضاً».

«لماذا؟ متى عيد ميلادك؟».

«الأسبوع المقبل. في الحادي عشر من الشهر. الحادي عشر من الشهر الحادي عشر».

«سيكون عليّ أن أمنحك تخفيضاً كبيراً على السعر بهذه المناسبة».
تنحني وتضع الأثقال في حقيبتها... «فلنأكل الآن».

لست معتادة على الطبخ أبداً ـ كان إد الطباخ في البيت. أما في هذه الأيام فتأتيني المشتريات حتى الباب: وجبات عشاء مجمَّدة، ووجبات يمكن إعدادها بالمايكرويف، وآيس كريم، ونبيذ. (نبيذ بكميات كبيرة). وأيضاً بضع وجبات من الفاكهة والبروتينات البسيطة... من أجل بينا. من أجلي أيضاً، هكذا تردّ عليّ عندما أقول هذا!

عادة نتناول الطعام في وقت متأخر. والظاهر أن بينا مستمتعة بصحبتي. سألتها ذات مرة: «أليس من الواجب أن أدفع لك لقاء مشاركتي الطعام؟».

أجابتني: «يكفي أنك تعدّين الطعام من أجلي».

وضعت شريحة لحم دجاج سوداء في طبقها: «أهذا ما تعنينه بإعداد الطعام؟».

«اليوم لدينا بطيخ مع العسل، إضافة إلى بضع شرائح من اللحم المجفف».

تسألني بينا: «هل أنت واثقة من أنه غير معالَج؟».

«بالتأكيد».

«شكراً لك سيدتي».

تضع قطعة بطيخ في فمها، ثم تمسح العسل عن شفتيها: «كنت أقرأ مقالة عن أن النحلات قادرة على الارتحال ستة أميال بعيداً عن بيتها بحثاً عن غبار الطلع».

«أين قرأت هذا؟».

«الإيكونومست».

«أوه، الإيكونومست!».

«أليس هذا شيئاً مدهشاً!».

«بل هذا محبط. لا أستطيع حتى أن أخرج من بيتي».

«لم تكن المقالة تتحدث عنك».

«لا يبدو لي هذا».

«ثم إنها ترقص أيضاً. يطلقون على هذا الرقص اسم...».

فأكمل: «الرقصة الاهتزازية».

تمزق شريحة لحم إلى اثنتين، ثم تقول: «كيف عرفت هذا؟».

«كان هناك معرض عن النحل في متحف بِتْريفرز في أكسفورد عندما كنت هناك. إنه متحف التاريخ الطبيعي لديهم».

«أوه، أكسفورد».

«أتذكر الرقصة الاهتزازية خاصة لأننا حاولنا تقليدها. الكثير من التدافع والاصطدامات والحركات الخرقاء! شيء يشبه كثيراً طريقتي في تنفيذ التمرينات الآن».

«وهل كنت ثملة وقتها؟».

«لم نكن صاحين».

تقول: «إنني أحلم بهذه النحلات منذ أن قرأت المقالة. ما معنى هذا بحسب رأيك؟».

«أنا لست فرويدية. لا أفسّر الأحلام».

«لكن، إذا أردت تفسير أحلامي».

«إذا أردت، فسوف أقول إن النحلات تمثّل حاجتك الملحّة إلى الكف عن سؤالي عما تعنيه أحلامك».

تمضغ لقمتها وتقول: «سوف أجعلك تعانين بسبب هذا... في المرة المقبلة».

نأكل صامتتين.

«هل تناولت أقراص الدواء اليوم؟».

«تناولتها».

لم أتناولها في الحقيقة. سوف أفعل هذا بعد ذهابها.

بعد لحظة، نسمع صوت تدفق الماء في الأنابيب.
تنظر بينا في اتجاه السلم وتقول: «هل كان هذا صوت المرحاض؟».
«نعم».
«وهل يوجد هناك أحد آخر؟».
أهز رأسي ثم أبتلع ما بفمي وأقول: «يبدو لي أن عند ديفيد صديقة».
«يا للداعر!».
«إنه ليس ملاكاً».
«هل تعرفين من هي؟».
«لا أعرف أبداً. هل غرتِ؟».
«لا، بالتأكيد».
«ألا تحبين أن ترقصي رقصة اهتزازية مع ديفيد؟».
ترميني بكسرة من شريحة اللحم: «لدي تضارب في المواعيد يوم الأربعاء المقبل. مثلما حدث الأسبوع الماضي».
«أختك؟».
«نعم، أختي. عادت مرة أخرى. هل يناسبك يوم الخميس؟».
«الأيام المفردة تناسبني تماماً».
«عظيم جداً». تمضغ طعامها وتدير كأسها بين أصابعها... «تبدين لي متعبة يا آنا. ألا تنامين؟».
أومئ برأسي ثم أهزه: «لا. إن لديّ... أعني، نعم، أنام، لكن هنالك ازدحاماً في رأسي في الآونة الأخيرة. تعرفين أن هذا شاقّ عليّ. كل... كل هذا». أشير بيدي إلى أرجاء الغرفة كلها.
«أعرف أنه لا بد أن يكون مرهقاً لك. أعرف أنه مرهق».
«ثم إن أداء هذه التمرينات معك صعب عليّ أيضاً».
«لكنك تتقدمين جيداً، أؤكد لك هذا».
«والمعالجة النفسية شاقة أيضاً. من الصعب أن أجد نفسي في الجانب الآخر من المعالجة».

«أستطيع أن أتخيل هذا».

أتنفس. لا أريد أن أرهق نفسي.

لكنني أقول شيئاً واحداً، شيئاً أخيراً: «وأنا مشتاقة إلى أوليفيا وإد».

تضع بينا شوكتها وتقول لي: «بالطبع، أنت مشتاقة إليهما». ابتسامتها دافئة جداً... دافئة إلى حد يجعلني موشكة على البكاء.

24

GrannyLizzie: مرحباً يا دكتورة آنا!

تظهر الرسالة على شاشة الكمبيوتر مع رنة موسيقية. أضع كأسي جانباً وأوقف لعبة الشطرنج. إنني متقدمة بثلاثة إلى صفر منذ أن ذهبت بينا. يوم جيد!

Thedoctorisin: أهلاً ليزي! كيف حالك اليوم؟

GrannyLizzie: أحسن. أشكرك كثيراً.

Thedoctorisin: عظيم أن أسمع هذا.

GrannyLizzie: تبرعت بملابس ريتشارد لكنيستنا.

Thedoctorisin: أنا واثقة أنهم قدروا لك هذا التبرع كثيراً.

GrannyLizzie: لقد قدّروه؛ ولو كان ريتشارد هنا لرغب في أن أفعل هذا. وقد صنع لي التلاميذ في الصف الثالث بطاقة كبيرة تتمنى لي الشفاء العاجل. إنها بطاقة ضخمة. نقط براقة وكرات قطن في كل مكان.

Thedoctorisin: ما أحلى هذا!

GrannyLizzie: الحقيقة أنها ليست بطاقة متقنة الصنع. لا تستحق أكثر من درجة متدنية. لكن الفكرة هي الشيء المهم.

أضحك وأكتب لها شيئاً لكنني أحذفه.

Thedoctorisin: لقد عملتُ مع الأطفال أيضاً.

GrannyLizzie: حقاً؟

Thedoctorisin: كنت طبيبة نفسية للأطفال.

GrannyLizzie: أحس أحياناً أن عملي كان هكذا...

أضحك من جديد.

GrannyLizzie: واو واو واو! لقد كدت أنسى!

GrannyLizzie: تمكنت من السير قليلاً في الخارج هذا الصباح. زارني واحد من تلاميذي القدامى وجعلني أخرج من البيت. كان ذلك لدقيقة واحدة فقط، لكن الأمر كان يستحق العناء.

Thedoctorisin: يا لها من خطوة رائعة. ستجدين أن الأمر يصبح أكثر سهولة بعد بلوغك هذه النقطة.

قد لا يكون هذا صحيحاً، لكني آمل العكس، من أجل ليزي.

Thedoctorisin: وكم هو جميل أن يظل تلاميذك مغرمين بك إلى هذا الحد.

GrannyLizzie: إنه سام. ليست لديه أية غريزة فنية، لكنه كان طفلاً لطيفاً جداً، وصار الآن رجلاً لطيفاً جداً.

GrannyLizzie: إلا أنني نسيت مفتاح البيت.

Thedoctorisin: يمكنني فهم هذا.

GrannyLizzie: بقيت لحظة غير قادرة على الدخول.

Thedoctorisin: آمل ألا يكون هذا قد أخافك كثيراً.

GrannyLizzie: أصابني شيء من الذعر، لكنني أحتفظ بمفتاح احتياطي أضعه في إصيص الأزهار. لدي بنفسجات مزهرة الآن.

Thedoctorisin: ليست لدينا هذه الرفاهية في نيويورك.

أضحك بصوت مرتفع!... ثم أبتسم لنفسي. لم تتقن الأمر بعد.

GrannyLizzie: عليَّ أن أذهب الآن لإعداد الغداء. لديّ زوّار بعد قليل.

Thedoctorisin: اذهبي. يسعدني أن لديك أصدقاء.

GrannyLizzie: شكراً لك!

GrannyLizzie: ☺

تخرج ليزي من المحادثة، أما أنا فأحس أنني متألقة. «قد أستطيع فعْل شيء طيب قبل أن أموت»... مسلسل «جودي»، القسم السادس، الفصل الأول.

صارت الساعة الخامسة، وكل شيء على ما يرام. أنتهي من لعب الشطرنج. (النتيجة الآن أربعة إلى صفر!)، وأرتشف ما بقي من نبيذ، ثم أنزل لأتابع التلفزيون. أقول في نفسي وأنا أفتح دُرج الأفلام إنني سأشاهد فيلمين لهيتشكوك مرة واحدة. ربما أشاهد فيلم «حبل» (لم ينل ما يستحق من تقدير)، و«غرباء في القطار» (فيلم يستحق الإشادة به!). الفيلمان من بطولة ممثلين مِثليين ـ أتساءل إن كان هذا هو السبب الذي جعلني أقرنهما معاً. لا أزال في مزاج تحليلي! كما أنني أتحدث مع نفسي كثيراً في الآونة الأخيرة. يجب أن أتذكر قول هذا للدكتور فيلدينغ.

أو قد أشاهد فيلم «شمال، شمال غرب»، أو فيلم «السيدة المختفية»...

أسمع صرخة، صرخة باردة مشبعة بالرعب كأنها مقتلعة من الحنجرة اقتلاعاً.

أستدير صوب نوافذ المطبخ. الغرفة ساكنة تماماً. قلبي يقرع الطبول.

من أين أتت هذه الصرخة؟

أمواج من ضوء أمسية عسليةٍ في الخارج، والريح تعبث بأوراق الأشجار. هل أتت الصرخة من الشارع أم...؟

صرخة آتية من الأعماق تمزق الهواء، صرخة دموية مسعورة: تلك الصرخة... إنها آتية من البيت رقم مئتان وسبعة. نوافذ الردهة الخارجية مفتوحة، فاغرة أفواهها، والستائر تتحرك تحت وقع النسيم. لقد قالت لي بينا: الجو دافئ في الخارج هذا اليوم. يجب أن تفتحي نافذة.

أحدّق إلى ذلك البيت وتنتقل عيناي بين المطبخ والردهة، ثم تصعد إلى غرفة إيثان، ثم تهبط إلى الغرفة من جديد.

أتراه يهاجمها؟ قالت لي إنه شديد الميل إلى التحكم.

ليس لدي رقم هاتفهم. أخرج هاتف الآيفون من جيبي لكنه يسقط على الأرض... «اللعنة»، ثم أطلب خدمة الاستعلام عن الأرقام الهاتفية.

يسألني صوت متجهّم: «ما العنوان؟».

أجيب فيأتيني بعد لحظة صوت مُسجَّل يقول لي الرقم، ثم يقترح أن يعيده باللغة الإسبانية. أغلق الخط وأتصل بالرقم.

رنة الهاتف تتردد في أذني.

رنة ثانية. رنة ثالثة.

يا للـ...

«مرحباً؟». مكتبة الرمحي أحمد

إنه إيثان. مضطرب! هادئ! أنظر إلى بيتهم لكنني لا أستطيع العثور على إيثان.

«هذه آنا؛ خلف الحديقة».

ينشق بأنفه: «مرحباً».

«ما الذي يحدث هناك؟ سمعت صراخاً».

«أوه! لا... لا». يسعل، ثم يقول: «كل شيء على ما يرام».

«سمعت أحداً يصرخ. هل كان ذلك صوت أمك؟».

يكرر: «كل شيء على ما يرام. لقد فقد أعصابه فحسب».

«هل أنت في حاجة إلى عون؟».

صمت قصير، ثم كلمة واحدة: «لا».

أسمع طنين الهاتف في أذني. لقد أقفل الخط. بيته ينظر إلي نظرة محايدة.

ديفيد... ديفيد هناك اليوم. أم... لعله عاد؟ أدق باب القبو، وأنادي باسمه. وللحظة، أخاف أن يفتح لي الباب وجه غريب يقول لي بصوت ناعس، إن ديفيد يجب أن يعود بعد قليل، فهل تسمحين لي بالعودة إلى فراشي؟ أشكرك جزيل الشكر!

لا إجابة.

هل سمع الصراخ؟ هل رأى ما جرى؟
أطلب رقمه في الهاتف.
أربع رنات طويلة لا نهاية لها، ثم رسالة تحية نشطة مسجلة: «نحن آسفون. الشخص الذين تطلبون رقمه...» إنه صوت نسائي... صوت نسائي دائماً. لعل أصواتنا، نحن النساء، تبدو اعتذارية أكثر!
أضغط زر إلغاء المكالمة. أفرك الهاتف بإصبعي كأنه مصباح سحري، وكأن الجنّي سيقفز خارجاً منه جاهزاً لإعطائي نصائحه الحكيمة ولتلبية طلباتي.
لقد صرخت جين. صرخت مرتين. أنكر ابنها وجود أية مشكلة. لا أستطيع أن أطلب الشرطة. فهو إن لم يقل لي شيئاً، فمن المؤكد أنه لن يقول شيئاً لرجالٍ في ملابس شرطة رسمية.
تنغرس أظافري في راحة يدي.
لا. يجب أن أكلمه من جديد... أو، من الأفضل أن أكلمها هي. أفتح سجل المكالمات الأخيرة في الهاتف وأطلب رقم آل روسل من جديد.
يرن الهاتف مرة واحدة فقط قبل أن تأتي الإجابة.
«نعم»، يقولها ألستير بنبرة صوته المبهجة.
أستجمع أنفاسي.
أرفع رأسي وأنظر: ها هو هناك، في المطبخ، حاملاً الهاتف إلى أذنه. أرى مطرقة في يده الأخرى. إنه لا يراني.
«تكلمك آنا فوكس من البيت رقم مئتان وثلاثة عشر. لقد التقينا منذ...»
«نعم، أتذكرك. مرحباً».
«مرحباً»، أقولها ثم أتمنى لو أنني لم أقلها... «سمعت صراخاً قبل لحظة، فأردت أن أتحقق من...».
أراه يدير ظهره في اتجاهي، ثم يضع المطرقة على الطاولة (المطرقة... هل كانت الشيء الذي أخافها؟)... ثم يرفع يده إلى عنقه من الخلف كأنه يهدئ نفسه، يسألني: «عفواً... سمعتِ ماذا؟».

لم يكن يتوقع هذا. أأقول له: سمعت صرخة؟ لا... فلأجعل كلامي رسمياً أكثر: «سمعت صرخة. منذ دقيقة».

يقول لي: «صرخة؟»... وكأنها كلمة أجنبية. تجاهل. شماتة. صرخة.

«نعم، صرخة».

«من أين أتت؟».

«من بيتكم».

استدر. أريد أن أرى وجهك.

«كان هذا... لم يكن هناك صراخ في بيتنا، أؤكد لك هذا». أسمعه يبتسم وأنظر إليه فأراه يستند إلى الجدار.

«لكني سمعتها»... أكد لي ابنك ذلك! هكذا أقول في نفسي رغم أنني لن أقولها له، فقد يغضبه هذا وقد يجعله يفقد عقله.

«أظن أنك سمعت شيئاً آخر، أو أن الصرخة أتت من مكان آخر».

«لا، لقد سمعتها آتية من بيتكم تحديداً».

«ما من أحد هنا غيري أنا وابني. أنا لم أصرخ. وأنا واثق من أنه لم يصرخ أيضاً».

«لكني سمعت...»

«إنني آسف يا سيدة فوكس، لكن عليّ إنهاء المكالمة. لدي مكالمة أخرى. لا صراخ. أؤكد لك هذا».

«أنت...».

«أتمنى لك يوماً طيباً. استمتعي بهذا اليوم اللطيف».

أراه بعيني ينهي المكالمة، وأسمع صوت إنهائها في الهاتف. يرفع المطرقة عن الطاولة ويخرج من الغرفة عبر باب بعيد.

أحدّق في هاتفي غير مصدّقة... كما لو أنه يمكن أن يوضح لي ما يجري. وفي تلك اللحظة تحديداً، عندما ألتفت في اتجاه بيتهم من جديد، أراها أمام باب البيت. تقف ساكنة لحظة مثلما يفعل نمس يحس وجود حيوان مفترس. ثم تنزل الدرجات. تميل برأسها في ذلك الاتجاه، ثم

في هذا الاتجاه، ثم في ذلك الاتجاه من جديد. وأخيراً تمشي في اتجاه الغرب، صوب الجادة، وأرى الشعر الذي يتوج رأسها كأنه هالة لامعة تحت ضياء الشمس.

25

يستند إلى الجدار عند الباب. قميصه قاتم لكثرة العرق، وشعره ملبَّد. في إحدى أذنيه سماعة.

«ماذا قلتِ؟».

أكرر ما قلته: «هل سمعت الصراخ في بيت روسل؟».

سمعته يعود قبل لحظة، بعد نحو ثلاثين دقيقة من ظهور جين عند باب بيتها. وخلال هذه الفترة، كانت آلة التصوير عندي تنتقل من نافذة إلى أخرى في بيت روسل كأنها كلب يتشمّم جحور الثعالب.

يقول ديفيد: «لا، خرجت منذ نحو نصف ساعة. ذهبت إلى المقهى لأشتري سندويتشاً». يرفع قميصه إلى وجهه ويمسح عرقه. الجلد على بطنه يشبه الأمواج... «هل سمعت صرخة؟».

«سمعت صرختين. واضحتين قويتين. قرابة الساعة السادسة».

ينظر إلى ساعته: «لعلي كنت هناك، لكنني لم أسمع جيداً». يقول هذا وهو يشير إلى السماعة في أذنه؛ وأرى السماعة الأخرى متدلية حتى ساقه... «لم أسمع إلا أغاني سبيرينغزتين».

هذه أول مرة أسمعه يتحدث عن أي شيء يفضله، لكن التوقيت غير مناسب. أتابع: «لم يقل السيد روسل إنك كنت هناك. قال إنه وحده في البيت مع ابنه».

«لعلّي كنت قد خرجت في ذلك الوقت».

«لقد اتصلت بك»... يبدو هذا كأنه توسل.

يعبس قليلاً، ثم يخرج هاتفه من جيبه وينظر إليه. يزداد عبوسه وكأن الهاتف قد خذله: «أوه، هل تريدين مني شيئاً؟».

«إذن، فأنت لم تسمع أحداً يصرخ».
«لم أسمع أحداً يصرخ».
أستدير فأسمعه يقول لي من جديد: «هل تريدين مني شيئاً؟».
لكنني كنت قد اتجهت إلى النافذة والكاميرا في يدي.
أراه عندما يخرج. ينفتح الباب، ثم أراه عندما يغلق الباب من جديد. ينزل الدرجات سريعاً، ثم يستدير يساراً ويمشي على الرصيف. صوب بيتي.
أسمع صوت الجرس بعد لحظة من ذلك. أكون منتظرة عند الأنترفون. أضغط الزر وأسمعه يدخل الصالة وأسمع صوت الباب يغلق من خلفه. أفتح باب الصالة فأجده واقفاً هناك. عيناه باردتان حمراوان وقد ظهرت الشعيرات الدموية فيهما.
يقول لي إيثان، وهو يتحرك في مكانه عند العتبة: «أنا آسف».
«لا تكن آسفاً! ادخل».
يتحرك مثل طائرة من الورق فيتجه صوب الأريكة أولاً، ثم صوب المطبخ.
أسأله: «أتريد أن تأكل شيئاً».
«لا، لا أستطيع البقاء»، يهز رأسه والدموع تتساقط على وجهه. دخل هذا الطفل بيتي مرتين؛ وبكي في المرتين أيضاً.
بالطبع، أنا معتادة على الأطفال الذين يعانون الكرَب: البكاء والصراخ ورمي الدمى، وقذف الكتب. لم أكن أستطيع أن أضم أحداً من الأطفال غير أوليفيا. أفتح ذراعي الآن لإيثان، أفتحهما على اتساعهما كأنهما جناحان، فيسير ويدخل بينهما على نحو غريب كأنه يصطدم بي.
للحظة، ثم للحظة أطول، أحس أنني أحتضن ابنتي... أحتضنها قبل يومها الأول، أحتضنها في بركة السباحة عندما ذهبنا في عطلة إلى باربيدوس، أمسك بها وسط ثلوج تتساقط صامتة. قلبها يخفق قبالة قلبي، خفقة منفصلة، ثم قرع متواصل، والدم يندفع سريعاً فينا، كلتينا.

يتمتم بشيء غير واضح عند كتفي فأسأله: «ماذا قلت؟».

يكرر: «قلت لك إنني آسف حقاً». ينتزع نفسه من بين ذراعي ويمسح أنفه بكمه: «أنا آسف حقاً».

«لا بأس. كف عن قول هذا. لا بأس». أرفع خصلة شعر عن عيني، وأرفع خصلة شعر عن عينه... «ما الذي يجري؟».

«أبي...» ثم يتوقف، ثم يلقي عبر النافذة نظرة سريعة في اتجاه بيته. يتوهج ذلك البيت في الظلام كأنه جمجمة... «كان أبي يصرخ، وكنت في حاجة إلى الخروج من البيت».

«أين أمك؟».

ينشق أنفه ويمسحه بكمه من جديد: «لست أدري». نفَسان عميقان، ثم ينظر في عيني... «آسف، لا أعرف أين هي. لكنها بخير».

«هل هي بخير حقاً؟».

يعطس ويطرق برأسه. كان بنتش قد انزلق بين قدميه وراح يحك جسده بساقه. يعطس إيثان من جديد.

«آسف»... نشقة أخرى... «القط». ينظر من حوله كأنه فوجئ بأن يجد نفسه في مطبخي... «يجب أن أعود، سوف يغضب أبي».

«يبدو لي أنه غاضب دائماً». أسحب كرسياً من عند الطاولة وأشير إليها.

ينظر إلى الكرسي ثم تعود عيناه إلى النافذة: «يجب أن أذهب. ما كان يجب أن أخرج. ما كان يجب أن آتي. إنني فقط...».

أنهي جملته: «كنت فقط في حاجة إلى الخروج من البيت. إنني أفهم هذا. لكن، هل العودة آمنة؟».

فاجأتني ضحكته، ضحكة قصيرة ساخرة: «إنه يقول كلاماً كبيراً. هذا كل ما في الأمر. لا أخافه».

«لكن أمك تخافه».

لا يقول شيئاً.

بقدر ما أستطيع أن أرى، لا تظهر على إيثان أيّ علامة من العلامات الواضحة التي تشير إلى إساءة معاملة الأطفال: لا وجود لآثار على وجهه أو ذراعيه، ووجهه مشرق منفتح (رغم أنه بكي مرتين؛ لا يجوز أن ننسى هذا)، ونظافته مُرضية تماماً. لكن هذا انطباع فحسب، نظرة واحدة فقط. إنه، بعد كل حساب، واقف هنا في مطبخي يلقي نظرات خاطفة متوترة في اتجاه بيته على الناحية الأخرى من الحديقة.

أعيد الكرسي إلى الطاولة، وأقول له: «أريد أن يكون رقم هاتفي معك».

يومئ برأسه... على مضض، هكذا أفهم حركته... لكن، لا بأس.

يسألني: «هل يمكنك كتابته من أجلي؟».

«أليس لديك هاتف؟».

هزة رأس: «إنه... أبي... لا يسمح لي بذلك». ينشق بأنفه... «ليس لديّ بريد إلكتروني أيضاً».

ليس هذا مفاجئاً. أجلب إيصالاً قديماً من درج المطبخ وأكتب عليه. أنتبه إلى أنني كتبت رقماً مؤلفاً من أربع خانات فقط... رقمي القديم في العمل... هاتف الطوارئ الذي كنت أعطيه لمرضاي فقط «1 ـ 800 ـ آنا الآن»، هكذا كان إد يقول لي مازحاً.

أشطب ما كتبته: «آسفة. كتبت رقماً غير صحيح». ثم أكتب الرقم الصحيح. عندما أرفع رأسي من جديد أجده واقفاً عند باب المطبخ ينظر إلى بيته عبر الحديقة.

أقول له: «لست مضطراً إلى العودة».

يستدير صوبي. يتردد. يهز رأسه: «عليّ أن أذهب إلى البيت».

أومئ برأسي، ثم أناوله الورقة. يضعها في جيبه.

أقول له من جديد: «يمكنك أن تتصل بي في أي وقت. أعط الرقم لأمك أيضاً».

«لا بأس». إنه يتحرك صوب الباب. ظهره مستقيم، وكتفاه مشدودتان. مستعد للمعركة، هكذا أظن.

«إيثان!»

يستدير بعد أن وضع يده على مقبض الباب

«إنني أعني ما قلته. اتصل في أي وقت».

يومئ برأسه. ثم يفتح الباب ويخرج.

أعود إلى النافذة وأراقبه سائراً في الحديقة. أراه يصعد درجات بيته ويضع المفتاح في القفل. يتوقف لحظة ويستجمع أنفاسه. ثم يختفي داخل البيت.

26

بعد ساعتين من ذلك، أفرغ في فمي ما بقي في الزجاجة من نبيذ، ثم أضعها على طاولة القهوة الصغيرة. أشد نفسي لأنهض. وببطءٍ، أنتصب واقفةً ثم أميل إلى الجهة الأخرى كأنني عقرب ساعة. لا، جُرّي نفسك إلى غرفة نومك، إلى حمامك.

مع الماء المندفع، ومع الأيام الأخيرة التي غمرت دماغي وملأت تلافيفه كلها وراحت تنبع في كل مكان فارغ: إيثان باكياً على الأريكة؛ د. فيلدينغ ونظارته اللامعة؛ بينا وساقها التي تضغط بها على عمودي الفقري؛ وتلك الدوامة الليلية عندما زارتني جين. صوت إد في أذني. ديفيد حاملاً المشرط. ألستير... رجل طيب، وأب جيد. تلك الصرخات.

أعصر بعض الشامبو في راحة يدي، ثم أضعه على شعري بذهن شارد. يرتفع الماء عند قدمي.

وأقراص الدواء... يا إلهي أقراص الدواء. لقد نبّهني د. فيلدينغ منذ البداية، منذ أن كنت أتناول مسكنات الألم فقط: «إن لهذه المواد تأثيرات عقلية شديدة يا آنا. استخدمي الأدوية استخداماً مسؤولاً».

أضغط راحتَي يديَّ على الجدار وأضع رأسي تحت الماء المنهمر

فيختبئ وجهي داخل كهف مظلم من الشعر. شيء ما يحدث لي، شيء ما يحدث في داخلي، شيء خطير، جديد. لقد صارت له جذور... شجرة سامة نمت وكبرت وتفرَّعت وامتدت عروقها في أحشائي ورئتي وقلبي. «الأقراص»، أقول هذا بصوت خافت واهٍ وسط هذا الصخب كأنني أتكلم تحت الماء.

يدي ترسم حروفاً هيروغليفية على الزجاج. أمسح عيني وأقرأ ما كتبت. على الباب الزجاجي كله، كتبت اسم جين روسل مرة بعد مرة.

الخميس

4 تشرين الثاني

27

إنه مستلق على ظهره. أمر بإصبعي على خط الشعر الداكن الذي يقسم جذعه إلى شطرين... خط ممتد من السرة إلى الصدر. أقول له: «يعجبني جسدك».

يزفر ويبتسم، ثم يقول لي: «إياك!»

يبدأ تعداد عيوبه كلها ويدي مستقرة أسفل عنقه: جفاف الجلد الذي يسبب تشققات في ظهره؛ والشامة الوحيدة بين كتفيه كأنه واحد من الإسكيمو واقف وقد تقطعت به السبل فوق امتداد واسع من جليد مهتز؛ وظفر إبهامه المشوَّه؛ ورسغيه الضخمين؛ والندبة البيضاء الضئيلة بين منخريه.

أداعب ذلك الجرح بإصبعي. يدخل ظفري الوردي في أنفه فينخر محتجاً. أسأله: «كيف حدث هذا؟»

يفتل خصلة من شعري حول إبهامه: «إنه ابن عمي».

«لم أعرف أن لك ابن عم».

«لي اثنان. كان هذا من فعل ابن عمي روبن. وضع سكيناً على أنفي وقال إنه سيزيل أحد جانبيه حتى يبقى لي منخر واحد فقط. وعندما هززت رأسي لأقول له ألّا يفعل ذلك، جرحتني السكين».

«يا إلهي».
يزفر ثم يقول: «أعرف. لو أومأت برأسي لأقول له نعم، لمرَّ الأمر على خير».
أبتسم وأقول: «كم كان عمرك؟».
«أوه، حدث هذا يوم الثلاثاء الماضي».
والآن، أضحك فيضحك هو أيضاً.
أرفع رأسي، فينزاح الحلم بعيداً مثلما ينزاح الماء. إنها الذاكرة، حقاً. أحاول التقاط الحلم بكفي... لكنه هرب!
أضغط بكفي على جبهتي آملة في التخلص من صداع الشرب. أزيح الأغطية جانباً، ثم أخلع ملابس النوم وأسير إلى طاولة الزينة وأنظر إلى الساعة على الجدار: إنها العاشرة وعشر دقائق... كأن عقربَيْ الساعة شاربان كبيران على وجهها. لقد نمت اثنتي عشرة ساعة.
خبا نهار أمس مثلما تذبل زهرة فتصير صفراء اللون ذاوية. مشاجرة منزلية؛ شيء مزعج لكنه يحدث كثيراً... هذا ما جرى. سمعته مصادفة، حقاً، وهذا ليس من شأني. لعل إد كان محقاً، أقول هذا في نفسي، وأنا نازلة إلى غرفة مكتبي.
إنه محق طبعاً. مؤثرات كثيرة جداً: نعم، هذا صحيح. بل هي أكثر مما يجب. إنني أنام أكثر مما يجب، وأشرب أكثر مما يجب، وأفكر أكثر مما يجب؛ أكثر مما يجب، أكثر مما يجب. هذا كثير! هل انشغلت بأسرة ميلر إلى هذا الحد عندما عادوا في شهر آب؟ لم يزرني أحد منهم أبداً، أبداً، لكني ظللت أدرس عاداتهم اليومية، أتابع تحركاتهم وألاحقهم كأنهم قروش في البحر. هذا يعني أن أسرة روسل ليست مثيرة للاهتمام على نحو خاص. كل ما في الأمر أنهم قريبون مني، على نحو خاص!
بالي منشغل على جين، وهذا طبيعي. بالي منشغل بإيثان خاصة. قال لي: لقد فقد أعصابه... لا بد أنها كانت حالة ضارية تماماً. لكنني لا أستطيع الاستعانة بخدمات حماية الأطفال، مثلاً. ليس لدي ما أستند إليه.

وفي هذا الوقت، يمكن أن يكون الضرر الناجم عن ذلك أكبر من فائدته. هذا ما أعرفه جيداً.

يرن هاتفي.

لا يرن هاتفي إلا نادراً، وهذا ما يجعلني أعيش لحظة تشوّش وارتباك عندما يرن. أنظر إلى الخارج، كما لو أن رنين الهاتف كان زقزقة عصفور. لا أجد الهاتف في جيوب ثوبي بل أسمع صوته في مكان ما فوقي. عندما أصل إلى غرفة نومي، وأعثر عليه في طيّة من طيّات أغطية السرير. أجده قد صمت.

أقرأ على الشاشة اسم جوليان فيلدينغ. اضغط زر إعادة المكالمة.

«مرحباً».

«مرحباً د. فيلدينغ. آسفة لأنني لم أستطع الإجابة عندما اتصلت بي».

«آنا، مرحباً».

«أهلاً يا دكتور، مرحباً». ما أكثر هذه الشكليات. الصداع ينبض في رأسي.

«إنني أتصل بك... لحظة واحدة...» ينكمش صوته، ثم يعود، يعود قاسياً في أذني... «إنني في المصعد. اتصلت بك لأتأكد من أنك قمت بملء وصفة الأدوية».

أية وصفة... آه، نعم. إنها الأقراص التي استلمتها جين عند الباب.

«نعم، فعلت هذا».

«جيد. آمل ألا تعتبري سؤالي تطفلاً عليك. إنني أتأكد فحسب».

إنني أعتبره تطفلاً في حقيقة الأمر، لكني أقول له: «لا، على الإطلاق».

«يجب أن يظهر أثر الدواء سريعاً جداً».

أشعر باحتكاك بساط السلم بأسفل قدمي: «نتائج سريعة».

«حسن، أفضل تسميتها آثاراً أكثر من نتائج».

إنه لا يهمل شيئاً، هذا الرجل.

أطمئنه وأنا نازلة إلى مكتبي: «سوف أوافيك بالتطورات أولاً بأول».

«قلقت بعض الشيء في أعقاب جلستنا الأخيرة».
أتوقَّف لحظة: «إنني»... لا، لا أعرف ما أريد قوله.
«آمل أن يكون هذا التعديل على أدويتك مفيداً».
أظل صامتة ولا أقول شيئاً.
«آنا؟».
«نعم. وأنا آمل هذا أيضاً».
يخفُت صوته من جديد.
«عفواً، ماذا قلت؟»، يعود صوته طبيعياً بعد ثانية واحدة، ويقول لي: «انتبهي... لا يجوز تناول هذه الأقراص مع الكحول».

28

أنا في المطبخ. أشرب نبيذ ميرلو بعد تناولي الأقراص. أفهم مخاوف د. فيلدينغ، أفهمها حقاً. وأعرف أن الكحول يسبب الاكتئاب، مما يعني أنه غير مناسب لشخص مصاب بالاكتئاب أصلاً. أفهم هذا. لقد كتبت عن هذا... «اكتئاب الشباب وإساءة استخدام الكحول»، كتبته في مجلة علم نفس الطفل (المجلد 37، العدد 4)؛ وشاركني في الكتابة ويسلي بريل. أستطيع أن أذكر النتائج الختامية التي توصلنا إليها... إن كان هذا ضرورياً. كثيراً ما أستشهد بأقوالي، مثلما قال برنارد شو؛ هذا يضيف شيئاً من التوابل إلى أحاديثي. وقد قال برنارد شو أيضاً؛ إن الكحول هي المخدر الذي يجعلنا قادرين على احتمال العملية الجراحية التي هي العيش. برنارد شو... ذلك العجوز الطيب!

فماذا تقول يا جوليان؟ هذه ليست مضادات حيوية! ثم، انظر إلي الآن، إنني أتناول أدويتي مع الكحول منذ سنة تقريباً.

كمبيوتري جالس وسط رقعة من ضوء الشمس على طاولة المطبخ. أفتحه وأزور موقع Agora فأرافق عضوين جدد عبر جولة التعارف، ثم أنظر في مناقشة أخرى حول الأدوية. (أقدم لهم النصيحة: لا يجوز تناول

أي دواء من هذه الأدوية مع الكحول). ومرة واحدة، مرة واحدة فقط، ألقي نظرة سريعة على بيت روسل. ها هو إيثان جالس إلى مكتبه يلعب لعبة على ما أظن، أو يكتب شيئاً؛ لكنه لا يتصفّح الإنترنت، على أية حال. وأرى ألستير جالساً في الردهة واضعاً جهازاً لوحياً في حضنه. أسرة من القرن الحادي والعشرين. لا أرى جين، لكن هذا ليس مشكلة. الأمر ليس من شأني. إنني أتعرض لمؤثرات أكثر مما يجب.

أقول، «إلى اللقاء يا أسرة روسل»، ثم أنقل انتباهي إلى التلفزيون. فيلم «المصباح الغازي» لإنغريد بيرغمان... لم تعد فاتنة، بل إنها تتحول تحولاً بطيئاً إلى امرأة مجنونة.

29

في وقت ما بعد الغداء، أعود إلى كمبيوتري فأرى GrannyLizzie تدخل موقع Agora. الأيقونة الصغيرة إلى جانب اسمها تتحول إلى وجه مبتسم وكأن وجود المرء في هذا المنتدى متعة ومسرة. أقرر أن أتحدث معها.

Thedoctorisin: مرحباً، ليزي.

GrannyLizzie: مرحباً يا آنا.

Thedoctorisin: كيف هو الطقس عندكم في مونتانا؟

GrannyLizzie: إنها تمطر في الخارج، وهذا شيء حسن بالنسبة لفتاة تجلس في البيت مثلما أفعل أنا.

GrannyLizzie: وكيف الطقس في مدينة نيويورك؟

GrannyLizzie: هل أبدو متخلفة إذا قلت هذا؟ أم علي أن أقول نيويورك فقط؟

Thedoctorisin: لا فرق! الجو مشمس هنا. كيف حالك أنت؟

GrannyLizzie: كان اليوم أصعب من يوم أمس، إن أردت الصدق. هكذا هو حتى الآن.

أتناول جرعةً، ثم أدير النبيذ في فمي.

Thedoctorisin: يحدث هذا أحياناً. لا يكون التقدم سلساً دائماً.

GrannyLizzie: أعرف هذا! سوف يجلب لي جيراني مشترياتي إلى البيت.

Thedoctorisin: ما أروغ أن يكون حولك هؤلاء الناس الذين بريدون مساعدتك!

غلطتان كتابيتان بعد أكثر من كأسين من النبيذ. أظن أن هذه نتيجة معقولة تماماً. أقول في نفسي وأنا أرشف النبيذ من جديد: «نتيجة مقبولة تماماً».

GrannyLizzie: لكن، الخبر المهم هو... سوف يزورني ابناي في عطلة نهاية الأسبوع القادمة. أنا راغبة حقاً في أن أكون قادرة على الخروج معهما. راغبة حقاً حقاً.

Thedoctorisin: لا يجوز أن تكوني قاسية على نفسك كثيراً إذا لم تتمكني من الخروج معهما هذه المرة.

فترة صمت.

GrannyLizzie: أعرف أن هذه كلمة خشنة بعض الشيء، لكن من الصعب عليَّ ألّا أحس أنني «مجنونة».

كلمة قاسية حقاً... كأنها وخزات إبر في قلبي. أفرغ كأسي وأشمّر كمَّيْ ثوبي، ثم تندفع أصابعي جارية على لوحة المفاتيح.

Thedoctorisin: أنت لست مجنونة. أنت ضحية ظروف. ما تمرين به صعب جداً. أنا محبوسة في البيت منذ أكثر من عشرة شهور وأعرف، مثلما يعرف غيري، كم هو صعب أن يكون المرء هكذا. أرجوك يا ليزي، لا تعتبري نفسك مجنونة أبداً، ولا تعتبري نفسك فاشلة أو أي شيء آخر، بل أنت شخص قوي ذكي لديه الشجاعة الكافية لأن يطلب المساعدة. يجب أن يكون ابناك فخورَين بك، ويجب أن تكوني فخورة بنفسك.

انتهى! ليس هذا شعراً. بل هو أيضاً ليس لغة سليمة تماماً... كانت

أصابعي تنزلق على المفاتيح. لكن كل كلمة كتبتها كانت صادقة. صادقة تماماً.

GrannyLizzie: هذا رائع. أشكرك كثيراً.

GrannyLizzie: لا عجب في أنك طبيبة نفسية. تعرفين تماماً ما ينبغي قوله وكيف يجب أن يقال.

أحس ابتسامة ترتسم على شفتيّ.

GrannyLizzie: هل لديك أسرة؟

تتجمد الابتسامة على شفتيّ.

قبل الإجابة، أصب لنفسي كأس نبيذ. تمتلئ الكأس إلى حافتها فأحني رأسي وأرتشف منها القليل من غير أن أحرّكها. تجري قطرة على شفتي، تنزلق إلى ذقني، ثم إلى ثوبي. أمسحها بالثوب نفسه. أمر حسن أن إد ليس هنا ليراني. أمر حسن أن أحداً لا يراني الآن.

Thedoctorisin: لدي أسرة، لكننا لا نعيش معاً.

GrannyLizzie: لماذا لا تعيشون معاً؟

حقاً... لم لا؟ لماذا لا تعيشون معاً يا آنا؟ أرفع الكأس إلى فمي، ثم أعيدها من جديد.

ينبسط المشهد أمامي مثل مروحة يابانية. سهول الثلج الواسعة، والفندق الصغير كعلبة شوكولاته، وآلة مكعبات ثلج قديمة.

ثم، يا للمفاجأة... لقد بدأت أحكي لها.

30

قبل عشرة أيام، قررنا الانفصال. تلك هي نقطة البداية، نقطة «كان يا ما كان...». أو بالأحرى، حتى يكون الأمر منصفاً تماماً، حتى يكون صادقاً تماماً... إد هو الذي قرر، وأنا وافقت من حيث المبدأ. أعترف بأنني لم أظن أن هذا يمكن أن يحدث، لم أظن ذلك حتى عندما أرسل في طلب الوكيل العقاري حتى يبيع البيت. لا يمكن أن يكون قد خدعني.

وأما عن السبب، فأقول في نفسي إنه ليس بالشيء الذي يجب أن تشغل به ليزي نفسها. إنه شيء ليس لليزي أن تشغل نفسها به (... مثلما يمكن أن يصر ويسلي على القول؛ لقد كان شديد التدقيق في الاقتراحات المعلقة التي تنتظر رأيه. أظنه لا يزال هكذا). لكن لا: السبب ليس بذي أهمية، ليس هنا. وأما المكان والزمان، فيمكنني أن أتحدث عنهما.

كان ذلك في فيرمونت، في شهر كانون الأول الماضي، عندما أجلسنا أوليفيا في سيارة الأودي وانطلقنا في الطريق رقم 9A فعبرنا جسر هنري هدسون وخرجنا من مانهاتن. وبعد ساعتين من ذلك، دخلنا القسم الشمالي من نيويورك فسِرنا فيما يحب إد أن يسميها الطرق الخلفية... «فيها مطاعم واستراحات ومحلات حلوى كثيرة من أجلنا»، هكذا وعد أوليفيا.

«مام، لا تحب المعجنات».

«يمكنها أن تذهب إلى محلات المصنوعات الحرفية».

قلت: «مام، لا تحب المصنوعات الحرفية».

ثم اتضح أن الطرق الخلفية في تلك المنطقة خاملة إلى حد كبير، في ما يتعلق بمحلات المعجنات وبمحلات المصنوعات الحرفية أيضاً. عثرنا على محل IHOP وحيد للمعجنات في أقصى شرق نيويورك، حيث راحت أوليفيا تغمس حلوى الوافل في شراب القيقب المكثف (تزعم قائمة الطعام أنه ذو مصدر محلي)؛ أما أنا وإد فرحنا نتبادل نظرات حادة من فوق الطاولة. وفي الخارج، بدأ هطول ثلج خفيف، وبدأت ندف ثلج هشة صغيرة تصطدم بالنوافذ كأنها تحاول الانتحار. أشارت أوليفيا إليها بشوكتها وراحت تصرخ.

بارزت شوكتها بشوكتي وقلت لها: «سيكون هنالك المزيد من الثلج في بلو ريفير». كانت بلو ريفير وجهتنا الأخيرة، منتجع للتزلج في وسط فيرمونت كانت صديقة أوليفيا قد زارته وحدثتها عنه. ليست صديقتها، بل واحدة من زميلاتها في الصف.

عدنا إلى السيارة، ثم عدنا إلى الطريق. كانت السفرة هادئة إجمالاً. لم نقلِ شيئاً لأوليفيا فلا معنى لإفساد عطلتها؛ هكذا قلت لإد فأومأ برأسه موافقاً. سوف نتدبر أمرها فيما بعد.

وهكذا اجتزنا صامتَيْن تلك الحقول الواسعة والجداول الصغيرة المزينة بالجليد وعبرنا قرى منسية، ثم مررنا بعاصفة ثلجية خفيفة بالقرب من حدود فيرمونت. وعند نقطة ما، بدأت أوليفيا تغنّي «فوق المروج وعبر الغابات» فانضممت إليها محاولة مجاراة اللحن، لكنني فشلت.

قالت أوليفيا راجية: «بابا، هل تغني معنا؟». إنها تفعل هذا دائماً: تسأل ولا تطلب. شيء غير معتاد في الأطفال. أقول في نفسي أحياناً إنه شيء غير معتاد عند الجميع.

تنحنح إد، ثم غنَّى.

لم يتخلَ عن جموده إلا بعد أن بلغنا الجبال الخضراء الصاعدة من الأرض كأنها أكتاف ضخمة. كانت أوليفيا قد استنفدت أنفاسها. قالت لاهثة: «لم أر أشياء كهذه أبداً» فعجبت أين سمعتْ هذه الكلمات بهذا الترتيب.

سألتها: «هل تعجبك الجبال؟».

«إنها أشبه ببطانية مجعدة».

«هذا صحيح».

«كأنها سرير العملاق».

كرر إد خلفها: «سرير العملاق؟».

«نعم... كأنها عملاق نائم تحت بطانيته. هذا ما يجعلها مجعدة هكذا».

دخلنا منعطفاً حاداً، فقال لها إد: «سوف تتزلَّجين غداً فوق جبل من هذه الجبال، سوف نصعد عالياً، عالياً، عالياً، في مصعد التزلج، ثم ننزل إلى أسفل، إلى أسفل... إلى أسفل الجبل».

كررت أوليفيا: «أعلى، أعلى، أعلى». كانت الكلمات تخرج من بين شفتيها كأنها انفجارات صغيرة.

«ستفعلين ذلك».
«ثم أسفل، ثم أسفلٍ، ثم أسفل».
«ستفعلين هذا أيضاً».
«هذا الجبل شكله مثل الحصان، تلك هما أذناه». أشارت إلى قمتين مرتفعتين ضيقتين في البعيد. كانت أوليفيا في تلك السن التي يذكّرها كل شيء فيها بالحصان.
«لو كان لديك حصان يا أوليفيا، فما الاسم الذي تطلقينه عليه؟».
أضفت من عندي: «لن يكون لدينا حصان أبداً».
«سوف أدعوه فيكسن».
قال لها إد: «فيكسن اسم للثعالب... ثعلبة أنثى».
«سيكون حصاني سريعاً مثل الثعلب».
رحنا نفكر في هذه المقارنة.
«ما الاسم الذي تطلقينه على حصانك يا مام؟».
«ألا تريدين أن تناديني ماما؟».
«لا بأس».
«لا بأس؟».
«لا بأس يا ماما».
«سوف أسمي حصاني طبعاً طبعاً». نظرت إلى إد... لا شيء.
سألتني أوليفيا: «لماذا؟».
«هذا اسم من أغنية في التلفزيون».
«وما هي تلك الأغنية؟».
«إنها من فيلم قديم عن حصان يتكلم».
«حصان يتكلم؟» كشرت قليلاً... «هذا شيء غبي».
«معك حق».
«بابا، ماذا تسمي حصانك؟».
نظر إليها إد في المرآة: «أنا أيضاً أحب اسم فيكسن».

صاحت أوليفيا: «واو». أما أنا فأدرت وجهي جانباً.

لقد انفتحت هوة بيننا، انفتحت هوة تحتنا، هوة كبيرة لا قرار لها، وعاء ضخم من اللاشيء؛ قعر هذا الخواء مفروش بنباتات دائمة الخضرة، وبقع ضباب معلقة وسط الهواء. كنا شديدي القرب من حافة الطريق حتى بدونا كأننا نسبح أو نطير. كأن في وسعنا أن ننظر في بئر العالم.

سألتني أوليفيا: «كم يبلغ العمق إلى الأسفل؟».

أجبتها ملتفتة في اتجاه إد: «الكثير. هل يمكن أن تخفف البطء قليلاً يا إد؟».

«أخفف البطء؟».

«خفف السرعة... مهما يكن ذلك! فقط... هل يمكن أن نسير أبطأ قليلاً؟».

خففَ إد السرعة قليلاً.

«هل يمكن أن نبطئ أكثر؟».

أجابني: «لا بأس بها هكذا».

قال أوليفيا: «هذا مخيف». كان الخوف واضحاً في صوتها، وارتفعت يداها لتغطيا عينيها. خفف إد السرعة.

قلت لها وأنا ألتفت إليها: «لا تنظري إلى الأسفل يا حبيبتي. انظري إلى ماما».

فعلتْ مثلما قلت لها. كانت عيناها متسعتين. أمسكت بيدها وجمعت أصابعها في كفي. قلت لها: «لا تخافي، انظري إلى ماما فقط».

كانت خطتنا تقضي بأن ننزل في مكان بالقرب من بلدة «تو باينز»، على مسافة نصف ساعة من المنتجع... كان الإعلان عن هذا المكان في الإنترنت يقول مباهياً: «أحسن نزل تاريخي في فيرمونت الوسطى»... بيوت صغيرة متلاصقة وسط الغابة يرسم الثلج زخارفه على نوافذها.

توقفنا أمام الفندق في ساحة وقوف السيارات الصغيرة. كانت أصابع الجليد متدلية من الإفريز فوق الباب الأمامي كأنها أنياب. وفي الداخل

ديكور نيو إنغلاند الريفي: سقف شديد الانحدار، وأثاث أنيق لكنه رَثّ، وألسنة لهب تتراقص في موقد يصلح لالتقاط الصور. كانت موظفة الاستقبال شابة شقراء ممتلئة الجسم على صدرها بطاقة تحمل اسمها، «ميري». طلبت منا التوقيع على سجل الزائرين ثم نثرت زهور السوسن على الطاولة بعد أن انتهينا من التسجيل. تساءلت في نفسي إن كانت ستخاطبنا بعبارة «يا ناس» المألوفة هناك.

«هل أنتم آتون للتزلج يا ناس؟».

أجبتها: «نعم. في بلو ريفر».

ابتسمت ميري لأوليفيا ابتسامة كبيرة وقالت: «يسعدني أنكم تمكنتم من الوصول. هنالك عاصفة آتية».

سألها إد محاولاً أن يبدو من سكان المنطقة: «شمالية شرقية؟».

سددت إليه ابتسامتها الليزرية: «عادة ما تصيب العواصف الشمالية الشرقية منطقة الساحل يا سيدي».

قلت شبه مجفلة: «أوه».

«هذه عاصفة فحسب. لكنها ستكون عاصفة ضخمة. احرصوا يا ناس على إغلاق نوافذكم جيداً هذه الليلة».

وددت أن أسألها عن السبب الذي يجعل النوافذ غير مقفلة في الأسبوع الذي يسبق عيد الميلاد، لكن ميري أسقطت المفاتيح في راحتي وتمنت لنا... يا ناس... أمسية جميلة.

أدخلنا حقائبنا إلى الصالة (لم تكن «التسهيلات والخدمات الكثيرة» في نزل فيشر آرمز مشتملة على خدمة إدخال الحقائب). ثم دخلنا جناحنا. كان الموقد مزيَّناً بصور طواويس؛ وطبقات من البطانيات موضوعة عند نهايات الأسرّة. وعلى الفور، ذهبت أوليفيا إلى المرحاض وتركت الباب نصف مفتوح: لديها خوف من الحمامات الغريبة.

تمتمتُ قائلة: «مكان لطيف».

ناداها إد: «أوليفيا، كيف هو الحمام؟».

«بارد».

سألني إد: «أي سرير تفضلين؟».

اعتدنا دائماً في العطلات أن ننام في سريرين منفصلين حتى لا يصير السرير ضيقاً عندما تأتي أوليفيا لتندس فيه. وهذا ما تفعله دائماً. كانت في بعض الليالي تنتقل من سرير إد إلى سريري ثم تعود من جديد. وكان يطلق عليها اسم «بونغ». أتى بهذا الاسم من لعبة الأتاري التي تنطلق فيها الكرة، وهي تصطدم بقضيبين اثنين مرتدة من واحد إلى آخر قبل أن تستقر في حفرة من الحفر الأربع.

«أنت خذ السرير الذي عند النافذة». جلستُ على حافة السرير الآخر وفتحت حقيبتي... «ومن الأفضل أن تتأكد من إقفالها».

ألقى إد بحقيبته على الفراش. بدأ يخرِج محتوياتها صامتاً. وخلف النافذة، كانت ستارة الثلج المتساقط تتمايل وتخفق رمادية بيضاء في ضياء الغسق الزاحف.

وبعد هنيهة، رفع إد كمّه وحكّ ذراعه. قال لي: «هل تعرفين...» فاستدرت إليه.

سمعنا صوت اندفاع الماء في المرحاض، ثم دخلت أوليفيا الغرفة متقافزة من ساق لأخرى وسألت: «متى يمكننا ركوب مصعد التزلج؟».

كان من المقرر أن نتناول طعام العشاء الذي اشتريناه جاهزاً مع بعض علب العصير، كما وضعت زجاجة نبيذ «سوفينيون بلان» الأبيض في الحقيبة بين ملابسي. لكن النبيذ صار في حرارة الغرفة الآن، وإد يحب النبيذ الأبيض «جافاً حقاً، وبارداً حقاً»... هكذا كان يقول لعمال المطاعم دائماً. اتصلت بمكتب الاستقبال في الفندق وطلبت منهم مكعبات ثلج. أجابتني ميري: «هنالك آلة لمكعبات الثلج في الممر بعد غرفتكم مباشرة. احرصي على ضغط الغطاء بقوة».

أخذت دلو الثلج من البار الصغير تحت التلفزيون، وذهبت إلى الممر فوجدت آلة مكعبات الثلج العتيقة تهمهم في تجويف صغير على

بعد خطوات من بابنا. قلت للآلة: «صوتك يشبه صوت فراش يزقزق». ضغطت الغطاء بقوة حقيقية فانزلق إلى الخلف واندفع الهواء البارد مصطدماً بوجهي، هواء بارد كالجليد... مثلما تكون أنفاس الناس في إعلانات علكة النعناع.

لم أجد المجرفة الصغيرة فبدأت أغرف مكعبات الثلج بيدي. أحرقت البرودة أصابعي. التصقت المكعبات بجلدي. هذا كثير على تلك الآلة العتيقة.

وهناك وجدني إد... يدي مغمورة حتى المعصم في مكعبات الثلج.

ظهر إلى جانبي فجأة، مستنداً إلى الجدار. مرت لحظة تظاهرت خلالها بأنني لا أراه. كنت أنظر إلى قاعدة الآلة كأن منظرها قد سحرني، وواصلت غرف مكعبات الثلج متمنية أن يذهب، متمنية أن يحتضنني.

«هل يعجبك هذا؟».

استدرت إليه ولم أحاول اصطناع المفاجأة.

قال لي: «انظري...» دعينا نعيد التفكير في هذا. تخيّلت أنه سيكمل جملته هكذا. بل حتى... لقد بالغت في ردة فعلي.

لكنه سعل قليلاً (كان يعاني زكاماً في الأيام القليلة الماضية، منذ ليلة الحفلة)، فانتظرته.

ثم تكلم: «لا أريد أن نفعلها بهذه الطريقة».

اضغط بيدي على قبضة من مكعبات الثلج: «نفعل ماذا؟». أحسست بقلبي يفقد الوعي. قلت له مرة أخرى: «نفعل ماذا؟».

أجابني بصوت شبه هامس: «هذا»... لوح بذراعه في الهواء... «أسرة واحدة سعيدة في عطلة، ثم... في اليوم الذي يلي عيد الميلاد، سوف نـ...» تباطأ قلبي؛ واحترقت أصابعي: «ما الذي تريد فعله؟ أتريد أن نخبرها الآن؟».

لم يقل شيئاً.

أسحب يدي من الآلة، ثم أغلق الغطاء. لم أغلقه «بقوة كافية حقاً». لم

يغلق إلا حتى منتصف المسافة. أسندت دلو الثلج إلى ردفي وضغطت على الغطاء. أمسك به إد وأغلقه.

سقط دلو الثلج مني، وتدحرج على السجادة. تناثرت مكعبات الثلج على الأرض.

«خراء».

قال لي: «انسي الأمر. لا أريد أن أشرب شيئاً».

ركعت لأعيد المكعبات إلى الدلو، وقلت: «أنا أريد أن أشرب». وقف إد ينظر إلي.

سألني: «ما الذي تريدين فعله بهذه المكعبات؟».

«أأتركها تذوب هنا؟».

«نعم، اتركيها».

وقفت ووضعت الدلو فوق الآلة: «هل تريد حقاً أن تفعل هذا الآن؟».

تنهد وقال: «لا أرى ما يجعلنا...».

«لأننا هنا بالفعل. لأننا...» أشرت إلى باب جناحنا.

أومأ برأسه: «لقد فكرت في هذا».

«أنت تفكر كثيراً في الآونة الأخيرة».

تابع كلامه: «فكرت في أنه...».

صمت من جديد، ثم سمعت صوت فتح باب من خلفي. أدرت رأسي فرأيت امرأة متوسطة العمر تسير في الممر متقدمة صوبنا. ابتسمت ابتسامة حيية ولم تنظر إلينا مباشرة. شقت طريقها بين مكعبات الثلج على الأرض، ثم اتجهت نحو ردهة الاستقبال.

قال لي: «ظننت أنك راغبة في بدء الشتاء على الفور. هذا ما قلته لواحدة من مريضاتك».

«لا تقل... من فضلك، لا تقل لي ما أقوله، أو ما لا أقوله».

لم يقل شيئاً.

«ثم إننا لا يمكن أن نتحدث بهذه الطريقة مع طفلة».

«من الممكن أن تتكلمي هكذا مع أبويك».

«لا تقل لي كيف يمكن أن أتكلم».

مزيد من اللاشيء.

«وبحسب ما تعرف ابنتنا، فليس هناك ما يستوجب الشفاء منه».

تنهد من جديد ومر بأصابعه على سطح دلو الثلج: «الحقيقة هي... يا آنا...» قال هذا لي، وكنت قادرة أن أرى الثقل في عينيه، وذلك الجرف العريض عند حاجبيه وقد صار موشكاً على الانهيار... «الحقيقة أنني ما عدت أستطيع احتمال هذا أبداً».

أطرقت برأسي صوب الأرض ونظرت إلى مكعبات الثلج التي بدأت تذوب هناك. لم يتكلم أي منا. لم يتحرك أي منا. لم أدرِ ما يمكن أن أقوله.

ثم، سمعت صوتي، سمعته منخفضاً، ناعماً: «لا تلمني عندما تكون أوليفيا حزينة».

صمت قصير، ثم يأتي صوته أرقّ من صوتي: «إنني ألومك». استنشق الهواء، ثم زفر. قال لي: «كنت أفكر فيك كما لو أنك ابنة الجيران». تأهبت استعداداً لسماع المزيد.

«لكنني صرت الآن شبه عاجز عن النظر إليك».

أغمضت عيني، واستنشقت عبر الثلج البارد. لم أفكر في يوم زفافنا، ولا في ليلة مولد أوليفيا، بل في ذلك الصباح الذي ذهبنا فيه إلى جني الفراولة في نيوجرسي... أوليفيا تزعق وتضحك في حذائها المقاوم للماء وهي مدهونة بالواقي الشمسي كأنها مدهونة بالزبدة. سماء هادئة فوقنا، وشمس أيلول تشع علينا. بحر واسع من الثمار الحمراء كالورد من حولنا. إد بيدين ممتلئتين وعينين متألقتين، وأنا ممسكة بأصابع ابنتنا الدبقة. أتذكر كيف خوّضنا في الماء حتى أردافنا، فأحسست به يفيض إلى قلبي ويجري في عروقي ويرتفع إلى عيني.

رفعت رأسي ونظرت في عيني إد، في تلك العينين البنيتين الداكنتين.

قال لي في لقائنا الثاني بعد تعارفنا: «عيناي عاديتان تماماً»، لكني كنت أراهما جميلتين. لا تزالان جميلتين.

قابل نظرتي بمثلها. وكانت آلة مكعبات الثلج تهدر بيننا. وعندها ذهبنا معاً لكي نخبر أوليفيا.

31

Thedoctorisin: وعندها ذهبنا لكي نخبر أوليفيا.

أتوقف لحظة. كم تريد أن تعرف أيضاً؟ وكم أستطيع احتمال إخبارها أيضاً؟ قلبي يؤلمني منذ الآن، يوجعني هذا الذي في صدري.

ما من إجابة حتى بعد مرور دقيقة. أتساءل إن كان هذا الكلام كله لا يعدو أن يكون اقتراباً من ليزي أكثر مما يجب؛ فأنا أتكلم هنا عن انفصالي عن زوجي بينما خسرت ليزي زوجها خسارة لا يمكن لها أن تستعيدها. أتساءل إن...

لقد خرجت GrannyLizzie من المحادثة.

أحدّق في الشاشة.

صار علي الآن أن أتذكر بقية القصة وحدي.

32

«ألا تشعرين بالوحدة لأنك هنا وحدك؟». أستيقظ من نومي على صوت يسألني، صوت ذكوري من غير تعبير. أفتح عيني بصعوبة.

«أظنني ولدت وحيدة»... صوت امرأة الآن. صوت مشبع رنان.

يتراقص الضوء والظل في مجال رؤيتي. إنه فيلم «ممر مظلم»... بوجي وباكال يتحدثان في غرفة نومهما من خلف طاولة القهوة.

«ألهذا تذهبين لحضور محاكمات جرائم القتل؟».

أما على طاولة القهوة في غرفتي فتقبع بقايا العشاء: زجاجتا ميرلو فارغتان، وأربع علب دواء.

«لا. ذهبت لأن قضيتك تشبه قضية أبي».

أضرب بيدي بحثاً عن جهاز التحكم إلى جانبي. أبحث من جديد.

«أعرف أنه لم يقتل زوجة أبي...» تظلم شاشة التلفزيون وتظلم غرفة المعيشة معها.

كم شربت يا ترى؟ صحيح: شربت ما يعادل زجاجتين. هذا غير ما شربته على الغداء. أف... إنها كمية كبيرة من النبيذ. يجب أن أعترف بهذا.

وماذا عن الأدوية؟... هل تناولت الكمية الصحيحة هذا الصباح؟ هل تناولت الأقراص الصحيحة؟ أعرف أنني كنت مهملة في الآونة الأخيرة. لا عجب في أن يظن د. فيلدينغ أن حالتي تزداد سوءاً. أوبِّخ نفسي قائلة... «أنت سيئة في الآونة الأخيرة».

أنظر داخل علب الدواء. واحدة منها شبه فارغة؛ ما عاد فيها إلا قرصان اثنان، حبتان بيضاوان صغيرتان تقبعان متباعدتين عند جانبي العلبة.

يا إلهي؛ إنني ثملة تماماً.

أرفع رأسي وأنظر إلى النافذة. أرى في الخارج ظلمة. إنه الليل. أبحث عن هاتفي فلا أعثر عليه. الساعة الجدارية العتيقة تلوح عند الزاوية، تك تك كأنها تحاول لفت انتباهي. التاسعة وخمسون دقيقة. أقول لنفسي: «التاسعة وخمسون دقيقة». هذا ليس شيئاً عظيماً. ما رأيك في العاشرة وعشر دقائق؟ «العاشرة وعشر». هذا أفضل. أومئ برأسي في اتجاه الساعة وأقول لها: «شكراً». تنظر الساعة إليَّ نظرة كلها وقار.

أتثاقل صوب المطبخ الآن. أتثاقل... ألم تصفني جين روسل بأنني أسير متثاقلة الخطى... في ذلك اليوم، عندما سرت إلى الباب؟ هؤلاء الأوباش الصغار، والبَيض الذي يقذفونه. هذا يشبه الترنح في فيلم «أسرة آدمز». الخادم الغاضب. تحب أوليفيا أغنية هذا الفيلم!

أضع يدي على صنبور الماء، ثم أضع رأسي تحته وأدير المقبض في اتجاه السقف. دفقة من ماء أبيض. أفتح فمي في اتجاهها وأعب الماء بعمق.

أمر بيدي على وجهي، ثم أعود إلى غرفة المعيشة. تنتقل عيناي في أرجاء بيت أسرة روسل: أرى ألقاً شبحياً صادراً عن كمبيوتر إيثان، وأرى الطفل منكباً على مكتبه. أرى المطبخ الخاوي أيضاً. وأرى ردهتهم، متألّقة مرحة. ثم أرى جين في قميص أبيض كالثلج جالسة على الأريكة الصغيرة المخططة. ألوِّح لها بيدي. لا تراني.

ألوِّح بيدي من جديد.

لا تراني.

قدم واحدة، ثم القدم الأخرى، ثم القدم الأولى، وبعدها القدم الأخرى... أنا لا أنسى القدم الأخرى. أذوب في الأريكة، وأميل برأسي على كتفي. أغمض عيني. ماذا أصاب ليزي؟ هل قلت لها شيئاً خاطئاً؟ أحس أن وجهي يتجهّم.

يمتد مستنقع الفراولة البرية أمامي، متلألئاً، متحركاً. يد أوليفيا تمسك بيدي.

دلو مكعبات الثلج يسقط على الأرض.

سوف أتابع ما تبقّى من الفيلم.

أفتح عينيَّ، وأستخرج جهاز التحكم المدفون تحتي. تصدح مكبرات الصوت بموسيقى الأرغن، ثم أرى باكال تعزف البيكابو فوق كتفها. تعده قائلة: «سوف تكون على ما يرام. أمسك أنفاسك، وتفاءل بالخير». ثم مشهد العملية الجراحية... بوجي تحت التخدير وأشباح تدور أمامه... لعبة دوران شيطانية... «إنه يجري في دمك الآن». صوت الأرغن يئن. «دعوني أدخل»... صوت أغنيس مورهيد وهي تدير عدسة الكاميرا. «دعوني أدخل». شعلة لهب تتراقص... يتساءل سائق سيارة التاكسي: «هل أشعل الضوء؟».

الضوء. أدير رأسي وأنظر إلى بيت روسل. لا تزال جين في غرفة المعيشة في بيتها واقفة على قدميها... الآن تصيح من غير صوت.

أتململ في جلستي. دفقة من النغمات... إنه الأرغن يصدح في

الأسفل. لا أستطيع رؤية الشخص الذي تصرخ جين عليه، أو الشخص الذي يجعلها تصرخ عليه... يحجب جدار البيت بقية الغرفة عن مجال رؤيتي.

«احبسي أنفاسك، وتفاءلي بالخير».

إنها تصرخ غاضبة حقاً. صار لون وجهها قرمزياً. أسدد عدسة الكاميرا صوب طاولة المطبخ.

«إنه في مجرى دمك الآن».

أنهض عن الأريكة وأجتاز المطبخ حاملة الكاميرا بيد واحدة. أذهب إلى النافذة.

«دعيني أدخل. دعيني أدخل. دعيني أدخل».

أنحني مقتربة من زجاج النافذة وأرفع الكاميرا إلى عيني. غبش أسود، ثم تظهر جين فجأة في مجال الرؤية، لكن أطراف الصورة تظل غائمة بعض الشيء. أدير العدسة قليلاً. الآن، صارت جين واضحة تماماً، صورة حية... بل أستطيع رؤية قلادتها المتأرجحة. عيناها متقلِّصتان وفمها مفتوح على اتساعه. إنها ترفع إصبعها في الهواء... «الضوء»... ترفع إصبعها من جديد. خصلة شعر انحدرت عن رأسها فتدلت ملامسة خدها.

أحاول تقريب الصورة أكثر، لكنها تتحرك إلى اليسار فتخرج من الصورة.

«أمسكي أنفاسك».

أدير الكاميرا صوب التلفزيون. إنها باكال من جديد، تتحدث بصوت يكاد يكون هريراً ناعماً. أقول معها بصوت مرتفع: «تفاءلي بالخير». أواجه النافذة من جديد والكاميرا مرفوعة إلى عيني.

تدخل جين مجال الرؤية من جديد، لكنها تسير الآن ببطء، بغرابة. تترنح. بقعة قرمزية داكنة ظهرت على أعلى قميصها. تنتشر البقعة وأنا أنظر إليها فتصل حتى بطنها. كفاها يتحركان على صدرها. هنالك شيء فضي رشيق مستقر هناك، كأنه مقبض خنجر.

إنه مقبض خنجر!

يندفع الدم من فمها الآن فيلوّنه بالأحمر. فمها مرتخٍ، وحاجباها منعقدان... كأنها في حيرة.

تمسك قبضة الخنجر بيد واحدة، بيد واهية. تمد اليد الأخرى إلى الأمام. إصبعها يشير إلى النافذة.

إنها تشير إليّ مباشرة.

تسقط الكاميرا من يدي. أحس اصطدامها بساقي. حزامها يتعلق بأصابعي.

ذراع جين مطوية مستندة إلى النافذة. عيناها متسعتان، متوسلتان. تقول شيئاً لا أستطيع سماعه، لا أستطيع قراءته. وبعد ذلك، مع تباطؤ الزمن إلى ما يشبه التوقف، تضغط بيدها على النافذة وتميل فتسقط جانباً تاركة بقعة دم على الزجاج.

أنا متجمِّدة في مكاني، حيث أقف.

لا أستطيع الحركة.

الغرفة ساكنة. العالم ساكن.

وعندها، يتحرك الزمن من جديد، فأتحرك.

أستدير، وأفلت حزام الكاميرا من يدي، ثم أندفع وأعبر الغرفة فيصطدم وركي بطاولة المطبخ. أتعثر وأمد يدي إلى الطاولة. أمسك سماعة الهاتف الأرضي. أضغط مفتاح التشغيل.

لا شيء. إنه ميت.

في مكان ما من رأسي، أتذكر جملة صغيرة قالها ديفيد: إنه غير موصول.

أسقِط سماعة الهاتف من يدي، وأجري في اتجاه باب القبو فأنادي اسمه، أناديه، وأناديه. أمسك بمقبض الباب وأجذبه إلي بقوة.

لا شيء.

أجري إلى السلم. أصعد، أصعد... أصعد مصطدمة بالجدران...

مرة... مرتين... أنعطف عند فسحة السلم فأتعثر عند الدرجة الأخيرة. أصل إلى غرفة مكتبي شبه زاحفة.

أنظر إلى طاولة المكتب. لا أجد الهاتف. أقسم أنني تركته هنا.

سكايب.

يداي ترتجفان. أقبض على فأرة الكمبيوتر وأحركها على الطاولة. أحاول أن أفتح سكايب، أحاول من جديد. أسمع النغمة الترحيبية فأطلب الرقم 911.

مثلث أحمر يظهر على الشاشة. [لا يمكن إجراء مكالمات الطوارئ. سكايب ليس بديلاً عن الخدمة الهاتفية].

أصرخ قائلة: «اللعنة عليك يا سكايب».

أخرج من غرفة المكتب مسرعة فأندفع صاعدة الدرجات من جديد، وأصطدم بالجدار عند فسحة السلم الثانية. أقتحم غرفة نومي اقتحاماً.

أقترب من الطاولة الصغيرة التي إلى جانب السرير: كأس النبيذ، وإطار صورة. الطاولة التي على الجانب الآخر من السرير: كتابان، ونظارة القراءة.

سريري... هل هو في سريري من جديد؟ أقبض على اللحاف بيدي الاثنتين، ثم أنفضه بقوة.

يندفع الهاتف طائراً في الهواء مثل قذيفة.

أقفز لأحاول التقاطه قبل أن يصطدم بالأرض، لكنني أقذف به تحت الكرسي. أمد يدي إليه، أقبض عليه بقوة، ثم أفتحه. أدخل الرمز السري. يهتز الهاتف في يدي. أدخلت رمزاً خاطئاً. أُدخل الرمز من جديد. أصابعي تنزلق على المفاتيح.

تضيء شاشة الهاتف. أنقر على أيقونة الاتصالات الهاتفية، ثم على أيقونة لوحة المفاتيح. أطلب الرقم 911.

«911 معك. ما الحالة الطارئة؟».

«إنها جارتي...» أقول هذا وأنا ساكنة واقفة في مكاني من غير حركة لأول مرة منذ تسعين ثانية... «لقد... طُعنت. أوه، يا إلهي. ساعدوها».

«مهلك يا سيدتي». إنه يتحدث بهدوء كأنه واحد من أهالي ولاية جورجيا بنطقهم المتثاقل. شيء يطحن أعصابي... «ما عنوانك؟».

أعطيه العنوان، أعصره من دماغي، أعصره من حنجرتي، وأتلعثم. أستطيع رؤية ردهة بيت روسل البهيجة عبر نافذتي، وأستطيع رؤية قوس الدم الذي لطخ نافذتهم كأنه شارة الحرب.

يكرر العنوان على مسامعي.

«نعم، نعم».

«وأنت تقولين إن جارتك قد طعنت».

«نعم. النجدة. إنها تنزف».

«ماذا؟».

«قلت لك النجدة».

لماذا لا يفعل شيئاً؟ أعب الهواء، ثم أسعل، ثم أعب الهواء من جديد.

«النجدة في طريقها إليك يا سيدتي. أريدك أن تهدئي. هل تعطيني اسمك، من فضلك؟».

«آنا فوكس».

«لا بأس يا آنا. ما اسم جارتك؟»

«اسمها جين روسل. أوه، يا ربي».

«هل أنت معها الآن؟».

«لا. إنها خلف... إنها في بيتها خلف الحديقة الفاصلة بين بيتينا».

«آنا، هل...» إنه يصب الكلمات في أذني صباً بطيئاً كأنها شراب لزج ـ كيف توظّف خدمة الطوارئ شخصاً بطيء الكلام هكذا ـ وفي تلك اللحظة، أحس شيئاً يحتك بكاحل قدمي. أنظر إلى الأسفل فأجد بنتش يحك نفسه بي.

«ماذا؟».

«هل طَعنتِ جارتك؟».

في ظلمة النافذة، أرى خيالي على الزجاج وأرى فمي ينفتح فاغراً: «لا».

«لا بأس».

«نظرت من النافذة فرأيتها تُطعن».

«لا بأس. هل تعرفين من طعنها؟».

أحاول النظر عبر الزجاج، أحاول رؤية ما في داخل ردهة بيت روسل. إن ردهتهم أخفض مني بطابق الآن، لكنني لا أرى على أرضها شيئاً غير سجادة عليها أزهار. أرفع نفسي على أطراف أصابعي وأمد رقبتي.

«لا أزال غير قادرة على رؤية شيء».

وعندها، تظهر فأراها: يدها على طوار النافذة.

يد ترتفع إلى الأعلى مثلما يرفع جندي رأسه فوق حافة الخندق. أنظر إلى الأصابع تنزلق على الزجاج فترسم في بقعة الدم خطوطاً.

«لا تزال حية».

«سيدتي، هل تعرفين من...» لكنني أندفع خارجة من الغرفة في تلك اللحظة. يسقط الهاتف، ويموء القط من خلفي.

33

المظلة واقفة في زاويتها مستندة إلى الجدار لائذة به كأنها خائفة من خطر يقترب. أمسك بقبضتها المعقوفة... قبضة باردة صقيلة في كف يدي المتعرقة.

لم تصل سيارة الإسعاف بعد! لكني هنا، على مسافة خطوات منها فحسب. خلف هذه الجدران، خارج هذين البابين. لقد ساعدتني وهبّت إلى نجدتي... وهنالك نصل مغروس في صدرها الآن. أتذكر القَسَم الطبي عندما صرت معالجة نفسية: عليَّ أو لاً ألّا أسبب أي أذى. وسوف أساعد في الشفاء والتعافي وأضع مصالح الآخرين قبل مصالحي.

جين خلف الحديقة. أصابعها ترسم خطوطاً في دمها.

أفتح باب الصالة.

الظلمة شديدة هنا، لكني أجتاز الصالة فأبلغ الباب. أفتح القفل وأضغط على نابض المظلة، فأحس اندفاع الهواء مع انفتاحها في العتمة. تحتك نهايات أضلاعها بالجدار كأنها مخالب صغيرة.

واحد. اثنان.

أضع يديّ على مقبض الباب.

ثلاثة.

أدير المقبض.

أربعة.

أقف هناك ويدي على معدن المقبض البارد.

لا أستطيع الحركة.

يمكنني الإحساس بالعالم الخارجي يحاول دخول البيت... ألم يكن هذا تعبير ليزي عن الحالة؟

العالم الخارجي يتجمع خلف الباب، عضلاته كبيرة بارزة، يصطدم بخشبه.

أسمعه يتنفس وأرى البخار يخرج من منخريه. أراه يكشّر عن أسنانه.

سوف يسحقني؛ وسوف يمزقني؛ وسوف يلتهمني.

أضغط على الباب برأسي، ثم أستنشق أنفاساً عميقة. واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. الشارع وادٍ عميق، عريض. إنه مكشوف كثيراً. لن أنجح في اجتيازه أبداً.

وهي على بُعد خطوات مني. خلف الحديقة.

خلف الحديقة.

أتراجع إلى الصالة ساحبة المظلة خلفي، ثم أدخل المطبخ. ها هو الباب، تماماً إلى جانب آلة غسل الأطباق: الباب الجانبي المفضي مباشرة إلى الحديقة. وهو مغلق، مقفل منذ سنة تقريباً. لقد وضعت سلة

المهملات المخصصة لإعادة التدوير أمام هذا الباب. تمد زجاجات أعناقها من السلة كأنها أسنان مكسورة.

أزيح السلة جانباً فينطلق منها صوت كورس من قعقعة الزجاج فيها. أفتح القفل، وأدير المقبض.

لكن، ماذا لو أغلق الباب من خلفي؟ ماذا لو لم أستطع العودة إلى البيت؟ أنظر إلى المفتاح المعلق على خطاف إلى إطار الباب. أنتزعه من مكانه، ثم أسقطه في جيب ثوبي.

أحمل المظلَّة أمامي... سلاحي السري، سيفي ودرعي... وأميل إلى الأمام حتى أضغط بيدي على المقبض. أدير المقبض.

أدفع الباب.

يندفع الهواء في وجهي بارداً، حاداً. أغمض عيني.

هدوء. ظلمة.

واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة.

أخطو خطوة إلى الخارج.

34

تخطئ قدمي فتفوّت الدرجة الأولى كلها وتقع بعنف على الدرجة الثانية فأتهاوى في الظلام وتتهاوى المظلة أمامي. تتبعني قدمي الثانية وتنزلق نازلة. تحتك ربلة ساقي بالدرجات إلى أن أصير ملقاة على العشب.

أغمض عينيَّ بعنف. رأسي يمس قماش المظلة. إنها فوقي، تحتضني، تحيط بي كأنها خيمة.

أعود أدراجي وأمد ذراعي صوب الدرجات، إلى الأعلى، إلى الأعلى، إلى الأعلى. وأسير... إصبعٌ يلحق إصبعاً إلى أن أحس الدرجة العليا. أنظر إلى الباب فأجده مفتوحاً وأجد المطبخ يتألق ذهباً، أمد يدي إليه كأنني قادرة على الإمساك بذلك الضوء، كأني قادرة على شده صوبي.

إنها تموت هناك.

أدير رأسي إلى الخلف وأنظر إلى المظلة. أربعة مربعات سوداء، وأربعة خطوط بيضاء.

أضغط بيدي على بلاط الدرجات القاسي وأتحامل على نفسي حتى أقف، إلى الأعلى، إلى الأعلى، إلى الأعلى.

أسمع طقطقة الأغصان من فوقي، وأتجرَّع أنفاساً صغيرة من هواء نقي بارد. لقد نسيت الهواء البارد! ثم، واحد، اثنان، ثلاثة... أبدأ السير. أسير غير مستقرة، كأنني ثملة. ثم أتذكر أنني ثملة فعلاً.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

***

خلال السنة الثالثة من إقامتي في المستشفى خلال دراستي التخصصية، التقيت طفلة ظهرت عندها مجموعة سلوكات غريبة بعد عملية جراحية لمعالجة الصَّرع. قبل العملية الجراحية، كانت طفلة سعيدة في العاشرة من عمرها رغم نوبات الصرع العنيفة التي تصيبها. أما بعد العملية، فقد انسحبت مبتعدة عن أسرتها، وصارت تتجاهل أخاها الأصغر وتنكمش على نفسها إذا مسّها واحد من أبويها.

اشتبه معلموها أول الأمر في أنها ضحية عنف منزلي، لكن أحدهم لاحظ أن تلك الطفلة صارت تبدي مودة شديدة تجاه من لا تكاد تعرفهم، بل تجاه أشخاص لا تعرفهم أبداً. كانت تطوّق أعناق أطبائها بذراعيها، وتمسك بأيدي عابري السبيل، وتتحدث مع البائعين كما لو أنهم أصدقاء لها منذ زمن بعيد. وأما أحبتها (أو من كانت تحبهم في السابق) فظلوا في البرد مرتجفين.

لم نستطع أبداً تحديد سبب هذه الحالة. لكننا أطلقنا على نتيجتها اسم «الانفصال العاطفي الانتقائي». أتساءل أين صارت هذه البنت الآن؛ وأتساءل عما تفعله أسرتها.

أفكر في تلك الفتاة الصغيرة، في دفئها تجاه الغرباء، وفي قربها من أشخاص لا تعرفهم... تماماً مثلما أردت الآن أن أخاطر باجتياز الحديقة لإنقاذ امرأة لم أرها إلا مرتين.

بينما كنت غارقة في هذه الأفكار، اصطدمتْ المظلة بشيء ما فتوقفت مكاني. إنه مقعد.

إنه المقعد؛ المقعد الوحيد في الحديقة: شيء خشبي صغير بالٍ له مسندان مستديران ولوحة تذكارية مثبتة بالمسامير على ظهره. لقد اعتدت رؤية إد وأوليفيا جالسين على هذا المقعد. كنت أنظر إليهما من النافذة الصغيرة في أعلى البيت. أراه ينظر إلى شيء ما في هاتفه، وأراها تقلب صفحات كتاب. ثم يتبادلان الأدوار. وكنت أسأله بعد ذلك: «هل أنت مستمتع بأدب الأطفال؟».

يجيبني مازحاً: «إكسبليارموس»[1]

تعْلقُ حافة المظلة بين ألواح المقعد الخشبية. أخلصها بحرص... أدرك عندها، بل أتذكر: ليس في بيت روسل باب مفضٍ إلى الحديقة. لا طريق للدخول إلا عبر الشارع.

لم أفكر في هذا جيداً.

واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة.

أنا في وسط الحديقة التي لا تتجاوز مساحتها ربع آكر؛ ودرعي مصنوعة من قطن ونايلون فقط. أنا ذاهبة إلى بيت امرأة طُعنت قبل قليل.

أسمع دمدمة الليل. أحسه يتسلل إلى رئتي، يلعقهما.

تهتز ركبتاي فأقول لنفسي إنني قادرة على هذا. هيا: تقدمي، تقدمي، تقدمي، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

أتقدَّم مترنِّحة... خطوة صغيرة، لكنها خطوة. أنظر إلى قدمي وإلى

---

(1) – تعويذة التجريد من السلاح في قصة اليافعين الشهيرة «هاري بوتر» لجوان رولينغ.

العشب المنتصب من حول حذائي البيتي. أتذكر القسم الطبي عندما صرت معالجة نفسية: علي أولاً ألا أسبب أي أذى. وسوف أساعد في الشفاء والتعافي...

الآن، أطبقت مخالب الليل على قلبي. إنها تعصره. سوف أنفجر. سوف أنفجر.

... وأضع مصالح الآخرين قبل مصالحي.

جين، إنني آتية إليك! أجر قدمي الثانية إلى الأمام وأحس أن جسدي يغرق، ويغرق. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

أسمع صوت الصفارات في البعيد كأنها أصوات نائحات في جنازة. تمتلئ مظلتي نوراً أحمر كالدم. أستدير في اتجاه الصوت قبل أن أتمكن من إيقاف نفسي.

الريح تصفر، وأضواء السيارات تعميني.

واحد. اثنان. ثلاثة...

الجمعة

5 تشرين الثاني

35

تمتم إد بعد أن تركتنا أوليفيا وذهبت إلى الصالة: «أظن أننا كان يجب أن نغلق الباب».

استدرت إليه قائلة: «وماذا كنت تتوقع؟».

«أنا لم...».

«ما الذي توقعت حدوثه؟ ما الذي قلت لك أنه سيحدث؟».

أخرج من الغرفة غير منتظرة إجابته. يتبعني صوت خطوات إد الخافت على السجادة.

وفي الردهة، تخرج ميري من خلف مكتبها وتسألنا عابسة الوجه: «هل أنتم بخير يا ناس؟».

أجيبها: «لا»... تماماً لحظة أجابها إد: «نحن بخير».

كانت أوليفيا جالسة في كنبة إلى جانب الموقد. وكان وجهها غارقاً في الدموع، لامعاً في ضوء النار. قرفص كل منا عند أحد جانبي الكرسي. أحسست فرقعة اللهب خلف ظهري.

بدأ إد يقول لها: «أوليفيا...».

أجابته وهي تهز رأسها إلى الأمام والخلف: «لا».

حاول من جديد، برقة أكبر: «أوليفيا».

زعقت قائلة: «يا ابن العاهرة».

تراجعنا معاً في وقت واحد فكدت أصطدم بالموقد. تراجعت ميري خلف طاولتها وبذلت أقصى جهدها حتى تتجاهلنا.

سألتُ أوليفيا: «أين سمعت هذه الكلمة؟».

قال إد: «يا آنا...».

«لم تسمعها مني أنا».

«ليس هذا مهماً الآن».

لقد كان محقاً. قال لها وهو يمر بيده على شعرها: «يا حبيبتي»؛ لكنها هزت رأسها من جديد ودفنت وجهها في الوسادة... «حبيبتي».

وضع إد رأسه على رأسها فدفعته بعيداً عنها.

نظر إليّ عاجزاً.

طفل يبكي في مكتبك. ماذا تفعلين؟ كان هذا في أول درس في طب نفس الأطفال، في اليوم الأول، في الدقائق العشر الأولى. الإجابة: نتركه يبكي حتى يستنفد ما لديه. نصغي إليه بالطبع، ونحاول أن نفهم، ونقدم المواساة، ونشجع الطفل على أن يتنفس تنفساً عميقاً... لكننا نتركه يبكي حتى يستنفد ما لديه.

قلت لها بصوت منخفض وأنا أمسك برأسها بين كفَّي: «خذي نفساً عميقاً يا حبيبتي».

غصت، ثم سعلت قليلاً.

مرت لحظة بطيئة. أحسست بالغرفة باردة. ارتجفت ألسنة اللهب في الموقد خلفي. وعندها تكلمتْ وهي دافنة رأسها في الوسادة فلم نفهم شيئاً مما قالته.

سألها إد: «ماذا؟». رفعت رأسها. دموع على خديها. قالت أوليفيا مخاطبة النافذة: «أريد العودة إلى البيت».

نظرت إلى وجهها وإلى شفتها المهتزة وأنفها الذي يسيل؛ ثم نظرت إلى إد، إلى الغضون على جبهته وإلى التجويفين تحت عينيه.

إلى إد، إلى الغضون على جبهته وإلى التجويفين تحت عينيه.

هل أنا من فعل هذا بنا كلنا؟

الثلج خلف النافذة. نظرت إلى ندفاته المتساقطة ورأيتنا نحن الثلاثة مجتمعين في زجاج النافذة: زوجي وابنتي وأنا؛ متجمعين معاً عند الموقد.

صمت قصير.

وقفت، ثم ذهبت إلى طاولة ميري. رفعتْ رأسها وأرغمت شفتيها على ابتسامة مشدودة.

ابتسمت لها.

بدأت أقول: «العاصفة...».

«نعم يا سيدتي».

«إنها... كم هي قريبة الآن؟ وهل لا تزال قيادة السيارة آمنة؟».

عبست قليلاً، وراحت أصابعها تنقر على لوحة المفاتيح أمامها. قالت لي: «هطول الثلج الكثيف ليس متوقعاً قبل ساعتين. لكن...».

قاطعتها: «هذا يعني أن بإمكاننا...» ثم اعتذرتُ... «آسفة، لقد قاطعتك...».

ألقت نظرة من فوق كتفي وقالت: «كنت على وشك القول؛ إن التوقع الدقيق أمر صعب في حالة العواصف الشتوية. هل تريدون الذهاب يا ناس؟».

استدرت ونظرت إلى أوليفيا في كنبتها وإلى إد الجاثم إلى جانبها.

أظننا نريد الذهاب.

قالت ميري: «في هذه الحالة، عليَّ القول إنه من الأفضل أن تذهبوا الآن».

أومأت برأسي: «هل يمكنك إعطائي الفاتورة، من فضلك؟».

أجابتني بشيء ما، لكنني لم أكن أسمع شيئاً غير زعيق الريح وفرقعة ألسنة اللهب.

36

طقطقة غلاف وسادة بُولِغَ في شَدّه. وقع أقدام قريب.

ثم هدوء... لكنه هدوء غريب، نوع مختلف من الهدوء.

تنفتح عيناي سريعاً.

أنا مستلقية على جانبي أنظر إلى المدفأة. وفوق مشع المدفأة، أرى نافذة.

أرى من النافذة جداراً قرميدياً، وأرى سلم نجاة على ذلك الجدار.

أرى صناديق آلات التكييف.

مبنى آخر!

أنا في سرير مزدوج عليه ملاءات مشدودة. أثني جسدي، ثم أجلس في السرير.

أستند إلى الوسادة، ثم أعاين الغرفة. غرفة صغيرة بسيطة الأثاث... غير مؤثثة تقريباً: كرسي بلاستيكي عند الجدار، وطاولة خشب عند السرير، وعلبة مناديل ورقية وردية شاحبة على الطاولة. مصباح طاولة أيضاً. مزهرية رشيقة... فارغة. أرضية باهتة من اللينوليوم. بابٌ قبالتي؛ باب مغلق إطاره لامع، بارد.

وفي الأعلى، سقف مجصص أبيض ومصابيح نيون...

أصابعي تقبض على الفراش.

الآن يبدأ الأمر.

ينزلق الجدار البعيد عني، ينزلق مبتعداً، متراجعاً. ويتقلص الباب الذي فيه.

أنظر إلى الجدارين الجانبيين، أنظر إليهما... يبتعد أحدهما عن الآخر. يهتز السقف، ثم يطقطق وينقشر مرتفعاً مثل غطاء علبة سردين، مثل سقف بيت يقتلعه إعصار. يذهب الهواء معه، يخرج من رئتي. تهتز الأرض. ويهتز السرير.

هنا أستلقي، على هذا الفراش المرتعش، في هذه الغرفة المسلوخة، ولا هواء حتى أتنفس. إنني أغرق في السرير، أموت في السرير.

أصرخ: «ساعدوني». لكن صرختي ليست أكثر من همسة تتسلسل خارجة عبر الحنجرة على أطراف أصابعها، ثم تنفرش على لساني. أحاول من جديد: «ساعـ د ونـ ي». هذه المرة، تعض أسناني على الكلمة، فتنبعث شرارات من فمي كأنني عضضت سلكاً كهربائياً. يسخن لساني، ثم ينفجر.

أزعق. أسمع أصواتاً، وأنظر فأرى ظلالاً متزاحمة تتجمع فتدخل الباب البعيد وتنقضّ في اتجاهي؛ أراها تخطو خطوات مستحيلة عبر الغرفة التي لا نهاية لها، التي لا نهاية لها أبداً. أزعق مرة أخرى. تتبعثر الظلال فتصير قطيعاً، ثم تتجمع من حول سريري.

أقول متوسلة، أقولها بآخر ما بقي في جسدي من هواء: «ساعد وووني».

وعندها، تنغرس إبرة في ذراعي. تغرس الإبرة يد بارعة... لا أكاد أشعر بالوخزة.

تنداح فوقي موجة، موجة ناعمة من غير صوت. إنني أعوم، أعوم معلقة في هوة متألقة... هوة عميقة باردة. تندفع الكلمات في كل اتجاه من حولي كأنها سرب أسماك.

يتمتم أحد ما: «إنها تعود إلى وعيها الآن».

يقول شخص آخر: «... مستقرة».

وعندها... على نحو واضح كأنني ارتفعت إلى سطح الماء، وكأن الماء خرج من أذنيّ: «في الوقت الصحيح!».

أدير رأسي. فيصطدم بالوسادة كسولاً.

«كنت على وشك الذهاب».

إنني أراه الآن، أو أرى القسم الأكبر منه. تلزمني برهة حتى أنظر إليه من جانبه إلى جانبه الآخر لأنني مشبعة بالأدوية (أعرف ما يكفي لإدراك هذا)، ولأنه كبير جداً، لأنه ضخم. رجل كالجبل: جلده أسود مزرقّ، وكتفاه كأنهما جلمودان كبيران. صدره عريض متسع. لُمة شعر كثيف

داكن. بدلته ملتصقة به كأنها لا تريد أن تتركه، كأنها غير قادرة على أداء مهمتها، لكنها تبذل أقصى جهدها.

يقول لي بصوت منخفض حلو: «مرحباً. أنا المحقق ليتل».

ترفرف عيناي. أرى عند مرفقه... تماماً عند مرفقه... امرأة تحوم مثل حمامة، امرأة في رداء الممرضات الأصفر.

تسألني الممرضة: «هل تستطيعين فهم ما نقول؟».

ترفرف عيناي من جديد، ثم أومئ برأسي. أحس الهواء يدور من حولي كأنه شيء لزج تقريباً، وكأنني لا أزال تحت الماء.

تقول لي الممرضة موضِّحة: «إننا في مورنينغسايد. الشرطة تنتظر منذ الصباح أن تعودي إلى وعيك». تقول هذه الكلمات بطريقة من يلوم أحداً لأنه لم يردّ على جرس الباب.

يسألني المحقق ليتل: «ما اسمك؟ هل يمكنك أن تقولي لي اسمك؟».

أفتح فمي، وأحاول الكلام. حلقي جاف كثيراً. أحس كأنني سعلت فأخرجت من فمي دفقة غبار.

تدور الممرضة إلى الجهة الأخرى من السرير وتقترب من الطاولة التي إلى جانبه. أتابعها، ويدور رأسي ببطء. أنظر إليها وهي تضع فنجاناً بين يدي. أشرب من الفنجان قليلاً. ماء فاتر. تقول لي الآن شبه معتذرة: «أنت تحت تأثير المهدئ. كنت في حالة مضطربة قبل قليل».

يظل سؤال المحقق معلقاً في الهواء، من غير إجابة. تعود عيناي فتنظران إلى الجبل، المحقق ليتل.

أقول له: «آنا»... تتعثر الحروف في فمي، وتتقافز كأن لساني مصدّ لها. ماذا أعطوني يا ترى؟

يسألني: «أليس لك اسم عائلة يا آنا؟».

جرعة أخرى من الفنجان: «فوكس». تبدو هذه الكلمة شديدة الطول.

«ها ـ جيد». يخرج دفتراً صغيراً من جيب الصدر، ثم ينظر إليه... «هل تقولين لي أين تعيشين؟».

أقول له عنواني.

يومئ برأسه ويقول: «هل تعرفين أين وجدناك الليلة الماضية يا سيدة فوكس؟».

أقول: «طبيب...».

تنحني الممرضة فوقي وتقول لي: «سيكون الطبيب هنا بعد قليل».

أهز رأسي: «لا. أنا طبيبة».

ينظر المحقق ليتل إليّ.

«أنا د. فوكس».

تشرق في وجهه ابتسامة كالفجر. أسنانه ناصعة البياض. يقول وهو ينقر على دفتره بإصبعه: «د. فوكس، هل تعرفين أين وجدناك الليلة الماضية؟».

أرتشف الماء وأنظر إليه نظرة متمعّنة. الممرضة ترفرف إلى جانبي. أقول: «من وجدني؟» هذا صحيح: سأطرح عليهم أسئلة أيضاً. سوف أزعجهم مهما يكن من أمر.

«العاملون في الطوارئ الصحية». ثم، قبل أن أستطيع الإجابة: «لقد وجدوك في حديقة هانوفر. كنت فاقدة الوعي».

تكرر الممرضة الكلمة: «فاقدة الوعي»، فلعلي لم أسمعها أول مرة.

«لقد أجريتِ اتصالاً هاتفياً بعد العاشرة والنصف بقليل. وجدوك في رداء الحمام، وكان هذا في جيبك». يفتح يده الضخمة فأرى مفتاح بيتي يلمع في راحتها... «وكانت هذه إلى جانبك». أرى مظلتي على ركبتيه. إنها مغلقة.

يبدأ الأمر في مكان ما في بطني، ثم يندفع مجتازاً رئتيَّ، فيعبر قلبي ويبلغ حنجرتي ويقذف بنفسه عبر أسناني. أقول لهما: جين.

ينظر ليتل إلي: «ماذا؟».

أقول من جديد: «جين».

تنظر الممرضة إلى ليتل وتقول: «لقد قالت جين». إنها تترجم له، كم هي مفيدة!

«إنها جارتي. رأيتها تُطعَن». تستغرق هذه الكلمات دهراً كاملاً... تتلوّى كل واحدة منها في فمي قبل أن أتمكن من إخراجها.

يقول ليتل: «نعم. لقد استمعت إلى اتصالك برقم الطوارئ».

قسم الطوارئ... 911، هذا صحيح. هذا الصوت الجنوبي البطيء. وبعد ذلك خروجي من باب المطبخ، خروجي إلى الحديقة والأغصان تتمايل فوق رأسي، والأضواء تعوم وتتجمّع مثل دواء كريه في مظلتي. تتشوّش رؤيتي. أتنفس بشدة.

تأمرني الممرضة: «حاولي أن تظلي هادئة».

أتنفس من جديد؛ أختنق.

تقول الممرضة فزعة: «مَهلك». تشتبك عيناي بعيني المحقق ليتل.

يقول لي: «إنها بخير».

أحاول الكلام معه فيخرج صوتي كأنه ثغاء، كأنه أزيز. وأرفع رأسي عن الوسادة شادّة عنقي، أبتلع أنفاساً قصيرة عبر أسناني. تتقلص رئتاي، وأنتصب جالسة... كيف لهذا الرجل أن يعرف شيئاً عن حالتي؟ إنه شرطي قابلته منذ لحظة فقط. شرطي... هل سبقت لي مقابلة شرطي من قبل؟ نعم، أظنني قابلت شرطياً سجل لي مخالفة سير ذات مرة.

يومض الضوء ويتراقص أمام عيني، واهياً. تخدش رؤيتي مخالبُ نِمرٍ داكنة. لا تفارق عيناه عينيَّ حتى عندما تتسلق نظرتي وجهه وتنزلق عنه كأنهما متسلق جبال يكافح حتى يصعد. بؤبؤا عينيه كبيران، ضخمان. شفتاه ممتلئتان، عطوفتان.

وفي أثناء نظري إلى المحقق ليتل، عندما كانت أصابعي تعجن البطانيات، وجدت جسدي يسترخي وصدري يتوسع من جديد ورؤيتي تتضح. لا أعرف الدواء الذي حقنوني به، لكنه يعطي مفعوله الآن. صرت في حالة حسنة حقاً.

يقول ليتل من جديد: «إنها بخير». تفرد الممرضة أصابعي المنقبضة. يا لها من فتاة طيبة!

أميل برأسي إلى الخلف وأغمض عينيّ. أحس إرهاقاً شديداً. أحس أنني غارقة في العرق.

أقول هامسة: «لقد طُعنت جارتي. اسمها جين روسل».

أسمع أنين كرسي المحقق ليتل وهو ينحني في اتجاهي: «هل رأيت الشخص الذي هاجمها؟».

«لا». أرغم جفوني على أن تنفتح... كأنها أبواب حديدية صدئة. ليتل منكبّ على دفتره، وقد تغضن جبينه فوق حاجبيه. يعبس ويومئ برأسه في الوقت نفسه. رسائل متضاربة.

«لكنكِ رأيتها تنزف؟».

«نعم، رأيتها». ليتني أستطيع الكف عن هذا التلعثم. ليته يكف عن استجوابي.

«هل كنت تشربين؟».

كنت أشرب الكثير! أقول مقرّة: «شربت قليلاً، لكن ذلك ليس...» أستنشق الهواء، وأحس الآن ذعراً جديداً يجتاحني... «عليكم أن تساعدوها. إنها... قد تكون ميتة الآن».

تقول الممرضة وهي متجهة صوب الباب: «سآتِ بالطبيب».

تخرج الممرضة ويومئ ليتل برأسه من جديد: «هل تعرفين من قد يريد إيقاع الأذى بجارتك؟».

أبتلع ريقي: «إنه زوجها».

يومئ برأسه مرة أخرى، ويعبس مرة أخرى، ويهز معصمه، ثم يغلق الدفتر. يقول لي بطريقة مقتضبة سريعة على نحو مفاجئ: «اسمعي يا آنا فوكس. لقد ذهبت هذا الصباح لزيارة آل روسل».

«وهل هي بخير؟».

«أريد أن تعودي معي لكي أسجل إفادتك».

تأتي الطبيبة. إنها امرأة شابة من أصول أميركية جنوبية، امرأة يجعلني جمالها متقطعة الأنفاس من جديد. لكن تقطع الأنفاس لم يكن السبب الذي جعلها تحقنني باللورازيبام.

تسألني: «أليس هنالك أحد يجب أن نتصل به من أجلك».

كنت على وشك إعطائها اسم إد، لكنني منعت نفسي. لا معنى لهذا. أقول لها: «لا حاجة إلى هذا».

وأكرر: «لا حاجة».

«ماذا قلتِ؟».

أقول: «لا أحد. ليس لدي... إنني بخير»... وبالتأكيد كنت أنحت كل كلمة نحتاً كأنها واحدة من الزخارف الورقية اليابانية... «لكني...».

تنظر الممرضة إلى خاتم الزواج في يدي: «أحد أفراد الأسرة؟».

أضع يدي اليمنى خلسة فوق يدي اليسرى وأقول: «لا. زوجي... إنني لست... نحن لسنا معاً. لم نعد معاً».

«أليس لك أصدقاء؟».

أهز رأسي نفياً. بمن عساها تتصل؟ ليس ديفيد؛ وليس ويسلي بالتأكيد. ربما بِينا، إلا أنني بخير حقاً. أما جين فهي ليست بخير.

«ماذا عن طبيبك؟».

أجيبها تلقائياً من غير تفكير، قبل أن أتمكن من مقاطعة نفسي: «جوليان فيلدينغ. لا أريد أن تتصلي به».

أراقبها تتبادل النظرات مع الممرضة التي تنظر بعد ذلك إلى المحقق ليتل، فيحيل النظرة إلى الطبيبة من جديد. أهي لعبة ما؟ أود أن أقهقه. لكنني لا أقهقه. جين!

تتابع الطبيبة كلامها: «كما تعرفين، وجدوك فاقدة الوعي في الحديقة. ولم يستطع طاقم الإسعاف تحديد هويتك. هذا ما جعلهم يأتون بك إلى مورنينغسايد. وعندما استعدت وعيك. أصابتك نوْبة ذعر».

تتدخل الممرضة: «نوبة هلع شديدة».

تومئ الطبيبة برأسها: «نوبة هلع شديدة».

تنظر إلى اللوحة ثم تقول: «أتتك النوبة مرة ثانية هذا الصباح. عرفت أنك دكتورة؟».

قلت لها: «لست دكتورة صحة جسدية».

«ما اختصاصك؟».

«إنني طبيبة نفسية. أعمل مع الأطفال».

«وهل لديك...».

أقول وقد علا صوتي فجأة: «هنالك امرأة قد طُعنت...» تتراجع الممرضة إلى الخلف كما لو أنني سددت إليها لكمة... «لماذا لا يفعل أحد شيئاً؟».

تلتفت الطبيبة إلى المحقق ليتل، ثم تسألني: «هل لديكِ تاريخ من الإصابة بنوبات الهلع؟».

وهكذا رحت أخبر الطبيبة، بل أخبرهم جميعاً. المحقق ليتل الذي يتابع الحديث بمودة واضحة وهو جالس على كرسيه، والممرضة المرتعشة مثل عصفور طنان، رحت أخبرهم عن رهاب الأماكن المفتوحة، وعن اكتئابي، وعن اضطراب الهلع الذي يصيبني... نعم... أخبرهم عن نظامي الدوائي وعن احتباسي في البيت عشرة شهور، وعن د. فيلدينغ وعن أسلوبه في المعالجة التجنبية. يستغرق الأمر بعض الوقت، لأن صوتي لا يزال واهياً. أسكب الماء في حلقي كل دقيقة فينزل ماراً بكلماتي المتصاعدة من الداخل كأنها فقاعات في ذلك الماء، فقاعات تنفجر عند شفتيّ.

وعندما أنتهي، عندما يعود رأسي فيغرق في الوسادة، تنظر الطبيبة إلى لوحتها بعض الوقت. تهز رأسها ببطء وتقول: «لا بأس»؛ ثم تهز رأسها هزة أسرع وتقول: «لا بأس». ترفع رأسها: «اسمحي لي أن أتحدث مع المحقق. هل تسمح أيها المحقق...؟» تشير في اتجاه الباب. ينهض المحقق ليتل فيطقطق الكرسي مع وقوفه. يبتسم لي ويتبع الطبيبة فيخرجان من الغرفة.

يترك غيابه فراغاً. صرت الآن وحدي مع الممرضة. تقول لي: «اشربي مزيداً من الماء».

يعودان بعد بضع دقائق. أو، لعل الوقت طال أكثر من ذلك: ما من ساعة في هذه الغرفة.

تقول الطبيبة: «عرَض المحقق أن يعيدك إلى البيت بنفسه». أنظر إلى ليتل فيبتسم لي... «وسوف أعطيك أقراص أتيفان لكي تتناوليها في وقت لاحق. لكننا في حاجة إلى التأكد من أنك لن تصابي بنوبة أخرى قبل وصولك إلى البيت. والطريقة الأسرع لفعل ذلك...».

أعرف الطريقة الأسرع لفعل ذلك. أرى الممرضة تحضّر الحقنة.

37

يقول لي موضحاً: «ظننا أنها كانت مُزحة. نعم، هذا ما ظنناه. إن عليّ أن أتكلم بضمير الجمع، نحن... بل أظن أن علينا كلنا أن نتكلم بضمير الجمع... لأننا نعمل معاً. تعرفين هذا... نعمل ضمن فريق. نعمل من أجل الصالح العام، أو شيء من هذا القبيل. كلمات لها المعنى نفسه». تتسارع كلماته... «لكنني لم أكن هناك في تلك اللحظة. هذا يعني أنني لست واحداً ممن ظنوا أنها مزحة. لا أعرف شيئاً عن الأمر. لست أدري إن كنت تتابعين ما أقول».

لست أتابع.

تمضي بنا سيارته عبر الجادة التي لا تحمل أية علامة تميزها. وتتقافز أشعة شمس بعد الظهر على نوافذ السيارة مثل تقافز حجر على سطح بركة. يصطدم رأسي بزجاج النافذة وأرى انعكاس وجهي أمامي. على ياقة ثوبي شيء يشبه الزبد. والمحقق ليتل فائض عن مقعده... مرفقه يمس مرفقي.

أحس أنني شديدة البطء، جسداً وعقلاً.

«نعم؛ وبعد ذلك وجدوك متكوّمة على العشب. هذا ما قالوه؛ هكذا وصفوا الحالة. رأوا باب بيتك مفتوحاً فظنوا أن الحادثة وقعت هناك.

لكنهم نظروا في المكان فلم يجدوا أحداً فيه. تعرفين أنهم كانوا مضطرين إلى البحث في البيت. ذلك بسبب ما سمعوه منك على الهاتف».

أومئ برأسي. لا أستطيع أن أتذكر بالضبط ما قلته على الهاتف.

«هل لديك أطفال؟» أومئ برأسي من جديد... «كم عددهم؟» أرفع إصبعاً واحدة. «طفل واحد، أليس كذلك؟ أنا لدي أربعة أطفال. بل سيصيرون أربعة في شهر كانون الثاني. الطفل الرابع في الطريق». يقول هذا ويضحك، أما أنا فلا أضحك. لا أكاد أستطيع تحريك شفتي. «أربع وأربعون سنة؛ والطفل الرابع قادم في الطريق. أظن أن العدد أربعة هو رقم الحظ عندي».

أما أنا فأقول في نفسي: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. شهيق، زفير. يجب أن تشعري كيف يسري دواء لارازيبام في عروقك كأنه سرب من الطيور.

يطلق ليتل بوق سيارته فتزيد السيارة التي أمامنا من سرعتها. يقول لي: «إنه زحام المساء».

أرفع ناظري إلى النافذة. لم أكن في الشارع هكذا منذ قرابة عشرة شهور، ولا في سيارة تسير في الشوارع. مرت عشرة شهور لم أر المدينة فيها إلا من بيتي. أحس الآن أن ما حولي ليس من هذا العالم... كأنني أستكشف كوكباً غريباً، أو كأنني أزور حضارة مستقبلية. تبدو لي البنايات مرتفعة إلى حد مستحيل، منتصبة كأنها أعمدة تبلغ السماء المغسولة الزرقاء في الأعلى. تمر بي المتاجر واللافتات مروراً خاطفاً... ألوانها ساطعة: بيتزا طازجة، 99 سنتاً!!! ستاربكس، هول فودز (متى افتتح هذا المحل؟)، مركز إطفاء قديم أعيد تجهيزه ليصير بناية شقق صغيرة (وحدات سكنية ابتداء من 1,99 دولار للمتر المربع). أزقة معتمة باردة؛ نوافذ تلمع تحت ضوء الشمس. صفارة تعلو من خلفنا فينحرف ليتل بالسيارة جانباً حتى تتجاوزنا سيارة إسعاف.

اقتربنا من تقاطع طرق فتباطأت حركة السيارة ثم توقفت. أنظر إلى ضوء الإشارة المرورية: ضوء أحمر متوهج مثل عين شيطان؛ وأنظر إلى

سيل الناس المندفع عبر ممر المشاة: أرى والدتَيْن في بنطلونَيْ جينز زرقاوين تدفع كل منهما عربة أطفال أمامهما. وأرى رجلاً عجوزاً محني الظهر كثيراً يسير مستنداً إلى عكاز، وأرى مراهقات انحنت ظهورهن تحت ثقل حقائبهن الظهرية الوردية الفاقعة، وأرى امرأة في برقع تركوازي اللون. بالون أخضر انطلق من كشك لبيع كعك بيرتزل وارتفع إلى الأعلى متمايلاً. أصوات تغزو السيارة: صيحات مرحة، وضجيج حركة السير الذي يشبه صوت البحر، ورنين جرس دراجة هوائية. صخب الألوان وصخب الأصوات. أحس كما لو أنني في حيد مرجاني.

يتمتم ليتل: «ها نحن ننطلق». فتندفع السيارة إلى الأمام.

أهذا ما بقي مني؟ امرأة تحدق في زحمة وقت الغداء اليومية كأنها سمكة غريبة لا تفقه شيئاً؟... كأنها زائرة من عالم آخر تذهلها أعجوبة افتتاح متجر بقالة جديد؟ ينبض شيء في مكان عميق داخل دماغي المتجمد، شيء غاضب مقهور. تغزو حمرة الخجل خديّ. هذا ما صرت عليه. وهذه هي من أكونها الآن.

لولا تلك الأدوية لصرخت وظللت أصرخ إلى أن تتحطم نوافذ السيارة وتصير شظايا.

38

يقول المحقق ليتل: «والآن، سننعطف هنا». تبطئ السيارة سرعتها عند شارعنا، عندما تدخل شارعي.

هذا هو شارعي الذي لم أره منذ سنة تقريباً. المقهى عند الزاوية: لا يزال هنا؛ وأفترض أنه لا يزال يقدم تلك البيرة المُرة أكثر مما يجب. والبيت الذي إلى جانبه: لا يزال أحمر نارياً كعهده دائماً؛ ولا تزال أصص الأزهار فيه غاصّة بالأقحوان. متجر الأنتيكات لا يزال قبالته تماماً: إنه مظلم متجهّم الآن... وعلى واجهته لافتة تقول «عقار تجاري للإيجار». صار هذا المحل الذي كان اسمه «القديسة ديمفنا» مهجوراً.

مع انفتاح الطريق أمامنا، ومع تحركنا غرباً تحت مظلة من أغصان عارية، أحس الدموع تفيض من عيني. شارعي، شارعي بعد أربعة فصول. لقد صار غريباً!

يسألني المحقق ليتل: «ما الغريب؟»

لا بد أنني فكرت في هذه الكلمة بصوت مرتفع.

أحبس أنفاسي مع اقتراب السيارة من نهاية الطريق. ها هو بيتنا ـ إنه بيتي: الباب الأمامي الأسود، والرقم 2-1-3 المكتوب بأحرف نحاسية صفراء على دقاقة الباب؛ ومسّاحتا الزجاج المسلح على الجانبين يرافقهما المصباحان التوأمان، مصباح إلى جانب كل واحدة منهما بضوئه الكهربائي البرتقالي. أربعة طوابق من النوافذ التي تحدّق بكسلٍ إلى ما هو أمامها. الحجر أقل بريقاً مما أتذكره، وعليه شلالات من بقع الرطوبة الممتدة تحت النوافذ... كأن النوافذ تبكي. وعلى السطح، أرى جزءاً من تعريشة بالية. زجاج البيت كله في حاجة إلى تنظيف... أستطيع رؤية السخام عليه، حتى من الشارع. كان إد يقول: «هذا أحسن البيوت مظهراً في الشارع كله»؛ وكنت أوافقه على هذا.

لقد شخنا، أنا والبيت. لقد أصابنا الخراب.

نمر أمام البيت، ونمر أمام الحديقة.

أقول للمحقق ليتل ملوّحة بيدي في اتجاه المعقد الخلفي، في اتجاه الخلف: «إنه هنا. هذا بيتي».

يقول موضِّحاً: «أود أن آخذك معي لكي نتحدث مع جيرانك»، ثم يوقف السيارة عند الرصيف ويطفئ محركها.

أهز رأسي وأقول: «لا أستطيع»... ألا يفهم هذا؟... «عليَّ أن أذهب إلى البيت».

أحاول فك حزام السيارة، ثم أدرك أن من المستبعد أن يكون هذا مفيداً لي.

ينظر ليتل إليَّ واضعاً يده على مقود السيارة. يسألني، بل يسأل نفسه أكثر مما يسألني أنا: «كيف سنفعل هذا؟».

لست أبالي. لست أبالي. أريد أن أذهب إلى بيتي. يمكن أن تأتي بهم إلى بيتي. أجلبهم جميعاً. أقم في بيتي حفلة للحي كله إن أردت. لكن، خذني إلى بيتي الآن. أرجوك.

لا يزال ينظر إليّ. أدرك أنني تحدثت معه... أنني فكرت بصوت مرتفع مرة أخرى. أنطوي على نفسي.

صوت شيء يحتك بالزجاج، صوت سريع حاد. أرفع رأسي وأنظر. إنها امرأة حادة الأنف زيتونية الجلد في كنزة مرتفعة الياقة ومعطف طويل.

أقول للمحقق: «انتظر». يبدأ ليتل فتح نافذتي، لكنني أنكمش على نفسي وأطلق أنيناً، فيرفع الزجاج من جديد قبل أن يتحرك من مقعده وينزل ويقف في الشارع مغلقاً الباب بلطف من خلفه.

يتحدث مع المرأة من فوق سقف السيارة. تلتقط أذني بعض كلماتهما ـ طعن، مشوِّشة، طبيبة ـ أسمع هذه الكلمات وأنا أغوص تحت الماء وأغمض عيني وأندسّ عميقاً في مقعدي. يغدو الهواء هادئاً، ساكناً. تمر بي أسراب الأسماك مروراً سريعاً ـ طبيبة نفسية، بيت، أسرة، وحيدة ـ فيحملني التيار بعيداً. وبإحدى يديّ أدلِّك كمّي الآخر بحركة كسلى. تسبح أصابعي داخل ثوبي وتقرص طيّة جلد نافرة عند بطني.

أنا عالقة في سيارة شرطة حيث أعبث بشحوم بطني. هذا انحدار جديد!

بعد دقيقة... أو لعلها ساعة؟... تتوقف الأصوات فوق سطح السيارة. أفتح عيناً واحدة فأرى المرأة منحنية تنظر إلي، تحدق فيّ. أسرع فأغمض عينيّ من جديد.

صوت باب السائق عندما يفتحه ليتل. هواء بارد يندفع داخلاً، يلعق ساقي، ثم يتجول في السيارة مرتاحاً كأنه في بيته.

أسمعه يقول لي: «هذه زميلتي المحققة نوريلي». أسمع في صوته

الناعم الغني شيئاً من القساوة... «أخبرتها عما يحدث معك. وسوف تجلب بعض الناس إلى بيتك، هل لديك مانع؟».

أخفض رأسي، ثم أرفع رأسي من جديد.

«لا بأس». تئن السيارة عندما يجلس على مقعده. أتساءل... كم يبلغ وزنه؟ أتساءل... كم يبلغ وزني أنا؟

يقول بما يشبه الاقتراح: «هل أنت راغبة في فتح عينيك؟ أم إنك مرتاحة هكذا؟».

أطرق برأسي من جديد.

أسمع صوت إغلاق الباب، ثم أسمع صوت المحرك وأسمع صوت علبة السرعة تستعد للرجوع إلى الخلف. تتراجع السيارة... إلى الخلف، إلى الخلف، إلى الخلف... تلتقط أنفاسها بعد أن تجتاز حفرة في الشارع. تتوقف. أسمع المحقق ليتل يطفئ المحرك من جديد.

أسمعه يعلن عندما أفتح عيني وأسترق نظرة عبر النافذة: «ها قد وصلنا».

ها قد وصلنا. أرى البيت منتصباً أمامي، وأرى فم الباب الأمامي الأسود؛ أرى الدرجات كأنها لسان ممتد من ذلك الفم؛ وأرى الأفاريز التي فوق النوافذ كأنها حواجب فوق عيون. تقول أوليفيا دائماً إنها ترى في هذه الحجارة البنية شيئاً يشبه الوجوه. أفهم السبب عندما أنظر إليها من هذه الزاوية.

وأما تعليق المحقق ليتل على البيت فكان: «بيت لطيف. بيت كبير! أأربعة طوابق هو؟ وهل هذا قبو؟».

أومأت بالإيجاب.

«خمسة طوابق إذاً».

صمت قصير.

رمت ورقة شجر بنفسها على نافذتي، ثم انزلقت بعيداً... «وأنت تعيشين وحدك هنا؟».

قلت: «لدي مستأجر».

«أين يعيش المستأجر؟ في القبو أم في الأعلى؟».

«في القبو».

«وهل هذا المستأجر موجود الآن؟».

رفعت كتفي وقلت له: «يكون موجوداً أحياناً».

صمت. تنقر أصابع ليتل على لوحة العدادات في السيارة. أستدير في اتجاهه. يضبطني أنظر إليه فيبتسم ابتسامة كبيرة. يذكّرني مشيراً برأسه في اتجاه الحديقة: «لقد وجدوك هناك».

أغمغم قائلة له: «أعرف هذا».

«هذه حديقة صغيرة لطيفة».

«أظن هذا».

«وشارع لطيف أيضاً».

«نعم، إنه لطيف جداً».

يبتسم لي من جديد ويقول: «لا بأس»... ثم ينظر إلى ما خلفي، ينظر من فوق كتفي إلى عيون بيتي... «هل نستطيع الدخول من باب البيت الرئيسي، أم أن هذا المفتاح لا يفتح إلا الباب الذي دخل منه عاملو الطوارئ الليلة الماضية؟». مفتاح بيتي يتدلى من إصبعه. حلقة المفتاح محشورة عند مفصل ذلك الإصبع.

أقول له: «يفتح البابين معاً».

يدير المفتاح حول إصبعه ويقول لي: «لا بأس إذاً. هل تريدين أن أحملك؟».

39

إنه لا يحملني بل يشدني حتى أخرج من السيارة، ثم يرافقني حتى أدخل البوابة، ثم يدفعني حتى أصعد الدرجات... ذراعي ملقاة على ظهره

العريض وقدماي تكادان تتجرجران من خلفي. مقبض مظلتي معلق من رسغي كأننا خارجان في نزهة على الأقدام. نزهة غبية مخدرة بالأدوية.

تكاد عيناي تنهاران في الشمس. وأمام الباب، يضع المحقق ليتل المفتاح في القفل، ثم يدفع الباب فينفتح واسعاً ويصطدم بالجدار من خلفه بقوة تجعل الزجاج يهتز. أتساءل... إن كان الجيران ينظرون إلينا. أتساءل... إن كانت السيدة واسرمان قد رأت رجلاً ضخماً أسود يجرني إلى داخل بيتي. أراهن أنها تتصل بالشرطة الآن.

لا يكاد الممر يتسع لنا معاً... أنا مضغوطة إلى جانبه، مثبتة هناك، وكتفي يحتك بالجدار. يغلق ليتل الباب بقدمه فيحل الظلام على نحو مفاجئ. أغمض عيني وأدير رأسي في اتجاه ذراعه. أسمع المفتاح يدخل في قفل الباب الثاني.

وعندها أشعر بذلك: الدفء في غرفة المعيشة.

وعندها أشم ذلك: الهواء الراكد في بيتي.

وعندها أسمع ذلك: مواء القط.

القط! لقد نسيت بنتش تماماً.

أفتح عيني. لا يزال كل شيء كما تركته عندما اندفعت خارجة من البيت. باب آلة غسل الأطباق يتثاءب مفتوحاً؛ وعدة بطانيات مكوَّمة على الأريكة؛ وشاشة التلفزيون مضيئة... إنها القائمة الرئيسية في قرص الدي في دي لفيلم «الممر المظلم» وقد تجمدت على الشاشة؛ وعلى طاولة القهوة، أرى زجاجتي النبيذ المستنفدتين، أراهما متوهجتين في ضوء الشمس، وأرى علبيات أقراص الدواء الأربعة... واحدة منها منقلبة على جانبها كأنها سكرى.

إنه البيت. يكاد قلبي ينفجر في صدري. أستطيع أن أبكي لشدة ارتياحي.

تنزلق المظلة عن ذراعي وتسقط على الأرض.

يقودني ليتل إلى طاولة المطبخ، لكنني أشير بيدي ناحية الشمال

كأنني أقود دراجة آلية فننحرف متجهين إلى الأريكة حيث استقر بنتش خلف إحدى الوسائد. يقول ليتل هامساً: «ها أنت هنا». ثم يجلسني على الوسائد. القط ينظر إلينا. وعندما يراه يتراجع إلى الخلف قليلاً، ينسلّ سريعاً في اتجاهي، شاقاً طريقه بين البطانيات قبل أن يدير رأسه في اتجاه مرافقي ويحيّيه بفحيح منخفض.

يحييه ليتل قائلاً: «مرحباً بك أنت أيضاً».

أغرق في الأريكة وأحس نبض قلبي يتباطأ. أسمع الدم يغني بلطف في عروقي. تمر لحظة، ثم أقبض على ثوبي بيدي وأستعيد نفسي. إنه البيت. أمان. أمان. إنه البيت.

يتسرَّب الخوف مني ويسيل مبتعداً كأنه ماء.

أسأل المحقق ليتل: «لماذا كان هنالك أشخاص في بيتي؟».

«ماذا قلت؟».

«قلت لي إن عاملي الطوارئ دخلوا بيتي».

يرتفع حاجباه ويقول: «لقد عثروا عليك في الحديقة، ورأوا باب مطبخك مفتوحاً. كان عليهم أن يتأكدوا مما يجري».

قبل أن أتأكد من فهمي لما قاله، أراه يلتفت إلى صورة أوليفيا على الطاولة الجانبية الصغيرة. يسألني: «أهذه ابنتك؟».

أومئ بالإيجاب.

«وهل هي موجودة هنا؟».

أهز رأسي نفياً. وأتمتم: «إنها مع أبيها».

الآن دوره في الإيماء برأسه.

يستدير، ثم يتوقف، ثم يرى الفوضى على طاولة القهوة. «أثمة من يقيم حفلة هنا؟».

شهيق، زفير... أقول له: «هذا من فعل القط». ما سبب ذلك؟ يا إلهي! لماذا... ماذا كان ذلك؟ فلتصمتوا!... إنه القط. شكسبير؟ أعبس قليلاً. ليس شكسبير. هذا يخاطب العاطفة أكثر مما يجب. من الواضح أنني

عاطفية أيضاً، أكثر مما يجب، لأن المحقق ليتل لا يكلف نفسه حتى عناء ابتسامة متكلفة. يسألني: «أهذا كله لك؟». يقول هذا وهو ينظر إلى زجاجات النبيذ... «نبيذ ميرلو من النوع الجيد!».

أتململ في جلستي. أحس كأنني طفلة مشاغبة. أقول معترفة: «نعم... لكن...» أأقول إن الأمر يبدو أسوأ مما هو حقيقة؟ الواقع أن حقيقته أسوأ مما يبدو!

يبحث ليتل في جيبه عن أنبوبة كبسولات الدواء الذي وصفته لي الطبيبة الشابة اللطيفة. يضع الدواء على طاولة القهوة. أغمغم بكلمة شكر.

وعندها، في مكان عميق في تلافيف دماغي، ينفصل شيء ما ويسير مع التيار، ثم يرتفع إلى السطح.

هذه جثة.

إنها جين.

أفتح فمي.

وللمرة الأولى، ألاحظ المسدس المعلق على ردف المحقق ليتل. أتذكر كيف نظرت أوليفيا ذات مرة إلى شرطي يركب حصاناً في ميدتاون. ظلت عشر ثوانٍ ترمقه بنظرة غريبة قبل أن ألاحظ أنها تحدق في سلاحه، لا في الحصان. ابتسمتُ عند ذلك، وسخرت منها فأغظها ذلك؛ لكن المسدس أمامي الآن، في متناول ذراعي... وأنا لست أبتسم.

يمسك ليتل بنظراتي. يجذب معطفه فوق المسدس كأنه ضبطني أسترق النظر داخل قميصه.

أسأله: «وماذا عن جارتي؟».

يخرج هاتفه من جيبه ويقرّبه من عينيه. أتساءل إن كان قصير النظر. ثم يغلق الهاتف وتنخفض يده من جديد.

يسير في اتجاه المطبخ: «أأنت تعيشين وحدك في هذا البيت؟» ثم يضيف قبل أن أتمكن من قول شيء... «والمستأجر لديك أيضاً. هذا الباب يؤدي إلى الأسفل، أليس كذلك؟». يشير بإبهامه إلى باب القبو.

«صحيح. ماذا عن جارتي؟». ينظر إلى هاتفه من جديد، ثم يتوقف، ثم ينحني. عندما ينصب قامته من جديد، عندما ينصب جسده الذي يبلغ طوله مئة متر، أجده قد حمل في يده وعاء الماء الذي يشرب منه القط، وفي يده الأخرى جهاز الهاتف الأرضي. ينظر إلى الوعاء، ثم ينظر إلى الهاتف كأنه يقارن بينهما. يقول لي وهو متجه صوب المغسلة: «لعل هذا الفتى يريد أن يشرب؟».

أنظر إلى انعكاس صورته في شاشة التلفزيون، وأسمع صوت اندفاع الماء. هنالك بقية قليلة من نبيذ ميرلو في واحدة من الزجاجات. أسأل نفسي، إن كنت أستطيع تجرعها سريعاً من غير أن يراني.

أسمع صوت اصطدام وعاء الماء بالأرض، ثم أرى المحقق ليتل يضع الهاتف في مكانه، وينظر إلى شاشته مضيّقاً عينيه. يقول لي: «بطاريته فارغة».

«أعرف هذا».

يقول لي وهو يقترب من باب القبو: «أردت فقط إخبارك بأنها فارغة. هل يمكنني أن أدق هذا الباب؟» يسألني فأومئ برأسي إيجاباً.

يدق على الباب الخشبي بأصابع يده، ثم ينتظر. «ما اسم المستأجر؟».

«ديفيد».

يطرق المحقق ليتل الباب من جديد.

لا إجابة.

يستدير في اتجاهي: «أين هاتفك إذاً يا دكتورة فوكس؟».

ترفرف عيناي: «هاتفي أنا؟».

«هاتفك الخليوي». يلوّح بهاتفه أمامي... «أليس لديك واحد مثله؟».

أومئ برأسي.

«حسن، لم يجدوا معك هاتفاً. يتوجه معظم الناس مباشرة إلى هاتفهم إذا كانوا قد أمضوا الليلة كلها بعيداً عنه».

«لست أدري»... أين هاتفي؟... «لا أستخدمه كثيراً».

لا يقول المحقق ليتل شيئاً. لقد اكتفيت. أضع قدمي على السجادة، وأتحامل على نفسي لأقف. تدور الغرفة من حولي كأنها طبق طائر؛ لكنها تستقر بعد لحظة. أنظر في عيني المحقق ليتل.

يهنئني بنتش بمواءٍ منخفض الصوت.

يخطو ليتل في اتجاهي ويسألني: «هل أنت على ما يرام؟ هل تحسين أنك في وضع جيد؟».

«نعم».

لقد انفتح ثوبي! ألُمّه على جسدي وأعقد الحبل جيداً. «ما الذي يحدث لجارتي؟» لكنه يتجمد فجأة. عينه على شاشة هاتفه.

أكرر ما قلته: «ما الذي...».

يقول لي: «لا بأس. لا بأس. إنهم على وشك الوصول. أراه الآن يندفع عبر المطبخ كأنه موجة عاتية. نظراته تجول في الغرفة كلها. يشير إلى النافذة: «أهذه هي النافذة التي رأيت جارتك منها؟».

«نعم».

يسير إلى المغسلة بخطوة واسعة. خطوة طويلة واحدة من ساقيه الطويلتين، ثم يستند بكفيه إلى الطاولة وينظر إلى الخارج. أنظر إلى ظهره الذي ملأ النافذة كلها. ثم أنظر إلى طاولة القهوة وأبدأ رفع ما عليها.

يستدير ويقول لي: «اتركي ذلك كله هناك. اتركي التلفزيون يعمل أيضاً. ما هذا الفيلم؟».

«فيلم تشويق قديم».

«هل تحبين أفلام التشويق؟».

أتململ. لا بد أن مفعول الدواء قد بدأ يتناقص.

«بالتأكيد. لماذا لا يمكنني تنظيف الطاولة؟».

«لأننا نريد أن نرى بالضبط ما الذي كان يحدث معك هنا عندما كنت شاهدة على الهجوم الذي تعرضت له جارتك».

«أليس ما كان يجري معها هي أكثر أهمية؟».

يتجاهل المحقق ليتل كلماتي ويقول لي: «هل يمكنك أن تضعي هذا القط في مكان ما. يبدو عليه الانزعاج. لا أريد أن يخمش أحداً». يستدير صوب المغسلة من جديد ويملأ جسده زجاج النافذة كله من جديد. يقول لي: «اشربي هذا. أنت في حاجة إلى الماء. لقد أصابتك صدمة». يجتاز الغرفة ويضع كأس الماء في يدي. هنالك شيء يكاد يكون لطيفاً في هذه الحركة. أكاد أتوقع منه أن يداعب خدّي.

أرفع كأس الماء إلى شفتي.

يرن جرس الباب.

40

تعلن المفتشة نوريلي، من غير ضرورة: «لقد أتيت معي بالسيد روسل».

صوتها خفيف، أنثوي، غير متناسب مع سترتها الضخمة ومعطفها الجلدي الذي يشبه معطف بطلة فيلم «العاهرة راكبة الدراجة». تمسح الغرفة كلها بنظرة واحدة، ثم توجه إلي نظرة حادة تقطع الزجاج. لا تقدم نفسها. هذه شرطية سيئة، لا شك في هذا. أدرك خائبة الأمل أن لطف المفتش ليتل الشديد قد لا يكون أكثر من دخان.

يدخل ألستير خلفها نضراً منتعشاً مرتدياً سترة وبنطلوناً بلون الكاكي. لكنني أرى انتفاخاً لحمياً عند حنجرته. لعل هذا الانتفاخ موجود هناك دائماً. ينظر إليّ ويبتسم، ثم يقول بنوع من المفاجأة الباهتة: «مرحباً».

ما كنت أتوقع هذا. أتململ في جلستي. لست مرتاحة. لا يزال جهازي العصبي خاملاً كأنه محرك سيارة وضعوا فيه سُكراً، وكأن جاري يشمت بي الآن مبتسماً.

يغلق ليتل الباب بعد دخول ألستير، ثم يأتي فيقف إلى جانبي: «هل أنت بخير؟».

أدير رأسي إليه. نعم. لا.

يضع إصبعه تحت مرفقي ويقول: «فلنعطك...».
أرى وجه نوريلي عابساً: «سيدتي، هل أنت بخير؟».
يرفع ليتل يده ويقول: «إنها بخير... إنها جيدة. لكنها لا تزال تحت تأثير الدواء المهدئ».
يشتعل خداي خجلاً.
يقودني المحقق ليتل في اتجاه التجويف الذي في جدار المطبخ، ثم يُجلسني إلى الطاولة... الطاولة نفسها التي ظلت جين تدخن عليها حتى استهلكت علبة كبريت كاملة. هناك لعبنا الشطرنج وتحدثنا عن طفلينا. هناك قالت لي إن عليَّ أن أصور غروب الشمس. إنها الطاولة نفسها التي حدثتني عندها عن ألستير وعن ماضيها.
تقترب نوريلي من نافذة المطبخ. هاتفها في يدها. تقول لي: «يا سيدة فوكس...».
يقاطعها المحقق ليتل: «دكتورة فوكس».
تخاطبني من جديد: «دكتورة فوكس، فهمت من المحقق ليتل أنك رأيت شيئاً الليلة الماضية». ألقي نظرة سريعة في اتجاه ألستير الذي لا يزال واقفاً عند باب الصالة.
«رأيت جارتي تتعرض للطعن».
تسألني نوريلي: «من هي جارتك؟».
«جين روسل».
«وهل رأيت هذا عبر النافذة؟».
«نعم».
«أيّ نافذة؟».
أشير إلى النافذة التي خلفها: «تلك النافذة». تتابع نوريلي حركة إصبعي. لها عينان داكنتان، عينان مستويتان داكنتان مثل ليلة من غير قمر. أراقبها وهي تنظر إلى بيت روسل من الشمال إلى اليمين كما لو أنها تقرأ كلمات نص مكتوب.

تقول لي وهي تواصل النظر إلى الخارج: «هل رأيت الشخص الذي طعن جارتك؟»

«لا، لكنني رأيتها تنزف. ورأيت شيئاً مغروساً في صدرها».

«ما الشيء الذي كان مغروساً في صدرها؟».

أتحرك قليلاً في جلستي: «شيء فضي». ما أهمية هذا!

«شيء فضي؟».

أومئ برأسي إيجاباً.

تومئ نوريلي أيضاً، ثم تستدير وتنظر إليّ، ثم تنظر إلى ما خلفي، ثم إلى غرفة المعيشة.

«من كان معك ليلة أمس؟».

«لا أحد».

«هل يعني هذا أن كل ما على الطاولة من أجلك أنت وحدك؟».

أتململ في جلستي من جديد: «نعم».

«حسن يا د. فوكس...» لكن عينها تظل على ليتل وهي تكلمني... «سوف...» بدأت أتكلم وأنا أرفع يدي بينما تقدم ألستير في اتجاهنا: «إن زوجته...».

«انتظري لحظة...» تخطو نوريلي في اتجاهي وتضع هاتفها أمامي على الطاولة... «سوف أجعلك أولاً تستمعين إلى مكالمتك الهاتفية على الرقم 911؛ تلك المكالمة التي أجريتها في الليلة الماضية في الساعة العاشرة وثلاث وثلاثين دقيقة».

«إن زوجته...».

«أظن أن تلك المكالمة ستجيبنا عن أسئلة كثيرة». تضغط على الشاشة بإصبع طويلة ينبعث من الهاتف صوت يصفع أذني: «معك 911، ما هي الـــ...» تتحرك نوريلي وتضغط على زر الهاتف فتخفض الصوت.

«... الحالة الطارئة لديك؟».

يأتي صوتي حاداً: «إنها جارتي. لقد... طُعنت. أوه، يا إلهي،

ساعدوها». هذه أنا، أعرف هذا... هذه كلماتي على أية حال... لكنه ليس صوتي. يبدو هذا الصوت متلعثماً، ذائباً، يبتلع حروف الكلمات.

«مهلك يا سيدتي»... يأتي ذلك الصوت البطيء. بطؤه مزعج جداً، حتى في هذه اللحظة... «ما عنوانك؟».

أنظر إلى ألستير، ثم أنظر إلى ليتل. إنهما ينظران إلى هاتف نوريلي. نوريلي تنظر إلي.

«تقولين لي إن جارتك قد طُعنت؟».

«نعم، ساعدوها. إنها تنزف». أكشّر عندما أسمع هذا. كلامي غير مفهوم تقريباً.

«ماذا قلتِ؟».

«قلت لكم ساعدوها». ثم سعال رطب مثل سعال شخص يريد أن يبصق. أكاد أبكي.

«النجدة في طريقها يا سيدتي. أريد أن تهدَإي. قولي لي اسمك، من فضلك؟»

«آنا فوكس».

«لا بأس يا سيدتي. وما اسم جارتك؟».

أجيبه بصوت كالنعيب: «اسمها جين روسل. أوه، يا إلهي».

«وهل أنت معها الآن؟».

«لا. إنها خلف... إنها في البيت الذي خلف الحديقة، قبالة بيتي».

أشعر بنظرات ألستير موجهة إليّ.

أنظر إليه بدوري. إننا متعادلان.

«آنا، هل طعنتِ جارتك؟».

صمت قصير، ثم، «ماذا؟».

«هل طعنتِ جارتك؟».

«لا». ليتل أيضاً ينظر إليَّ الآن. كلهم، ثلاثتهم واقفون ينظرون إليّ.

أنحني إلى الأمام وأنظر إلى هاتف نوريلي. تخبو الشاشة وتصير سوداء. لكن الصوت يستمر.

«لا بأس».

«لقد نظرت من النافذة فرأيتها تتعرض للطعن».

«لا بأس. هل تعرفين من الذي طعنها؟».

صمت قصير آخر أطول من ذي قبل.

«سيدتي، هل تعرفين مَن... من الذي...» صوت قرقعة واصطدام. لقد وقع الهاتف من يدي. هناك في الأعلى، على سجادة غرفة المكتب... لا بد أنه بقي هناك مثلما تبقى جثة متروكة.

«سيدتي؟».

صمت.

أرفع رأسي وأنظر إلى ليتل. لم يعد ينظر إلي الآن.

تنحني نوريلي فوق الطاولة وتضغط على الشاشة بإصبعها، ثم تقول: «لقد ظل الموظف ست دقائق منتظراً على الخط، إلى أن أكد له عاملو الإنقاذ أنهم وصلوا إلى المكان».

المكان. وماذا وجدوا في المكان؟ ماذا حدث لجين؟

«لست أفهم شيئاً». شعرت بالتعب فجأة، شعرت بأنني صرت مفرغة لشدة تعبي. ألقي نظرة في الغرفة من حولي، ألتفت التفاتة صغيرة فأنظر إلى المطبخ. أنظر إلى أدوات المطبخ الموضوعة في آلة غسل الأطباق، وإلى الزجاجات الفارغة في السلة... «ماذا حدث لـ...».

يقول ليتل بصوت لطيف: «لم يحدث لها شيء يا دكتورة فوكس. لم يحدث شيء لأي شخص».

«ماذا تعني بهذا؟».

يشد بنطلونه إلى الأعلى عند الفخذين، ثم يجلس إلى جانبي.

يقول لي: «أظن أن كمية نبيذ ميرلو التي شربتها، والأدوية التي تتناولتها،

والفيلم الذي كنت تشاهدينه، لعل هذا كله كان له أثره فجعلك ترين أشياء غير موجودة».

أحدق فيه. فينظر إليَّ مرفرفاً بعينيه.

«هل تظن أنني تخيلت هذا؟» يبدو صوتي مضغوطاً، مشوّهاً.

أراه الآن يهز رأسه الضخم ويقول: «لا يا سيدتي. أظنك كنت واقعة تحت حالة تنبيه زائد فحسب. وهذا ما كان له بعض الأثر على عقلك».

انفتح فمي دهشة.

يسألني بنوع من الإلحاح: «هل لأدويتك أية آثار جانبية؟».

أقول: «نعم، لكن...».

«الهلوسة، ربما؟».

«لست أدري». أقول هذا رغم أنني أعرف الإجابة عن هذا السؤال... أعرف أنها تسبب الهلوسة.

«قالت الطبيبة في المستشفى إن الهلوسة يمكن أن تكون من بين الآثار الجانبية للأدوية التي تتناولينها».

«لم أكن أهلوس. وقد رأيت ما رأيته». أجاهد في الوقوف على قدمي. يندفع القط هارباً من تحت الكرسي فيدخل غرفة المعيشة.

يرفع ليتل يديه. كفاه مستويان كبيران. يقول لي: «لقد سمعت الآن مكالمتك الهاتفية. كنت تجدين صعوبة كبيرة في الكلام».

تخطو نوريلي خطوة إلى الأمام، ثم تقول لي: «عندما تحققوا في المستشفى من مستوى الكحول في دمك، وجدوا أنه 0,22! وهذا ما يقارب ثلاثة أضعاف الحد الأقصى الذي يسمح به القانون».

«وماذا؟».

ألستير واقف خلفها، وعيناه تنتقلان جيئة وذهاباً بيني وبينها.

أقول بصوت كالفحيح: «لم أكن أهلوس». تتهاوى كلماتي حال خروجها من فمي، ثم تسقط... «لم أكن أتخيل الأشياء. أنا لست مجنونة».

تقول نوريلي: «فهمت أن أسرتك لا تقيم في هذا البيت، أليس هذا صحيحاً يا سيدتي؟».

«هل هذا سؤال؟».

«إنه سؤال».

يقول ألستير: «قال ابني إنك مطلقة».

أصحّح كلامه بطريقة عفوية: «بل منفصلة».

تقول نوريلي: «وقد أخبرنا السيد روسل إن ما من أحد يراك في الحي. الظاهر أنك لا تخرجين من البيت كثيراً».

لا أقول شيئاً. ولا أفعل شيئاً.

تتابع نوريلي: «ومن هنا، يمكن أن تظهر نظرية أخرى: أنت تحاولين اجتذاب الانتباه إليك».

أتراجع إلى الخلف فأصطدم بطاولة المطبخ. ينفتح ثوبي.

«لا أصدقاء، ولا أفراد أسرة، وأنت تشربين كثيراً فتقررين إثارة بعض الاضطراب». أميل إلى الأمام، ثم أقول بصوت أجش: «هل تظنين أنني اختلقت هذا كله؟».

تؤكد ظني: «هذا ما أظنه حقاً».

يتنحنح ليتل، ثم يقول بصوت هادئ منخفض: «أظن أن شيئاً من الاضطراب قد أصابك هنا. ونحن... نحن لا نقول إنك فعلت هذا بقصد...».

أشير إليهم جميعاً بإصبعي وأقول لهم: «أنتم من يتخيل الأشياء. أنتم من يختلق الأشياء. لقد رأيتها غارقة في دمها، رأيتها من تلك النافذة».

تغمض نوريلي عينيها وتتنهد، ثم تقول: «يا سيدتي، يقول السيد روسل إن زوجته كانت خارج المدينة ويقول أيضاً إنك لم تريها أبداً». صمت. أحس أن الغرفة مكهربة.

أقول ببطء وبصوت واضح: «لقد زارتني هنا. زارتني مرتين».

«هناك...».

«في المرة الأولى، ساعدتني في دخول البيت عندما كنت في الشارع. ثم أتت وزارتني مرة أخرى. و...» أحدق الآن في ألستير... «وجاء هو بحثاً عنها».

يومئ برأسه: «كنت أبحث عن ابني، لا عن زوجتي». يبتلع ريقه... «وقد قلتِ لي إن ما من أحد أتى إلى هنا».

«لقد كذبتَ. جلست زوجتك إلى هذه الطاولة. ولعبنا الشطرنج».

ينظر ألستير إلى نوريلي عديم الحول.

أقول: «وقد جعلتَها تصرخ».

الآن تلتفت نوريلي إلى ألستير.

يقول لها موضحاً: «تقول الآن إنها سمعت صراخاً».

«لقد سمعت صراخاً بالفعل. سمعته منذ ثلاثة أيام». هل هذا صحيح؟ قد لا يكون صحيحاً... «وقد قال لي إيثان إنها التي كانت تصرخ». ليس هذا صحيحاً تماماً، لكنه قريب من الصحة.

يقول ليتل: «فلنترك إيثان خارج الأمر».

أنظر إليهم متحلقين من حولي. كأنهم أولئك الأولاد الذين قذفوا بيتي بالبيض... أولئك القذرون الثلاثة الصغار.

سوف أطردهم من بيتي.

أعقد يدي على صدري وأسألهم: «إذن، أين هي الآن؟»... «أين هي جين؟ إن كانت بخير، فأتوا بها إلى هنا». يتبادلون النظرات.

أجمع ثوبي من حولي، ثم أشد الحبل وأربطه، ثم أعقد ذراعي من جديد: «هيا، اذهبوا وهاتوها».

تلتفت نوريلي إلى ألستير وتقول له متمتمة: «هل يمكنك...»، فيومئ برأسه ويتراجع خارجاً من غرفة المعيشة وهو يخرج هاتفه من جيبه.

أقول لليتل: «وبعد ذلك، أريد أن تخرجوا كلكم من بيتي. أتظنون أنني أتوهم الأشياء؟» يجفل ليتل عندما يسمع هذه الكلمات... «وتظنون أنني أكذب»... لا تبدو على نوريلي أية ردة فعل... «وهو يقول إنني لم ألتق

أبداً المرأة التي التقيتها مرتين». يهمس ألستير شيئاً في هاتفه... «وأريد أيضاً أن أعرف بالضبط من دخل هذا البيت، وأين، ومتى، وأين...» أعلق بكلماتي وأتخبط بها. أتوقف لحظة حتى أستعيد نفسي... «أريد أن أعرف من دخل بيتي أيضاً».

يعود ألستير إلينا ويقول: «سوف يستغرق الأمر لحظة». ثم يضع هاتفه في جيبه.

أنظر في عينيه: «أراهن أنها ستكون لحظة طويلة».

لا يقول أحد شيئاً. تتجول عيناي في الغرفة: ألستير ينظر إلى ساعته؛ ونوريلي تنظر إلى القط نظرة وادعة. وحده ليتل ينظر إلي.

تمر عشرون ثانية.

عشرون ثانية أخرى.

أتنهّد، وأفك ذراعي عن صدري: «هذا شيء سخيف. لقد كانت المرأة...»

يرن جرس الباب.

يستدير رأسي في اتجاه نوريلي، ثم في اتجاه ليتل.

يقول ألستير وهو يستدير ذاهباً في اتجاه الباب: «دعوني أفتح الباب».

أقف مكاني من غير حركة، وأنظر إليه وهو يضغط زر القفل، ثم يدير مقبض باب الصالة ويفتحه، ثم يتنحى جانباً.

وبعد ثانية واحدة، يدخل إيثان عبر ذلك الباب. عيناه مُسدلتان إلى الأرض.

يقول لي ألستير: «لقد قابلتِ ابني». ثم يضيف... «وهذه هي زوجتي»، ثم يغلق الباب بعد دخولها.

أنظر إليه، ثم أنظر إليها. لم أرَ هذه المرأة في حياتي كلها.

41

امرأة طويلة القامة، لكنها حسنة التكوين. لها شعر داكن صقيل يحيط

بوجه دقيق التقاطيع. حاجباها دقيقان، حادّان، مقوَّسان من فوق زوج من عيون رمادية خضراء. تنظر إليّ ببرودة، ثم تجتاز المطبخ آتية في اتجاهي وتمد لي يدها.

تقول لي: «لا أظن أننا التقينا قبل الآن».

صوتها منخفض غني يشبه كثيراً صوت الممثلة لورين باكال.

لا أتحرك أبداً. لا أستطيع الحركة. تظل يدها معلقة في الهواء ممدودة في اتجاه صدري. وبعد لحظة، أشير إليها حتى تبعد يدها عني.

«من هذه؟»

يقول لي ليتل بصوت يكاد يكون حزيناً: «هذه هي جارتك».

تقول نوريلي: «إنها جين روسل».

أنظر إليها، ثم أنظر إليه، ثم أنظر إلى تلك المرأة.

أقول لها: «لا، أنت لست جين روسل».

تسحب المرأة يدها.

أتوجه بالكلام إلى الشرطيين: «لا، ليست هي. ماذا تقولان؟ هذه ليست جين».

يبدأ ألستير القول: «أؤكد لك أن هذه المرأة...».

تقول له نوريلي: «لست في حاجة إلى تأكيد أي شيء يا سيد روسل».

تسألها المرأة: «وهل لتأكيدي أنا معنى؟».

ألتفت إليها، ثم أخطو خطوة في اتجاهها: «من أنت؟» يبدو صوتي بارداً، خشناً. يسرني أن أراهما يتراجعان معاً محبطين كما لو أنهما مقيدان معاً.

يقول لي ليتل: «د. فوكس، فلنهدأ قليلاً». يضع يده على ذراعي.

أجفل عندما يضع يده. أستدير مبتعدة عنه، مبتعدة عن نوريلي. أنا الآن واقفة في وسط المطبخ، والمحققان واقفان قرب النافذة. وألستير والمرأة متراجعان إلى غرفة المعيشة.

أستدير في اتجاههما، ثم أتقدم منهما قائلة ببطء وبساطة: «لقد قابلت جين روسل مرتين. أنت لست جين روسل».

لكنها تثبت أمامي هذه المرة وتقول لي وهي تدخل يدها في جيبها: «يمكنني إبراز رخصة قيادة السيارة».

أهز رأسي ببطء وأقول: «لا أريد رؤية رخصة القيادة».

تناديني نوريلي: «سيدتي...» فألتفت برأسي إليها. أراها تقترب وتقف بيننا: «يكفي هذا».

ألستير ينظر إلي بعينين متسعتين. لا تزال يد المرأة مدفونة في جيبها. ومن خلفهما، أرى إيثان وقد تراجع حتى الكرسي الطويل. أرى بنتش متكوّماً عند قدميه.

أقول له: «إيثان...» ترتفع عيناه في اتجاهي كأنه كان ينتظر ندائي... «إيثان...» أمُرّ بين ألستير والمرأة... «ما الذي يجري يا إيثان؟»

ينظر إيثان إليَّ. ثم يشيح بوجهه.

ألمس كتفه: «هذه ليست أمك. قل لهم هذا».

يميل برقبته وتنحرف نظراته جانباً. أراه يشد على فكيه ويبتلع ريقه. يحك ظفر إصبعه ويقول لي: «أنت لم تلتقي أمي أبداً».

أرفع يدي عنه.

أستدير ببطء، وأشعر ببعض الدوار.

وعندها، يتكلمون كلهم معاً كأنهم جوقة صغيرة: يقول ألستير مشيراً برأسه في اتجاه الباب، «هل يمكننا...»؛ بينما تقول نوريلي، «لقد انتهى عملنا هنا»؛ وينصحني ليتل، «عليك ببعض الراحة».

أنظر إليهم جميعاً.

يبدأ ألستير القول من جديد: «هل يمكننا...»

تقول له نوريلي: «شكراً لك يا سيد روسل، وشكراً لك يا سيدة روسل».

يلقي كل من ألستير والمرأة نظرة حذرة في اتجاهي كأنني حيوان أُعطي دواء مهدئاً، ثم يسيران إلى الباب.

يقول ألستير بحدة: «هيا». فينهض إيثان وعيناه مثبتتان إلى الأرض، ثم يخطو عابراً من فوق القط.

بعد خروجهما من الباب، تنظر نوريلي في أعقابهما وتبلغني بما يلي: «د. فوكس، إن الإدلاء بإفادات كاذبة أمام الشرطة يعتبر جريمة. هل تفهمين هذا؟».

أحدق فيها. وأميل برأسي قليلاً.

تسوي ياقة معطفها وتقول: «حسنٌ. هذا كل ما لدي».

الباب يُغلق من خلفها. أسمع صوت فتح الباب الخارجي.

لم يعد في المكان غيرنا أنا وليتل. أنظر إلى حذائه... أسود اللون حاد الحواف... وأتذكر (كيف؟ لماذا؟) أنني نسيت درس اللغة الفرنسية مع إيف لهذا اليوم.

أنا وليتل وحدنا. نحن الاثنان.

أسمع صوت إغلاق الباب الخارجي.

يسألني ليتل: «هل يمكنني أن أتركك وحدك؟».

أومئ برأسي إيجاباً... عقلي فارغ من كل شيء.

«ألديك أحد تستطيعين الاتصال به؟».

أومئ برأسي من جديد.

يقول وهو يخرج بطاقة من جيبه ويضعها في يدي: «خذي هذه». أنظر إلى البطاقة. إنها من النوع الرخيص. كتب عليها: المحقق كونراد ليتل، دائرة شرطة نيويورك. وتحت ذلك رقما هاتف وعنوان بريد إلكتروني.

أرفع رأسي وأنظر إليه فيقول لي: «يمكنك الاتصال بي إذا كنت في حاجة إلى أي شيء. يمكنك الاتصال بي. اتفقنا؟».

أومئ برأسي.

«هل اتفقنا؟».

تتدحرج الكلمة على لساني فتزيح الكلمات الأخرى جانباً: «اتفقنا».

«جيد. اتصلي سواء في الليل أو في النهار». ينقل هاتفه من يد إلى أخرى... «إن لدي أولئك الأطفال. أنا لا أنام». ينقل الهاتف إلى اليد الأولى من جديد. يتنبه إلى نظرتي إليه فيكف عن الحركة.

ينظر كلٌّ منا إلى الآخر.

«كوني بخير يا د. فوكس». يتحرك ليتل صوب الباب، ثم يفتحه ويغلقه من خلفه بهدوء.

أسمع صوت انفتاح الباب الخارجي من جديد. ومن جديد، أسمع صوت إغلاقه.

42

صمت مفاجئ عميق. لقد توقف العالم.

أنا وحدي، للمرة الأولى طيلة اليوم.

يمسح نظري الغرفة كلها. زجاجات النبيذ متألقة في أشعة الشمس التي مالت كثيراً. الكرسي عند طاولة المطبخ. القط يسير على الأريكة.

ذرات من الغبار تتهادى عائمة في الضوء.

أندفع إلى باب الصالة فأغلقه، ثم أقفله.

أستدير لأواجه الغرفة من جديد.

هل حدث هذا حقاً؟

ما الذي حدث؟

أذهب إلى المطبخ فأخرج زجاجة نبيذ. أغرس اللولب في السدادة، ثم أقتلعها من مكانها. أصب السائل في كأس. أرفع الكأس إلى شفتيّ.

أفكر في جين.

أشرب الكأس، ثم أرفع الزجاجة إلى فمي، وأميلها بقوة. أشرب جرعة طويلة عميقة.

أفكر في تلك المرأة.

أشق طريقي إلى غرفة الجلوس الآن، وتتسارع خطواتي. أضع قرصَيْ دواء في راحة يدي. يتراقص القرصان نازلين في حلقي.

أفكر في ألستير. وهذه هي زوجتي.

أقف هناك أشرب النبيذ بشراهة، أبتلعه، إلى أن أختنق به.

عندما أضع الزجاجة من جديد، أفكر في إيثان وكيف أشاح بوجهه بعيداً عني، أفكر كيف مال برأسه... كيف ابتلع ريقه قبل أن يجيبني... كيف راح يحك ظفره... كيف كان يتمتم.

كيف كان يكذب.

وقبل أن يكذب... تلك النظرة التي لا تريد أن تراني، وتلك الالتفافة الجانبية، والاستجابة المتأخرة، والتململ... هذا كله يقول إنه يكذب. عرفت أنه سيكذب قبل أن يفتح فمه.

لكنه كان يشد على فكَّيه: هذه علامة على شيء آخر.

هذه علامة على الخوف.

43

جهاز الهاتف على الأرض في غرفة المكتب، تماماً حيث سقط من يدي. أنقر على شاشته بعد أن أعيد زجاجات الدواء إلى خزانة الأدوية في الحمام. أدرك تماماً أن د. فيلدينغ هو الشخص الذي لديه شهادة دكتوراه في الطب، وهو الذي يستطيع أن يكتب وصفات طبية أيضاً. لكنه لن يتمكن من مساعدتي هنا.

أقول فور سماعي صوتها: «هل يمكنك المجيء إلي؟».

صمت قصير. «ماذا؟» تبدو حائرة.

«هل يمكنك المجيء إلي؟» أبلغُ سريري وأصعد إليه.

«الآن؟ لست...».

«أرجوك يا بِينا».

صمت آخر: «يمكنني أن أكون عندك في حدود الساعة... التاسعة أو التاسعة والنصف. لديّ مشروع عشاء».

لست أبالي. أقول لها كاذبة: «جيد». الوسادة تضغط على أذني. الأغصان تهتز خلف زجاج النافذة وتسقط عنها أوراقها كأنها جمرات. تتألق الجمرات خلف الزجاج، ثم تطير مبتعدة. «هل كل شيء على مايرام؟»

«ماذا قلتِ؟» الدواء يخدّر عقلي. يمكنني الإحساس بالتّماسات في دارات هذا العقل.

«إنني أسألك هل كل شيء على ما يرام؟»

«لا. نعم. سوف أشرح كل شيء عندما تكونين هنا». ينسدل جفنا عينيّ، يسقطان.

لا بأس. أراك الليلة.

لكني قد بدأت أغفو.

نوم مظلم لا أحلام فيه؛ نسيان صغير. أستيقظ مرهقة مستنفدة عندما أسمع جرس الباب يرن في الأسفل.

44

تنظر بِينا إليّ. فمها مفتوح.

تغلق فمها أخيراً، تغلقه ببطء لكن بثقة، كأنه مصيدة. لا تقول لي شيئاً.

نحن جالستان في مكتبة إد. أنا متكورة على نفسي في كرسيه الكبير، وبِينا جالسة على الكرسي الآخر، الكرسي الذي يجلس عليه د. فيلدينغ. ساقاها مثل أنبوبين مطويين تحت المقعد. وبنتش يدور حول ساقيها كأنه دخان.

وفي الموقد تفيض نار صغيرة.

أراها الآن تنقل نظرتها عني وتراقب موجة اللهب الصغيرة.

تسألني مكشّرة كما لو أنني يمكن أن أضربها: «كم كانت كمية النبيذ التي تناولتها؟».

«لم تكن كمية كافية لجعلي أهلوس».

تهز رأسها وتقول: «لا بأس! وأقراص الدواء...» أقبض على البطانية الموضوعة في حضني، ثم أعصرها: «لقد التقيت جين. التقيتها مرتين. في يومين مختلفين».

«صحيح».

«رأيتها مع أسرتها في بيتهم. رأيتهم أكثر من مرة».

«صحيح».

«رأيت جين تنزف. ورأيت سكيناً في صدرها».

«هل كانت سكيناً على وجه التحديد؟».

«حسن... لم يكن ذلك الذي في صدرها بروشاً لعيناً!».

«إنني فقط... لا بأس، صحيح».

«رأيت هذا عبر عدسة الكاميرا... رأيته بوضوح شديد».

«لكنك لم تلتقطي صورة».

«لا، لم ألتقط صورة. كنت أحاول مساعدتها، وليس... توثيق ما يحدث».

تمسّد خصلة من شعرها بحركة بطيئة...

«لا بأس.. وهم يقولون الآن إن أحداً لم يتعرض للطعن».

«وهم يحاولون القول أيضاً، إن جين شخص آخر. أو أن امرأة أخرى هي جين».

تلف خصلة شعرها حول إصبعها الطويل.

تبدأ القول: «أنت واثقة...» فأتوتر لأنني أعرف ما سيأتي... «أنت واثقة تماماً من أن هذا كله لا يمكن أن يكون سوء فهم».

أنحني في اتجاهها: «أعرف ما رأيته».

تترك بِينا يدها تسقط إلى حضنها: «أنا لا... لا أعرف ماذا أقول».

أبدأ الكلام ببطء كما لو أنني أسير على أرض زجاجية زلقة: «لن يقتنعوا بأن شيئاً حدث لجين»؛ أقول هذا لها بقدر ما أقوله لنفسي أيضاً... «إلى أن يقتنعوا بأن المرأة التي ظنوها جين... ليست كذلك في حقيقة الأمر».

هذه عقدة، لكنها تومئ برأسها.

«فقط لو... ألا تطلب الشرطة من هذه المرأة إثبات شخصية، مثلاً؟».

«لا. لا. لا. لقد اكتفوا بما قاله زوجها... اكتفوا بما قاله من يدّعي أنه زوجها. أليس هذا كافياً لهم؟ لماذا لا يكون كافياً؟ ولم يرها أحد من قبل. لم يمر على إقامتهم هنا أكثر من أسبوع. من الممكن أن تكون أي شخص. من الممكن أن تكون واحدةً من قريباته. من الممكن أن تكون واحدةً من عشيقاته. ومن الممكن أن تكون عروساً جديدة طلبها عبر البريد». أمد يدي إلى كأسي، لكني أتذكر أنني لم أسكب كأساً... «لكني رأيت جين مع أسرتها. رأيت قلادتها ورأيت صورة إيثان فيها. لقد رأيت... لقد أرسلت لي معه شمعة، بحق الرب!».

تومئ بِينا برأسها من جديد.

«وزوجها، ألم يكن يتصرف...».

«تقصدين القول يتصرف كما لو أنه طعن أحداً قبل قليل؟ لا».

«وأنت متأكدة من أنه هو الذي...».

«هو الذي ماذا؟»

تتململ بينا: «فعل ذلك».

«ومن غيره يمكن أن يكون من فعل ذلك؟ ابنهما ملاك. وإن كان يمكن أن يطعن أحداً، فسوف يطعن والده». أمد يدي إلى كأسي من جديد، لكني أقبض الهواء... «وقد رأيته جالساً إلى كمبيوتره قبل حدوث ذلك بقليل... إلا إذا كان قد نزل السلم سريعاً ليقتل أمه. أظن أنه بعيد عن الشبهة تماماً».

«هل أخبرتِ أحداً آخر بهذا؟».

«ليس بعد».

«ألم تخبري طبيبك؟».

«سأفعل ذلك».

«سأخبر إد أيضاً. سوف أكلمه فيما بعد».

والآن، هدوء. لا شيء غير فرقعة ألسنة اللهب في الموقد.

رحت أنظر إليها، إلى التماعة جلدها النحاسية في ضوء النار وأتساءل إن كانت تسخر مني، إن كانت تشك في ما أقول. هذه قصة غير معقولة، أليست كذلك؟ زوجٌ قتل زوجته وجاء بواحدة غيرها لكي تمثل دورها. وابنهما أكثر خوفاً من أن ينطق بالحقيقة.

تسألني بينا برقة: «وأين تظنين جين الآن؟»

هدوء.

تقول بينا وهي منحنية فوق كتفي وشعرها ينسدل مثل ستارة بيني وبين مصباح الطاولة: «لم تكن لدي أية فكرة حتى عن وجودها».

أتمتم قائلة: «كانت شخصية شهيرة في الخمسينات. ثم صارت من أشد مناهضي الإجهاض».

«آه!»

«مرت بإجهاض سيئ».

«أوه!».

نحن الآن عند طاولة مكتبي ننظر في اثنتين وعشرين صفحة من صور الممثلة جين روسل: مثقلة بالجواهر (الرجال يفضلون الشقراوات)، وشبه عارية على كومة قش (الخارج على القانون)، ودائرةً حول نفسها في تنورة غجرية (دم حار). بحثنا في موقع Pinterest. نقّبنا في خبايا إنستغرام أيضاً. واستعرضنا صحف بوسطن ومواقعها على الإنترنت. وزرنا معرض صور بتاريك ماكمولان. لا شيء.[1]

---

(1) هما تبحثان في الإنترنت عن صور الجارة، لكنهما لا تجدان غير صور كثيرة للممثلة الشهيرة جين روسل.

تقول لي بينا: «أليس هذا مدهشاً؟... كيف يمكن، بحسب الإنترنت، أنّ بعض الأشخاص غير موجودين؟».

العثور على ألستير أكثر سهولة. ها هو يبدو كإصبع النقانق في قميص ضيّق مشدود. صورة من مقالة قبل سنتين في «كونسَلتينغ ماغازين». يقول عنوان المقالة: روسل ينتقل إلى أتكينسون. الصورة نفسها على ملفه في موقع LinkedIn. صورة أخرى في الرسالة الإخبارية لخريجي دارتماوث؛ إنه يرفع نخب واحد من جامعي التبرعات.

لكن، لا وجود لجين!

بل أغرب من هذا أيضاً: لا وجود لإيثان! ليس موجوداً على فيسبوك ولا على فورسكوير، ولا في أي مكان. ولا تعطي نتائج البحث عن اسمه في غوغل غير بعض الروابط المؤدية إلى مصور فوتوغرافي يحمل الاسم نفسه.

تسألني بينا: «أليست لمعظم الأطفال حسابات على فيسبوك؟».

«أبوه لا يسمح له بذلك. لا يسمح له حتى بهاتف خليوي». أرفع كم ثوبي الذي تهدّل... «وهو يدرس في البيت. أرجّح أنه لا يعرف الكثير من الأشخاص هنا. بل لعله لا يعرف أي شخص».

تقول بينا: «رغم هذا، لا بد أن يوجد شخص يعرف أمه. شخص ما في بوسطن مثلاً. أو... أي شخص». تسير إلى النافذة... «ألا يجب أن تكون في بيتهم صور؟ ألم تكن الشرطة في بيتهم الآن؟».

أفكر في هذا: «لا أتوقع إلا أن تكون لديه صور لتلك المرأة. لا يمكن أن يكون ألستير قد غامر بجعلهم يرون أي شيء كيفما اتفق وبإخبارهم أي شيء. لن يفتشوا بيته. لقد أوضحوا هذا تماماً».

تهز رأسها، ثم تستدير وتنظر إلى بيت روسل. تقول لي: «ستائرهم مسدلة».

«ماذا تقولين؟». انضمّ إليها عند النافذة فأرى الأمر بنفسي: المطبخ والردهة وغرفة إيثان... النوافذ مغلقة كلها.

لقد أغمض البيت عيونه. أغلقها تماماً.

أقول لها: «أترين؟ لا يريدون أن أنظر إليهم بعد الآن».

«لست ألومهم على هذا».

«إنهم يتخذون حذرهم. ألا يبرهن هذا على شيء؟».

تميل برأسها جانباً وتقول: «الأمر يدعو إلى الريبة، نعم. هل كانوا يكثرون من إغلاق النوافذ هكذا؟».

«أبداً، أبداً. كان بيتهم كأنه حوض أسماك!».

تقول مترددة: «هل تظنين... هل تظنين أنك قد تكوني... أنت تفهمين قصدي... في خطر؟».

لم يخطر هذا في بالي أبداً. أسألها: «لماذا؟».

«لأن... إذا كان ما رأيته قد حدث حقاً...».

أقول مجفلة: «لقد حدث».

«... إذن، أنت شاهد عليه».

أتنفس بعمق، ثم أتنفس مرة أخرى.

«هل تنامين عندي الليلة، من فضلك؟».

يرتفع حاجباها: «لكن هذا... ماذا تقولين؟».

«سأدفع لك».

تنظر إليّ بعينين نصف مغمضتين: «ليس الأمر هكذا. علي الذهاب إلى عملي باكراً يوم غد، وحوائجي كلها هناك».

«من فضلك»... أنظر عميقاً في عينيها... «من فضلك».

تتنهد.

45

ظلام!... ظلام عميق، كثيف. شيء مثل ظلمة الملاجئ. شيء مثل ظلمة أعماق الفضاء.

وعند ذلك، تظهر نجمة نائية في مكان بعيد، تلوح التماعة ضوء.

اقترب أكثر. يرتعش الضوء، يتراقص، ينبض.

إنه قلب. إنه قلب صغير. ينبض. يشع ضوءاً.

إنه يلقي الضوء على الظلمة من حوله، يستقر على سلسلة ناعمة كالحرير. كنزة بيضاء كأنها شبح. كتفان يغمرهما الضوء. خط عنق. ويد... يد تلعب أصابعها عند القلب الصغير النابض.

وفوق هذا كله وجه: جين. جين الحقيقية. متألقة. تنظر إليَّ. تبتسم.

أبتسم لها.

ثم، ينزلق أمامها لوح من زجاج. تضغط بيدها على الزجاج فتنطبع عليه خريطة آثار بصماتها الصغيرة.

ترتفع الظلمة من خلفها فجأة فيظهر مشهد: الأريكة الصغيرة المقلّمة بخطوط بيضاء وحمراء؛ ومصباح مزدوج ينبثق نوره الآن؛ وسجادة مثل حديقة مزهرة.

تخفض جين رأسها وتنظر إلى قلادتها، تداعبها أصابعها برقة. وعلى كنزتها الوضاءة بقعة الدم المتوسعة، الممتدة، تصل إلى ياقتها وتشتعل ناراً على جلدها.

وعندما ترفع رأسها وتنظر من جديد، أراها تنظر إلي... لكنها... إنها المرأة الأخرى!

السبت

6 تشرين الثاني

46

تذهب بِينا بعد السابعة صباحاً بقليل، تماماً عندما بدأ ضوء النهار يمد أصابعه من خلف الستائر. صرت الآن أعرف أنها تشخر... شخرات صغيرة خفيفة مثل صوت أمواج بعيدة. شيء غير متوقع.

أشكرها، ثم أدفن رأسي في الوسادة وأغرق في النوم من جديد. أنظر إلى هاتفي عندما أستيقظ. إنها الحادية عشرة تقريباً.

أحدق في شاشة الهاتف برهة. لكني، بعد دقيقة واحدة، أجد نفسي أتحدث مع إد. وهذه المرة، لا أقول له «احزر من».

يقول لي بعد صمت قصير: «هذا شيء لا يُصدق».

«لكنه حدث».

يصمت من جديد، ثم يقول: «لا أقول لك إنه لم يحدث. لكن...» أُجهّز نفسي... «أنت تتناولين أدوية ثقيلة حقاً في الآونة الأخيرة. وهكذا...».

«هكذا، أنت لا تصدقني أيضاً».

يزفر ويقول: «لا، ليست المسألة أنني لا أصدقك. المسألة فقط...».

أصيح به: «هل تدرك كم هو محبِط موقفك هذا؟».

يصمت. أما أنا فأعبّ الهواء وتابع: «رأيت ذلك يحدث. نعم، لقد كنت تحت تأثير الدواء، وأنا... صحيح. لكنني لم أتخيل الأمر. لا يتناول

المرء حفنة أقراص دواء ثم يتخيل شيئاً من هذا القبيل. لستُ طالب مدرسة ثانوية يلعب ألعاب الفيديو العنيفة ثم يطلق النار في مدرسته. أنا أعرف ما أراه».

إد لا يزال صامتاً.

ثم يقول لي: «حسن، شيء واحد... حتى يكون الكلام منهجياً... هل أنت واثقة من أنه هو؟».

«هو من؟».

«الزوج. الذي... الذي فعلها».

«قالت لي بِينا الشيء نفسه. أنا واثقة بالطبع».

«ألا يمكن أن تكون تلك المرأة الأخرى قد طعنتها؟».

أَهدأ فجأة.

يرتفع صوت إد مثلما يحدث دائماً عندما يفكر بصوت مرتفع: «لنقل إنهل عشيقته مثلما تظنين. ولنقل إنها أتت من بوسطن، أو من أيّ مكان. تنشب مشاجرة. ثم يظهر سكين. أو أي شيء. يدخل السكين صدرها. لا علاقة للزوج».

أفكر. أقاوم الفكرة، لكن... ربما. إلا أن... أقول بإصرار: «ليست المسألة من فعل هذا... ليست تلك هي المسألة الآن. الحقيقة هي أن الأمر قد حدث. والمشكلة أن ما من أحد يصدقني. بل لا أظن حتى إن بِينا تصدقني. لا أظن أنك تصدقني أيضاً».

صمت. أجد أنني صعدت السلم ودخلت غرفة أوليفيا.

أضيف قائلة: «لا تخبر أوليفيا بهذا».

يضحك إد... ضحكة حقيقية! ضحكة لامعة كالقصدير: «لن أفعل هذا... ما رأي د. فيلدينغ؟».

أصيح: «لم أتكلم معه بعد».

«عليك أن تكلميه».

«سأكلمه».

صمت.

«وما أخبار البيوت الأخرى من حولك؟».

أدرك أن لا فكرة عندي عن هذا. آل تاكيدا، وآل ميلر، بل آل واسرمان... لم يجتذب أحد منهم انتباه راداري خلال الأسبوع الماضي. لقد انسدلت ستارة بيني وبين الشارع فحجبت البيوت التي على الناحية الأخرى من الطريق، جعلتها تختفي. لا يوجد الآن غير بيتي وبيت روسل والحديقة التي بيننا. أتساءل في نفسي عما استجد فيما يتعلق بذلك الرجل، صاحب ريتا. وأتساءل عن الكتاب الذي اختارته السيدة غراي من أجل مجموعة القراءة. لقد اعتدت متابعة نشاطاتهم كلها، نشاطات جيراني. واعتدت أيضاً أن أسجل كل ما يحدث. لديَّ فصول كاملة عن حياتهم مخزّنة في ذاكرة كمبيوتري. أما الآن...

أقول معترفة: «لست أدري».

يقول لي: «لا بأس... لعل الأمر أفضل هكذا».

وبعد حديثنا، أنظر إلى ساعة الهاتف من جديد. اليوم هو الحادي عشر من الشهر الحادي عشر. إنه يوم ميلادي! إنه يوم ميلاد جين أيضاً.

47

إنني أتجنّب المطبخ منذ يوم أمس، وأتجنب الطابق الأول كله. لكنني أقف الآن من جديد عند تلك النافذة وأنظر إلى البيت الذي خلف الحديقة.

أصب قليلاً من النبيذ في الكأس.

أعرف ما أراه. نزيف. واستغاثة.

لا أظن هذا الأمر قد انتهى.

أشرب.

48

أرى ستائر النوافذ مرفوعة.

ينظر البيت إليّ بعيون متسعة كأنه فوجئ برؤيتي أنظر إليه. أقرّب الصورة وأمسح النوافذ بنظري. أركز على الردهة.

لا أثر لشيء. لا شيء. الأريكة الصغيرة. المصباحان الواقفان مثل حارسين.

أقترب من حافة النافذة وأرفع الكاميرا في اتجاه غرفة إيثان. أراه جالساً إلى مكتبه كأنه تمثال... إنه جالس أمام كمبيوتره.

أقرّب الصورة أكثر. عملياً، أنا قادرة الآن على رؤية النص الظاهر على الشاشة.

حركة في الشارع. سيارة لامعة مثل سمكة قرش تسير إلى أن تصل إلى بقعة أمام الممشى المؤدي إلى بيت روسل، ثم تتوقف. ينفتح باب السائق كأنه مروحة، ويخرج ألستير من السيارة مرتدياً معطفاً شتوياً.

يسير إلى البيت بخطًى واسعة.

ألتقط صورة. وعندما يبلغ الباب، ألتقط صورة أخرى.

ليست لديّ خطة. (أتساءل... هل عادت لديَّ خطط من أي نوع؟) ليس الأمر أنني أتوقع رؤية يديه مغمستين بالدم. لن أراه آتياً حتى يطرق باب بيتي ويعترف!

لكنني أستطيع المراقبة.

يدخل البيت. تقفز عدسة كاميرتي إلى المطبخ. وبالتأكيد، يظهر هناك بعد لحظة. يلقي بالمفاتيح على الطاولة، ثم يخلع معطفه. يخرج من المطبخ. ثم لا يعود.

أحرك الكاميرا إلى الأعلى، في اتجاه الطابق التالي، إلى الردهة.

وعندما أفعل هذا، تظهر أمامي خفيفة متألقة في كنزة خضراء بلون الربيع: جين.

أضبط العدسة. تصير صورتها جلية، شديدة الوضوح، وهي تتجه إلى المصباح الأول فتضيؤه، ثم إلى المصباح الآخر فتضيؤه أيضاً. أنظر إلى يديها الرقيقتين وعنقها الطويل وانسدال شعرها على خدها.

الكاذبة!
ثم تغادر الغرفة. يتهادى ردفاها الرشيقان في مشيتها خارجة من الباب.
لا شيء. الردهة خالية الآن. لا أحد في المطبخ الآن. وفي الأعلى أرى كرسي إيثان فارغاً، وشاشة كمبيوتره كأنها علبة سوداء.
يرن هاتفي.
أدير رأسي سريعاً، أكاد أديره دورة كاملة مثلما تفعل بومة. تسقط الكاميرا في حضني.
الصوت خلفي، لكن هاتفي في يدي. إنه الهاتف الأرضي.
ليس هاتف المطبخ الذي يجلس ميتاً في مكانه في الأسفل، بل الهاتف الذي في غرفة مكتبة إد. لقد نسيت أمره تماماً.
يرن الهاتف من جديد. رنين بعيد، ملحّ.
لا أتحرك من مكاني. لا أتنفس.
مَن الذي يتصل بي؟ لم يتصل أحد على هاتف البيت الأرضي منذ... لا أستطيع التذكر. من عساه يكون لديه رقم هذا الهاتف أصلاً؟ لا أظنني قادرة على تذكره، أنا نفسي.
رنّة أخرى.
ثم رنّة أخرى.
أجلس واهنة عند زجاج النافذة، وأذبل في البرد هناك. أتخيل غرف بيتي غرفة غرفة، أتخيلها نابضة بهذا الصوت.
رنة أخرى. أنظر عبر الحديقة.
إنها هناك، في نافذة الردهة من جديد. وفي يدها هاتف.
أراها تنظر إليّ مباشرة، تُمعن النظر.
أنهض من جلستي حاملة الكاميرا بيد واحدة، ثم أتراجع إلى غرفة مكتبي. تظل نظرتها تلاحقني؛ وأرى فمها خطاً جامداً.
كيف حصلت على هذا الرقم؟
لكن مهلاً... كيف حصلتُ على رقمها؟ إنها خدمة الاستعلام عن

الأرقام الهاتفية. أتخيلها وهي تتصل وتقول اسمي وتطلب رقمي. إنها تطلب رقمي. تغزو بيتي، وتغزو رأسي.

الكاذبة.

أنظر إليها. أحدّق فيها. أراها ترد على تحديقي بمثله.

رنة أخرى أيضاً.

ثم أسمع صوتاً آخر... إنه صوت إد.

أسمعه يقول بصوت منخفض خشن مثل صوت مذيع يعلّق على مقطع من فيلم: «أنتم تتصلون ببيت آنا وإد». أتذكره عندما سجل هذه الرسالة. أتذكر كيف قلت له: «يبدو صوتك مثل فين دييزل»، فضحك وزاد نبرة صوته انخفاضاً.

«نحن لسنا في البيت الآن. لكن يمكنكم أن تتركوا لنا رسالة، وسوف نتصل بكم سريعاً». ثم أتذكر أنه بعد انتهائه من تسجيل هذه الرسالة، مباشرة بعد أن ضغط على زر التوقف، أضاف يقول بلهجة «كوك مي» الورعة المخيفة: «سنتصل عندما يعجبنا ذلك».

أغمض عينيَّ لحظة وأتخيله يتصل بي.

لكن صوتها هو الذي يملأ الهواء، يملأ البيت كله.

«أظنك تعرفين من أكون». صمت قصير. أفتح عيني فأجدها تنظر إلي، وأرى فمها يشكّل الكلمات التي تحفر في أذني.

إن لهذا تأثيراً غريباً... «كفّي عن تصوير بيتنا وإلا طلبت الشرطة». تبعد سماعة الهاتف عن أذنها، ثم تضعه في جيبها. تحدق في اتجاهي. أحدق في اتجاهها.

كل شيء صامت.

وعندها، أخرج من الغرفة.

إنه برنامج لعب الشطرنج. أطفئ الشاشة بإصبعي. وأضغط الهاتف على أذني. أسمع رسالة د. فيلدينغ الترحيبية المسجلة، رسالة جافة مثل ورقة شجر ميتة تطلب مني أن أترك رسالة. أترك له رسالة؛ وألفظ كلماتها بعناية.

أنا الآن في مكتبة إد. الكمبيوتر المحمول يدفئ فخذيّ. وشمس منتصف النهار منصبة على السجادة. كأس من نبيذ ميرلو واقفة على الطاولة إلى جانبي. كأس وزجاجة.

لا أريد أن أشرب. أريد أن أظل صافية الذهن. أريد أن أفكر. أريد أن أحلل. أحس منذ الآن أن الساعات الست والثلاثين التي مضت قد بدأت تختفي، تتبخر كأنها ضباب. وأحس منذ الآن أن البيت بدأ يفرد كتفيه من جديد ليصدّ العالم الخارجي عني.

أنا في حاجة إلى الشرب.

/ GIRLPOOL/ . ما هذا الاسم السخيف؟ / GIRLPOOL/ .

فيلم «الدوامة». الممثلة جين تييري. لورين باكال... «إنه في مجرى دمك الآن».

إنه في مجرى دمي حقاً. أرفع الكأس إلى شفتيّ وأحس دم النبيذ يندفع نازلاً في حلقي؛ أحس فوراناً في عروقي.

«احبسي أنفاسك، وتفاءلي بالخير».

دعيني أدخل!

سوف تكونين بخير.

سوف تكونين بخير. أضحك ضحكة صغيرة كالنخير.

ذهني مستنقع، مستنقع عميق كريه... الحقيقي والكاذب يتداخلان ويختلطان. ما اسم تلك الأشجار التي تنمو في الأراضي المستنقعية الرسوبية الثقيلة؟ الأشجار التي تكون جذورها مكشوفة؟ اسمها مانـــ... مانديك؟ مانـ... شيء ما، بالتأكيد.

ديفيد.

تهتز الكأس في يدي. نسيت ديفيد في هذه العجلة، في هذا الارتباك.

هو الذي ذهب ليعمل في بيت روسل. هو الذي يمكن أن يكون... بل يجب أن يكون... قد التقى جين.

أضع الكأس على الطاولة، وأرغم نفسي على الوقوف. أسير متمايلة في الصالة.

أنزل درجات السلم وأدخل المطبخ. ألقي نظرة في اتجاه بيت روسل... لا أرى أحداً. لا أحد يراقبني من هناك. ثم أدق باب القبو، دقات لطيفة في البداية، ثم دقات قوية. أصرخ باسمه.

لا إجابة. أسأل نفسي إن كان نائماً الآن. لكننا في وقت الظهر.

تلمع الفكرة في رأسي.

هذا شيء خاطئ، أعرف تماماً، لكن البيت بيتي. والأمر ملحّ. الأمر ملحّ كثيراً.

أذهب إلى طاولة المكتب التي في غرفة المعيشة، ثم أفتح الدرج، فأجده هناك. مفتاح فضّي مسنَّن كامد اللون.

أعود إلى باب القبو. أدق الباب مرة أخرى. لا شيء. أضع المفتاح في القفل. أدير المفتاح.

أفتح الباب.

يطلق الباب أنيناً. أُجفل وأطلق صرخة صغيرة.

لكني أنظر إلى السلم الذي خلف الباب فأرى كل شيء هادئاً. أنزل في الظلمة بخطوات خفيفة في حذائي المنزلي. أنزل ويدي تنسحب معي على امتداد الجدار الخشن.

أصل. الستائر التي تحجب الضوء مسدلة تماماً. الليل مخيِّم هنا. تبحث أصابعي عن مفتاح النور على الجدار. أضغط المفتاح. تمتلئ الغرفة نوراً.

مر شهران منذ زرت هذا المكان آخر مرة؛ شهران منذ أن أتى ديفيد ليلقي نظرة. نظر إلى المكان كله بعينيه الداكنتين مثل عرق السوس... غرفة المعيشة وطاولة الرسم التي يستخدمها إد منتصبة في وسطها؛ وحيز

النوم الصغير الضيق؛ وزاوية المطبخ الصغيرة ذات اللونين الفضي والبني؛ والحمام. نظر إلى هذا كله وأومأ برأسه مرة واحدة. أومأ موافقاً.

لم يغير ديفيد الكثير في هذا المكان. بل لم يغير فيه أي شيء تقريباً. لا تزال أريكة إد حيث كانت. ولا تزال طاولة الرسم قائمة رغم أن ديفيد جعلها في وضعية أفقية الآن. أرى في منتصف طاولة الرسم طبقاً وشوكة وسكيناً من البلاستيك موضوعتين في الطبق، متقاطعين كأنهما شعار ما. أرى صناديق الأدوات مكدسة عند الجدار إلى جانب الباب الخارجي. أرى المشرط موضوعاً على العلبة العليا، وأرى نصله الممتد مثل لسان يلمع تحت الضوء. وإلى جانبه كتاب مفتوح. سيدهارتا.

صورة فوتوغرافية في إطار رقيق أسود معلقة على الجدار المقابل. صورتي مع أوليفيا عندما كان عمرها خمس سنين. نحن واقفتان على الدرجات أمام بيتنا. ذراعاي ملتفتان حولها. كلتانا مبتسمتان، وأسنان أوليفيا الصيفية اللامعة... كان إد يحب أن يقول: «صيف هنا، وصيف هناك». لقد نسيتُ هذه الصورة تماماً. ينقبض قلبي قليلاً. أسأل نفسي: لماذا لا تزال معلقة هنا؟

أقترب من حيز النوم. وأقول بصوت هادئ: «ديفيد؟» وكأنني واثقة من أنه ليس هنا. ملاءات السرير متجمعة عند أسفل الفراش. شقوق عميقة في الوسائد كأنها من فعل مقصّ. أنظر إلى الأشياء الموضوعة على السرير: زركشة من النودلز متجمّعة على غلاف الوسادة؛ واقٍ لمنع الحمل ذابل زيتي المظهر ملقىً على حاجز أسفل السرير؛ زجاجة أسبرين مستقرة بين رأس السرير والجدار؛ أشكال غريبة منتشرة على السرير رسمتها بقع عرق جافة، أو بقع مني جافة؛ وكمبيوتر محمول صغير عند أسفل الفراش. مجموعة من علب الواقيات الذكرية منتشرة حول المصباح الأرضي. وقرط نسائي يلمع فوق الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير.

ألقي نظرة في الحمام. المغسلة مبرقشة ببقايا الحلاقة، والمرحاض

مفتوح. وداخل الدوش، أرى عبوة شامبو رخيصة شبه فارغة وقطعة صابون صغيرة.

أتراجع، ثم أعود إلى الغرفة الرئيسية. أمر بيدي على طاولة الرسم.

شيء يقفز في دماغي. أمسك بذلك الشيء، ثم أفقده.

أنظر في الغرفة مرة أخرى. لا أرى ألبومات صور... رغم ظني أن أحداً ما عاد يحتفظ بألبومات صور في هذه الأيام (أتذكر أن جين لديها ألبومات صور). لا أرى محفظة أقراص سي دي أو حامل أقراص دي في دي. لكنني أظنها انقرضت أيضاً. أليس شيئاً مدهشاً أن يكون هنالك أيضاً أشخاص غير موجودين، كما يقول الإنترنت؟ ألم تسألني بِينا هذا السؤال؟ كل ذكريات ديفيد، موسيقاه كلها، وكل ما قد يبين هوية هذا الرجل... كل شيء اختفى. أو لعله موجود من حولي، عائم في الأثير، لكنه غير مرئي، لكنه ملفات وأيقونات، لعله كله رموز حاسوبية. لا شيء باقٍ في العالم الحقيقي، لا شيء ظاهر، لا إشارة ولا علامة. أليس هذا مدهشاً؟

ومن جديد، أنظر إلى الصورة على الجدار. أفكر في زاويتي في غرفة المعيشة، زاويتي الغاصة بأغلفة أقراص «دي في دي». إنني أثر باقٍ من زمن قديم. مرَّ الزمان وتركني.

أستدير لأذهب.

وعندما أفعل ذلك، أسمع خربشة من خلفي. إنه الباب الخارجي.

أنظر إلى الباب فأراه ينفتح وأرى ديفيد واقفاً أمامي ينظر إليّ.

50

«ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟».

أُجفل عندما يقول هذا. لم أسمعه يتكلم هكذا من قبل. لم أسمعه من قبل يقول أي شيء تقريباً.

«ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟».

أتراجع، وأفتح فمي.

«لقد كنت، فقط...».
«ما الذي يجعلك تظنين أن من حقك دخول هذا المكان؟».
أتراجع خطوة أخرى إلى الخلف، أتعثر: «إنني آسفة جداً...».
إنه يتقدم مني والباب من خلفه مفتوح على اتساعه. أنظر من حولي.
«أنا آسفة جداً...» أتنفس بعمق... «كنت أبحث...».
«تبحثين عن ماذا؟»
أتنفس من جديد: «كنت أبحث عنك».
يرفع يديه، ثم يتركهما تسقطان إلى جانبيه فتصلصل المفاتيح بين أصابعه. يهز رأسه: «ها أنا الآن هنا. لماذا تبحثين عني؟».
«لأنني...».
«كان يمكنك الاتصال بي».
«لم أظن أنني...».
«لا، لم تظني... ظننتِ أنه يمكنك أن تنزلي إلى هنا».
أريد أن أهز رأسي، لكنني أتوقف. أظن أن هذه أطول محادثة جرت بيننا حتى الآن.
أسأله: «هل يمكنك أن تغلق الباب؟».
ينظر إلي، ثم يستدير ويدفع الباب. ينغلق الباب مع فرقعة.
ينظر إليَّ من جديد فأرى ملامح وجهه قد لانت. لكنه صوته لا يزال قاسياً: «ماذا يلزمك؟».
أحس دواراً: «هل يمكنني الجلوس؟».
لا يتحرك.
أتجه إلى الأريكة. أجلس عليها. يظل لحظة واقفاً في مكانه كأنه تمثال والمفاتيح في إحدى كفيه. ثم يضع المفاتيح في جيبه ويخلع سترته فيقذف بها إلى السرير. أسمعها تهبط على السرير، ثم تنزلق إلى الأرض.
«هذا ليس شيئاً لطيفاً».
أهز رأسي وأقول: «أعرف أنه غير لطيف».

«لن يعجبك الأمر إن دخلت بيتك من غير دعوة».

«معك حق. أعرف هذا».

«لو فعلت هذا لأصابك الجنـ... لانزعجت كثيراً».

«صحيح».

«ماذا لو كنت هنا وكان معي أحد ما؟».

«لقد قرعتُ الباب».

«وهل تظنين أن هذا يجعل الأمر أفضل؟».

لا أقول شيئاً.

ينظر إليَّ لحظة أخرى، ثم يسير في اتجاه المطبخ ويخلع حذاءه. يفتح باب البراد ويتناول زجاجة بيرة عن الرف. يفتحها مستخدماً زاوية الطاولة فيطير غطاؤها مصدراً صوت فرقعة. يصطدم الغطاء بالأرض ويتدحرج تحت مشع التدفئة.

لو كنت أصغر سناً لكان لهذا أثر عليّ.

يضع الزجاجة على فمه ويشرب، ثم يسير عائداً باتجاهي بخطوات بطيئة. يسند جسده الطويل إلى طاولة الرسم، ثم يأخذ جرعة أخرى من الزجاجة.

يقول لي: «حسنٌ، أنا هنا الآن».

أومئ برأسي وأنظر إليه: «هل التقيت المرأة خلف الحديقة؟».

يرتفع حاجباه: «من؟»

«جين روسل. المرأة التي خلف الحديقة. البيت رقم...».

«لا».

إجابة واضحة قاطعة.

«لكنك ذهبت لكي تعمل هناك».

«صحيح».

«إذن...».

«عملت من أجل السيد روسل. لم ألتق زوجته أبداً. لم أكن أعرف حتى أن لديه زوجة».

«لديه ابن».

يشرب جرعة أخرى: «قد يكون للرجل العازب أطفال. لا أقصد القول إنني فكرت في الأمر عند ذاك. أقول هذا بسبب سؤالك؟».

أهز رأسي. أحس أنني ضئيلة جداً. أنظر إلى كفيّ.

«أهذا ما جعلك تنزلين إلى هنا؟».

أومئ برأسي من جديد.

«لا بأس، لقد سمعت الإجابة». أظل جالسة في مكاني فيكمل: «ولماذا تريدين أن تعرفي هذا أصلاً؟».

أنظر إليه. أعرف أنه لن يصدقني.

أقول له: «من غير سبب». أضع يدي على مسند الأريكة، وأحاول الوقوف.

يمد لي يده. أمسك بها. كف يده خشن على جلدي. يشدني حتى أقف على قدمي، يشدني بسرعة وسلاسة. أنظر إلى عضلات ذراعه النافرة.

أقول له: «إنني آسفة حقاً لأنني نزلت إلى هنا».

يهز رأسه.

«لن يحدث هذا مرة أخرى».

يهز رأسه.

أتحرك في اتجاه السلم. أشعر بعينيه على ظهري.

ثلاث خطوات إلى الأعلى، ثم أتذكر شيئاً.

أسأله مستديرة إليه وكتفي مضغوطة على الجدار: «هل... سمعت صراخاً يوم كنت تعمل هناك؟».

«لقد سألتني هذا السؤال قبل قليل. ألا تتذكرين؟ لم أسمع صراخاً».

هل سألته؟

أحس كما لو أنني أسقط داخل دماغي.

عندما أدخل مطبخي، أسمع صوت باب القبو يغلق من خلفي. يتصل د. فيلدينغ.

يقول لي: «تلقيت رسالتك الهاتفية. بدا عليك القلق».

أفتح فمي. كنت في ذلك الوقت مستعدة لأن أحكي القصة كلها، لأن أسكب كل ما في ذهني. لكن، ما فائدة هذا؟ هل له فائدة؟ هو الذي يبدو دائم القلق؛ يبدو قلقاً فيما يتعلق بشيء ما. وهو الذي يخترع لي هذه الأدوية كلها حتى أصل إلى... لا بأس. أقول له: «إنه لا شيء».

يظل هادئاً، ثم يقول: «لا شيء؟».

«لا. أعني... كان لدي سؤال عن...» أبتلع ريقي... «عن إمكانية استخدام بدائل لأدويتي».

لا يزال صامتاً.

أتابع اختلاق السبب: «كنت أتساءل إن كان يمكنني استبدال بعض هذه الأشياء».

يصحح كلمتي على نحو تلقائي: «الأدوية».

«نعم، أعني الأدوية».

«حسنٌ، نعم» يبدو غير مقتنع.

«هذا شيء عظيم، أطلب هذا لأن بعضها مرتفع الثمن».

«وهل هذه مشكلة؟».

«لا، لا. لكنني لا أريد أن يصير ثمن الأدوية مشكلة».

«أتفهّم هذا». لا يتفهمه.

صمتٌ. أفتح خزانة صغيرة بجانب البراد.

يتابع كلامه: «لا بأس، فلنناقش هذا الأمر يوم الثلاثاء».

«لا بأس»، أقول هذا وأنا أختار زجاجة ميرلو من الخزانة.

«أظن أن المسألة تحتمل هذا الانتظار، أليس كذلك؟».

«نعم، بالتأكيد». أنتزع الغطاء الورقي الذي يغلف سدادة الزجاجة.
«هل أنت واثقة من أنك على ما يرام؟».
«نعم، تماماً». أحضر كأساً من عند المغسلة.
«أنت لا تشربين الكحول مع الدواء، أليس كذلك؟».
«لا». أسكب النبيذ.
«جيد. لا بأس، أراك يوم الثلاثاء».
«أراك يوم الثلاثاء».
يغلق الخط. أرتشف النبيذ.

52

أرتحل إلى الأعلى. أجد في غرفة مكتبة إد الزجاجة والكأس اللتين هجرتهما منذ عشرين دقيقة. أجدهما تفيضان شمساً. آخذهما، آخذ كل شيء إلى غرفة مكتبي.

أجلس إلى طاولتي. وأفكر.

أرى رقعة الشطرنج ممتدة على الشاشة أمامي. لا تزال القطع في أماكنها: جيشان، أبيض وأسود، مستعدان للمعركة. الوزير الأبيض: أتذكر كيف كسبتُ وزير جين.

جين في قميصها الأبيض الثلجي، غارقة في دمها.

جين. الملكة البيضاء.

يصدر صوت عن الكمبيوتر.

أرفع رأسي فأنظر في اتجاه بيت روسل. لا أثر يدل على الحياة.

GrannyLizzie: مرحباً دكتورة آنا.

أنظر، وأنظر.

أين وصلنا في كلامنا؟ متى كان كلامنا؟ أُكبّر نافذة الحوار وأنظر إلى حديثنا السابق. أنهت GrannyLizzie المحادثة في الساعة الرابعة وست وأربعين دقيقة يوم الخميس، الرابع من تشرين الثاني.

هذا صحيح: تماماً عندما وصلت في قصتي إلى إخبارنا أوليفيا بالأمر، إد وأنا. أتذكر كيف كان قلبي ينبض وقتها.

وبعد ست ساعات اتصلت بالطوارئ.

ومنذ ذلك الوقت... رحلتي في الخارج. الليل في المستشفى. حديثي مع المحقق ليتل، ومع الدكتورة. الحقنة. الرحلة بالسيارة في هارلم والشمس تؤلم عينيّ. الجلبة المزعجة في الداخل. قطّي بنتش يدس نفسه في حضني. المحققة نوريلي تحاصرني. ألستير في بيتي. إيثان في بيتي. تلك المرأة في بيتي.

ومجيء بِينا، وبحثنا معاً في الإنترنت، وشخراتها القصيرة في الليل.

واليوم أيضاً: إد لا يصدقني؛ وذلك الاتصال الهاتفي من «جين»؛ وشقة ديفيد، وغضب ديفيد؛ وصوت د. فيلدينغ ينعب في أذني.

هل حدث هذا كله في يومين فقط؟

Thedoctorisin: مرحباً! كيف حالك؟

لقد قطعتْ محادثتنا السابقة، لكني لا ألقي إلى ذلك بالاً الآن.

GrannyLizzie: أنا بخير؛ لكن الأهم من هذا هو أنني آسفة كثيراً لأنني تركتك بشكل مفاجئ تماماً عندما تحدثنا آخر مرة.

هذا جيد.

Thedoctorisin: لا مشكلة أبداً! كل منا تكون لديه أحياناً أشياء يجب أن يفعلها!

GrannyLizzie: ليس الأمر هكذا. أؤكد لك. تعطل الإنترنت عندي، مات تماماً! الرحمة عليك يا إنترنت!

GrannyLizzie: يحدث هذا كل شهر، كل أسبوعين، لكنه حدث هذه المرة يوم الخميس، ولم تتمكن الشركة من إرسال أحد قبل انتهاء عطلة نهاية الأسبوع.

GrannyLizzie: أنا آسفة جداً. لا أستطيع تخيل ما ظننته بي.

أرفع الكأس إلى شفتي، ثم أشرب. أضعها وآخذ جرعة من الكأس

الأخرى. لقد ظننت أن ليزي لم تكن راغبة في سماع قصتي البائسة. أنا، التي لا يصدقها أحد.

Thedoctorisin: لا تعتذري من فضلك! هذه أشياء تحدث أحياناً!

GrannyLizzie: حسنٌ... أحس أنني مثل ساحرة حقيقية عجوز!!

Thedoctorisin: لا، لست كذلك على الإطلاق.

GrannyLizzie: هل تسامحينني؟

Thedoctorisin: لا شيء يستوجب المسامحة! آمل أنك بخير.

GrannyLizzie: نعم، أنا بخير. ولداي يزورانني الآن.

Thedoctorisin: ☺ حقاً! ما أسعدك بهذا!

GrannyLizzie: شيء رائع أن يكونا هنا، عندي.

Thedoctorisin: ما اسماهما؟

GrannyLizzie: ويليام.

GrannyLizzie: وبو.

Thedoctorisin: اسمان ممتازان.

GrannyLizzie: وابنان ممتازان أيضاً. إنهما مصدر عون كبير لي على الدوام. خاصة عندما كان ريتشارد مريضاً. لقد ربيناهما تربية صحيحة!

Thedoctorisin: هذا ما يبدو لي!

GrannyLizzie: يتصل بي ويليام كل يوم من فلوريدا. يقول لي مرحباً بأعلى صوته، فأبتسم. يسعدني هذا دائماً.

وأنا أبتسم أيضاً.

Thedoctorisin: أفراد أسرتي يقولون لي دائماً «احزري من» عندما أتصل بهم.

GrannyLizzie: أوه، يعجبني هذا!

أفكر في ليفي وإد، وأسمع صوتيهما في رأسي. تنقبض حنجرتي. أبتلع بعض النبيذ.

Thedoctorisin: لا بد أن وجود ولديْك معك شيء لطيف جداً.

آنا إنه شيء في غاية اللطف. رجع كل منهما إلى النوم في غرفته القديمة. أحس كأن «أيامنا القديمة» قد عادت.

أحس شيئاً من الاسترخاء للمرة الأولى منذ أيام... هذه الأيام المشحونة. هذا شيء مفيد حقاً. كأنّي عدت إلى الشارع ثمانية وثمانين شرق، كأنني عدت إلى مكتبي، كأنني عدت أقدم العون إلى المرضى. فقط تواصلي.

قد أكون في حاجة إلى هذا أكثر من حاجة ليزي إليه.

وهكذا، مع تراجع ضوء النهار في الخارج وخبو الظلال على سقف غرفتي، أتحدث مع جدة وحيدة على بعد آلاف الأميال مني. ليزي تحب الطبخ، هكذا تخبرني. والوجبة المفضلة لدى ولديها هي الوجبة الشهيرة، لحم البقر المطبوخ على نار هادئة في قِدرٍ فخارية (ليست وجبة شهيرة حقاً)، وهي تعد في كل سنة أيضاً حلوى بكريمة الجبن من أجل فوج الإطفاء عندهم. كانت عندها قطة أيضاً (وهنا، أحدثها عن بنتش)، لكن لديها أرنباً الآن... أرنبة بنية اسمها بيتونيا. صحيح أن ليزي ليست مغرمة بالأفلام، إلا أنها تحب برامج الطبخ وتحب لعبة العروش (Game of Thrones). يفاجئني إعجابها بهذا المسلسل ـ امرأة شجاعة حقاً.

وبالطبع، تحدثني عن ريتشارد. إننا نفتقده كثيراً، كلنا. لقد كان معلماً، وشماساً في الكنيسة الميثودية، وكان يحب القطارات (لدينا مجسم قطار بحجم كبير في القبو)، وكان أباً عطوفاً... ورجلاً جيداً.

رجل جيد وأب جيد. يخطو ألستير داخل ذهني على نحو مفاجئ. أرتعد، ثم أخوض في كأس النبيذ أعمق من ذي قبل.

GrannyLizzie: آمل ألا يكون كلامي مضجراً لك...

Thedoctorisin: لا، على الإطلاق.

تخبرني أن ريتشارد لم يكن شخصاً جيداً فحسب، بل شخص مسؤول أيضاً. كان يقوم بكل ما يحتاجه البيت من أعمال: الإصلاحات، والأجهزة الإلكترونية (تقول ليزي قلقة: جلب لي ويليام «تلفزيون آبل» لنكنني لم

أتمكن من تشغيله)، والعناية بالحديقة، ودفع الفواتير. وأما في غيابه ـ تقول لي أرملته ـ فأحس أن لدي أشياء كثيرة يجب أن أنجزها. أحس كأنني امرأة عجوز.

أنقر بأصابعي على فأرة الكمبيوتر. ليست هذه متلازمة كوتار بالضبط، لكني قادرة على اقتراح بعض الحلول السريعة. أقول لها: «فلنحل هذه المشكلة»؛ وعلى الفور، يجري دمي حاراً في عروقي مثلما كان يحدث كلما أساعد مريضاً في حل مشكلته.

أخرج قلم رصاص من الدرج، وأكتب بعض الكلمات على ورقة. كنت معتادة في المكتب على الكتابة على دفتر ملاحظات أنيق، وكنت أكتب بقلم حبر. لا فرق الآن.

كتبت:

\الإصلاحات: البحث في المنطقة عن شخص ممن يقومون بالإصلاحات بحيث يزورها كل أسبوع ـ هل يمكنها ذلك؟

GrannyLizzie: هنالك مارتن الذي يعمل في كنيستي.

Thedoctorisin: عظيم!

\الإلكترونيات: يتمتع معظم الشباب بقدرة جيدة على التعامل مع الكمبيوترات والتلفزيونات. لكني لست واثقة من أن ليزي تعرف عدداً منهم، إلا أن...

GrannyLizzie: إن لدى آل روبرتس في شارعنا ولد عنده آيباد.

Thedoctorisin: لا شك في أنه قادر على مساعدتك!

\الفواتير: (يبدو أنها تشكل صعوبة خاصة بالنسبة إليها؛ الدفع عبر الإنترنت أمر صعب... كلمات مرور كثيرة وأسماء مستخدم كثيرة): عليها أن تختار كلمات متشابهة سهلة الحفظ... ربما تستخدم اسمها، أو اسم أحد الأطفال، أو تاريخ ميلاد شخص تحبه. لكن عليها أن تحذف منها بعض الحروف والأرقام. W1LL1@M، على سبيل المثال.

صمت قصير.

GrannyLizzie: سيكون اسمي L1221E.

أبتسم من جديد.

Thedoctorisin: هذا جميل! GrannyLizzie. شكراً لك.

GrannyLizzie: يقولون في الأخبار إنني يمكن أن أتعرض «للقرصنة» فهل هذا شيء يثير القلق؟؟

Thedoctorisin: لا أظن أن أحداً سيكون قادراً على اكتشاف هذا الاسم!

أتمنى ألا يتمكن أحد من اختراق حساباتها. إنها امرأة سبعينية في مونتانا.

وأخيراً، أعمال الحديقة: تقول لي ليزي إن الشتاء بارد عندهم، بارد كثيراً؛ وتقول إنها في حاجة إلى من يزيل الثلج عن سقف البيت وينثر الملح في الممر الذي أمام البيت، ويزيل الجليد من المزاريب... حتى إذا تمكنت من الخروج، فإن الاستعداد للشتاء يتطلب عملاً كثيراً جداً لا قدرة لها عليه.

Thedoctorisin: لا بأس، فلنتمنى أن تكوني قادرة على العودة إلى العالم في ذلك الوقت. لكنني أظن أن مارتن الذي يعمل في الكنيسة قد يكون قادراً على مساعدتك في هذا. أو قد يساعدك بعض الفتيان من أبناء جيرانك. بل حتى تلاميذك. لا تستخفي بالعجائب التي يمكن تحقيقها إذا دفعت لهم عشرة دولارات في الساعة!

GrannyLizzie: صحيح. هذه أفكار جيدة.

GrannyLizzie: أشكرك كثيراً يا دكتورة آنا. أشعر أنني صرت أفضل حالاً بكثير.

حُلت المشكلة. تمت مساعدة المريضة. أحس كما لو أنني أتألق. رشفة من النبيذ.

وبعد ذلك، يعود الحديث إلى اللحم المطبوخ في القِدر الفخارية، وإلى الأرنبة وويليام وبو.

أرى ضوءاً في ردهة بيت روسل. ثم ألقي نظرة سريعة من فوق شاشة كمبيوتري فأرى تلك المرأة تسير في الغرفة هناك. أدرك أنني لم أفكر فيها منذ أكثر من ساعة. إن محادثتي مع ليزي أمر جيد لي.

GrannyLizzie: عاد ويليام الآن بالمشتريات. من الأفضل له أن يكون قد اشترى المعجنات التي طلبتها منه.

GrannyLizzie: وعليّ الآن أن أذهب قبل أن يأكلها.

Thedoctorisin: اذهبي!

GrannyLizzie: بالمناسبة، هل صرت قادرة على الخروج من البيت؟

أحرك أصابعي، أنشرها فوق لوحة المفاتيح. نعم، لقد تمكنت من الخروج. خرجت من البيت مرتين، في الحقيقة.

Thedoctorisin: يؤسفني القول إنني لم أخرج.

وهذه أيضاً، لا حاجة للخوض فيها.

GrannyLizzie: آمل أن تتمكني من الخروج قريباً...

Thedoctorisin: أنا وأنت نأمل ذلك!

تخرج ليزي من المحادثة، أما أنا فأفرغ كأسي، ثم أضع الكأس على طاولة المكتب.

أدفع الأرض بقدمي فأجعل الكرسي يدور ببطء. تدور الجدران من حولي.

سأفعل كل ما أستطيعه وسوف أساعد في الشفاء والتعافي. هذا ما فعلته اليوم. أغمض عينيّ. لقد ساعدت ليزي في الاستعداد للحياة، ساعدتها في أن تعيش حياتها أكثر، ولو قليلاً. ساعدتها في العثور على الراحة.

وأضع مصالح الآخرين قبل مصالحي. حسنٌ، نعم... لكنني استفدت من هذا أنا أيضاً: ابتعدت أسرة روسل عن دماغي طيلة تسعين دقيقة تقريباً. ألستير، وتلك المرأة، وحتى إيثان.

وحتى جين.

يتوقف دوران الكرسي. وعندما أفتح عيني، أجد نفسي أنظر عبر باب الغرفة، إلى الممر، إلى غرفة مكتبة إد.

أفكر في الأشياء التي لم أخبر ليزي عنها، في تلك الأشياء التي لم أستطع إخبارها عنها.

53

رفضت أوليفيا العودة إلى الغرفة.

وهكذا ظل إد معها بينما رحت أنا أضع حوائجي في حقيبتي وقلبي ينبض صاخباً. عدت إلى الردهة حيث كانت ألسنة اللهب تتراقص في الموقد هادئة منخفضة. مرَّرت ميري بطاقتي المصرفية في الآلة، ثم تمنت لنا أمسية طيبة... يا ناس... كانت ابتسامتها كبيرة إلى حد السخف، وعيناها متسعتين.

مدت أوليفيا يدها إليّ. نظرتُ إلى إد فحمل الحقائب؛ علّق بكل كتف حقيبة. أمسكتُ بيد ابنتنا الحارة الصغيرة... وضعتها في يدي.

كنا قد أوقفنا السيارة في الزاوية القصية من موقف السيارات؛ ولم نصل إليها إلا بعد أن كستنا ندف الثلج. فتح إد صندوق السيارة ووضع الحقائب فيه، أما أنا فمسحت الزجاج الأمامي بذراعي. جلست أوليفيا في المقعد الخلفي، وأغلقت باب السيارة من خلفها.

وقفنا، أنا وإد، والسيارة بيننا، بينما كان الثلج يتساقط علينا، يتساقط بيننا.

رأيت فمه يتحرك فسألته: «ماذا؟».

تكلم من جديد، بصوت أعلى هذه المرة: «أنت ستقودين السيارة؟».

قدت السيارة. خرجت من ساحة الوقوف؛ وكانت العجلات تزعق على الجليد. دخلت الطريق، وكانت ندف الثلج المتطايرة تلتصق بالنوافذ. دخلت الطريق السريع، دخلت الليل، دخلت البياض.

كنا صامتين جميعاً، لا شيء غير صوت المحرك. وإلى جانبي، كان إد

ينظر أمامه. نظرت في المرآة. كانت أوليفيا مسترخية في مقعدها، رأسها مائل إلى كتفها، لكنها ليست نائمة. عيناها نصف مغمضتين.

درنا في منعطف. قبضت على عجلة القيادة بقوة أكبر.

وفجأة، انفتحت الهوة إلى جوارنا، كأن جزءاً من الأرض قد اقتُلع من هذا المكان. الآن، بدت الأشجار في الأسفل كأنها أشباح تحت ضوء القمر. ندف من الثلج، فضية وداكنة، تنهمر في ذلك الوادي العميق، تنزل وتنزل، وتضيع إلى الأبد مثل بحّارة غرقوا في عرض البحر.

رفعت قدمي عن دوّاسة الوقود.

وفي المرآة، رأيت أوليفيا تنظر من النافذة. كان وجهها لامعاً؛ إنها تبكي من جديد، تبكي صامتة. انفطر قلبي.

رن هاتفي.

* * *

قبل أسبوعين من ذلك، كنا في حفلة، إد وأنا. وكانت الحفلة في البيت الذي خلف الحديقة، بيت آل لورد: الكوكتيل والمشروبات اللامعة والزينات. كان آل تاكيدا حاضرين أيضاً، وكذلك آل غراي (أخبرني مضيفنا أن آل واسرمان لم يستجيبوا للدعوة). وضع أحد أبناء آل لورد الكبار حجاباً على وجهه، وسارت من خلفه صديقته محجّبة مثله. حضر الحفلة أيضاً زملاء بيرت في البنك، جموع منهم. كان البيت أشبه بساحة معركة، بحقل ألغام، وكانت القبلات الطائرة في الهواء تُسمع عند كل خطوة، وضحكات مثل طلقات المدافع، وخبطات ودية على الظهور مثل انفجار القنابل.

وخلال الحفلة، خلال كأسي الرابعة، اقتربت مني لويز لورد.

«آنا!».

«لويز!».

تعانقنا. راحت تطبطب بيدها على ظهري.

قلت لها: «ما أجمل فستانك!».
«أهو جميل؟».
لم أعرف كيف يجب أن تكون الإجابة، فقلت: «إنه جميل».
«انظري إليك في هذا البنطلون».
نظرت إلى بنطلوني.
«انظري إليّ».
كان عليَّ أن أتخلى عن الشال قبل لحظة... «لقد سكب عليه بيرت... أوه، شكراً لك يا آنا... سكب كأس النبيذ على كتفي». شكرتني عندما التقطتُ شعرة عن قفازها...
«بيرت السيء!» ثم رشفت من كأسي.
«قلت له إنه سيواجه مشكلة كبيرة لاحقاً. هذه المرة الثانية التي يفعلها بي هكذا... أوه، شكراً يا آنا». التقطتُ شعرة أخرى عن فستانها. يقول لي إد دائماً إن يديّ تسكران عندما أشرب... «إنها المرة الثانية التي يفعل فيها هذا الأمر بشالي».
«أهو الشال نفسه؟».
«لا، لا».
كانت أسنانها مدوّرة رمادية بعض الشيء. ذكرتني بالفقمات في بحر ويدل فقد علمت في الآونة الأخيرة عندما كنت أتابع برنامجاً عن الطبيعة، أن تلك الفقمات تستخدم أنيابها في فتح ثقوب في حقول الجليد في القطب الشمالي. كان المذيع يقول إن «أسنانها تصير متآكلة إلى حد كبير». أعقبت ذلك لقطة لفقمة وهي تنشب أنيابها في الجليد... «تموت فقمات بحر ويدل في سن مبكرة». أضاف المذيع هذه الكلمات المشؤومة.
سألتني فقمة بحر ويدل الواقفة أمامي: «قولي لي الآن، من الذي يتصل بك طيلة السهرة».
جمدت. كان هاتفي يهتز باستمرار طيلة الأمسية كلها، يهتز عند ردفي.

كنت أخرجه فأضعه في يدي وأنظر إلى الشاشة فأكتب إجابة بإصبع واحدة. ظننت أنني أفعل هذا من غير أن يراني أحد.

قلت لها: «إنه شيء متعلّق بعملي مع الأطفال».

قالت مبتسمة: «لكن، ما الذي يمكن أن يريده طفل في هذه الساعة؟».

ابتسمت: «تعرفين أن هذه أمور سرية».

«أوه، بالطبع، بالطبع. أنت شديدة التقيّد بأصول المهنة يا عزيزتي».

لكني، وسط هذا الضجيج كله، حتى عندما كنت أقول أول ما يخطر في ذهني، وأطرح الأسئلة، وأجيب على الأسئلة، حتى مع كثرة النبيذ وأصوات الأغاني... حتى في ذلك الوقت، ما كنت قادرة على التفكير إلا فيه.

* * *

اهتز الهاتف من جديد.

للحظة قصيرة، قفزت يداي عن عجلة القيادة. لقد وضعت الهاتف في الفتحة المخصصة للكأس بين المقعدين الأماميين. إنه يهتز الآن فيصطدم بالبلاستيك.

نظرت إلى إد. كان ينظر إلى الهاتف.

اهتزاز آخر. ألقيت نظرة سريعة في المرآة. كانت أوليفيا تنظر من النافذة إلى الخارج.

هدوء. تابعنا السير.

اهتزاز.

قال إد: «احزري من؟».

لم أجبه بشيء. أعرف أنه هو. لم أجادله.

أخذ إد الهاتف. حمل i في يده ونظر إلى الشاشة، ثم تنهَّد.

تابعنا سيرنا في الطريق. دخلنا منعطفاً.

«ألا تريدين الإجابة».

لم أستطع النظر إليه. أحدّق عبر الزجاج أمامي. هززت رأسي نفياً.
«إذن، سأجيب أنا».
«لا». حاولت اختطاف الهاتف من يد إد، لكنه أبعده عني. استمر اهتزاز الهاتف.
قال إد: «أريد أن أجيب. أريد أن أقول له كلمة».
«لا». أوقعت الهاتف من يده. تدحرج عند قدمي.
صاحت أوليفيا: «كفّا عن هذا».
نظرت إلى الأسفل فرأيت الشاشة مضيئة عند الأرض. رأيت اسمه عليها.
قال إد: «آنا!».
رفعت رأسي. لقد اختفى الطريق.
كنا مندفعين من فوق حافة الوادي.
كنا مبحرين في الظلام.

54

طرقٌ على الباب.
لقد غفوت. أجلس في فراشي. لست مستيقظة تماماً. لقد أظلمت الغرفة، وخلفَ النوافذ ليل.
دقات من جديد. الصوت آت من الأسفل. ليس الباب الأمامي. إنه باب القبو.
أسير إلى السلم. عادة، يستخدم ديفيد الباب الأمامي عندما يأتي ليزورني. لعل من يدق الباب شخص زائر عنده.
لكني أضيء النور في المطبخ وأفتح باب القبو فأرى ديفيد نفسه على الجهة الأخرى من الباب رافعاً رأسه ينظر إليّ من حيث يقف: درجتان إلى الأسفل خلف الباب.
يقول لي: «قلت في نفسي إنه عليَّ الآن أن أبدأ المجيء من هنا».

أنظر إليه لحظة، ثم أدرك أنه يحاول المزاح. أقول له: «هذا منصف تماماً»، ثم أتنحى عن الباب فيمر بي ويدخل المطبخ. أغلق الباب. ينظر كل منا إلى الآخر. أقول في نفسي إنني أعرف ما سوف يقوله لي. أظنه يريد الحديث عن جين.

يبدأ الكلام: «لقد أردت... أريد الاعتذار».

أتجمّد. ويضيف: «عما حدث اليوم».

أهز رأسي. شعري منسدل إلى كتفي: «أنا من يتعين عليه الاعتذار».

«لقد اعتذرتِ».

«يسرني أن أعتذر من جديد».

يهز رأسه. «لا، لا أريد هذا. أريد القول إنني آسف. آسف لأنني صرخت... ولأنني تركت الباب مفتوحاً عندما دخلت. أعرف أن هذا يزعجك».

إنه لا يزعجني فحسب... الأمر أكثر من هذا بكثير، لكن عليه أن يعتذر عن هذا.

أقول له: «لا بأس». أريد أن أسمع منه شيئاً عن جين. هل أستطيع سؤاله؟

يمر بيده على طاولة المطبخ، ثم يستند إليها... «إنني فقط أكره أحياناً أن يدخل أحداً منطقتي. لعل هذا شيء كان من الضروري أن أخبرك عنه من قبل، لكن...».

تنتهي جملته هنا. يحرك قدمه فيضعها أمام القدم الأخرى.

أسأله: «لكن ماذا؟».

يرفع إليّ ناظريه من تحت حاجبيه الداكنين. يقول لي على نحو مباشر: «هل لديك بيرة؟».

«لدي نبيذ». وأفكر في تلك الزجاجتين على طاولة مكتبي في الأعلى، وفي الكأسين أيضاً. أظن أن علي أن أفرغ ذلك النبيذ... لم يعد صالحاً...

«فهل أفتح زجاجة؟».

«نعم».
أمرّ بالقرب منه متجهة إلى خزانة النبيذ ـ رائحته كالعاج ـ ثم أخرج من الخزانة زجاجة نبيذ أحمر. أسأله: «هل يعجبك نبيذ ميرلو؟».
«لا أعرف حتى معنى هذه الكلمة».
«إنه نبيذ أحمر لذيذ».
«يبدو هذا جيداً».
أفتح باب الخزانة الآخر حيث الكؤوس. لا شيء. أذهب إلى آلة غسل الأطباق. أخرج منها زوجاً من الكؤوس. أضع الكأسين على الطاولة، ثم أفتح الزجاجة وأسكب النبيذ.
يقرّب كأساً منه، ثم يُميلها في اتجاهي.
أقول له: «في صحتك»، ثم أشرب.
يقول وهو يدير الكأس في يده: «المسألة هي... أنني أمضيتُ بعض الوقت». أومئ برأسي، ثم أحس بعيني تتسعان. لا أظنني سمعت قبل الآن أحداً يستخدم هذا التعبير. لم أسمع أحداً يستخدمه إلا في الأفلام.
سمعت نفسي أقول، بغباء: «في السجن؟».
يبتسم: «في السجن».
أومئ برأسي من جديد: «ماذا فعلت... لماذا كنت في السجن؟».
ينظر إلي نظرة ثابتة: «اعتداء...» ثم يضيف... «على رجل». أحدق فيه. يقول لي: «هذا يجعلك متوترة».
«لا».
تظل الكذبة معلقة في الهواء.
أقول له: «لقد فاجأني الأمر فحسب».
«كان عليّ أن أقول لك شيئاً...» يحك أسفل فكه... «أعني... قبل أن أنتقل إلى هذا المكان. سأتفهم الأمر تماماً إذا طلبت مني إخلاء الشقة».
لا أعرف إن كان يعني هذا حقاً. هل أريد أن يخلي الشقة.
أسأله: «ماذا... حدث؟».

يتنهد، ثم يقول بصوت منخفض: «مشاجرة في أحد البارات. ليس في هذا شيء غريب...» يرفع كتفيه... «ما عدا أن لي سوابق. الأمر نفسه. مشاجرتان».

«ظننت أنها ثلاث مشاجرات».

«يعتمد هذا على من أنت».

قلت: «ممم»، كأنه قال شيئاً حكيماً لا يجوز الشك فيه.

«وقد كان الذي دافع عني مخموراً».

«ممم». كررتها مرة أخرى وأنا أحاول أن أفهم معنى كلامه. إنه يعني المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عنه.

«وهكذا حكموا علي بثلاثة عشر شهراً».

«أين كان ذلك؟».

«المشاجرة أم الحبس؟».

«الاثنان».

«الاثنان في ماساشوستس».

«أوه».

«هل أنت راغبة في معرفة... التفاصيل؟».

أريد معرفتها، لكنني قلت: «أوه، لا».

«كان الأمر كله غبياً. بسبب السكر».

«أفهم هذا».

«هناك تعلمت أن... أنت تعرفين... أدافع عن مكاني».

«أفهم هذا».

نظل واقفين هناك، عيوننا مسدلة إلى الأرض كأننا مراهقان يرقصان معاً.

أنقل ثقل جسمي من قدم لأخرى: «متى كنت... متى قضيت تلك المدة؟». حيث يكون ملائماً، فلأستخدم المفردات التي يستخدمها المرضى.

«خرجت في نيسان. بقيت في بوسطن خلال الصيف، ثم أتيت إلى هنا».

«أفهم هذا».

يقول لي، لكن بنبرة ودية: «أنت تكررين هذا».

أبتسم وأتنحنح قبل أن أتابع... «حسناً، لقد اقتحمت مكانك، وما كان عليَّ أن أفعل هذا. يمكنك البقاء في الشقة طبعاً».

هل أعني هذا حقاً؟ أظنني أعنيه.

يرتشف النبيذ: «أردت فقط أن تعرفي بالأمر. وأريد أن أقول أيضاً...» يضيف وهو يميل كأسه في اتجاهي... «إن هذا النبيذ جيد حقاً».

نحن الآن جالسان على الأريكة بعد أن شربنا ثلاث كؤوس... لا بأس، هو شرب ثلاث كؤوس، أما أنا فشربت أربع كؤوس. هذا يعني أننا شربنا سبع كؤوس، إذا أردنا إحصاءها.

«لم أنس موضوع السقف، أرجو أن تعرفي هذا».

تمر بضع ثوان قبل أن أفهم ما يقول: «أي سقف؟».

يشير إلى الأعلى: «سطح البيت».

أنظر إلى الأعلى وكأنني قادرة على النظر عبر مستويات البيت كلها حتى أبلغ السطح... «صحيح، أوه، صحيح. ما الذي جعلك تتذكر هذا الآن؟».

«لقد قلت لي قبل قليل إنك ستصعدين إلى السطح عندما تصيرين قادرة على الخروج من البيت. قلت إنك تريدين تفقّد السطح».

هل قلت هذا؟ أقول له بنبرة حادة: «لن يحدث هذا قبل مرور فترة من الزمن». ثم أضيف بنبرة أقل حدة: « لا يمكنني أن أجتاز الحديقة».

يبتسم ابتسامة صغيرة، ثم يميل برأسه ويقول: «إذن، في يوم ما...» يضع كأسه على الطاولة الصغيرة، ثم يقف... «أين الحمام؟».

أستدير وأنا جالسة: «إنه هناك».

«شكراً»، ثم يسير بخطوات واسعة في اتجاه الغرفة الحمراء.

أستند إلى ظهر الأريكة. تهمس الوسادة في أذني عندما أهز رأسي يميناً وشمالاً. رأيت جارتي تُطعن. تلك المرأة التي لم تقابلها. تلك المرأة التي لم يقابلها أحد. صدقني، أرجوك.

أستطيع سماع صوت البول نازلاً في المرحاض. كان إد يفعل هذا. يبول بقوة تجعل الأمر كله مسموعاً حتى إذا كان باب الحمام مغلقاً... كأنه يثقب الجدار.

أسمع صوت انهمار الماء في المرحاض. ثم أسمع صوت الصنبور.

هناك امرأة أخرى في بيتها. امرأة تتظاهر بأنها هي.

ينفتح باب الحمام، ثم يغلق.

الابن والأب يكذبان. يكذبون جميعاً. يغوص رأسي أعمق في الوسادة.

أحدّق في السقف، في المصابيح التي تشبه الشامات. أغمض عيني.

ساعدني في العثور عليها.

صرير. صوت مفصلات باب في مكان ما. لعل ديفيد نزل إلى شقته. أميل قليلاً في جلستي.

ساعدني في العثور عليها.

لكنني أفتح عيني بعد لحظة فأجده قد عاد. يجلس على الأريكة. أعتدل في جلستي، ثم أبتسم. يبتسم لي، وينظر إلى شيء خلفي.

«طفلة ظريفة».

أستدير. إنها أوليفيا تبتسم داخل الإطار الفضي. لكني أتذكر فأقول له:

«إن لديك صورتها في الأسفل. على الجدار».

«صحيح».

«لماذا لا تزال معلّقة عندك؟».

يرفع كتفيه ويقول: «لست أدري. لم يكن لدي شيء أستبدله بها». يفرغ كأسه... «أين هي؟».

أقول وأنا أبتلع جرعة نبيذ: «مع والدها».

يصمت قليلاً، ثم يقول: «هل تشتاقين إليها؟».
«نعم».
«هل تشتاقين إليه؟».
«في الحقيقة، نعم».
«وهل تكلمينهما كثيراً؟».
«طيلة الوقت. لقد تكلمت معهما يوم أمس، في الواقع».
«ومتى ترينهما المرة المقبلة؟»
«قد لا أراهما لفترة. لكنني آمل أن يحدث ذلك قريباً».
لا أريد الحديث عن هذا؛ لا أريد الحديث عنهما؛ أريد الحديث عن امرأة على الناحية الأخرى من الحديقة. «أليس علينا أن نتفقد ذلك السقف؟».
تتوالى الدرجات دائرة، صاعدة في الظلمة. أنا في المقدمة، وديفيد يتبعني.
وعندما نمر بباب غرفة المكتب، أحس شيئاً يحتك بساقي. إنه بنتش متسللاً في طريقه إلى الأسفل. يسألني ديفيد: «ألم يكن هذا قطك؟».
أجيب: «إنه كذلك».
نتجاوز غرفتَيْ النوم، مظلمتين كلتيهما، ثم نبلغ فسحة السلم العليا. أمد يدي إلى الجدار فأعثر على مفتاح النور. وفي الضوء المفاجئ، أرى عيني ديفيد تنظران في عيني.
أقول له مشيرة إلى البقعة على السقف فوقنا، إلى البقعة الممتدة من حول الباب المفضي إلى السطح كأنها كدمة كبيرة: «لا تبدو لي أسوأ من ذي قبل».
يوافقني قائلاً: «هذا صحيح. لكنها ستصير أسوأ. سأتولى أمرها هذا الأسبوع».
صمت.
«هل أنت كثير المشاغل؟ وهل تعثر على عمل كثير؟».

لا يجيبني.

أتساءل في نفسي إن كان عليَّ إخباره بما يتعلق بجين. وأتساءل عما يمكن أن يقوله لي. لكن، وقبل أن أستطيع اتخاذ قرار، يقبّلني.

55

نحن على أرض فسحة السلم، والسجادة خشنة على جلدي. وعندها، يرفعني ويحملني إلى أقرب سرير.

فمه على فمي. شعر وجهه القصير يحتك بخدي وبذقني. إحدى يديه تمسكني من شعري بقوة بينما تجذب الأخرى حزام ثوبي. أشهق عندما ينفتح الثوب على اتساعه، لكنه يواصل تقبيلي بقوة أكبر... عنقي، وكتفي.

تنتشر الشبكة طائرة، ثم تمتد وتتسع؛

تنشق المرآة من طرف إلى طرف؛

تصرخ ليدي شالوت:

«لقد سئمت الظلال».

لماذا تينيسون؟[1] لماذا الآن؟

لم أحس هذا منذ زمن طويل جداً. لم أحس أي شيء منذ زمن طويل جداً.

أريد أن أحس هذا. أريد أن أحس. لقد سئمت الظلال.

بعد ذلك، في الظلام، أصابعي تجوب صدره وبطنه وخط الشعر النازل من سرته كأنه فتيل.

يتنفس تنفساً هادئاً. ثم ينهض ويذهب. وأنا نصف حالمة بغروب شمس، وبجين.

وفي لحظة ما، أسمع صوت خطوة خافتاً على فسحة السلم فأتمنى، يا لدهشتي، أن يعود إلى السرير.

---

(1) اللورد ألفرِد تينيسون (1809-1892). شاعر إنجليزي كبير. صاحب أنشودة «The Lady of Shallott».

الأحد

7 تشرين الثاني

56

يؤلمني رأسي عندما أستيقظ. ديفيد ليس هنا. صارت وسادته باردة. أضغط بوجهي عليها: رائحة عرق.

أنقلب إلى جانبي مبتعدة عن النافذة، مبتعدة عن الضوء.

ماذا حدث، بحق الجحيم؟

كنا نشرب... كنا نشرب طبعاً؛ أُغمض عيني بقوة... ثم صعدنا إلى الطابق العلوي. وقفنا تحت باب السطح، تحت بقعة الرطوبة تلك. ثم ذهبنا إلى السرير. أو... لا، لم نذهب إلى السرير. سقطنا على أرض فسحة الدرج أول الأمر، ثم ذهبنا إلى السرير. ذهبنا إلى سرير أوليفيا.

تنفتح عيناي فجأة.

أنا في سرير ابنتي. بطانياتها ملتفة حول جسدي العاري. وعلى وسادتها عرق جاف لرجل لا أكاد أعرف من يكون. يا إلهي... أنا آسفة يا أوليفيا.

أنظر في اتجاه الباب، في اتجاه الممر المعتم قليلاً، ثم أجلس والملاءة ملتصقة بثدييّ... هذه ملاءة أوليفيا... مطبوعة عليها صور أمهار صغيرة. إنها ملاءتها المفضلة. ترفض النوم من غيرها.

ألتفت صوب النافذة. أرى السيد غراي في الخارج؛ ومطر تشرين الثاني الخفيف، المطر يتسرب عبر أوراق الأشجار، عبر الأمسيات.

ألقي نظرة إلى ما خلف الحديقة. من هنا، أستطيع النظر مباشرة إلى غرفة إيثان. إنه ليس في الغرفة. أرتعد.

ثوبي ملقى على الأرض. أراه ممتداً هناك مثل أثر عجلة سيارة. أنزل من السرير وأحمله بين يدي... لماذا ترتجف يداي؟ ألف نفسي به. فردة من حذائي المنزلي ملقاة تحت السرير. أجد الفردة الأخرى على فسحة السلم.

أتنفس عند أعلى السلم. الهواء راكد هنا. ديفيد محق: عليّ أن أهوّي المكان. لن أهوي المكان، لكن علي أن أهويه.

أنزل السلم. وعند الفسحة التالية، أنظر في هذا الاتجاه، ثم أنظر في ذاك الاتجاه، كما لو أنني موشكة على اجتياز شارع. غرفتا النوم هادئتان. لا يزال سريري غير مرتَّب بعد ليلتي مع بينا. ليلتي مع بينا. يبدو هذا شيئاً قذراً.

صداع في رأسي. صداع من أثر الشراب.

وفي الفسحة التي تحتها، أنظر في غرفة المكتبة، ثم أنظر في غرفة مكتبي. أرى بيت روسل ينظر إليّ. أشعر بأنه يلاحقني في حركتي داخل بيتي.

أسمعه قبل أن أراه.

وعندما أراه، يكون في المطبخ: يشرب الماء من كأس كبيرة. الغرفة ظلال وزجاج، الإنارة خافتة مثلما هو العالم الذي خلف النافذة.

أنظر إلى تفاحة آدم تقفز في عنقه وهو يشرب. شعره قذر عند عنقه؛ وردف رشيق يظهر من تحت طيّة قميصه. أغمض عيني لحظة وأتذكر هذا الردف في يدي، وهذا العنق عند فمي.

أفتح عينيَّ من جديد فأراه ينظر إلي. عيناه داكنتان ممتلئتان في الضوء الرمادي. يقول لي: «كان اعتذاراً حقيقياً، أليس كذلك؟» أشعر بوجهي يحمرُّ خجلاً.

يرفع كأسه: «آمل أنني لم أوقظك. كنت في حاجة إلى الشرب. وعليَّ

أن أخرج بعد دقيقة واحدة». يشرب ما بقي في كأسه من ماء، ثم يضع الكأس في المغسلة. يمسح شفتيه بيديه.

لا أعرف ماذا أقول.

يبدو كأنه يشعر بهذا. يقول لي: «عليَّ أن أتخلص من شَعرك»، ثم يأتي في اتجاهي. أتوتر، لكنني أراه متجهاً إلى باب القبو. أفسح له الطريق حتى يمر. وعندما يحاذيني، يدير رأسه في اتجاهي، ويكلمني بصوت منخفض.

«لست متأكداً إن كان عليَّ أن أقول لك شكراً أو آسف».

أنظر في عينيه، وأستدعي الكلمات: «كان هذا لا شيء»... صوتي أجش في أذني... «لا تقلق بشأنه».

يفكر لحظة، ثم يومئ برأسه: «يبدو هذا كأنما عليّ أن أقول لك إنني آسف».

أخفض بصري. يتجاوزني ويفتح الباب: «سأكون في الخارج هذه الليلة. لدي عمل في كونيكتيكت. أتوقع أن أعود غداً».

لا أقول شيئاً.

أتنفس الصعداء عندما أسمع صوت إغلاق الباب خلفي. وعند المغسلة، أملأ كأسه ماءً وأحمله إلى شفتيَّ. أقول في نفسي إنني قادرة على تذوّقه كله من جديد.

57

إذن: لقد حدث ذلك.

لم يكن هذا التعبير يعجبني في يوم من الأيام. تعبير شديد الاختصار. لكن، ها أنا هنا، وها هو: لقد حدث ذلك حقاً.

أتجه إلى الأريكة، كأسي في يدي، فأجد بنتش متكوّراً على نفسه فوق الوسادة. ذيله يتحرك جيئة وذهاباً. أجلس إلى جانبه وأضع الكأس بين فخذيّ، ثم أميل برأسي إلى الخلف.

حتى إذا وضعنا الأمور الأخلاقية جانباً (رغم أن الأمر ليس مسألة

أخلاق في الحقيقة، أليس كذلك؟ أعني، ممارسة الجنس مع مستأجر؟) فأنا لا أستطيع تصديق أننا فعلنا ما فعلناه في سرير ابنتي. ماذا يقول إد؟ أنكمش على نفسي. لن يعرف بالأمر طبعاً، لكن... مع ذلك. لكن... مع ذلك. أود أن أحرق هذه الملاءة والأمهار التي عليها، وكل شيء.

يتنفس البيت من حولي، وأسمع تكتكات ساعة الجد الجدارية تمضي منتظمة مثل نبض واهٍ. الظل يكتنف الغرفة كلها، ضباب من ظلال. أرى نفسي، أرى شبح نفسي منعكساً على شاشة التلفزيون.

لو كنت على هذه الشاشة، فماذا أفعل؟ لو كنت شخصية في واحد من أفلامي هذه، فماذا أفعل؟ سأخرج من البيت لأحقق وأستطلع الأمر مثلما فعلت تيريزا رايت في فيلم «ظل من الشك». وسوف أطلب صديقاً يساعدني مثلما فعل جيمي ستيوارت في فيلم «النافذة الخلفية». لن أكتفي بالجلوس هنا ملفوفة بثوبي متسائلة عما أفعله.

لكنني محبوسة في هذه المتلازمة. تشتمل الأسباب على السكتة، وإصابة جذع الدماغ، والتصلب المتعدد، وحتى السم أيضاً. هذه حالة عصبية، وبكلمات أخرى، هي ليست حالة نفسية. لكن، ها أنا هنا محبوسة تماماً، حرفياً، محبوسة داخل أبواب موصدة ونوافذ مغلقة، أخاف الضوء وأهرب منه، وهنالك امرأة قد طُعنت خلف الحديقة ولم يلاحظها أحد... لم يعرف بها أحد. إلا أنا، أنا من تورَّمت لكثرة الشرب وفقدت أسرتها وضاجعت المستأجر عندها. شخصية غريبة في نظر الجيران. ونكتة في نظر الشرطة. وحالة خاصة في نظر الطبيب. وحالة تستوجب الإشفاق في نظر معالجتها الفيزيائية. امرأة محبوسة في البيت. ليست بطلة. ليست محققة.

أنا محبوسة في الداخل. أنا محبوسة خارج الأشياء كلها.

وفي لحظة ما، أنهض وأذهب إلى السلم. أضع قدماً أمام القدم الأخرى. أنا واقفة على فسحة السلم موشكة على دخول غرفة مكتبي. وعندها ألاحظ الأمر. باب غرفة الخزانة ليس مغلقاً. مفتوح قليلاً جداً، لكنه ليس مغلقاً.

يتوقف قلبي لحظة.

لكن، لماذا يحدث هذا لي؟ هذا مجرد باب مفتوح، لا أكثر. لقد فتحته بنفسي ذلك اليوم. فتحته من أجل ديفيد... لكنني أغلقته من جديد. لو تركته مفتوحاً للاحظته... ألم ألاحظ الآن أنه متروك من غير إغلاق؟

أقف هناك، وأتمايل في مكاني كأنني شعلة لهب. هل أنا واثقة من نفسي يا ترى؟

رغم كل شيء، نعم أنا واثقة من نفسي.

أتقدم من الخزانة. أضع يدي على مقبض بابها بحذر كأن من الممكن أن يهرب مني. أجذب الباب. في داخل الخزانة ظلمة، ظلمة عميقة. أرفع يدي فوق رأسي وأحركها فتعثر على خيط المصباح. أشده. تشتعل الغرفة نوراً يعميني كأنني صرت في قلب المصباح نفسه.

أنظر من حولي. ما من شيء جديد هنا. وما من شيء مفقود. علب الطلاء، وكراسي البحر. وعلى الرف يجلس صندوق أدوات إد. وأنا أعرف، على نحو ما، ما في داخل هذا الصندوق.

أقترب؛ أقترب من الصندوق. أفتح أحد قفليه، ثم أفتح الآخر. أرفع الغطاء ببطء.

إنه أول شيء أراه. المشرط. لقد عاد إلى مكانه. أرى نصله لامعاً في الضوء.

58

جلست في غرفة مكتبي قبل لحظة، والأفكار تتساقط وتجف في دماغي. جلست في غرفة المكتبة منذ لحظة، لكن تلك المرأة ظهرت في مطبخ جين عند ذلك. أجفل جسدي كله، وتركت الغرفة هاربة. صارت في بيتي الآن مناطق محظورة؛ في بيتي أنا!

أراقب الساعة على رف الموقد. قاربت الثانية عشرة. لم أشرب شيئاً اليوم. أظن أن هذا شيء حسن.

قد أكون عاجزة عن الحركة... بل أنا عاجزة عن الحركة... لكني أستطيع التفكير في شيء يخرجني من هذه الحال. هذه رقعة شطرنج. وأنا ماهرة في الشطرنج. أركز، وأفكر، ثم أتحرك. ظلي ممتد على السجادة كأنه يحاول الانفصال عني وتركي.

قال ديفيد إنه لم يلتقِ جين. ولم تذكر لي جين أبداً أنها التقت ديفيد... لكن، لعل لقاء لم يحدث بينهما، لم يحدث إلا في وقت لاحق، لم يحدث إلا بعد أن شربنا معاً أربع زجاجات. متى استعار ديفيد المشرط؟ هل كان ذلك في اليوم نفسه الذي سمعت فيه صراخ جين؟ ألم يكن ذلك اليوم نفسه؟ هل هددها بالمشرط؟ وهل انتهى به الأمر بفعل ما هو أكثر من ذلك؟

أقضم ظفر إبهامي. كان رأسي في ما مضى خزانة ملفات. أما الآن فقد صارت ملفاته أوراقاً متطايرة يعصف بها مجرى الهواء.

لا، توقفي. أنت تجعلين هذا كله خارج السيطرة.

مع ذلك؛ ورغم ذلك... ما الذي أعرفه عن ديفيد؟ لقد «أمضى زمناً» بسبب هجوم. إنه صاحب سوابق متعددة. صار لديه مشرط.

وأنا رأيت ما رأيته. بصرف النظر عما تقوله الشرطة. وبصرف النظر عما تقوله بِينا، أو حتى إد.

أسمع صوب باب يغلق في الأسفل. أنتزع نفسي من مكاني وأسير إلى فسحة السلم، ثم أدخل غرفة المكتب. لا أرى أحداً في بيت روسل. أقترب من النافذة وأنظر إلى الأسفل: ها هو ديفيد على الرصيف بمشيته المتراخية الكسلى، وبنطلونه الجينز المعلق أخفض من خصره. حقيبة ظهر معلقة من كتف واحدة. أراه يتجه شرقاً. وأنظر إليه حتى يختفي.

أتراجع عن النافذة وأقف هناك يغمرني ضياء الظهيرة الخافت. أنظر إلى ما خلف الحديقة مرة أخرى. لا شيء. غرف خاوية. لكنني متوترة، أترقب ظهورها، أترقب أن تنظر إليَّ مثلما أنظر إليها.

ثوبي صار مرتخياً. صار منفلتاً. «صارت منفلتة». أظن هذا كان عنوان كتاب. لم أقرأ هذا الكتاب أبداً.

يا ربي... دماغي يدور في دوامة. أمسك رأسي بكلتا يدي، ثم أضغط: فكّري. وعندها ينبثق ذلك في ذهني فجأة، ينبعث بقوةٍ جعلتني أتراجع خطوة إلى الخلف: القرط.

هذا ما كان يقرض عقلي من داخله يوم أمس... القرط اللامع على الطاولة الصغيرة إلى جانب سرير ديفيد؛ القرط الذي كان مشعاً على الخلفية الخشبية الداكنة.

ثلاث لآلئ صغيرة جداً. أنا واثقة من هذا. أنا شبه واثقة من هذا.

هل هو قرط جين؟

في تلك الليلة، ليلة الرمال المتحركة، قالت لي: «هدية من صديق قديم». ثم لمست أذنها بأطراف أصابعها. أشك في أن ألستير يعرف شيئاً عن هذا! النبيذ الأحمر ينزل في حلقي. تلك اللآلئ الصغيرة الثلاث.

ألم يكن ذلك قرط جين؟ أم هي فكرة ناتجة عن عقل محتبس في البيت؟ قد يكون قرطاً آخر. قد يكون قرط امرأة أخرى. لكنني أجد نفسي أهز رأسي نفياً فيضرب شعري خدي: يجب أن يكون قرط جين.

وفي هذه الحالة...

أضع يدي في جيب ثوبي وأحس احتكاك قطعة الورق بجلدي. أُخرج البطاقة: المحقق كونراد ليتل، دائرة شرطة نيويورك.

لا. أعيد البطاقة إلى جيبي.

أستدير، ثم أخرج من الغرفة. أتلمس طريقي في الظلام، فأنزل طابقين. أنا غير مستقرة على قدمي رغم أنني صاحية تماماً. وفي المطبخ، أقترب من باب القبو. يصدر القفل أنيناً عندما أديره، عندما أقفله. أتراجع، وأتفحص الباب، ثم أعود إلى السلم. أصعد طابقاً واحداً وأفتح الخزانة، ثم أجذب خيط المصباح. أجده مستنداً إلى الجدار البعيد: السلم الصغير. أعود إلى المطبخ، وأضع السلم خلف الباب... أحشره بإحكام تحت

مقبض الباب. أضرب ساقيه بقدمي في حذائي البيتي إلى أن يثبت تماماً... لن يتزحزح من مكانه. أضربه أيضاً. يؤلمني إصبع قدمي. أواصل ضرب السلم.

أتراجع مرة أخرى وأنظر إلى الباب. لقد صار محصّناً. لقد ألغيت أحد طرق الدخول إلى البيت.

وبالطبع، ألغيت أيضاً أحد طرق الخروج من البيت.

59

عروقي جافة إلى حد الاشتعال. أنا في حاجة إلى شراب.

أستدير مبتعدة عن الباب فأدوس على وعاء الماء، وعاء بنتش. ينزلق الوعاء على الأرض وينسكب الماء من حوافه. أطلق شتيمة، ثم أمسك نفسي. عليّ التركيز. يجب أن أفكر. ستكون جرعة من نبيذ ميرلو مفيدة لي.

النبيذ مخملي في فمي، غني صاف، أحسست به يبرّد دمي وأنا أضع الكأس من يدي. أنظر إلى الغرفة، رؤيتي واضحة، دماغي جاهز للعمل. إنني آلة. آلة تفكير. كان هذا اسماً يطلقونه على شخص ما... أليس كذلك؟ شخصية في رواية بوليسية صار عمرها الآن قرناً من السنين، لشخص اسمه جاك... شيء ما... لا أدري... حامل دكتوراه منطقي من غير هوادة قادر على حل أي لغز من خلال تطبيق أصول المنطق. أتذكر الآن أن كاتب هذه الرواية مات في سفينة تايتانك بعد أن دفع بزوجته إلى أحد قوارب النجاة. رآه الشهود يتشارك تدخين سيجارة مع جاك آستور، بينما كانت السفينة تغرق، وتطلق دخانها في وجه القمر الموشك على الاختفاء. أظن أن موته كان نوعاً من السيناريو الذي لا يستطيع المرء أن يجد مخرجاً منه باستخدام عقله.

أنا أحمل الدكتوراه أيضاً. وأنا قادرة على أن أكون منطقية بشكل لا هوادة فيه أيضاً.

النقلة التالية.

لا بد من وجود أحد ما قادر على التثبت مما حدث، أو... على الأقل، على التثبت من هوية المرأة التي كانت ضحية ما حدث. إذا كنت لا أستطيع البدء بجين، فسوف أبدأ بألستير. إنه الشخص صاحب الآثار الأكثر وضوحاً. هو الشخص الذي له تاريخ أستطيع تتبعه.

أدخل غرفة المكتب، وتنبعث الخطة في رأسي مع كل خطوة أخطوها. وعندما ألقي نظرة عبر الحديقة أراها من جديد، أراها في ردهة البيت حاملة إلى أذنها هاتفاً فضياً. أجفل قليلاً قبل أن أتمالك نفسي، وأجلس إلى مكتبي. صار لديَّ مخطط، وصارت لدي إستراتيجية. ثم إنني واقفة على قدمين ثابتتين تماماً (أقول هذا لنفسي... وأنا جالسة).

فأرة الكمبيوتر. لوحة المفاتيح. غوغل. الهاتف. هذه هي أدواتي. ألقي نظرة أخرى في اتجاه بيت روسل. إنها توليني ظهرها الآن؛ جدار من الكشمير، كنزتها.

جيد. فلتظلي هكذا. هذا بيتي؛ وإطلالته من حقي.

أُدخل كلمة المرور في كمبيوتري. وبعد دقيقة، أجد ما أبحث عنه في الإنترنت. لكني أتوقف لحظة قبل أن أكتب كلمة المرور في هاتفي: ألا يستطيعون تتبع رقم الهاتف؟

يتجهم وجهي. أضع الهاتف من يدي. أمسك بفأرة الكمبيوتر. يتحرك المؤشر على الشاشة، ثم يستقر على أيقونة سكايب.

وبعد لحظة، يرحب بي صوت جاف: «مكتب أتكينسون».

أقول: «مرحباً...» ثم أتنحنح قليلاً... «مرحباً. أبحث عن مكتب ألستير روسل. لكني أريد الحديث مع مساعده، لا مع ألستير نفسه». صمت على الناحية الأخرى من الخط... أقول موضحة: «إنها مفاجأة».

صمت آخر. أسمع صوت نقر على لوحة المفاتيح. وبعد ذلك: «لقد تم إنهاء عمل ألستير روسل هنا في الشهر الماضي».

«إنهاء».

«نعم يا سيدتي».

إنها مدرَّبة على قول هذا. أحس أنها تتكلم على مضض.

«لماذا؟».

سؤال سخيف!

«لا فكرة عندي يا سيدتي».

«ألا تستطيعين تحويلي إلى مكتبه؟».

«كما قلت لك، لقد تم إنهاء...».

«أعني... تحويلي إلى مكتبه السابق».

«هذا يعني مكتبنا في بوسطن». إن صوتها من تلك الأصوات النسائية الشابة التي ترتفع نبرتها قليلاً عند نهاية الجملة. لا أعرف إن كانت عبارتها الأخيرة سؤالاً أم لا.

أقول لها: «نعم، مكتب بوسطن...».

«إنني أقوم بإحالتك إليه الآن». أسمع صوت موسيقى... إنها إحدى الوتريات الليلة لشوبان. لو حدث هذا قبل سنة من الآن، لاستطعت تحديد اسم المقطوعة. لا: لا تشتّتي انتباهك. فكّري. سيكون هذا أكثر سهولة مع كأس من الشراب.

خلف الحديقة، تخرج المرأة من مجال رؤيتي. أتساءل إن كانت تتكلم معه على الهاتف. ليتني كنت قادرة على قراءة الشفاه. ليتني...

«مكتب أتكينسون».

صوت رجل هذه المرة.

«إنني أبحث عن مكتب ألستير روسل».

تأتيني الإجابة على الفور: «يؤسفني القول إن السيد روسل...».

«أعرف أنه لم يعد هنا، لكني أريد الحديث مع مساعده. أو مع مساعده السابق. هذه مسألة شخصية». يصمت لحظة ثم يتحدث من جديد: «يمكنني إحالتك إلى مكتبه».

«سيكون هذا لطفـــ...» يأتي صوت البيانو من جديد؛ جدول من

الألحان. أظنها المقطوعة رقم 17، مقام بي ماجور. أو لعلها المقطوعة 3؟ أو المقطوعة رقم 9؟ كنت أعرف هذا.

ركزي. أهز رأسي وكتفي كأنني كلب أصابه البلل.

«مرحباً، أليكس معك». رجل آخر، على ما أظن، إلا أن الصوت رقيق زجاجي يجعلني غير واثقة تماماً خاصة أن اسم أليكس يمكن أن يكون اسم رجل، ويمكن أن يكون اسم امرأة.

«اسمي... » أنا في حاجة إلى اسم. لقد أغفلت هذه الخطوة... أقول في الهاتف: «أليكس... إنني أليكس أخرى». يا ربي، لم أستطع اختراع شيء أفضل من هذا.

لو كان هنالك نوع من المصافحة السرية بين من يحملون اسم أليكس، فإن أليكس الذي يكلمني، أو تكلمني، لا يمد يده: «كيف أستطيع مساعدتك؟»

«حسنٌ، إنني صديقة قديمة من أصدقاء ألستير... أعني السيد روسل... وقد جربت الاتصال بمكتبه في نيويورك. لكن يبدو لي أنه قد ترك الشركة».

«هذا صحيح». تأتيني الإجابة مع نشقة من الأنف.

«وهل أنت...» مساعد؟ سكرتير؟

«كنت أساعده».

إنهما شيئان مختلفان في حقيقة الأمر... « أوه. حسن، كنت أتساءل... متى ترك الشركة؟».

نشقة أخرى: «منذ أربعة أسابيع. لا، منذ خمسة أسابيع».

أقول: «هذا أمر غريب جداً. كنا نترقب انتقاله إلى نيويورك».

تأتيني إجابة أليكس: «لعلك تعرفين...» وهنا، أسمع في صوته، أو في صوتها، دفئاً يشبه دفء محرك تزداد سرعته. يبدو أنني سأسمع شيئاً من النميمة... «أنه ذهب إلى نيويورك، رغم ذلك. إلا أن ذلك لم يكن انتقالاً داخل الشركة. كان مصمماً على البقاء فيها. وقد اشتروا بيتاً في نيويورك، وكل شيء».

«اشتروا بيتاً؟».

«نعم. اشتروا بيتاً كبيراً في هارلم. لقد وجدته على الإنترنت من أجله. قمت ببحث صغير على الإنترنت». أيعقل أن يستمتع رجل إلى هذا الحد بحديث من وراء ظهر شخص آخر؟ لعل أليكس هذا امرأة. ماذا بي؟ ما هذا التمييز بين الجنسين؟ «لكنني لا أعرف ما حدث بعد ذلك. ولا أظنه ذهب إلى أي مكان آخر. هو الذي يستطيع إخبارك بالمزيد... أكثر مما أعرفه أنا...» نشقة جديدة... «اعذريني. إنه الرشح. تعرفينه؟».

«ألستير؟».

«نعم».

«أوه، كنا زميلين في الكلية».

«في دارتموث؟».

«هذا صحيح». لم أكن قد تذكرت هذا... «إذن، فهل... يؤسفني أن أصيغ السؤال بهذه الطريقة... لكن، هل قفز بنفسه أم أنه أُلقي خارجاً؟».

«لست أدري. علينا أن نعرف ماذا حدث. الأمر كله غامض جداً».

«سوف أسأله».

«كان ألستير محبوباً هنا. كان شخصاً طيباً. لا أستطيع تصديق أنهم فصلوه من الشركة، أو أي شيء من هذا القبيل».

أحاول إطلاق صوت يوحي بالتعاطف: «لدي سؤال آخر لك... فيما يتعلق بزوجته».

«جين؟» نشقة أنف.

أقول: «لم أتعرف عليها أبداً. ألستير ميال إلى تجزئة حياته إلى حقول منفصلة تماماً...» يبدو أنني أستخدم لغة الطب النفسي! آمل ألا يثير هذا انتباه أليكس... «أود أن أقدم لها هدية ترحيبية بمناسبة انتقالها إلى نيويورك؛ لكنني لا أعرف ما تحبه».

نشقة من أليكس.

«كنت أفكر في إهدائها شالاً، لكني لا أعرف الألوان التي تحبها...»

أبلع ريقي. يبدو هذا غبياً بعض الشيء... «أعرف أن هذا يبدو غبياً».

ينخفض صوت أليكس فجأة: «في حقيقة الأمر... أنا أيضاً لم أتعرف إليها».

لا بأس إذن. لعل ألستير يجزئ حياته إلى حقول منفصلة حقاً. يا لي من طبيبة نفسية ماهرة!

تأتي تتمة جملة أليكس: «... لأنه يجزئ حياته إلى حقول منفصلة تماماً. هذا هو التعبير الدقيق».

أقول موافقة: «أعرف هذا».

«عملت معه قرابة ستة شهور ولم أرَ زوجته أبداً. أعرف أن اسمها جين. التقيت ابنهما مرة واحدة».

«إيثان».

«ولد لطيف. خجول بعض الشيء. هل تعرفينه؟».

«نعم، أعرفه، لكن هذا كان منذ زمن بعيد».

«ولد لطيف. أتى إلى المكتب مرة حتى يذهب مع أبيه إلى مباراة في الهوكي لفريق بروينز».

لا بد لي من تذكير أليكس مرة أخرى: «هذا يعني أنني لا أستطيع معرفة شيء منك فيما يتعلق بذوق جين».

«لا. أوه... لكنك كنت تريدين معرفة كيف هو شكلها، أليس هذا صحيحاً؟».

«صحيح».

«أظن أن لها صورة في مكتبه».

«صورة؟».

«لدينا هنا صندوق من الأشياء الباقية التي تخص ألستير. وسوف نرسله إلى نيويورك. لكنه لا يزال هنا. لسنا واثقين مما يجب أن نفعله به».

نشقة وسعال... «لحظة ريثما أبحث في الصندوق».

أسمع صوت وضع سماعة الهاتف على الطاولة... لا تأتيني موسيقى شوبان هذه المرة. أعض على شفتي وأسترق نظرة في اتجاه النافذة. المرأة في المطبخ، تنظر في داخل الفريزر. وللحظة مجنونة، أتخيل أن جين موضوعة في ذلك الفريزر... يكسو جسدها الصقيع... عيناها لامعتان، متجمدتان.

خشخشة في السماعة، ثم صوت أليكس: «ها هي أمامي الآن... أعني الصورة».

أعجز عن التنفس.

«إن لها شعراً داكناً وبشرة جلد فاتحة اللون».

أتنفس. لكل منهما شعر داكن وجلد فاتح اللون، جين ومن تتصنع دورها. هذا ليس مفيداً. لكنني لا أستطيع السؤال عن وزنها. أقول: «جيد... لا بأس. أي شيء آخر؟ هل يمكن... هل يمكنك نسخ الصورة على الماسح الضوئي... وإرسالها إلي؟». صمت قصير. أراقب المرأة خلف الحديقة تغلق باب الفريزر، ثم تخرج من المطبخ.

أقول: «سأعطيك عنوان بريدي الإلكتروني».

لا شيء.

وبعد ذلك: «هل قلت لي إنك من أصدقاء...».

«من أصدقاء ألستير. نعم».

«لا أظن أن من حقي إطلاع أي شخص على أشيائه الخاصة هنا. عليك أن تطلبي الصورة منه». لا أسمع نشقة هذه المرة... «قلت لي إن اسمك أليكس، أليس كذلك؟».

«نعم».

«أليكس ماذا؟».

يفاجئني هذا فأفتح فمي، ثم أضغط على زر إنهاء المكالمة.

تغدو الغرفة صامتة. وعبر الممر الفاصل بين الغرف، أستطيع سماع تكات الساعة في مكتبة إد. إنني أحبس أنفاسي.

هل يتصل (تتصل) أليكس بألستير الآن؟ وهل يصف (تصف) له صوتي؟ وهل يمكنه (يمكنها) الاتصال معي على خط الهاتف الأرض، أو على الهاتف الخليوي. أنظر إلى هاتفي الموضوع أمامي على المكتب أراقبه لحظة كأنه حيوان نائم. أنتظر أن يتحرك، وقلبي ينتفض فيضرب أضلاعي.

يظل الهاتف راقداً من غير حركة. هاتف متحرك لا يتحرك.

ركزي!

60

أنزل إلى المطبخ. قطرات المطر تنقر على النافذة، وأنا أصبُّ مزيداً من نبيذ ميرلو في كأس كبيرة. جرعة طويلة. كنت في حاجة إليها.

ركزي.

هل صرت الآن أعرف شيئاً لم أكن أعرفه؟ ألستير يفصل بين عمله وحياته المنزلية. هذا منسجم مع سلوك كثير ممن يرتكبون أفعال اعتداء عنيفة؛ وأما غير ذلك، فلا فائدة من هذه المعلومة. فلأنتقل إلى نقطة أخرى: كان يستعد للانتقال إلى فرع شركته في نيويورك، بل إنه اشترى بيتاً ونقل عائلته كلها جنوباً... لكن شيئاً سيئاً حدث بعد ذلك، فلم يستقر في أي مكان. فماذا حدث؟

لحم جسمي ينكمش. المطبخ بارد. أذهب إلى الموقد وأدير مفتاحه. تظهر حديقة لهب صغيرة مزهرة.

أسترخي على الأريكة، وأدسّ نفسي بين الوسائد. يميل النبيذ في الكأس، ويلتف ثوبي من حولي. من الممكن أن أستحم. يجب أن أستحم!

تنزلق أصابعي في جيبي. تعثر على بطاقة ليتل من جديد. ثم تتركها من جديد.

ومن جديد أنظر إلى نفسي، إلى ظل نفسي في شاشة التلفزيون. غارقة بين الوسائد، في ثوبي المتسخ... أبدو كأنني شبح. بل أحس أنني شبح.

لا. ركزي. ما الخطوة التالية؟ أضع الكأس على الطاولة الصغيرة، وأسند مرفقيّ على ركبتيّ.

ثم أدرك أنه ليست لديَّ نقلة تالية. لست قادرة حتى على إثبات وجود جين، لا الآن ولا في الماضي... جين التي أعرفها، جين الحقيقية... ولا أستطيع إثبات اختفائها... أو موتها.

أفكر في إيثان. هو حبيس ذلك البيت. ولد لطيف.

تشق أصابعي طريقها في شعري كأنها تحرث حقلاً. أحس أنني مثل فأر في متاهة. هذه تجربة في الطب النفسي: تلك الكائنات الصغيرة بعيونها التي تشبه رؤوس الدبابيس وذيولها التي تشبه خيوط البالونات... تجري أولاً في اتجاه ما فتجد الطريق مسدوداً، ثم تجري في اتجاه آخر. كنا نشجعها... (هيا)... ونضحك، ونتراهن عليها.

لست أضحك الآن. أتساءل مرة أخرى إن كان عليّ أن أتكلم مع ليتل.

لكنني أتكلم مع إد بدلاً من ذلك.

«أفهم أن إثارة مجنونة تصيبك، أليس كذلك؟».

أتنهد وأسحب قدمي فوق سجادة غرفة المكتب. لقد أسدلتُ الستائر حتى لا تستطيع تلك المرأة رؤيتي. صارت في الغرفة خطوط من ضوء خافت، كأنها قفص.

أحس أنني عديمة الفائدة تماماً. أحس كما لو أنني في سينما وانتهى الفيلم وأضيئت الأنوار وخرج الجميع، لكنني لا أزال جالسة محاولة فهم ما حدث.

أسمعه يضحك.

«ماذا؟ ما المضحك في الأمر؟».

«هذه هي أنت تماماً... فمن غيرك يستطيع أن يأتي بهذا التشبيه؟».

«حقاً؟».

«إنه كذلك».

«حسنٌ، ليست لدي هذه الأيام أشياء كثيرة أستشهد بها».

«لا بأس، لا بأس».

لم أقل له شيئاً عن الليلة الماضية. بل إنني أجفل وأنكمش على نفسي كلما فكرت فيها. لكني أخبره بكل ما عدا ذلك... أخبره من غير تردد: الرسالة التي وصلتني من المرأة المدّعية، والقرط في شقة ديفيد، والمشرط، والاتصال الهاتفي مع أليكس.

أكرر التشبيه نفسه: «يبدو لي هذا كله كأنه شيء من أحد الأفلام. وأظن أن عليك أن تبدي اهتماماً أكثر».

«بماذا؟».

«بشيء واحد... بحقيقة أن المستأجر الذي عندي لديه قرط امرأة ميتة في غرفة نومه».

«أنت لا تعرفين أن القرط لها».

«بل أعرف هذا، وأنا واثقة منه».

«لا يمكنك أن تكوني واثقة. أنت لست واثقة من أنها...».

«من أنها ماذا؟».

«أنت تعرفين».

«أعرف ماذا؟».

أسمعه يتنهد: «تعرفين أنها حية».

«لا أظن أنها حية».

«أعني أنك لست واثقة حتى من وجودها. أو إذا...».

«بل أنا واثقة. إنني واثقة. أنا لا أتوهم هذه الأشياء».

صمت. أستمع إلى صوت تنفسه.

«ألا تظنين أنك مصابة بنوع من البارانويا؟».

أنقضّ عليه قبل أن ينهي جملته: «إن كان هذا يحدث حقاً، فإنه ليس بارانويا».

صمت. يكف عن متابعة الموضوع.

وعندما أتكلم من جديد، يخرج صوتي كمن يخوض مشادة كلامية:

«أمر مزعج ومحبط كثيراً أن يتعرض المرء للاستجواب بهذه الطريقة. ومن المحبط، كثيراً، كثيراً، أن أكون عالقة هنا...» أغص قليلاً... « في هذا البيت، وفي هذه الـ...» أريد أن أقول في هذه الحلقة المفرغة، لكنه يبدأ الكلام قبل أن أهتدي إلى هذه العبارة.

«أعرف هذا».

«بل أنت لا تعرف».

«فلنقل إنني أتخيله. انظري يا آنا...» يتابع كلامه قبل أن أتمكن من القفز في منتصف جملته ومقاطعته... «أنت منطلقة بالسرعة القصوى منذ يومين. طيلة عطلة نهاية الأسبوع. والآن، تقولين لي إن ديفيد قد تكون له علاقة بـ... مهما يكن». يسعل قليلاً... «أنت ترهقين نفسك كثيراً. أقترح أن تشاهدي فيلماً الليلة، أو أن تقرئي شيئاً. نامي في وقت مبكر». يسعل من جديد... «هل تتناولين أدويتك بانتظام؟».

لا. «نعم».

«وهل أنت ممتنعة عن الشراب؟».

بالطبع لا. «طبعاً».

صمت قصير. لا أعرف إن كان يصدق ما أقول.

«هل تريدين أن تقولي شيئاً لأوليفيا؟».

أتنهد مرتاحة: «نعم، أريد أن أكلمها». أصغي إلى المطر يضرب طبول زجاج النوافذ بأصابعه. ثم أسمع صوتها بعد قليل، أسمعه ناعماً هامساً.

«ماما».

أبتسم ابتسامة كبيرة: «مرحباً يا حبيبتي».

«مرحباً».

«هل تسير أمورك سيراً حسناً؟».

«نعم».

«اشتقت إليك».

«ممم».

«ماذا قلت؟».

«قلت ممم».

«هل يعني هذا: اشتقت إليك أيضاً يا ماما».

«نعم. ما الذي يحدث هناك؟».

«أين؟».

«في مدينة نيويورك». هكذا تشير دائماً إلى موقع البيت. صيغة رسمية جداً.

«تعنين... في البيت؟» يؤلمني قلبي: البيت.

«نعم، في البيت».

«مجرد شيء ما يتعلق بالجيران الجدد، جيراننا الجدد».

«وما هو؟».

«لا أهمية له في حقيقة الأمر يا حبيبتي، إنه مجرد سوء تفاهم».

ثم أسمع صوت إد من جديد: «اسمعي يا آنا... آسف لأنني قاطعتك يا طفلتي: إذا كنت قلقة فيما يتعلق بديفيد، فعليك أن تتصلي بالشرطة. ليس لأنه... أنت تفهمين... بالضرورة على صلة بما يحدث، لكن... لأن له سجلاً جنائياً! ولا يمكنك أن تظلي خائفة من مستأجر في بيتك».

أومئ برأسي: «صحيح».

«اتفقنا».

أومئ برأسي من جديد.

«ألديك رقم هاتف ذلك الشرطي؟».

«المحقق ليتل. لدي رقمه».

أسترق النظر عبر الستارة. ألمح حركة خلف الحديقة. انفتح باب بيت روسل... رقعة بياض مضيء في المطر الرمادي.

يقول إد: «لا بأس»، لكنني لم أعد مصغية إليه.

يغلق الباب، وأرى المرأة أمامه. إنها في معطف أحمر يبلغ الركبة، مثل

لهب مِشعل، ومن فوق رأسها مظلة شفافة نصف كروية. أمد يدي إلى الكاميرا على المكتب ثم أرفعها إلى عينيّ.

أسأل إد: «ماذا قلت؟».

«قلت إنني أريد منك أن تنتبهي لنفسك».

أنظر عبر العدسة. خطوط من ماء المطر تسيل منحدرة على مظلتها كأنها عروق شخص مصاب بالدوالي. أخفض العدسة قليلاً وأركز الصورة على وجهها: الأنف المرتفع قليلاً والجلد الحليبي. وظلال سوداء تحت عينيها. إنها آثار قلة النوم.

بينما أودع إد، أراها تنزل الدرجات التي أمام البيت في حذائها مرتفع الساق. تتوقف، ثم تخرج هاتفها من جيبها وتنظر إليه. تضعه في جيبها وتستدير شرقاً، في اتجاهي. وجهها غير واضح المعالم خلف غبش المظلة الشفافة.

يجب أن أتحدث معها.

61

الآن، بينما هي وحدها. الآن، عندما لا يستطيع ألستير أن يتدخل. الآن عندما يزمجر دمي عند صدغي.

الآن.

أطير إلى الصالة، وأهبط الدرجات كالريح. أستطيع أن أفعل هذا... أستطيع فعله إذا لم أفكر. لا تفكري! لم يفدني التفكير شيئاً حتى الآن. لقد اعتاد ويسلي تذكيري، معيداً صياغة عبارة أنشتاين... «تعريف الجنون، يا فوكس، هو تكرار الشيء نفسه مرة بعد مرة وتوقع نتيجة مختلفة». يعني هذا: كفي عن التفكير، وابدئي الفعل.

طبعاً... كان ذلك منذ ثلاثة أيام فقط عندما بادرت إلى الفعل... بادرت بهذه الطريقة نفسها... فانتهى بي الأمر إلى سرير في المستشفى. الجنون هو أن أحاول فعل هذا ثانية.

لكني مجنونة على أية حال. فليكن. يجب أن أعرف. ثم إنني لم أعد واثقة من أنني آمنة في بيتي.

ينزلق حذائي على أرض المطبخ أثناء اندفاعي فألتف من حول الأريكة. أرى أنبوبة دواء آتيفان على طاولة القهوة. ألتقطها وأهزها فتسقط ثلاث أقراص في راحة يدي. أرفع يدي إلى فمي. أبتلع الدواء. أحس كأنني أليس تبتلع جرعة كبيرة من شراب «اشربيني».[1]

أجري إلى الباب. أركع لأسحب المظلة من مكانها. أقف، ثم أدير المفتاح في القفل، ثم أفتح الباب. أنا في الصالة الآن. ضياء مائي يتسرب عبر زجاج الباب المغشى. أتنفس ـ واحد، اثنان ـ ثم أفتح المظلة. تنفتح مظلتي في الظلام بصوت يشبه شهقة مفاجئة. أرفعها حتى مستوى عينيّ، وأمد يدي الأخرى إلى القفل. سينجح الأمر إذا واصلت. سينجح إذا لم أتوقف.

لا أتوقف.

يدور المفتاح في يدي، ثم يدور قفل الباب. أغمض عيني بقوة وأجذبه إليّ. دفقة من هواء بارد. يصطدم الباب بالمظلة فأفسح لحركته طريقاً حتى أستطيع الخروج منه.

يحيط بي البرد الآن، يحتضنني. أقفز نازلة الدرجات. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. تندفع مظلتي مقاومةً الهواء، تشقه مثل محراث، مثل مقدمة سفينة. تظل عيناي مغمضتين بإحكام وأشعر بالمظلة تعوم في تيارات هواء شديدة، تيارات تجتاحها من الجانبين.

ينقطع اندفاعي عندما تصطدم ساقاي بشيء معدني. إنها البوابة. ألوّح بيدي إلى أن أمسك بها، ثم أفتحها وأخطو خارجها. يضرب نعلاي إسمنت الرصيف. إنني على الرصيف الآن. أشعر بإبر المطر تخترق شعري، وتخترق جلدي.

---

(1) – إشارة إلى «أليس في بلاد العجائب»، فيلم الرسوم المتحركة (1951) المأخوذ عن كتاب «أليس» للويز كارول.

أمر غريب: طيلة الشهور التي أمضيناها في تجريب أسلوب المظلة الغريب هذا، لم يخطر في بالي ولا في بال د. فيلدينغ (هذا ما أظنه) أن من الممكن أن أغمض عيني، هكذا... بكل بساطة. أظن أنه ما من معنى للتجول من غير قدرة على الإبصار. يمكنني الإحساس بتغيرات ضغط الهواء؛ تصير حواسي شائكة: أعرف أن السماء واسعة عميقة من فوقي، أنها محيطٌ مقلوب رأساً على عقب... لكنني أغمض عيني بقوة أكبر من ذي قبل وأفكر في بيتي: غرفة مكتبي، ومطبخي، وأريكتي. أفكر في قِطّي. أفكر في كمبيوتري. أفكر في صوري. أنعطف يساراً. جهة الشرق.

أسير على الرصيف عمياء تماماً. لا بد لي من توجيه نفسي. لا بد لي من النظر. ببطء، أفتح عيناً واحدة. يتسرب الضوء عبر أهدابي المتشابكة.

أبطئ سيري لحظة واحدة، أكاد أتوقف. إنني أحدق في أحشاء مظلتي، في أضلاعها الداخلية. أربع مساحات سوداء، وأربعة خطوط بيضاء. أتخيل تلك الخطوط مندفعة بطاقة كبيرة، نافرةً مثل الخطوط على شاشة راسِم نبضات القلب، أتخيلها تقفز من مكانها وتغرق في إيقاع دمي. ركزي. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

أرفع المظلة قليلاً، بضع درجات فقط، ثم أرفعها بضع درجات أخرى. ها هي هناك، متألقة كأنها مصباح، حمراء كأنها إشارة سير: المعطف القرمزي، والحذاء الأسود مرتفع الساق، ونصف القمر البلاستيكي الشفاف فوق رأسها. وبيننا، يمتد نفق من رصيف ومطر.

ماذا أفعل إذا استدارت؟

لكنها لا تستدير. أخفض المظلة وأغمض عينيَّ من جديد. ثم أخطو إلى الأمام.

خطوة ثانية، خطوة ثالثة، خطوة رابعة. تعثرتُ بشق في الرصيف. وتشبّع نعلاي ماءً، وبدأ جسدي يرتجف، وانساب العرق على ظهري. قررت أن أخاطر بنظرة جديدة. فتحت العين الأخرى هذه المرة، ثم أملت المظلة حتى رأيتها من جديد، رأيتها شعلة حمراء متقدة. ألقيت نظرة

سريعة ناحية اليسار: مدرسة القديسة ديمفنا، ثم البيت الأحمر الناري بأفاريز نوافذه المملوءة أزهاراً. ألقي نظرة جهة اليمين: عينان خرزيتان لسيارة نقل صغيرة تحدقان في الطريق؛ أضواء غاضبة في هذه الظلمة. أتجمد في مكاني. تتجاوزني السيارة. أغمض عينيّ.

أفتح عيني من جديد فأرى أن السيارة قد ذهبت. وعندما أنظر إلى الرصيف، أجدها قد ذهبت أيضاً.

لقد اختفت! الرصيف خالٍ. وفي البعيد، عبر غمامة المطر، أستطيع تمييز ازدحام السيارات عند تقاطع الطرق.

يزداد الضباب من حولي ضباباً فأدرك أن رؤيتي هي التي تتناقص، يزداد ضباب عينيّ سريعاً.

ترتجف ركبتاي، ثم تنثنيان. أبدأ الهبوط إلى الأرض. وخلال سقوطي، حتى مع بقاء عينيَّ مفتوحتين، أتخيل صورتي من الأعلى، أتخيل نفسي مرتعشة في ثوبي الذي تشبَّع ماء، وشعري الذي صار ملتصقاً بظهري، ومظلتي المنخفضة أمامي من غير فائدة لها. صورة طويلة لجسد على رصيف مهجور.

أنخفض أكثر، وأذوب على إسمنت الرصيف.

لكن...

لا يمكن أن تختفي. لم تبلغ نهاية الرصيف. أغمض عيني وأستعيد صورتها، أرى شعرها متطايراً عند رقبتها، ثم أفكر في جين عندما وقفت عند مغسلتي فتدلت ضفيرة شعرها الطويلة بين كتفيها.

وعندما تستدير جين فتواجهني، تلتصق ركبتاي كأن كلاً منهما تريد الاستناد إلى الأخرى. أشعر بالثوب يتجرجر على الرصيف، لكنني لست منهارة بعد.

أقف ساكنة كأن ساقيَّ مكبّلتين.

لا بد أنها اختفت في... أراجع الخريطة في ذهني. ما الذي بعد ذلك

البيت الأحمر؟ متجر الأنتيكات واقع على الناحية الأخرى من الشارع - أتذكر أنه خالٍ الآن - وإلى جانب البيت الأحمر، هناك...

إنه المقهى، بالطبع. لا بد أنها في المقهى.

أرفع رأسي من جديد، وأرفع وجهي إلى السماء كما لو أنني أستطيع أن أشد نفسي إلى الأعلى. يتحرك مرفقا ذراعيّ سريعاً. وتضغط قدماي المتباعدتين على إسمنت الرصيف. يتمايل مقبض المظلة في كفي. أمدّ ذراعي لكي أحفظ توازني. ومع المطر الذي يضبّب كل شيء من حولي، مع هسيس حركة السير في البعيد، أستجمع نفسي، أستجمع قوتي... أكثر... فأكثر... فأكثر... إلى أن أصير واقفة من جديد.

أسمع فرقعة أعصابي. وأرى اشتعال قلبي. إنني قادرة على الإحساس بالدواء يسري في عروق دمي، ينظفها في اندفاعه مثلما يفعل الماء النظيف حين يندفع في أنبوب قذر.

واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة.

أجر إحدى قدميّ إلى الأمام، ثم تتبعها الثانية بعد لحظة. أسير متثاقلة الخطى. لا أستطيع تصديق أنني أفعل هذا. إنني أفعل هذا.

الآن، صار صراخ حركة السيارات أكثر قرباً، أكثر ارتفاعاً. تابعي السير. أنظر إلى المظلة؛ إنها تملأ مجال نظري، تحيط بي. ما من شيء خارجها.

إلى أن أنعطفَ يميناً.

«أوه... آسف». أُجفل. شيء ما... شخص ما... اصطدم بي فانزاحت المظلة جانباً. يندفع من اصطدم بي فيعبرني... لمحة من جينز أزرق ومعطف، وعندما ألتفت لأنظر إليه، أرى نفسي في واجهة زجاجية: شعري مثل أعشاب برية، وجلدي مبلل، ومظلة من قماش مخطط ممتدة من يديّ كأنها زهرة عملاقة.

ومن خلف انعكاسي في الزجاج، إلى الناحية الأخرى من الواجهة، أرى تلك المرأة.

لقد بلغتُ المقهى.

أحدق أمامي. ينكسر نظري. الماء النازل من السقف ينصب فوقي. أغمض عيني، ثم أفتحهما من جديد.

المدخل قريب جداً. أمد يدي. أصابعها ترتجف. وقبل أن تفلح في الإمساك بقبضة الباب، أراه ينفتح بقوة فيخرج منه شاب. أعرف هذا الوجه. إنه ابن تاكيدا.

مرت أكثر من سنة منذ رأيته عن قرب آخر مرة... أعني منذ رأيته وجهاً لوجه، لا من خلال عدسة الكاميرا. لقد ازداد طولاً، واكتسى خداه وذقنه شعراً خشناً أسود؛ لكن ملمح الطفل الطيب لا يزال مشعّاً فيه، الملمح نفسه الذي تعلمت كيف أراه في صغار السن، تلك الهالة السرية حول رؤوسهم. أوليفيا لديها واحدة منها. وإيثان لديه واحدة منها.

يقف الصبي... الشاب، على ما أظن (لماذا لا أستطيع تذكر اسمه؟)... مسنداً الباب بمرفقه ويدعوني إلى الدخول. ألاحظ يديه، يدي عازف التشيلو الرقيقتين. أعرف أن مظهري بائس، لكنه لا يزال يعاملني بهذه الطريقة. لقد رباه والداه جيداً... هذا ما ستقوله ليزي لو كانت هنا. أتساءل إن كان قد عرفني. أظنني لا أكاد أعرف نفسي.

عندما أتجاوزه وأدخل المقهى يذوب جليد ذاكرتي. لقد اعتدت دخول هذا المكان بضع مرات في الأسبوع... في الصباحات التي لا يكون لدي الوقت الكافي لإعداد القهوة في البيت. مذاق قهوتهم مرّ تماماً (أظنه لا يزال مراً)، لكنني كنت أحب جو المكان: المرآة المكسورة التي يكتبون عليها ما لديهم من عروض خاصة كل يوم بقلم «سحريّ»، والطاولات ببقعها المتداخلة مثل الحلقات الأولمبية، ومكبرات الصوت الصادحة بالأغاني القديمة. «خشبة مسرح متواضعة» هذا ما قاله إد عندما أتيت به إلى هذا المكان أول مرة. أجبته يومها: «لا يمكنك وضع هذه الكلمات في جملة واحدة».

«إذن، إنه متواضع فقط».

لا يزال متواضعاً؛ لم يتغير. لقد سحقتني غرفة المستشفى، لكن هذا

مختلف... هذا مكان أعرفه. ترفرف عيناي، تتنقلان بين سرب من روّاد المقهى، وتدرسان لائحة الأسعار المثبتة فوق صندوق المحاسبة. ثمن فنجان القهوة الآن 2,95 دولار. لقد ازداد خمسين سنتاً منذ آخر مرة كنت هنا. ما أسوأ التضخم!

تتأرجح مظلتي متدلية من يدي فتحتك بكاحل قدمي.

ما أكثر الأشياء التي لم أرها منذ وقت طويل. ما أكثر الأشياء التي لم أحسها ولم أسمعها ولم أشمها... الدفء الذي تشعه الأجساد البشرية، وموسيقى البوب التي بلغ عمرها عشرات السنين، ورائحة البن المطحون. ينبسط المشهد كله أمامي بحركة بطيئة تحت نور ذهبي. تغمض عيناي لحظة، وأستنشق الهواء، وأتذكر.

أتذكر حركتي عبر هذا العالم في الماضي مثلما يتحرك المرء عبر الهواء. أتذكر دخولي هذا المقهى، جسدي يلفه معطف شتوي محكم أو فستان صيفي خفيف متموج عند الركبتين. أتذكر احتكاكي بالناس عند مروري بهم، وابتسامي لهم، وحديثي معهم.

لكنني أفتح عيني من جديد فأجد الضياء الذهبي قد خبا. أنا في غرفة معتمة، بالقرب من نوافذ يغسلها المطر. تتسارع ضربات قلبي.

بقعة من ألسنة لهب حمراء عند زاوية المعجّنات. إنها هناك، تتفحص نوعاً من الفطائر الدانماركية. ترفع ذقنها فتلمح نفسها في المرآة. تمرر يدها في شعرها.

أقترب منها. يمكنني الإحساس بالعيون مصوَّبة إلي... لا أقصد عينيها، بل عيون بقية الزبائن. عيون تتفحصني، تتفحص هذه المرأة في ثوب الحمام وفي يدها مظلة مفتوحة كالفطر تدفعها أمامها. أشق لنفسي نفقاً لأعبر الحشد، لأعبر الضجيج، وأقترب من حيث تقف. وعندها، يُستأنف الكلام من جديد كأنه ماء ينطبق من فوقي وأغرق فيه.

صارت على بعد أقدام قليلة مني. خطوة أخرى فأصير قادرة على

بلوغها ولمسها... أصير قادرة على إمساكها من شعرها بأصابعي... على شد شعرها.

في تلك اللحظة، تستدير قليلاً وتضع يدها في جيبها وتخرج هاتف آيفون كبير الحجم. أنظر في المرآة إلى أصابعها ترقص على الشاشة، وأرى تعابير وجهها تتغير. أتخيل أنها تكتب رسالة لألستير.

يسألني عامل المقهى: «ماذا تريدين؟».

تواصل المرأة الكتابة على هاتفها.

«ماذا تريدين؟».

والآن... ما الذي أفعله هنا؟... أسعل حتى أتمكن من الكلام، ثم أتمتم: «دورك قبلي». تتوقف وتميل برأسها في اتجاهي، ثم تقول: «أوه»، ثم تستدير إلى الرجل الواقف خلف طاولة البيع: «قهوة مع الحليب، حجم وسط».

إنها لا تنظر إلي. أنظر إلى نفسي في المرآة فأراني واقفة خلفها كأنني شبح، كأنني ملاك الانتقام. لقد أتيت إليها.

«قهوة مع الحليب، حجم متوسط. هل تريدين معها شيئاً؟».

أنظر إلى المرآة، ثم أنظر إليها. فم صغير دقيق الحواف لا يشبه فم جين أبداً. تنبع موجة حنق صغيرة في داخلي، تنبع من داخلي، وتصطدم بأسفل دماغي. تقول له المرأة بعد لحظة: «لا»، ثم تبتسم ابتسامة مشرقة كبيرة كأنها منجل وتقول له: «لا، أفضّل ألّا آكل شيئاً».

ينبعث صوت حركة الكراسي على الأرض من خلفنا. ألتفت من فوق كتفي. فأرى مجموعة من أربعة أشخاص ماضية في اتجاه الباب. أعود مثلما كنت.

يرتفع صوت عامل المقهى فيعلو على الضجيج المحيط بنا: «الاسم؟».

عندها، تتلاقى نظراتنا في المرآة، أنا وهي. يرتفع كتفها قليلاً. تذوب ابتسامتها.

يتجمد الزمن لحظة هي تلك اللحظة مبهورة الأنفاس التي تعيشها عندما تجد نفسك قد خرجت عن الطريق مندفعاً صوب الوادي.

من غير أن تستدير، ومن غير أن تهرب من نظرة عيني، تجيبه بنبرة الصوت الواضحة نفسها: «جين».

«جين».

يصعد الاسم إلى شفتي قبل أن أتمكن من ابتلاعه. تستدير المرأة وترشقني بنظرة حادة.

«تفاجئني رؤيتك هنا». نبرة صوتها باردة، محايدة، مثل عينيها. عينا قرش... هكذا أقول في نفسي... عينان باردتان، قاسيتان. أود القول لها إن وجودي هنا يفاجئني أنا أيضاً. لكن الكلمات تهرب من لساني.

تتابع كلامها: «ظننت أنك... معوّقة». شيء قاتل.

أهز رأسي نفياً فلا تزيد على ما قالته شيئاً.

أتنحنح لأفتح حنجرتي من جديد، أود أن أسألها: «أين هي، ومن أنت؟ من أنت وأين هي؟». تتصاعد الأصوات من حولي، تلفني، وتختلط بالكلمات التي في رأسي.

«ماذا؟»

«من أنت؟»... لقد قلتها.

«أنا جين». هذا ليس صوتها، لكن عامل المقهى يمد يده من فوق طاولة البيع ويربت على كتف جين قائلاً: «قهوة مع الحليب من أجل جين».

أراها تواصل النظر إليّ، تواصل مراقبتي، كأن من المحتمل أن أضربها. يمكنني أن أقول لها: «أنا طبيبة نفسية محترمة». يجب أن أقول لها هذا... «وأنت كاذبة محتالة».

يقول عامل المقهى: «جين! قهوتك!» إنها المحاولة الثالثة.

تدور وتمسك بالفنجان الموضوع في غلاف دافئ من الورق المقوّى. تقول لي: «تعرفين من أكون».

أهز رأسي مرة أخرى: «أعرف جين. لقد التقيتها. رأيتها في بيتها».
صوتي لا يعدو حشرجة، لكنه واضح.
«إنه بيتي، وأنت لم تري أحد».
«بل رأيت».
تقول لي المرأة: «لم تري».
«إنني...».
«سمعت أنك سكيرة. وسمعت أنك غير قادرة على الاستغناء عن الأدوية». إنها تتحرك الآن، تدور من حولي مثلما تفعل لبؤة. أدور معها بحركة بطيئة محاولة مواكبتها. أحس كما لو أنني طفلة. توقفت الأحاديث من حولها، جمدت: صمت هش. من زاوية عيني، في إحدى زوايا المقهى، أرى أن ابن تاكيدا لا يزال واقفاً عند الباب.
«أنت تراقبين بيتي. أنت تتعقّبينني».
أهز رأسي، أحرّكه إلى الأمام والخلف بطريقة بطيئة، بطريقة غبية.
«يجب أن يتوقف هذا. لا نستطيع العيش على هذا النحو. ربما تستطيعين أنت، أما نحن فلا نستطيع».
أهمس لها: «أخبريني فقط أين هي؟».
درنا دورة كاملة.
«لا أعرف عمن تتحدثين، ولا أعرف عمّ تتحدثين. وسوف أتصل بالشرطة». تندفع فتتجاوزني ويصطدم كتفها بكتفي. ثم أراها في المرآة خارجة من المقهى، أراها تناور بين الطاولات كأنها زورق يتحرك بين عوامات بحرية.
يُصلصل الجرس عندما تفتح الباب، ثم يُصلصل من جديد عندما تغلقه من خلفها.
أظل واقفة هناك. الصالة هادئة. تنحدر عيناي إلى مظلتي. تغمض عيناي. كأن العالم الخارجي يحاول الدخول. أشعر بالغضب، وأشعر بأنني مفرّغة من داخلي. مرة أخرى، لم أعرف شيئاً جديداً.

باستثناء أمر واحد: لم تكن تجادلني أنا... لم تكن تجادلني فقط، على أية حال.

أظنها كانت تتوسل إلي.

62

«دكتورة فوكس؟».

صوت خفيض جاء من خلفي مباشرة. يد لطيفة تمسك بمرفقي. أستدير، ثم أفتح عيني.

إنه ابن تاكيدا. لا أزال غير قادرة على تذكر اسمه. أغمض عيني من جديد.

«هل أنت في حاجة إلى مساعدة؟».

هل أنا في حاجة إلى مساعدة؟ إنني بعيدة عن بيتي مئتي متر، واقفة أتمايل في ثوب الحمام مغمضة عيني بقوة وسط الناس في هذا المقهى. نعم، أنا في حاجة إلى مساعدة. أخفض رأسي.

يمسكني بقوة أكبر ويقول: «فلنسر في هذا الاتجاه».

يقودني عبر المقهى. تصطدم مظلتي بالكراسي وبأرجل الناس كأنها عكاز أبيض.[1] يحيط بنا هدير منخفض من أحاديث المقاهي.

ثم يصلصل الجرس من جديد فيندفع هواء بارد في اتجاهي. تصير يده على ظهري ويدفعني لأخرج من الباب.

الهواء ساكن في الخارج... إنها لا تمطر. أحس أنه موشك على أخذ المظلة مني فأبعدها عنه.

تعود يده إلى مرفقي.

يقول لي: «دعيني أسير معك حتى البيت».

نسير، وتظل يده ممسكة بذراعي؛ إنه قابض على ذراعي بإحكام مثل

---

(1) العصا البيضاء المميزة التي يحملها المكفوفون في سيرهم.

طوق جهاز قياس ضغط الدم. أتخيل أنه قادر الآن على الإحساس باندفاع الدم في شراييني. أمر غريب أن أسير محمية هكذا. شيء يشعرني بأنني صرت عجوزاً. أريد أن أفتح عيني، وأن أنظر إلى وجهه. لكنني لا أفعل هذا.

نتقدم تقدماً بطيئاً متقطعاً؛ وابن تاكيدا يساير خطواتي. ندوس على أوراق الأشجار. وأسمع صوت سيارة تمر بنا ثم تنعطف يساراً، كأنها تتنهد. وفي مكان ما فوقنا، ترمي شجرةٌ نقاط مطر على رأسي، وعلى كتفي. أتساءل إن كانت تلك المرأة سائرة على الرصيف أمامنا. أتخيل أنها تدير رأسها في اتجاهي وتراقبني وأنا أتبعها.

وعند ذلك يقول لي: «أخبرني أهلي بما حدث. إنني آسف حقاً». أهز رأسي. لا تزال عيناي مغمضتين. نتابع السير.

«أظن أن زمناً طويلاً قد مضى وأنت غير قادرة على الخروج من البيت». يفاجئني تذكر أنني خرجت من البيت قبل فترة وجيزة جداً، لكنني أومئ برأسي من جديد.

«لا بأس. كدنا نبلغ البيت. أستطيع رؤيته من هنا».

يغصّ قلبي.

شيء يرتطم بركبتي. أدرك أنها مظلته المتدلية من ذراعه.

يقول لي: «آسف». لكنني لا أهتم بالإجابة.

متى كانت آخر مرة تكلمت معه؟ أظنها كانت يوم الهالووين، قبل أكثر من سنة. هذا صحيح: فتح الباب لنا عندما قرعناه. كنا في ملابس يوم الأحد، أنا وإد، وكانت أوليفيا متنكرة على هيئة سيارة إطفاء. أذكر أنه امتدح زيّها، وسكب السكاكر في الحقيبة التي كانت على ظهرها. ثم تمنى لنا عيداً سعيداً. إنه ولد لطيف.

وبعد اثني عشر شهراً من ذلك، أراه الآن يقودني على الرصيف وأنا أسير في ثوب الحمام بخطوات متعثرة وقد أغمضت عينيَّ في وجه العالم كله.

ما ألطف هذا الولد!

يذكّرني هذا بشيء:

«هل تعرف أسرة روسل؟» يبدو صوتي مضطرباً، لكنه غير متقطّع. يتوقف لحظة. لعله فوجئ بكلامي. يسألني: «أسرة روسل؟».

أظن أن هذه إجابته على السؤال. لكني أحاول من جديد: «على الناحية الأخرى من الشارع».

يقول لي: «أوه، الجدد... لا. تقول أمي دائماً إنها تعتزم زيارتهم. لكني لا أظنها ذهبت إليهم حتى اليوم».

صدمة أخرى. يقول وهو يديرني بلطف إلى جهة اليمين: «ها قد وصلنا».

أرفع المظلة، وأفتح عيني فأجد نفسي أمام بوابة بيتي. يعلو البيت أمامي. أرتجف.

ينظر ويقول: «إن باب بيتك مفتوح».

إنه محق طبعاً: أستطيع النظر من هنا إلى داخل غرفة المعيشة التي يضيئها المصباح. يبدو بريق المصباح في الداخل مثل سن ذهبية في وجه البيت. تتأرجح المظلة في يدي. أغمض عيني من جديد.

«هل تركتِ الباب مفتوحاً؟».

أومئ برأسي.

«لا بأس». ترتفع يده إلى كتفي وتدفعني بلطف لكي أتقدم.

«ماذا تفعلين؟».

هذا ليس صوته. تشتد قبضته قليلاً. تنفتح عيناي قبل أن أتمكن من منعهما.

أرى إيثان إلى جانبنا، أراه أصغر حجماً بسبب قميصه الكبير وبسبب شحوبه تحت ضوء النهار الشحيح. ندبة متسللة تشوّه أحد حاجبيه قليلاً، وأصابعه تلعب في جيوبه.

أسمع صوتي يتمتم باسمه.

يلتفت ابن تاكيدا إلي ويقول: «هل يعرف أحدكما الآخر؟».

يتقدم إيثان ويكرر ما قاله: «ماذا تفعلين؟ لا يجوز أن تخرجي من البيت».

تستطيع «أمك» إخبارك بكل شيء... أقول هذا في نفسي.

يسأل: «هل هي بخير؟».

يجيبه ابن تاكيدا: «أظن هذا». أتذكر فجأة، على نحو ما، أن اسمه نيك.

أنقل نظراتي ببطء بينهما. لا بد أنهما في السن نفسها، لكن مرافقي يبدو شاباً منذ الآن، بجسمه الذي اكتمل تشكله كأنه منحوت من رخام؛ أما إيثان فهو أخرق نحيل بكتفين ضيقتين وحاجب مشقوق... يبدو طفلاً إلى جانب نيك. إنه طفل، أذكّر نفسي بهذا.

يقول وهو ينظر إلي: «أستطيع أن... هل يمكنني أخذها إلى الداخل؟».

ينظر إليَّ نيك بدوره فأومئ برأسي.

يقول موافقاً: «أظن هذا».

يخطو إيثان خطوة أخرى في اتجاهنا ويضع يده على ظهري. تمر لحظة أكون فيها محاطة بهما معاً، ويكونان متصلين بي كأنهما جناحان عند كتفي. يقول إيثان: «سأرافقك إلى الداخل إذا أردتِ ذلك». أنظر في عينيه، تلك العينين الزرقاوين اللامعتين. أهمس: «نعم».

يتركني نيك، ويتراجع. يتحرك فمي بكلمة شكر قبل أن أستطيع نطقها.

يجيبني: «أهلاً بك»، ثم يخاطب إيثان: «أظنها في حالة صدمة. ربما يكون مفيداً أن تعطيها بعض الماء». يبتعد حتى الشارع... «هل تريدين أن أتفقدك في وقت لاحق؟».

أهز رأسي نفياً. يرفع إيثان كتفيه ويقول: «ربما، فلنر أولاً كيف تسير الأمور».

يرفع نيك يده مودعاً: «لا بأس. مع السلامة يا د. فوكس».

ومع ابتعاده عنا، تسقط علينا زخة مطر فتبلل رأسينا وتتقافز حبات المطر على سطح مظلتي. يقول لي إيثان: «فلندخل البيت».

لا تزال نار موقد المطبخ مضطرمة كأنها أُشعلت قبل قليل. تركتها مشتعلة طيلة هذا الوقت. تصرف غير مسؤول أبداً!

إلا أن البيت يبدو لي دافئاً رغم هبوب رياح تشرين الثاني عبر الباب. نصير في غرفة المعيشة فيأخذ إيثان المظلة من يدي ويغلقها ثم يضعها في الزاوية. أما أنا فأسير متهادية في اتجاه الموقد، ألسنة اللهب تلوح لي، تناديني. أركع على ركبتيّ.

تمر لحظة لا أسمع فيها غير فرقعة النار. أسمع صوت تنفسي.

أحس نظرة عينيه على ظهري.

تستجمع ساعة الجد القديمة قواها وتدق ثلاث مرات.

يذهب إيثان إلى المطبخ. يملأ كأس ماء من المجلى ويعود بها إلي.

الآن، صار تنفسي عميقاً هادئاً. يضع الكأس على الأرض، إلى جانبي. أسمع صوت اصطدامها الخفيف بالأرض الحجرية.

أقول له: «لماذا كذبْت؟».

هنالك صمت. أحدق في ألسنة النار وأنتظر إجابته. بدلاً من الإجابة، أسمع تململه في مكانه. ألتفت إليه. لا أزال جاثية على ركبتيّ. ينحني فوقي، نحيلاً، وجهه متورد في ضوء النار.

أخيراً، يسألني وهو ينظر إلي: «في أي شيء كذبت؟».

أهز رأسي وأقول: «أنت تعرف ماذا؟».

صمت آخر. يغمض عينيه فتنتشر أهدابه مثل مروحة عند أعلى خديه: يبدو فجأة صغير السن كثيراً، أصغر حتى مما كان قبل ذلك.

أتابع السؤال: «من هي تلك المرأة؟».

يقول بصوت منخفض: «إنها أمي».

«لقد التقيت أمك».

«لا، أنت... أنت مشوَّشة»... يهز رأسه... «أنت لا تعرفين ما تتحدثين

عنه. هذا ما...» يتوقف عن الكلام... ثم ينهي جملته... «هذا ما يقوله أبي».

هذا ما يقوله أبي! أبسط راحتي يدي على الأرض، ثم أدفع نفسي إلى الأعلى حتى أقف. «هذا ما يقوله لي الجميع. حتى أصدقائي...» أبتلع ريقي... «بل حتى زوجي. لكنني أعرف ما رأيته».

«يقول أبي إنك مجنونة».

لا أقول شيئاً.

يتراجع خطوة: «يجب أن أذهب. لا يجوز أن أكون هنا».

أسير خطوة في اتجاهه: «أين هي أمك؟».

لا يقول شيئاً بل ينظر إليّ فحسب. ينظر بعينين متسعتين. كان ويسلي ينصحنا دائماً: استخدموا لمسة يد خفيفة. لكنني تجاوزت تلك النقطة.

«هل ماتت أمك؟».

لا شيء. أرى انعكاس ضوء النار في عينيه. في بؤبؤيهما شرارات صغيرة.

ثم يقول شيئاً لا أستطيع سماعه.

«ماذا قلت؟».

أنحني في اتجاهه فأسمعه يهمس كلمتين اثنتين: «أنا خائف».

وقبل أن أتمكن من الإجابة، أراه يندفع إلى الباب فيفتحه. يتأرجح الباب، ثم أسمع أنين مفصلات الباب الخارجي، وأسمع صوت إطباقه.

أظل واقفة عند الموقد، حرارته على ظهري، وصقيع الصالة أمامي.

64

دفعت الباب فأغلقته، ثم رفعت كأس الماء عن الأرض وأفرغتها في المغسلة. ترن زجاجة الميرلو على حافة الكأس عندما أسكب النبيذ فيها. ترن من جديد. يداي ترتجفان.

أشرب بعمق، وأفكر بعمق. أحس أنني مرهقة، وأحس ببعض الفرحة

أيضاً. لقد خرجت من البيت ـ مشيت في الخارج ـ ولا أزال حية. أتساءل عما قد يقوله د. فيلدينغ. أتساءل عما قد أقوله له. قد لا أقول له شيئاً! يتجهّم وجهي. ثم إنني صرت الآن أعرف المزيد. المرأة مذعورة. وإيثان خائف. إن جين... لا بأس. لست أعرف شيئاً عن جين. لكنني أعرف الآن أكثر مما كنت أعرفه. أحس كما لو أنني كسبت بيدقاً في لعبة الشطرنج. أنا... آلة التفكير!

أشرب بعمق أكبر. أنا... آلة الشرب.

أشرب حتى تتوقف أعصابي عن الاختلاج. مرت ساعة بحسب ساعة الجد. أنظر إلى عقرب الدقائق يمسح وجهها وأتخيل عروقي تمتلئ نبيذاً، نبيذاً جريئاً مشبِعاً، يبرّدني، ويقوّيني. ثم أندفع إلى الأعلى. أرى القط على فسحة السلم. يلاحظ وجودي فينسلّ إلى غرفة المكتب. أتبعه إليها.

تضيء شاشة هاتفي على المكتب. لا أعرف هذا الرقم. أضع الكأس من يدي، ثم أمر بإصبعي على الشاشة بعد الرنة الثالثة.

«د. فوكس...» صوت عميق كأنه خندق... «معك المحقق ليتل. لقد التقينا يوم الجمعة... إن كنت تتذكرين هذا».

أجلس على حافة المكتب. أدفع الكأس حتى أبعدها عن متناولي: «نعم، أتذكر».

«جيد، جيد...» يبدو مبتهجاً. أتخيله الآن وهو يستند إلى الخلف في كرسيه واضعاً ذراعه تحت رأسه... «كيف حال دكتورتنا؟».

«أنا بخير. شكراً لك».

«كنت أتساءل إن كنت ستتصلين بي قبل الآن».

لا أقول شيئاً.

«حصلت على رقم هاتفك من مكتبك القديم، وأردت أن أطمئن عليك. هل أنت بخير؟»

قلت له قبل قليل إنني بخير: «أنا بخير. شكراً لك».

«جيد، جيد. وما أخبار أسرتك؟».

«جيدة. كل شيء جيد».

«جيد، جيد».

ما آخر هذا الكلام؟

تتغير نبرة صوته في تلك اللحظة: «هذا ما أريد قوله لك: تلقينا مكالمة هاتفية من جارتك قبل قليل».

طبعاً. العاهرة! لا بأس، لقد حذرتني. عاهرة صادقة! أمد يدي فأمسك بكأس النبيذ.

«تقول إنك لحقت بها إلى ذلك المقهى الذي في شارعكم». ينتظر استجابة مني، لكني لا أقول شيئاً... «والآن... لا أظن أنك قد اخترت هذا اليوم تحديداً لكي تذهبي وتشربي فنجان قهوة هناك. وأفترض أن لقائك بها لم يكن مصادفة».

رغماً عن نفسي، أجد أنني أكاد أبتسم.

«أعرف أنك تمرّين بمرحلة صعبة. كان هذا الأسبوع قاسياً عليك». أجد أنني أومئ برأسي. ما ألطف هذا الرجل! يمكنه أن يصير طبيباً نفسياً جيداً... «لكن قيامك بأشياء من هذا النوع ليس مفيداً لأحد، بما في ذلك أنت».

لم يتفوّه باسمها بعد. هل سينطق اسمها؟... «ما قلته يوم الجمعة كان مزعجاً حقاً لبعض الناس. أقول لك، بيني وبينك فقط، إن السيدة روسل...». ها قد قال اسمها... «تبدو شديدة الانزعاج حقاً».

أقول في نفسي: هل هي شديدة الانزعاج؟ إنها تمثل دور امرأة ميتة.

«ولا أظن أيضاً أن ابنها كان سعيداً جداً بذلك». أفتح فمي وأقول: «لقد تحدثت...».

«وهكذا، فإنني...» يتوقف عن الكلام... «ماذا قلت؟».

أشد على شفتي: «لم أقل شيئاً».

«هل أنت واثقة من هذا؟».

«نعم».

يتابع كلامه: «أريد أن أطلب منك شيئاً... تعاملي مع الأمور بروية، بعض الوقت. سررت عندما سمعت أنك خرجت من البيت...» هل هذه نكتة؟ «كيف حال قطك؟ ألا يزال على موقفه مني؟»

لا أجيبه بشيء. ولا يبدو عليه أنه لاحظ ذلك.

«وما أخبار المستأجر عندك؟».

أعضّ على شفتي. في الطابق الأرضي، لا يزال السلم في مكانه خلف باب القبو. وتحت الأرض، رأيت قرط امرأة ميتة على الطاولة الصغيرة إلى جانب سرير ديفيد.

تشتد قبضة يدي على الهاتف. أنا في حاجة إلى سماع هذا مرة ثانية: «أيها المحقق. أأنت لا تصدقني حقاً؟».

صمت طويل. ثم يتنهّد تنهّداً عميقاً متقطعاً: «إنني آسف يا دكتورة فوكس. أظن أنك مقتنعة بما تقولين إنك شاهدته. لكنني... لا أصدق».

لم أكن أتوقع شيئاً آخر. لا بأس. لا بأس.

«أريد أن أقول لك... إذا رغبت في الحديث مع شخص ما، فإن لديك هنا من يمكنه مساعدتك؛ أو من يمكنه الاستماع إليك فحسب».

«أشكرك أيها المحقق». يبدو صوتي جامداً.

صمت آخر: «لا أريد منك إلا أن تأخذي الأمور برويّة. اتفقنا؟ سوف أخبر السيدة روسل بأنني تحدثت معك».

أكشّر. ثم أنهي المكالمة قبل أن يتمكن من إنهائها.

65

أرتشف نبيذي، وأمسك بالهاتف، ثم أسير إلى الممر. أريد أن أنسى مكالمة ليتل. وأريد أن أنسى كل ما يتعلق بأسرة روسل.

سأزور موقع Agora. وسوف أتفقد رسائلي. أنزل إلى الأسفل، وأضع الكأس في مغسلة المطبخ. أذهب إلى غرفة المعيشة، وأُدخل كلمة المرور إلى هاتفي.

كلمة مرور غير صحيحة.

أقطب حاجبي. أصابع خرقاء. أدخل الرقم مرة ثانية.

كلمة مرور خاطئة.

«ماذا؟» أسأل نفسي بصوت مرتفع. صارت غرفة الجلوس مظلمة وقت الغسق. أمد يدي إلى المصباح فأضيئه. أجرب مرة أخرى، أدخل الرقم بانتباه، أنظر إلى أصابعي: 0 - 2 - 1 - 4.

كلمة مرور غير صحيحة.

يهتز الهاتف. لقد أقفل. لا أفهم شيئاً.

متى أدخلت هذا الرمز آخر مرة. لم أكن في حاجة إليه عندما أجبت على اتصال ليتل. ولقد استخدمت سكايب في الحديث مع بوسطن في وقت سابق من هذا اليوم. ضباب يلف ذهني.

داهمني انزعاج شديد فسرت عائدة إلى غرفة المكتب، إلى كمبيوتري. من المؤكد أن بريدي الإلكتروني ليس مقفلاً! أكتب رمز الدخول إلى الكمبيوتر، ثم أدخل صفحة Gmail. أرى اسم المستخدم، اسمي المخزّن في ذاكرة الجهاز، يظهر على الشاشة. أكتب رمز المرور ببطء.

نعم... لقد دخلت. عملية استعادة إمكانية الدخول إلى هاتفي سهلة. خلال ستين ثانية، يصير الرمز البديل في علبة الوارد في بريدي. أدخل الرمز الجديد على شاشة الهاتف، ثم أعود إلى 0 - 2 - 1 - 4.

لم ينجح الأمر! ماذا يحدث؟ لعل مدة الرمز قد انتهت... هل يحدث هذا؟ هل قمت بتغيير الرمز؟ أو... هل كانت أصابعي مضطربة؟ أقضم أظافري. لم تعد ذاكرتي مثلما كانت من قبل. ولم تعد قدراتي الحركية مثلما كانت.

أحدّق في كأس النبيذ.

أجد بضع رسائل تنتظرني في صندوق البريد الوارد. واحدة تحمل رجاء من أمير نيجيري، والبقية من أفراد مجموعتي في الموقع. أنفق ساعة في الرد على هذه الرسائل. في الآونة الأخيرة، غيّر Mitzi، في مانشستر،

أدوية القلق التي يتناولها. وKala88 تخبرني بخطبتها. وGrannyLizzie يبدو لي أن ولديها لا يزالان عندها، تمكنت من السير بضع خطوات خارج البيت هذا العصر. وأنا أيضاً... أقول لنفسي.

تجاوزتْ الساعة السادسة. يداهمني الإرهاق فجأة، يغمرني. أنحني فوق الطاولة مثل وسادة مهترئة فأريح جبهتي على سطحها. إنني في حاجة إلى النوم. سأضاعف جرعة تيمازيبام هذه الليلة. وغداً يمكنني أن أشتغل على إيثان.

كان أحد أعز مرضاي على قلبي قد اعتاد أن يبدأ الحديث في كل جلسة علاجية بالكلمات التالية: «هذا أمر غريب جداً، لكن...» ثم ينتقل إلى وصف أمور يتبين أنها عادية إلى أقصى حد. لكن هذا ما أشعر به الآن. إنه أمر من أغرب الأشياء. إنه أغرب الأشياء على الإطلاق، لكن ما كان يبدو ملحاً قبل لحظة واحدة... ما كان يبدو ملحاً منذ يوم الخميس، قد انكمش وتضاءل مثلما تتضاءل شعلة أصابها البرد. جين. إيثان. تلك المرأة. بل حتى ألستير.

إنني أستخدم آخر ما لديَّ من وقود. أسمع تهكم إد: وقود العنب. ها ها!

سوف أتحدث معهما أيضاً. سوف أكلمهما غداً. إد وأليفيا.

الاثنين

8 تشرين الثاني

66

«إد».

وبعد لحظة من ذلك، أو ربما بعد ساعة: «أوليفيا!».

كان صوتي همساً واهناً. أستطيع رؤية هذا... روح صغيرة تعوم أمام وجهي، تعوم مثل شبح أبيض في الهواء الصقيعي.

أسمع في مكان ما، في مكان قريب، صوت شيء يزقزق من غير انقطاع، مرة بعد مرة... نغمة واحدة كأنها نداء طائر أصابه الخرف. ثم، يتوقف الصوت.

يعوم بصري في مياه جَزْرٍ أحمر. ينبض الألم في رأسي. تؤلمني أضلاعي. أحس ظهري محطماً. وأحس حلقي جافاً، محترقاً.

لقد صفعتني الوسادة الهوائية على جانب وجهي. وصار لون لوحة العدادات في السيارة قرمزياً. اندفع الزجاج الأمامي صوبي، متهاوياً، ثم تحطّم وصار غباراً.

تجهّم وجهي. ومن خلف عيني، ظلت عملية ما جارية، أعادت تشغيل نفسها مثلما يحدث عندما يتوقف نظام ما لحظة، أو عندما يتشوّش عمل آلة.

تنفست، واختنقت. سمعت نفسي أئن ألماً. أدرت رأسي فشعرت بقمة

جمجمتي تحتك بالسقف. شيء غير معتاد، أليس كذلك؟ كان اللعاب يسيل على سقف فمي. كيف كان...

توقف الأزيز. كانت السيارة مقلوبة بنا.

أحسست بالاختناق من جديد. طارت يداي إلى الأسفل، وانغرستا في النسيج المحيط برأسي كأنهما قادرتان على رفع السيارة. على إعادتي إلى وضعية صحيحة من جديد.

سمعت نفسي أبكي، أكاد أغص بلعابي.

أدرت رأسي أكثر. رأيت إد ساكناً. وجهه إلى الناحية الأخرى. رأيت دماً ينساب من أذنه.

نطقت اسمه، أو حاولت أن أنطق اسمه... مقطع لاهث صغير في هذا البرد، غيمة صغيرة من دخان. كان حلقي متورّماً. حزام المقعد مشدود بقوة على عنقي.

لعقت شفتي. سقط لساني في حفرة في لثتي العلوية. لقد سقط أحد أسناني.

كان حزام المقعد يحز خصري مثل سلك مشدود. ضغط على قفله بيدي اليمنى، ثم ضغطت بقوة أكبر ولهثت عندما سمعت صوت انفتاحه. انزاح الحزام عن جسدي فسقطت على سقف السيارة.

ذلك الصوت الحاد. صوت الإنذار المتكرر الخاص بحزام المقعد. لقد توقف الآن.

تدفقت أنفاسي من فمي مثل نافورة حمراء في ضوء لوحة العدادات بينما وضعت يديّ على السقف وضغطت بكل قوتي، ثم أدرت رأسي.

كانت أوليفيا على المقعد الخلفي، مثبتة بالحزام، معلقة من الحزام هناك. تدلت خصلات شعرها المربوط خلف رأسها إلى الأسفل. أملت رقبتي جانباً وضغطت بكتفي على السقف ومددت يدي حتى لمست وجنتها. ارتعشت أصابعي.

جلدها بارد كالجليد.

طويت مرفقي ودفعت بساقي إلى أحد الجانبين فسقطتُ على الفتحة الزجاجية في سقف السيارة. طقطق الزجاج من تحتي. كافحت لأصحح وضعيتي وراحت ركبتاي تصطدمان بسقف السيارة وأنا أجرجر نفسي في اتجاه أوليفيا وقلبي يضرب أضلاع صدري. وضعت يديّ على كتفيها. هززتها.

رحت أزعق.

رحت أهتز. وراحت تهتز معي. شعرها المتدلي يتأرجح.

صرخت من حنجرة محترقة: «أوليفيا». فأحسست بطعم الدم في فمي، على شفتي.

ناديتها: «أوليفيا» والدموع تجري على خدي.

همست لها: «أوليفيا»، فانفتحت عيناها.

توقف قلبي لحظة.

نظرت إليّ، نظرتْ في داخلي، وقالت لي كلمة واحدة: «ماما».

ضغطت بإصبعي على قفل حزامها فانفتح وانسحب الحزام مطلقاً هسيساً، بينما وضعت يدي الأخرى تحت رأسها وهي تسقط، ثم طوّقت جسدها بذراعي. أطرافها تتراقص وتتصادم مثلما تفعل قضبان الجرس الصيني المعدنية عندما تهزها الريح. أحسست أن إحدى ذراعيها مرتخية داخل كمها.

قلبتها على سقف السيارة. قلت لها: «ششش». رغم أنها لم تصدر أي صوت، رغم أن عينيها كانتا مغمضتين من جديد. بدت كأنها أميرة.

هززت كتفها: «أوليفيا»، فنظرت إليَّ مرة أخرى. كررت: «أوليفيا». حاولت أن أبتسم لكن وجهي كان خدِراً.

تحركت في اتجاه الباب، وأمسكت بقبضته، ثم جذبتها إلي، جذبتها مرة أخرى. سمعت صوت انفتاح القفل. دفعت نافذة الباب، ضغطت على زجاجها بأصابعي. انفتح الباب من غير صوت، كأنه انزلق في الظلام. مددت جسمي إلى الخارج وضغطت بيدي على الأرض. أحسست

بالثلج الحارق على جلد راحتي. غرست مرفقي في الثلج، ثم دفعت بركبتي. شددت نفسي. صار جذعي خارج السيارة، صار ممدداً في الصقيع. صدرت عن الثلج تحتي فرقعة خفيفة. واصلت الدفع. خرج حوضي، ثم فخذاي، ثم ركبتاي، ثم قدماي. علق طرف أسفل بنطلوني بالمشجب الذي فوق نافذة السيارة فحررت نفسي منه وخرجت.

انقلبت على ظهري. سرى الألم في ظهري مثل تيار كهربائي. عببت الهواء عباً، ثم فزعت عندما مال رأسي جانباً كأن رقبتي قد انكسرت.

لا وقت. لا وقت. تحاملت على نفسي، وأرغمت ساقيّ على العمل فركعت إلى جانب السيارة. نظرت من حولي.

التفتُّ إلى الأعلى ودرت بنظري من حولي.

كانت السماء وعاء عميقاً كله نجوم وفضاء. وبدا القمر قريباً، كبيراً، متألقاً كأنه شمس. كان الوادي في الأسفل مرصّعاً بالظلال وبالنور، واضحاً مثل لوحة مطبوعة. توقف هطول الثلج تقريباً، وما عادت هنالك إلا ندف شاردة تعوم في الهواء. بدا ذلك كله كأنه عالم جديد.

ومن حولي صمت.

هدوء. هدوء تام، مطلق. لا نسمة ريح، ولا اهتزاز أغصان. فيلم صامت، صورة ساكنة. استدرت وأنا جاثية على ركبتي فسمعت صوت تكسر الثلج تحتهما.

عودة إلى الأرض. كانت السيارة مائلة إلى الأمام، وكان أنفها مسحوقاً على الأرض ومؤخرتها مرتفعة إلى الأعلى قليلاً. رأيت أسفلها مكشوفاً كأنه بطن حشرة. ارتعد جسدي. سرى ألم حاد في عمودي الفقري.

دخلت عبر باب السيارة من جديد وأمسكت أطراف سترة أوليفيا بأصابعي، ثم جذبتها. جذبتها فوق فتحة السقف الزجاجية، ثم مررتها من خلف مسند المقعد وأخرجتها من السيارة. لففتها بذراعيَّ فاسترخى جسدها الصغير كخرقة بينهما. قلت اسمها، ثم قلته من جديد. فتحت عينيها.

قلت لها: «مرحباً».

أسدلت جفنيها.

مددتها إلى جانب السيارة، ثم أبعدتها عنها خوفاً من احتمال انقلابها عليها. مال رأسها فوق كتفها فأمسكته... برقة... برقّة... وأدرت وجهها صوب السماء من جديد.

توقفت مجدداً. رئتاي تعملان كأنهما منفاخ. نظرت إلى طفلتي؛ ملاك ممدد على الثلج. لمست ذراعها المصابة فلم تظهر أيّ ردة فعل. لمستها من جديد، بقوة أكبر، فتقلص وجهها ألماً.

جاء دور إد.

زحفت داخل السيارة من جديد. لكنني أدركت أنني لا أستطيع سحبه خارج السيارة. تراجعت دافعة بساقيّ إلى الخلف وخرجت من السيارة. أمسكت بمقبض الباب الأمامي. ضغطته. ثم ضغطته من جديد. نجحت أخيراً، وسمعت صوت انفتاح القفل. انفتح الباب كله.

وهناك كان إد: «جلده أحمر في الضوء المتسرب من لوحة العدادات، ضوء يشبه ضوء سيارات الإسعاف. استغربت وجود ذلك الضوء وكيف ظلت البطارية تعمل بعد تلك الصدمة. فككت حزام المقعد عنه. مال في اتجاهي. كأنه بكرة تدور أو كأنه عقدة انحلّت. أمسكته من تحت إبطيه.

ثم سحبته. اصطدم رأسي بعصا السرعة؛ سحبت جسمه على سقف السيارة. وعندما صرنا خارجها، رأيت وجهه وقد كساه الدم.

وقفت، ثم تابعت سحبه وأنا أخطو إلى الخلف مترنّحة إلى أن صار إلى جانب أوليفيا. هناك وضعته، إلى جانبها. تحركت أوليفيا، أما هو فلم يتحرك. أمسكت بيده، ثم رفعت كمه عن رسغه وضغطت بأصابعي على جلده. أحسست نبضه يتردد تحت أصابعي.

صرنا خارج السيارة كلنا، تحت امتداد النجوم الذي لا يتهي، على أرض الكون. سمعت صخب قاطرة منطلقة... إنها أنفاسي. كنت ألهث. انساب العرق على جسدي، وبلل رقبتي.

ثنيت ذراعي محاولة الوصول إلى ظهري، ثم تحسّسته بحذر. تسلقت أصابعي عمودي الفقري كما لو أنها تتسلق سلّماً. كانت الفقرات بين لوحَيْ الكتف تلتهب ألماً.

شهيق وزفير. راقبت الأنفاس الواهنة المترددة في فم أوليفيا وفي فم إد.

استدرت. حاولت عيناي تقدير الارتفاع الذي بدا لي أنه يقارب مئة متر من جرفٍ رأسيٍّ، جرف يلوح بياضه ساطعاً تحت ضوء القمر. كان الطريق في مكان ما فوقنا، غير مرئي، لكن التسلق إليه مستحيل. لا سبيل إلى التسلق في أي اتجاه. لقد سقطت بنا السيارة واستقرت على حافة صخرية صغيرة بارزة عند خاصرة الجبل. وأما تحتنا وفوقنا، فلا شيء... نجوم، وثلج، وفضاء، وصمت.

هاتفي!

فتشت في جيوبي... جيوبي الأمامية والخلفية وجيوب معطفي... ثم تذكرت كيف أخذه إد، وكيف أبعده عني، وكيف سقط الهاتف على أرض السيارة بعد ذلك وراح يتراقص هناك متقلباً بين قدمي وذلك الاسم ظاهر على شاشته.

غصت في السيارة مرة ثالثة، ومسحت سقفها بيدي حتى وجدته مستقراً عند الزجاج الأمامي. شاشته سليمة. كانت صدمة لي أن أرى أنه لم يصَب بخدش: كان زوجي ينزف، وابنتي مصابة، وجسدي مضعضعاً، وسيارتنا الرياضية القوية محطمة، لكن الهاتف ظل سليماً لم يمسه سوء. كان شيئاً باقياً من زمن آخر، من أرض أخرى. نظرت إلى الساعة على تلك الشاشة، فرأيت أنها العاشرة وسبع وعشرون دقيقة. مضى على خروجنا عن الطريق نحو نصف ساعة.

كنت في داخل السيارة فنقرت بإصبعي على الشاشة، طلبت الرقم 911، ثم رفعت الهاتف إلى أذني وأحسست باهتزازه على خدي.

لا شيء. عبست.

أنهيت المكالمة، وخرجت من السيارة، ثم نظرت إلى الشاشة. لا توجد إشارة. ركعت في الثلج. طلبت الرقم من جديد.

لا شيء.

جرّبت مرتين بعد ذلك. لا شيء. لا شيء.

وقفت، ثم ضغطت على زر مضخم الصوت، ثم رفعت ذراعي في الهواء. لا شيء.

درت حول السيارة متخبطة في الثلج. جربت الاتصال من جديد. ثم جربت الاتصال من جديد. جربت الاتصال أربع مرات، ثماني مرات، ثلاث عشرة مرة. لم أعد أحصيها.

لا شيء. لا شيء. لا شيء.

صرخت. انفجر الصراخ خارجاً مني، حارقاً حنجرتي، محطماً الليل مثل لوح جليدي، ثم خبا وتلاشى في سرب من الأصداء. ظللت أصرخ حتى جف لساني، حتى خذلني صوتي.

صرت أدور في مكاني، حتى دوّخت نفسي. رميت بالهاتف إلى الأرض. رميت بنفسي على الثلج. رفعت الهاتف. كانت شاشته رطبة. ثم رميته من جديد، رميته مسافة أبعد. علا الذعر في داخلي. انقضضت على الهاتف. أخرجته من الثلج وطلبت الرقم من جديد.

لا شيء.

عدت إلى أوليفيا وإد. كانا راقدين هناك، جنباً إلى جنب، وكانا ساكنين متألقين في ضوء القمر.

شق النحيب طريقه إلى فمي كأنه متلهف إلى بلوغ الهواء... اخترق شفتي. تهاوت ركبتاي من تحتي، انثنتا مثل سكين قابلة للطي. سقطت إلى الأرض. زحفت حتى صرت بين زوجي وابنتي. وبكيت.

كانت أصابعي باردة مزرقّة عندما استيقظت. كانت قابضة على الهاتف. الساعة الثانية عشرة وثماني وخمسون دقيقة. أوشكت البطارية على النفاد؛ لم يبق فيها إلا أحد عشر بالمئة. قلت في نفسي إن هذا شيء

لا أهمية له لأنني غير قادرة على طلب رقم الطوارئ، غير قادرة على الاتصال مع أي كان.

لكنني حاولت، رغم ذلك. لا شيء.

أدرت رأسي جهة اليسار، ثم جهة اليمين: إد وأوليفيا إلى جانبيّ. تنفسهما ضحل، لكنه منتظم. وجه إد مبقع بالدم الجاف، ووجنتا أوليفيا عليهما خصل من شعرها. وضعت يدي على جبينها. إنه بارد. أليس من الأفضل أن نحتمي داخل السيارة؟ لكن، ماذا لو... لا أعرف... ماذا لو انقلبت بنا؟ ماذا لو انفجرت؟

جلست. ثم نهضت واقفة. نظرت إلى هيكل السيارة. جالت عيناي في السماء... القمر النضر والسماء المستحمة بالنجوم. وببطء، استدرت ناحية الجبل.

اقتربت منه، ثم أشهرت هاتفي وحملته أمامي كأنه عصا. وضعت إبهامي على الشاشة وضغطت على زر المصباح الكاشف. ضوء قوي؛ نجمة ضئيلة في يدي.

الواجهة الصخرية. رأيتها على ضوء الهاتف... مستوية، لا منفذ فيها. لا مكان أستطيع إدخال أصابعي فيه، ولا شيء أتمسك به، ولا عشبة، ولا غصن، ولا شفة صخرية... تراب وحصى فحسب، تراب وحصى على هيئة جدار. سرت على امتداد جرفنا الصغير وبحثت في كل شبر منه. صوّبت الضوء إلى الأعلى إلى أن ضاع في الليل.

لا شيء. صار كل شيء لا شيء.

عشرة بالمئة من البطارية. الواحدة وإحدى عشرة دقيقة.

كنت مولعة بالمجموعات النجمية عندما كنت بنتاً صغيرة؛ وكنت أدرسها وأرسم خريطة السماء كلها على لوحات ورقية كبيرة وأنا مستلقية في حديقة بيتنا الخلفية في ليالي الصيف، وزهيرات زرقاء غافية من حولي وعشب ناعم تحت مرفقي. والآن، أراها متجمهرة فوقي... تلك الكويكبات الشتائية لامعة في السماء: الجوزاء، وضاءة متراصّة؛

ومجموعة الكلب الأكبر تتبختر من خلف الجوزاء؛ والثريا بنجومها المتعاقبة مثل سلسلة جواهر على كتف كوكبة الثور. برج الجوزاء. وحامل رأس الغول. والقيطس.

رحت أعدد أسماءها هامسة، بصوتي المجروح كأنني أتلو تعويذة على أوليفيا وإد اللذين وضعت رأسيهما على صدري فصارا يرتفعان وينزلان مع تنفُّسي. كانت أصابعي تداعب شعر رأسيهما، وشفتيه ووجنتها.

هذه النجوم كلها، النجوم الصقيعية.. تحتها كنا نرتجف. وتحتها نمنا.

الساعة الرابعة وثلاث وأربعون دقيقة. استيقظت مرتجفة. نظرت إليهما... أوليفيا أولاً ثم إد. وضعت بعض الثلج على وجهه، فلم يتحرك. دلكت جلده بالثلج منتزعة الدم الجاف عنه فتحرك قليلاً. هززت كتفه وناديته باسمه. لا إجابة. فحصت نبضه من جديد. إنه أضعف، وأكثر سرعة. تقلصت معدتي. تذكرت أننا لم نتناول طعام العشاء. لا بد أنهما جائعان كثيراً.

دخلت السيارة حيث كان ضياء لوحة العدادات قد بدأ يخبو، بل كاد يموت. وهناك وجدتها ملقاة عند النافذة الخلفية: الحقيبة القماشية التي وضعت فيها علب العصير وسندويتشات زبدة الفستق. انطفأ ضوء اللوحة تماماً عندما مددت يدي لأمسك بحبل الحقيبة.

خرجت من السيارة. اقتطعت كسرة خبز وقربتها من أوليفيا. داعبت وجنتها بأصابعي وناديتها ففتحت عينيها. «خذي»، ووضعت الخبز في فمها. انفتحت شفتاها قليلاً فأمسكتا باللقمة كأنها سابح موشك على الغرق. غرقت اللقمة إلى لسانها. نزعت القشة الملصقة على علبة العصير، ثم طعنتها بها فتسرب عصير الليمون منها وسقطت قطراته على الثلج. وضعت ذراعي تحت رأس أوليفيا ورفعت وجهها إلى القشة، ثم ضغطت على العلبة فتدفق العصير في فمها. شَرَقت به.

رفعت رأسها أكثر، فبدأت تشرب العصير مثلما ترتشف نحلة رحيق

الزهور. وبعد هنيهة، استراح رأسها على يدي وأغمضت عينيها. مددتها برفق على الأرض.

جاء دور إد. ركعت إلى جانبه، لكنه لم يفتح فمه، بل حتى لم يفتح عينيه. وضعت قطعة خبز على شفتيه وداعبت خده لعله يفتح فمه، لكنه ظل من غير حركة. تصاعد الذعر في داخلي. وضعت رأسي على وجهه. أحسست بتيار تنفسه. كان ضعيفاً، لكنه مستقر. أحسست دفئه على جلدي. تنفَّست الصعداء.

لا بد أنه قادر على الشرب إن لم يكن قادر على الأكل. دلكت شفتيه الجافتين بقليل من الثلج ثم أدخلت القشة في فمه. ضغطت بأصابعي على العلبة، لكن العصير انساب خارجاً من جانبي فمه ونزل إلى ذقنه. تجمد على شعرات ذقنه النابتة قليلاً. قلت راجية: «هيا، هيا» لكن السائل ظل يتسرَّب من فمه.

سحبت القشة ووضعت قبضة ثلج أخرى على شفتيه، ثم وضعت الثلج على لسانه. تركته يذوب وينزل إلى حلقه.

جلست على الثلج من جديد، وشربت بعض العصير. كان عصير الليمون شديد الحلاوة. أنهيت العلبة.

أتيت من السيارة بحقيبة قماشية أخرى فيها بنطلونات التزلج وسترات فرائية لها قبعات. أخرجتها، وغطيت أوليفيا وإد بها.

رفعت رأسي ونظرت إلى السماء. كانت هائلة إلى حد غير معقول.

نزل الضوء على جفني كأن له وزناً. فتحت عيني.

زاغ بصري. امتدت فوقنا سماء مستمرة لا نهاية لها، بحر عميق من سحُب. تساقطت ندف ثلج كبيرة، راحت تصطدم بجلدي. نظرت إلى الهاتف. إنها السابعة وثمانٍ وعشرون دقيقة صباحاً. بقي خمسة بالمئة من طاقة البطارية.

كانت أوليفيا قد تحركت قليلاً في نومها. وتوسدت ذراعها اليسرى بينما ظلت اليمنى ممتدة إلى جانبها. كان خدها ملتصقاً بالأرض. قلبتها

على ظهرها ومسحت الثلج عن خدها. وبلطف، دلكت أذنها قليلاً حتى أدفئها.

لم يتحرك إد. انحنيت على وجهه. لا يزال يتنفس.

كنت قد وضعت الهاتف في جيب بنطلوني. أخرجته الآن، أردت أن أجرب حظي، فطلبت الرقم 911 من جديد. انقطعت أنفاسي لحظة عندما تخيلت أنه يرن. بل كدت أسمع ذلك الرنين يتردد في أذني.

لا شيء. حدقت في الشاشة.

حدقت في السيارة المقلوبة على ظهرها، العاجزة كأنها حيوان جريح. بدت لي كأنها مدركة أنها في وضع غير طبيعي، كأنها محرَجة.

نظرت إلى الوادي من تحتنا، إلى قمم الأشجار فيه، إلى نهر فضي صغير يلُوح في البعيد.

وقفت. درت في مكاني.

ارتفع الجبل شاهقاً فوقي. رأيت في ضوء النهار أنني أخطأت تقدير مسافة سقوطنا. تفصلنا عن الطريق الذي فوقنا مسافة لا تقل عن مئتي متر. رأيت أيضاً أن اجتياز الجرف مستحيل تماماً؛ كان هذا أكثر وضوحاً مما رأيته في الليل. أعلى فأعلى فأعلى... تسلق نظري إلى أن بلغ القمة.

ارتفعت يدي إلى عنقي... سقطنا هذه المسافة كلها... ولا نزال أحياء!

ملت برأسي أكثر حتى أرى السماء. ضاع نظري في مداها. بدت لي واسعة جداً، كبيرة جداً. كأنني صرت قادرة على رؤية نفسي من الخارج، من بعيد... صرت قادرة على رؤية نفسي ضئيلة، ذرة صغيرة. استدرت فتمايلت وكدت أقع.

زاغت عيناي. وخزني شيء في ساقي.

هززت رأسي وفركت عيني. تراجع العالم وعاد إلى حدوده المعقولة.

غفوت بضع ساعات إلى جانب إد وأوليفيا. وعندما استيقظت وجدت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وعشر دقائق. كان الثلج ينهمر علينا،

والريح تفرقع في الأعلى كما تفرقع السياط. ثم انفجر هدير رعد منخفض في مكان قريب. مسحت الثلج عن وجهي ونهضت واقفة على قدمَيْ.

جاءني تشوُّش الرؤية نفسه، شيء مثل موجةٍ صغيرة في الماء، لكن ركبتاي انطبقتا معاً في تلك اللحظة كأن مغناطيساً جذبهما. بدأت أتهاوى إلى الأرض. هتفت بصوت حانقٍ متقطع: «لا». استندت إلى الأرض الثلجية بيدي وحاولت النهوض.

ماذا أصابني يا ترى؟

لا وقت لدي. لا وقت لدي. دفعت الأرض حتى وقفت. رأيت إد وأوليفيا عند قدمي. كاد الثلج يغمرهما.

بدأت أجرجرهما إلى السيارة.

كيف مر الوقت مسرعاً هكذا؟ لقد بدا لي خلال السنة التي أعقبت ذلك أن الشهور مرت أسرع من تلك الساعات التي أمضيتها مع إد وأوليفيا في تلك السيارة المنقلبة عندما كان الثلج يعلو عند النوافذ مثل مد البحر، عندما راح زجاج السيارة الأمامي المتكسّر يطقطق وينحني تحت ثقل هذا البياض كله.

غنيت لها أغاني البوب وأناشيد روضة الأطفال، وألحاناً اخترعتها أيضاً بينما راح الضجيج في الأعلى يتصاعد وراح ضياء النهار يخبو شيئاً فشيئاً. تفحصت تلافيف أذنها، تحسستها بإصبعي، وهمهمت بتلك الأغاني فيها. طوقته بذراعي وشبكت ساقي بساقيه وضممت كفيه بين كفيّ. التهمت سندويتشاً وشربت علبة عصير. فتحت زجاجة نبيذ أيضاً، إلا أنني تذكرت أن شرب النبيذ الآن سيصيبني بالجفاف. لكنني كنت راغبة في شرب النبيذ، كنت راغبة فيه. أحسست كما لو أننا تحت الأرض. مختبئان في مكان سري مظلم، في مكان محميٍّ من العالم. وما كنت أعرف موعداً لخروجنا، وما كنت أعرف كيف سأخرج. إذا...

مات هاتفي بعد ذلك. نمت في الثالثة وأربعين دقيقة بعد الظهر. بقي من البطارية اثنان بالمئة؛ وعندما استيقظت، كانت شاشته مظلمة.

كان العالم صامتاً من حولنا باستثناء صوت الريح وصوت تنفس أوليفيا الصعب وطقطقة واهية من حنجرة إد. أما أنا، فكان نحيبي يجري سيولاً في مكان ما داخل جسدي.

هدوء. هدوء مطلق.

كنت في رحم السيارة المغلق. وكانت عيناي زائغتين. لكني رأيت نوراً يتسرب إلى السيارة، ورأيت ألقاً باهتاً خلف زجاجها. وسمعت الصمت مثلما سمعت الضجيج من قبل. لقد سكنت السيارة كأنها شيء حيٌّ.

حركت نفسي ومددت يدي إلى مقبض الباب. سمعت صوت انفتاح القفل، لكنني لم أستطع فتح الباب.

لا.

جثوت على ركبتي، ثم استلقيت على ظهري المتألم ودفعت الباب بقدمي. تحرك الباب قليلاً فأزاح الثلج، لكنه توقف. رفست النافذة، رحت أضربها بعقبي قدمي. انفتح الباب بصعوبة. واندفع بعض الثلج إلى داخل السيارة. زحفت على بطني حتى خرجت. كانت عيناي مغمضتين في مواجهة الضوء. وعندما فتحتهما رأيت الفجر يغلي فوق الجبال البعيدة. انتصبت على ركبتي وتفحصت العالم الجديد الذي حولي: الوادي الغارق في البياض، وذلك النهر البعيد، وبساط الثلج من تحتي.

ترنحت وأنا جاثية على ركبتي. ثم سمعت فرقعة فأدركت أن زجاج السيارة الأمامي قد انهار تحت ثقل الثلج. وضعت قدماً في الثلج، ثم وضعت قدماً أخرى. وتحاملت على نفسي إلى مقدمة السيارة فرأيت الزجاج منبعجاً إلى الداخل. عدت إلى المقعد الخلفي، دخلت السيارة من جديد. سحبتهما إلى الخارج مرة أخرى: أوليفيا أولاً، ثم إد. ومن جديد وضعتهما على الأرض ممدَّدين جنباً إلى جنب.

وقفت فوقهما وأنفاسي غيمة بخار أمام وجهي فجاءني تشوش الرؤية من جديد. بدت لي السماء كأنها تطبق عليّ، تضغطني. سقطتُّ إلى الأرض؛ عيناي مغمضتان بقوة، وقلبي يضرب عنيفاً.

زعقت... صرخت صراخاً وحشياً. انقلبت على بطني وألقيت بذراعي حول أوليفيا وإد فشددتهما إلى جسدي وأنا أبكي في الثلج.

وعلى هذه الحال وجدونا.

67

عندما أستيقظُ صباح الاثنين، أجد نفسي راغبة في الحديث مع ويسلي.

كنت ملتفة بالأغطية في فراشي، وكان عليَّ أن أنزعها عن جسمي كأنني أقشر تفاحة. ضياء الشمس ينسكب عبر النوافذ وينير سريري. جلدي يشع حرارة. لدي إحساس غريب بأنني جميلة.

هاتفي على الوسادة، إلى جانبي. أتساءل لحظة، عندما سمعت أذني رنين الهاتف، إن كان ويسلي قد غير رقم هاتفه. لكنني سمعت صوته مدوِّياً، لا يمكن إيقافه، مرتفعاً كعهده دائماً: «اتركوا لي رسالة». كان هذا أمراً.

لم أترك له رسالة. بدلاً من ذلك، جربت الاتصال بمكتبه.

قلت للمرأة التي ردت على الهاتف: «معك آنا فوكس». بدا لي من صوتها أنها شابة.

«أنا فويبي يا دكتورة فوكس».

كنت مخطئة. قلت لها: «آسفة يا فويبي...» عملت معها سنة تقريباً. أعرف بالتأكيد أنها ليست شابة... «آسفة، لم أعرفك. لم أعرف صوتك».

«لا مشكلة في هذا. أظنني مصابة بالزكام. لعل هذا ما يجعل صوتي مختلفاً...» إنها مهذبة، هكذا هي فويبي دائماً... «كيف حالك؟».

«بخير، شكراً لك. هل ويسلي موجود؟»... فويبي تتقيد بالتعليمات تماماً، بالطبع، وسوف تناديه... على الأرجح.

تقول لي: «لدى د. بريل جلسات طيلة فترة الصباح. لكنني أستطيع إخباره بأن يتصل بك فيما بعد».

شكرتها وأعطيتها رقم هاتفي.

قالت لي: «صحيح. هذا هو الرقم الموجود عندي في الملف». ثم أغلقت الخط.

أتساءل إن كان سيتصل بي.

68

أتجه إلى الطابق السفلي. لا نبيذ اليوم، هكذا قررت!... أو، لا نبيذ هذا الصباح على أقل تقدير. يجب أن يظل ذهني صافياً من أجل الحديث مع ويسلي... من أجل د. بريل.

عليَّ الآن أن أقوم بالأعمال حسب ترتيب أولوياتها: أمرُّ على المطبخ فأجد أن السلم لا يزال كما تركته، لا يزال على وضعه المائل خلف باب القبو. في ضوء النهار، في هذا الضوء المتألق إلى حد الانفجار، بدا لي وضع السلم سخيفاً، مضحكاً، لأن ديفيد قادر على إسقاطه إذا دفع الباب بكتفه. تسلل الشك إلى عقلي، لحظة واحدة: إن لديه قرط نسائي على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره؛ فماذا؟ قال لي إد: أنت لا تعرفين إن كان هذا القرط لها! كلامه صحيح. ثلاث لؤلؤات صغيرة... أظن أن لديّ قرطاً مماثلاً، أنا أيضاً.

أنظر إلى السلم كما لو أنه قادر على السير على سيقانه الطويلة المصنوعة من الألمنيوم. أنظر إلى زجاجة النبيذ اللامعة على الطاولة وإلى جانبها مفتاح البيت معلقاً في مكانه. لا. لا شراب! ثم إن كؤوس النبيذ صارت الآن منتشرة في البيت كله (أين رأيت شيئاً مثل هذا؟ نعم: رأيته في فيلم التشويق «علامات». فيلم رائع لبرنارد هيرمان. ابنة مبكرة النضج ترمي كؤوس الماء في كل مكان بعد أن تشرب من كل منها حتى منتصفه. ثم ينتهي الأمر بهذه الكؤوس إلى صد غزاة قادمين من الفضاء. قال إد ساخراً: «لماذا يأتي الفضائيون إلى الأرض إن كانت لديهم حساسية من الماء؟»... كان ذلك في لقائنا الثالث).

إنني أُلهي نفسي. هيا إلى غرفة المكتب. أجلس إلى طاولة مكتبي،

وأضع هاتفي إلى جانب فأرة الكمبيوتر، ثم أصله بالكمبيوتر حتى أشحنه.
أنظر إلى الساعة على شاشة الكمبيوتر: بلغت تمام الحادية عشرة قبل لحظة. تأخر الوقت أكثر مما ظننت. لقد جعلني دواء تيمازيبام أنام حقاً. بل هي أدوية تيمازيبام في واقع الأمر، بصيغة الجمع.

أنظر من النافذة. إلى الناحية الأخرى من الشارع، أرى السيدة ميلر تخرج من باب بيتها (في موعدها تماماً)، ثم تغلق الباب خلفها من غير صوت. أرى أنها في معطف شتوي قاتم هذا الصباح. وأرى كيف تخرج أنفاسها من فمها كأنها سحابات صغيرة بيضاء في الهواء البارد. أنظر إلى توقعات الطقس على هاتفي. اثنتي عشرة درجة في الخارج. أقف، وأذهب إلى منظّم الحرارة عند فسحة السلم. لا أعرف شيئاً عن أخبار زوج ريتا ميلر. مر زمن طويل منذ رأيته آخر مرة. منذ بحثت عنه آخر مرة.

أعود إلى طاولتي ويمتد نظري عبر الغرفة، عبر الحديقة، يمتد إلى بيت روسل. ترتسم نوافذه فارغة. أقول في نفسي: إيثان، عليّ أن أصل إلى إيثان. رأيته مهتزاً ليلة أمس. قال لي: «إنني خائف»، واتسعت عيناه، كانتا شبه مجنونتين. طفل في شدة نفسية. واجبي أن أساعده. مهما يكن ما حدث لجين، وكيفما صارت، فإن من واجبي أن أحمي ابنها.

فما هي النقلة التالية. أعض على شفتي. أدخل منتدى الشطرنج. وأبدأ لعبة.

مرت ساعة بعد ذلك، وجاء بعد الظهر، ولم يسعفني عقلي بشيء.

لم أفعل غير التفكير وغير أن جعلت زجاجة النبيذ تُقبّل الكأس (قلت لنفسي إن الوقت قد تجاوز الظهر). كان السؤال يحوم في أعماق ذهني كأنه ضجيج يصاحب كل شيء أفعله: كيف أصل إلى إيثان؟ أنظر إلى بيتهم خلف الحديقة كل بضع دقائق. لا أستطيع الاتصال على هاتفه الأرضي، وليس لديه هاتف خاص به. لو حاولت أن أشير إليه بطريقة ما، فقد يراني أبوه ـ أو قد تراني تلك المرأة ـ قبل أن يراني. ليس لديه عنوان

بريد إلكتروني، هكذا قال لي، ولا حساب على فيسبوك. من الممكن أيضاً أن لا يكون موجوداً.

يكاد يكون شخصاً معزولاً مثلي.

أستند إلى ظهر الكرسي، وأرتشف النبيذ. أضع الكأس. أنظر إلى ضياء الظهر الزاحف بطيئاً على طوار النافذة. يصدر الكمبيوتر صوتاً لتنبيهي إلى أن دوري في اللعب قد جاء، فأحرك الحصان، أجعله يقفز فوق الرقعة. ثم أنتظر النقلة التالية.

بلغت الساعة على شاشة الكمبيوتر الثانية عشرة واثنتي عشرة دقيقة. لا شيء من ويسلي... سيتصل بالتأكيد! أم أن علي المحاولة من جديد؟ أمد يدي إلى الهاتف.

صوت رنة على الكمبيوتر: إنها رسالة على Gmail. أقبض على الفأرة، وأحرك المؤشر بعيداً عن لوحة الشطرنج. أنقر على أيقونة المتصفح، وبيدي الأخرى، أرفع كأس النبيذ إلى شفتي. يتألق النبيذ حلواً في ضياء الشمس.

أنظر من فوق حافة الكأس إلى صندوق البريد الوارد فأراه فارغاً إلا من رسالة واحدة. رسالة من غير عنوان، لكن اسم المرسل مكتوب بخط واضح.

جين روسل.

تصطك أسناني بجدار الكأس. أحدق في الشاشة. أحس أن الهواء من حولي قد اختفى فجأة.

تهتز يدي وأنا أضع الكأس على الطاولة فيتراقص النبيذ فيها. وأحس فأرة الكمبيوتر ثقيلة في يدي عندما أمسك بها. لقد توقف تنفسي.

ينتقل المؤشر إلى اسمها. جين روسل.

أنقر على الرسالة.

تنفتح الرسالة فأرى مساحة بيضاء. لا كلام فيها، لكنني أرى علامة

مشبك الورق الصغيرة. إنه ملف ملحق بالرسالة. أفتح الملف الملحق. تصير الشاشة سوداء. ثم يبدأ ظهور صورة تتشكل أمامي ببطء خطاً بعد خط. أعمدة منقطة بلون رمادي داكن.

أنا مذهولة. لا أزال غير قادرة على التنفس.

خط من الظلمة بعد خط على الشاشة مثل ستارة تهبط بحركة بطيئة. تمر لحظة. لحظة أخرى.

وعندها... عندها، تظهر مجموعة متشابكة من الأغصان؟ لا. شعر داكن متشابك في صورة مقرّبة كثيراً.

خط منحنٍ من جلد أبيض.

ثم عين، عين مغمضة. أراها في وضعية رأسية وقد أحاطت بها أهداب غير متناسقة.

إنه شخص في صفهم، شخص معهم. أنا أنظر إلى وجه نائم.

بل إنني أنظر إلى وجهي النائم.

تتسع الصورة فجأة ويقفز نصفها الأسفل ضمن مجال الرؤية... فأرى نفسي، أرى رأسي كله. خصلة شعر ممتدة فوق حاجبي. عيناي مغمضتان، وفمي مفتوح قليلاً. خدي غارق في الوسادة.

أهب واقفة على قدمي. ويسقط الكرسي خلفي.

لقد أرسلت لي جين صورتي وأنا نائمة. وببطء، تتضح الصورة في رأسي مثلما اتضحت الصورة على الشاشة أمامي، تتشكل خطاً بعد خط.

هذا يعني: كانت جين في منزلي خلال الليل!

كانت جين في غرفة نومي.

كانت جين تراقبني وأنا نائمة.

أقف هناك مذهولة، يحيط بي صمت مُصِمّ. وعندها أرى كتابة غير واضحة في زاوية الصورة السفلى، إلى اليمين. إنه التوقيت: تاريخ اليوم، الساعة الثانية ودقيقتان صباحاً.

هذا الصباح! الساعة الثانية من هذا الصباح! كيف يمكن أن يحدث هذا؟ أنظر إلى عنوان البريد الإلكتروني الظاهر على الشاشة بين قوسين إلى جانب اسم المرسل: (guesswhoanna@gmail.com) [1]

69

هذا يعني أن الرسالة ليست من جين. إنه شخص ما مختبئ خلف اسمها. شخص يسخر مني.

تطير أفكاري إلى ديفيد؛ تطير كالسهم صوب أسفل البيت، خلف ذلك الباب.

أنشب أظافري في جلدي، عبر ثوبي. وأقول لنفسي: فكّري! لا تستلمي للذعر. ظلي هادئة!

هل فتح ذلك الباب عنوة؟ لا... فقد وجدت السلم كما تركته يوم أمس.

هذا يعني... ترتعش يداي على جسد، أنحني إلى الأمام، وأبسط كفيّ على الطاولة.

هل يعني هذا أنه صنع لنفسه نسخة عن مفتاحي؟ لقد سمعت أصواتاً على فسحة السلم في تلك الليلة عندما أخذته إلى السرير، فهل فتّش البيت. هل سرق مفتاح البيت من المطبخ؟

لكني رأيت المفتاح في مكانه منذ ساعة فقط. وقد وضعت السلم خلف باب القبو بعد ذهابه بوقت قصير. لم يكن لديه طريق للعودة.

إلا إذا... لكن، طبعاً، هنالك طريق للعودة، طبعاً: كان في وسعه أن يدخل البيت متى شاء باستخدام نسخة عن المفتاح. نسخة مفتاح بدلاً من المفتاح الأصلي.

لكنه سافر يوم أمس. ذهبت إلى كونيكتيكت. هذا ما قاله لي على الأقل.

---

(1) (guesswhoanna)؛ احزري من يا آنا.

أنظر إلى صورتي على الشاشة، إلى أهداب عيني الممتدة كالهلال، وإلى خط الأسنان المرئي قليلاً من خلف الشفة العليا: نائمة... غير منتبهة إلى شيء أبداً، غير مسلحة بشيء أبداً. أرتجف. تصعد الحموضة إلى حلقي.

احزري من يا آنا؟ من عساه يكون إن لم يكن ديفيد... ولماذا يخبرني؟ ليس هذا شخصاً دخل بيتي من غير إذني، ودخل غرفة نومي، وصوّرني نائمة... بل هو شخص يريد أن أعرف هذا كله.

هذا شخص يعرف بقصة جين.

أمد كلتا يديّ إلى الكأس. أشربها، أشرب بعمق. أضعها، ثم أرفع هاتفي وأطلب رقماً.

يأتيني صوت المحقق ليتل متموجاً ناعماً مثل غلاف الوسادة. لعله كان نائماً! هذا غير مهم.

أقول له: «كان أحد ما في بيتي». أنا في المطبخ الآن، الهاتف في إحدى يدي، والكأس في اليد الأخرى. وأنا أحدِّق إلى باب القبو بينما أنطق هذه الكلمات بصوت مرتفع. هذه الكلمات غير المعقولة... تبدو كلماتي مسطحة، غير مقنعة. تبدو لي كلمات غير حقيقية.

يقول لي بصوت مرح: «د. فوكس! أهذه أنت؟».

«دخل شخص ما بيتي في الساعة الثانية صباحاً، هذا اليوم».

«انتظري...» أسمعه ينقل السماعة من أذن إلى أخرى... «هل تقولين إن أحداً كان في بيتك؟»

«في الثانية من صباح هذا اليوم».

«لماذا لم تبلغي عن هذا في وقت أبكر؟».

«لأنني كنت نائمة في ذلك الوقت».

يغدو صوته أكثر دفئاً. يظن أنه أوقع بي: «فكيف تعرفين أن أحداً ما كان في بيتك؟».

«لأنه التقط صورة لي، ثم أرسلها عبر البريد الإلكتروني».

صمت قصير: «صورة ماذا؟».

«صورتي أنا. نائمة».

يبدو صوته أكثر قرباً عندما يتكلم من جديد: «هل أنت واثقة من هذا؟».

«نعم».

«و... الآن... لا أريد أن أخيفك...».

«إنني خائفة منذ الآن».

«هل أنت واثقة من أن ذلك الشخص ليس في البيت الآن؟».

أتجمد. لم يخطر هذا في بالي.

«د. فوكس؟ آنا؟».

«نعم». من المؤكد أن ما من أحد هنا. أنا متأكدة لأنني كنت سأكتشف وجوده حتى هذا الوقت.

«هل تستطيعين... هل أنت قادرة على الخروج من البيت؟».

أكاد أضحك. لكني أهمس فحسب: «لا».

«لا بأس. فقط... ظلّي هناك. لا تفعلي... ظلّي هناك فقط. هل تريدين أن أبقى معك على الخط؟».

«أريد أن تأتي إلى هنا».

«نحن قادمون». نحن!

هذا يعني أن نوريلي ستكون معه. جيد... أود أن تكون هنا من أجل هذا. لأن هذا شيء حقيقي. هذا شيء لا يمكن إنكاره.

المحقق ليتل يواصل الكلام. أسمع صوت أنفاسه في الهاتف: «ما أريد منك الآن فعله يا آنا هو أن تذهبي إلى باب البيت لتكوني جاهزة إذا اضطررت إلى الخروج. سنصل في وقت قريب جداً، بضع دقائق فقط. لكن، إذا اضطررت إلى الخروج فَـ...»

أنظر إلى باب الصالة، ثم أتحرك في اتجاهه.

«نحن في السيارة الآن. نصل قريباً جداً».

أومئ برأسي بحركة بطيئة وأنظر إلى الباب يقترب مني.

«هل رأيت أفلاماً في الآونة الأخيرة يا دكتورة فوكس؟».

لا أستطيع جعل نفسي أفتح ذلك الباب. لا أستطيع وضع قدمي في المنطقة الخطرة. أهز رأسي. يحتك شعري بخديّ.

«هل شاهدت أي فيلم من أفلامك القديمة؟»

ومن جديد، أهز رأسي نفياً وأبدأ إخباره بأنني لا أشاهد فيلماً؛ لكني أنتبه إلى أنني لا أزال أحمل كأس النبيذ بأصابعي. إن كان في البيت شخص غريب أو لم يكن (وأنا لا أظن ذلك الشخص موجوداً في البيت الآن)، فلن أفتح الباب للمحقق ليتل وأنا حاملة الكأس على هذا النحو. يجب أن أتخلص منه.

لكن يدي ترتعش، ويندلق النبيذ منها على صدر ثوبي فيرسم بقعة حمراء كالدم، فوق القلب مباشرة. تبدو البقعة كأنها جرح نازف في صدري.

المحقق ليتل يواصل ثرثرته في أذني: «آنا؟ هل أنت بخير؟». بينما أعود إلى المطبخ وأضع الكأس في المغسلة. لا يزال الهاتف مضغوطاً إلى صدغي.

يسألني ليتل: «هل كل شيء بخير؟».

أقول له: «لا بأس»، ثم أفتح الصنبور وأخلع ثوبي فأضعه تحت الماء الجاري وأنا واقفة هناك بقميصي ذي الكمين القصيرين وبنطلوني البيتي. تتحلل بقعة النبيذ تحت تيار الماء... كأنها تنزف بدورها. يبهت لونها ويصير وردياً خفيفاً. أضغط على القماش فتبيضّ أصابعي في الماء البارد.

«هل أنت متأكدة من أنك قادرة على الوصول إلى الباب الخارجي؟».

«نعم».

أُغلق صنبور الماء. ثم أُخرج الثوب من المغسلة وأعصره.

«لا بأس. حاولي أن تبقي عند الباب».

نفضت الثوب، ثم انتبهت إلى أن المناديل الورقية قد انتهت... رأيت حامِلها يقف هناك، عارياً. مددت يدي إلى الدرج الذي أضع فيه المناديل

والمفارش، ثم فتحته. وفي داخل الدرج، فوق كدسة من مناديل الطعام المطوية، أرى نفسي مرة أخرى.

لم تكن صورة مقرَّبة لي أثناء نومي، ولم أر نفسي نصف غارقة في الوسادة، بل واقفة، مبتسمة، شعري مردود إلى الخلف وعينيّ لامعتان متوقدتان... شيء يشبهني، على الورق.

قلت في نفسي: هذه حيلة بارعة.

لقد قالت لي يومها: هذه صورة أصلية من صنع جين روسل، ثم وضعت إمضاءها عليها.

70

ارتعشت الورقة في يدي. نظرت إلى الإمضاء الذي وضعَتْه عند زاويتها. لقد كدت أشك في الأمر كله. لقد كدت أشك في وجودها. لكن، ها هي الصورة، ها هو تذكار من تلك الليلة التي اختفت من غير أثر. إنه تذكار. تذكار حي... تذكري أنك ستموتين.

تذكّري!

إنني أتذكر: أتذكر كيف لعبنا الشطرنج معاً، وكيف أكلنا الشوكولاتة. أتذكر السجائر والنبيذ وجولتنا في البيت. وقبل كل شيء، أتذكر جين، أتذكرها تضحك وتشرب... أتذكرها بالألوان الحية. أتذكر حشوات أسنانها الفضية، وكيف انحنت عند النافذة ونظرت إلى بيتها... كيف تمتمت قائلة: يا له من بيت!

لقد كانت هنا.

ليتل يقول في الهاتف الذي على أذني: «لقد وصلنا تقريباً».

أتنحنح لكي أستطيع الكلام: «إن لدي... إن لدي...».

يقاطعني: «إننا ننعطف الآن إلى...».

لكني لا أسمعه ولا أعرف أين وصلوا لأنني أرى إيثان عبر النافذة، أراه خارجاً من باب بيتهم. لا بد أنه كان داخل البيت طيلة الوقت. ألقي نظرات

سريعة في اتجاه بيته منذ ساعة... تقفز عيناي من مطبخهم إلى ردهتهم، ثم إلى غرفته. لا أعرف كيف لم أره.

«آنا»... يأتيني صوت ليتل متقلصاً، صغيراً. أنظر إلى الأسفل فأرى الهاتف في يدي، عند خصري. وأرى الثوب متكوماً عند قدمي. ألقي الهاتف على الطاولة وأضع الصورة إلى جانب المغسلة. أنقر على زجاج النافذة، أنقر بقوة.

يناديني ليتل من جديد: «آنا؟» لكني أتجاهله.

أنقر على النافذة بقوة أكبر. لقد صار إيثان في الممر الجانبي الآن. إنه متوجه إلى بيتي. نعم.

أعرف ما يجب أن أفعله.

تقبض أصابعي على إطار النافذة. أشدها عليه، أطويها، أبسطها من جديد. أغمض عيني بقوة. ثم أرفع الإطار.

يندفع الهواء الصقيعي فيطبق على جسدي، هواء بارد إلى حد يجعلني أحس قلبي واهناً؛ هواءٌ يعصف بثيابي يجعلها ترتجف من حولي. يملأ صوت الريح أذني. يملؤني البرد ويفيض... أفيض برداً.

لكنني أصرخ باسمه، رغم ذلك. صرخة واحدة، مقطعان اثنان ينبعان من لساني، ينطلقان إلى العالم الخارجي مثل قذيفة مدفع: إيـ ـ ثان!

أستطيع سماع تشظي الصمت. أتخيل أسراب الطيور ترتفع في الهواء، وأتخيل عابري السبيل يتوقفون في مساراتهم.

ثم أصيح بعد ذلك، مع النفس التالي، النفس الأخير:

إنني أعرف.

أعرف أن أمك هي المرأة التي قُلتُ لك إنها أمك. وأعرف أنها كانت هنا. أعرف أنك تكذب.

أغلق النافذة، وأستند على زجاجها بجبيني. أفتح عيني.

ها هو أمامي على الرصيف، متجمد في مكانه، ها هو في معطف كبير عليه وبنطلون جينز صغير عليه. خصلة من شعره تتراقص في الريح. ينظر

إلي. تصنع أنفاسه غيمة صغيرة أمام وجهه. ينظر إلى الخلف فيخفق صدري، ويتسارع قلبي، ينطلق بسرعة تسعين ميلاً في الساعة.

يهز رأسه، ثم يتابع السير.

71

أنظر إليه إلى أن يغيب عن عينيّ. رئتاي تتهاويان وتفقدان الهواء. كتفاي متهدلان. الهواء البارد ملأ المطبخ. كان هذا أحس شيء فعلته. لم يجرِ عائداً إلى البيت... على الأقل!

ولكن... ولكن... الآن سوف تصل الشرطة في أية لحظة. إن لدي الصورة، اللوحة... إنها هنا. أراها مرمية على الأرض، وجهها إلى الأسفل، بعد أن عصف بها تيار الهواء. أنحني لكي ألتقطها، لكي ألتقط ثوبي الرطب.

أسمع جرس الباب. إنه ليتل. أنتصب واقفة وأمسك بالهاتف فأُسقطه في جيبي وأسرع في اتجاه الباب. أضرب زر القفل بقبضة يدي، ثم أفتح المزلاج. أنظر إلى الزجاج المغشّى. يرتفع ظل خلفه؛ يتخذ الظل هيئة بشرية.

الورقة تهتز في يدي. لا أستطيع الانتظار. أمد يدي إلى مقبض الباب، ثم أديره، ثم أفتح الباب.

إنه إيثان.

تفاجئني رؤيته إلى حد يجعلني أنسى الترحيب به. أظل واقفة هناك؛ الورقة بين أصابعي، والثوب يقطر ماء على قدمي.

خدّاه محمرّان من البرد. شعره في حاجة إلى حلاقة؛ إنه منحدر حتى حاجبيه، ملتف حول أذنيه. عيناه مجنونتان.

ينظر كل منا إلى الآخر.

يقول لي بصوت هادئ: «تعرفين أنك لا يمكنك أن تناديني هكذا».

لم أتوقع هذا. لكني أقول قبل أن أتمكن من منع نفسي: «لم أجد طريقة أخرى».

تتساقط قطرات الماء على قدمي، تتساقط على الأرض. أرفع الثوب بين ذراعي.

يدخل بنتش الغرفة آتياً من ناحية السلم، ثم يتجه مباشرة إلى ساقيّ إيثان.

يسألني وهو مُطرق إلى الأرض: «ماذا تريدين؟».

لست واثقة إن كان يكلمني أو يكلم القط.

«أعرف أن أمك كانت هنا».

ينتهد ثم يهز رأسه: «أنت... تتخيلين أشياء غير حقيقية». تجري الكلمات متقطعة على لسانه كأنه لم يألفها. لا حاجة بي إلى التساؤل أين سمعها، ولا عمّن أسمعه إياها.

أهز رأسي بدوري وأقول: «لا...» أحس أن شفتيَّ موشكتان على الابتسام... «لا. لقد وجدت هذه». أرفع الورقة أمامه.

ينظر إليها.

البيت صامت كله إلا من صوت تمسّح بنتش بساقي بنطلون إيثان.

أراقب وجهه. إنه يمعن النظر في الصورة، فقط.

يسألني: «ما هذه؟».

«هذه أنا».

«مَن رسمها؟».

أخفض رأسي، ثم أخطو إلى الأمام خطوة: «يمكنك أن تقرأ الإمضاء عليها».

يمسك بالورقة. تتسع عيناه: «لكن...»

نجفل معاً عندما نسمع جرس الباب. يلتفت رأسانا في اتجاهه. ينسل بنتش متجهاً إلى الأريكة.

إيثان ينظر إلي. أمد يدي إلى الإنترفون، وأضغط الزر. نسمع صوت

خطوات في الصالة. ثم يدخل ليتل الغرفة مثل موجة مدٍّ عملاقة على صورة رجل. تدخلِ نوريلي بعده.

بريان إيثان أولاً.

تسألنا نوريلي وعيناها تنتقلان بيني وبينه: «ما الذي يجري هنا؟».

ثم يسأل ليتل: «لقد قلت إن شخصاً كان في بيتك؟».

ينظر إيثان إليّ، ثم تنزلق عيناه في اتجاه الباب فأقول له: «ابقَ هنا».

لكن نوريلي تقول له: «يمكنك الذهاب».

أقول بصوت كالعواء: «ابق هنا». لا يتحرك إيثان من مكانه.

يسألني ليتل: «هل تحققتِ من البيت؟».

أهز رأسي نفياً.

يومئ في اتجاه نوريلي فتسير في المطبخ ثم تتوقف عند باب القبو. تنظر إلى السلم، ثم تنظر إليّ. أقول لها: «المستأجر».

تتابع سيرها في اتجاه السلم من غير أن تقول أية كلمة.

أستدير عائدة إلى ليتل. يداه غارقتان في جيبيه، وعيناه تنظران في عيني. أستنشق نفساً عميقاً.

أقول له: «لقد جرى... لقد جرت أشياء كثيرة. جاءتني هذه أولاً...» تبحث يدي في جيب الثوب فتخرج الهاتف منه... «جاءتني هذه الرسالة». يسقط الثوب ثقيلاً على الأرض.

أفتح البريد الإلكتروني، وأُكبّر الصورة. يأخذ ليتل الهاتف مني، يحمله بيده الضخمة.

أرتجف أثناء نظره في الشاشة... المكان بارد جداً هنا، وثيابي خفيفة تماماً. أعرف أن شعري مشعث، شعر امرأة نهضت من السرير قبل قليل.

يبدو لي إحساس إيثان مثل إحساسي؛ أراه ينقل ثقل جسمه من قدم إلى أخرى. أنظر إليه واقفاً إلى جانب ليتل فأراه هشاً صغيراً إلى حد غير معقول أبداً... أتمنى أن أضمه.

ينقر المحقق على شاشة الهاتف بإصبعه ويقول: «جين روسل».

أقول له: «لكنها ليست جين روسل. انظر إلى عنوان البريد الإلكتروني».
ينظر ليتل إلى الهاتف مضيقاً عينيه ويقرأ بعناية: «Guesswhoanna@gmail.com».
أومئ برأسي.
ينظر إليّ ويقول: «الصورة ملتقطة في الساعة الثانية ودقيقتين، هذا الصباح. والرسالة مرسلة في الثانية عشرة وإحدى عشرة دقيقة بعد ظهر اليوم».
أومئ برأسي من جديد.
«هل وصلتك قبل الآن أية رسالة من هذا العنوان؟».
«لا. ألستم قادرين على... تتبعه؟».
يأتي صوت إيثان من خلفي: «ما هذا؟».
أحاول إجابته: «إنها صورة...».
لكن ليتل يتابع كلامه: «كيف لأي شخص أن يدخل بيتك؟ أليس لديك نظام إنذار؟».
«لا. إنني هنا دائماً. فلماذا أحتاج إلى...» أتوقف عن الكلام لأن ليتل يعرف الإجابة أصلاً... أكرر ما قلته: «لا».
يسأل إيثان: «صورة ماذا؟».
لكن ليتل ينظر إليه هذه المرة، بل يرشقه بنظرة ويقول له: «كفاك أسئلة»... يجفل إيثان... فيكمل ليتل: «اذهب واجلس هناك».
يتحرك إيثان في اتجاه الأريكة، ثم يجلس إلى جانب بنتش.
يدخل ليتل المطبخ متجهاً إلى الباب الجانبي: «أرى أن أحداً يمكن أن يكون قد أتى من هنا». تبدو نبرته حادة. يدير القفل، ثم يفتح الباب، ثم يغلقه. تعبر الغرفة نفحة هواء بارد.
أقول له: «لقد دخل شخص بالفعل».
«أقول لكِ إنه من الممكن أن يدخل شخص بسبب عدم وجود نظام إنذار».

«صحيح».

«هل لاحظتِ اختفاء أي شيء من بيتك؟».

لم يكن هذا السؤال قد خطر على بالي. أقول معترفة: «لست أدري. كمبيوتري وهاتفي لا يزالان هنا. لكن، ربما... لست أدري. لم أتحقق». أضفت بعد ذلك: «كنت خائفة».

تسترخي تعابير وجهه، تصير أكثر لطفاً: «هذا واضح. هل لديك أية فكرة عن من يمكن أن يكون الشخص الذي التقط هذه الصورة؟».

أتوقف لحظة قبل الإجابة: «الشخص الوحيد الذي لديه مفتاح البيت... الشخص الوحيد الذي قد يكون لديه المفتاح هو المستأجر. ديفيد».

وأين هو الآن؟».

«لست أدري. قال إنه سيسافر خارج المدينة، لكن...».

«هل تقولين إن لديه المفتاح أم أنه يمكن أن يكون لديه المفتاح؟».

أعقد ذراعي على صدري: «قد يكون لديه مفتاح. إن شقته... إن للشقة مفتاحاً مختلف. لكن من الممكن أن يكون قد سرق مفتاحي».

يهز ليتل رأسه ويسألني: «هل لديك أية مشاكل مع ديفيد؟».

«لا. أعني... لا».

يهز ليتل رأسه من جديد: «أي شيء آخر؟».

«هناك... إنه... لقد استعار مني سكيناً. أعني أنه استعار مشرطاً. ثم أعاده من غير أن يقول لي».

«ألا يمكن أن يكون أحداً غيره قد دخل البيت؟».

«لا أحد».

«أنا أفكر بصوت مرتفع فحسب»، يقول هذا ثم يملأ رئتيه هواء ويصيح بصوت مرتفع يجعل أعصابي تقفز في جسدي: «أين أنت يا نوريلي؟».

تجيبه نوريلي صائحة: «لا أزال في الأعلى».

«هل وجدت شيئاً يلفت النظر هناك؟».

صمت. ننتظر.

تصيح: «لا شيء».
«هل هنالك عبث بمحتويات البيت؟».
«لا».
«هل وجدت أحداً في الخزانة؟».
«لا أحد في الخزانة».
أسمع صوت خطواتها على السلم: «أنا قادمة».
يلتفت ليتل إليّ من جديد: «إذن فقد دخل بيتك شخص ما... لا نعرف من هو... والتقط لك صورة أيضاً، لكنه لم يأخذ أي شيء آخر».
«صحيح». هل يشك في كلامي؟ أشير من جديد إلى الهاتف الذي في يده كأنه قادر على الإجابة على أسئلته. إنه قادر حقاً على الإجابة عن أسئلته.
يقول لي: «آسف». ثم يعيد الهاتف إليّ.
تدخل نوريلي المطبخ. معطفها يخفق خلف ساقيها.
تسأل ليتل: «هل كل شيء على ما يرام هنا؟».
«كل شيء على ما يرام».
يبتسم لي ويقول: «الشاطئ آمن!» لكنني لا أستجيب له.
تخطو نوريلي في اتجاهنا وتقول: «ما قصة اقتحام البيت؟».
أمد الهاتف في اتجاهها. لا تأخذ الهاتف مني، لكنها تنظر إلى الشاشة، ثم تسألني: «جين روسل؟».
أشير إلى العنوان المكتوب إلى جانب اسم جين. تسري في وجه نوريلي لمعة غريبة.
«هل وصلك في السابق أي شيء من هذا العنوان؟».
«لا. لقد كنت أقول للـ... لا».
تقول: «إنه عنوان بريد إلكتروني على جيميل». أراها تتبادل النظرات مع ليتل.
أحتضن نفسي بذراعي: «صحيح. ألا يمكنكم تعقبه؟ أو تتبعه؟».

تميل إلى الخلف قليلاً وتقول لي: «في الحقيقة... هذه مشكلة».

«لماذا؟».

تدير رأسها في اتجاه شريكها فيقول: «إنه جيميل».

«نعم. وماذا؟».

«جيميل يخفي عناوين IP، أي عناوين وَصلات الإنترنت».

«لا أعرف معنى هذا».

يتابع كلامه: «هذا يعني أن تتبُّع الحسابات على جيميل غير ممكن».

أنظر إليه.

تقول نوريلي موضحة: «من الممكن حتى أن تكوني قد أرسلت هذه الرسالة لنفسك».

أستدير وأنظر إليها. ذراعاها معقودتان على صدرها.

تفلت من فمي ضحكة. أقول لها: «ماذا؟»... ماذا يمكن أن يُقال غير هذا؟

«أعني أننا، إذا افترضنا أنك أنت من أرسل هذه الرسالة من هاتفك، فإننا غير قادرين على إثبات هذه النظرية؟».

أقول متلعثمة: «لماذا... لماذا؟».

تنظر نوريلي إلى الثوب الغارق في الماء على الأرض. أنحني لألتقطه... حتى أفعل شيئاً ما... حتى أستعيد شيئاً من الإحساس بنظام الأشياء من حولي.

... «تبدو لي هذه الصورة كأنها صورة التقطها لنفسك بنفسك منتصف الليل».

أحاججها قائلة: «لكنني نائمة».

«عيناك مغمضتان».

«مغمضتان لأنني نائمة».

«أو أنك تتعمدين الإيحاء بأنك نائمة».

ألتفت إلى ليتل.

يقول لي: «انظري إلى الأمر بهذه الطريقة يا دكتورة فوكس، لم نستطع العثور على دليل يشير إلى دخول شخص إلى البيت. ولا يبدو أيضاً أن شيئاً مفقوداً من البيت. الباب الرئيسي يبدو في حالة طبيعية؛ وذلك الباب...» يشير بإصبعه إلى باب المطبخ الجانبي... «يبدو في حالة طبيعية أيضاً. وقد قلتِ لنا إن ما من أحد غيرك يمتلك مفتاحاً».

«لا، قلت إن المستأجر عندي قد يكون لديه مفتاح». ألم أقل لهم هذا؟ دماغي يتحرك بعنف. أرتعد من جديد وأحس الهواء مشبعاً بالبرودة.

تشير نوريلي إلى السلم: «ما قصة هذا السلم؟»

يجيبها ليتل قبل أن أستطيع أن أجيبها بأي شيء: «خلاف مع المستأجر».

تقول له: «هل سألتها عن... الزوج؟» إن في نبرة صوتها شيئاً لا أستطيع فهمه... كأن في صوتها معنى خفياً. ترفع حاجبها.

وبعد ذلك تواجهني وتنظر إليّ: «يا سيدة فوكس... لقد حذرتك سابقاً فيما يتعلق بتضييع...»

أصيح بها: «لست أنا من يضيع الوقت. أنتم تضيّعون الوقت. أنتم تضيعون الوقت. كان في هذا البيت أحد ما. وقد قدمت إليكم الدليل على ذلك. لكنكم تقفون هنا وتقولون لي إنني أختلق الأمر كله. تماماً مثلما حدث المرة الماضية. رأيت امرأة تطعن ولم تصدقوني. ما الذي يجب أن أفعله حتى أتمكن من...»

«الصورة».

أستدير فأجد إيثان متسمّراً على الأريكة وبنتش في حضنه.

أقول له: «تعال. وهات معك تلك الصورة».

تقاطعني نوريلي: «فلنتركه خارج هذا الأمر». لكن إيثان كان في طريقه إليَّ حاملاً القط في إحدى يديه والورقة في اليد الأخرى. قدمها إليهما بطريقة تكاد تكون احتفالية مثلما يقدم المرء الحلوى.

دفعتُ بالصورة إلى نوريلي فتراجعتْ خطوة إلى الخلف. سألتها: «هل ترين هذه؟ أنظري إلى التوقيع».

تغضنت جبهتها.

ثم... يرن جرس الباب للمرة الثالثة هذا اليوم.

72

ليتل ينظر إلي، ثم يسير في اتجاه الباب وينظر إلى شاشة الإنترفون. أراه يضغط زر فتح الباب.

أسأله: «من القادم؟» لكنه منشغل بفتح الباب.

صوت خطوات سريع، ثم يدخل ألستير وقد لف نفسه بسترة صوفية وتورد وجهه من البرد. يبدو لي أكبر سناً مما كان عندما رأيته آخر مرة.

تجوس عيناه الغرفة مثل الصقر، ثم تستقران على إيثان.

يقول لابنه: «أنت ستذهب إلى البيت. ضع القط واذهب». لكن إيثان لا يتحرك.

أبدأ القول وأنا أدير الصورة في اتجاهه: «أريد أن ترى هذه»، لكنه يتجاهلني. يخاطب المحقق ليتل.

يقول له: «يسرني أنكم هنا...» لكن السرور لا يبدو عليه... «تقول زوجتي إنها سمعت هذه المرأة تصرخ على ابني من نافذتها. ثم رأيت سيارتكم تتوقف أمام بيتها». تذكرت في هذه اللحظة أنني كنت مهذبة عندما زارني المرة الماضية، بل كنت مرتبكة أيضاً. أما الآن فلا.

بدأ ليتل يقول له: «يا سيد روسل...».

«لقد كانت تتصل بمنزلي... هل عرفتم بهذا؟» لكن ليتل لا يجيبه... «اتصلت بمكان عملي السابق أيضاً. واتصلت بمكتبي السابق».

هذا يعني أن أليكس قد وشى بي. أسأله: «ولماذا طردوك من العمل؟» لكنه يتابع اتهاماته حانقاً مشدداً على كلماته.

«لقد تبعت زوجتي أمس... هل قالت لكم هذا؟ لا أظنها ذكرته لكم. تبعتها إلى داخل المقهى».

«نحن نعرف هذا يا سيدي».

«وحاولت أن... تواجهها». ألقي بنظرة سريعة صوب إيثان. الظاهر أنه لم يخبر أبيه بأنه رآني بعد ذلك.

«هذه هي المرة الثانية التي نجتمع فيها كلنا هنا...» صار صوت ألستير خشناً... «زعمتْ في البداية أنها رأت اعتداءً يحدث في بيتي. وهي الآن تستدرج ابني إلى بيتها. يجب أن يتوقف هذا. متى يتوقف هذا؟» وجه نظره إليَّ مباشرة: «إنها خطر علينا».

أشير إلى الصورة بإصبعي وأقول: «إنني أعرف زوجتك».

يصرخ قائلاً: «أنت لا تعرفين زوجتي».

أصمت.

«أنت لا تعرفين أحداً. أنت تظلين هنا في بيتك وتراقبين الناس».

تسري رعشة مؤلمة في عنقي. وتسقط يدي مسبلة إلى جانبي.

لم ينته ألستير بعد: «لقد اخترعت بعض... المقابلات مع امرأة ليست زوجتي وليست حتى...» أنتظر الكلمة التالية مثلما ينتظر المرء ضربة متوقعة... «ليست حتى حقيقية. والآن، أنت تضايقين ابني. أنت تضايقيننا جميعاً».

الغرفة هادئة كلها.

وأخيراً يتكلم ليتل: «لا بأس».

يضيف ألستير: «إنها تعيش أوهاماً». هذا هو الأمر. ألتفت إلى إيثان فأراه مطرقاً إلى الأرض.

يكرر ليتل ما قاله: «لا بأس. لا بأس».

«إيثان، أظن أن وقت ذهابك إلى البيت قد حان».

«يا سيد روسل، لو كان في وسعك أن تظل هنا...».

لكنه دوري في الكلام الآن.

أقول موافقة: «فلتبق هنا. لعلك قادر على توضيح هذا». أرفع ذراعي من جديد، أرفعها أعلى من رأسي حتى تصير على مستوى عيني ألستير.

يمد يده إلى الورقة ثم يأخذها: «ما هذا؟».

«هذه صورة لي رسمتها زوجتك».

يصير وجهه خالياً من كل تعبير.

«رسمتها عندما كانت هنا. على تلك الطاولة».

يسأل ليتل وهو يتحرك فيقف إلى جانب ألستير: «ما هذا؟»

«إنها صورتي التي رسمتها جين».

يقول ليتل: «إنها صورتك».

أومئ برأسي وأقول: «لقد كانت هنا. والصورة تثبت هذا».

يستجمع ألستير شتات نفسه ويقول بنبرة حادة: «هذا لا يثبت أي شيء. لا... بل يثبت أنك مجنونة إلى درجة تجعلك في الواقع تحاولين أن... تلفقي الأدلة تلفيقاً...» يضحك ضحكة قصيرة ساخرة... «أنت فاقدة العقل تماماً».

أقول في نفسي: أنت فاقدة العقل تماماً. ما ألطفه! أشعر بعبوس وجهي: «ماذا تعني بهذا؟ كيف أختلق الأدلة؟».

«لقد رسمتِها بنفسك».

تتدخل نوريلي في الحديث الدائر بيننا: «تماماً مثلما يمكن أن تكوني قد التقطت تلك الصورة بنفسك وأرسلتها إلى نفسك. إلا أننا غير قادرين على إثبات هذا».

أتراجع إلى الخلف كما لو أن لكمة أصابتني.

«أنا...».

يقول ليتل وهو يتقدم باتجاهي: «هل تشعرين بأنك على ما يرام يا دكتورة فوكس؟».

يسقط الثوب من يدي مرة أخرى، يتهاوى إلى الأرض.

إنني أترنح. تدور الغرفة من حولي كأنها عجلة ضخمة. ينظر ألستير إليّ مستغرباً. تصير عينا نوريلي قاتمتين. وتحوم يد ليتل فوق كتفي. يتراجع إيثان. لا يزال القط على ذراعه. يدورون من حولي، يدورون كلهم. لا أستطيع التمسك بأحد منهم، ولا أجد أرضاً أقف عليها. «أنا لم أرسم هذه

اللوحة. لقد رسمتها جين. رسمتها هناك بالضبط...» أشير بإصبعي في اتجاه المطبخ... «كما أنني لم ألتقط تلك الصورة بنفسي. لا يمكن أن أكون قد التقطتها. إنني... هنالك شيء يحدث. وأنتم ممتنعون عن تقديم أية مساعدة». لا أستطيع التعبير عن الأمر بصورة أخرى. أحاول أن أجعل الغرفة تكف عن الدوران، لكنها تنزلق من قبضة يدي. أسير مترنحة في اتجاه إيثان. أصل إليه. أمسك كتفه بيدي المرتعشة.

ينفجر ألستير صائحاً: «ابتعدي عنه»؛ لكنني أنظر في عيني إيثان، ثم أقول بصوت أعلى: «هنالك شيء ما يحدث».

«ما الذي يحدث؟».

نستدير كلنا كأننا شخص واحد.

يقول ديفيد: «كان الباب الأمامي مفتوحاً».

73

إنه واقف بالباب. يداه في جيبيه، وحقيبة مهلهلة معلقة من أحد كتفيه. يسأل من جديد عندما أرخي قبضتي عن كتف إيثان: «ما الذي يحدث؟».

ترخي نوريلي ذراعيها بعد أن كانتا معقودتين على صدرها وتقول: «من أنت؟».

يعقد ديفيد ذراعيه على صدره بدلاً منها ويقول: «إنني أعيش هنا، في الطابق السفلي».

يقول ليتل: «إذن، أنت هو ديفيد الذي سمعنا عنه كثيراً».

«لا أعرف أنك سمعت عني».

«وهل لك اسم عائلة يا ديفيد؟»

«إن لمعظم الناس اسم عائلة».

أقول: «وينترز»... استخرجت اسم عائلته من أعماق دماغي.

يتجاهلني ديفيد ويقول لهم: «ومن أنتم أيها الناس؟».

تجيبه نوريلي: «شرطة. أنا المحققة نوريلي، وهذا هو المحقق ليتل».

يشير ديفيد برأسه إلى ألستير: «وأما هو فأنا أعرفه».

يومئ ألستير برأسه: «لعلك تستطيع أن تشرح لنا مشكلة هذه المرأة».

«ومن الذي يقول إن فيها مشكلة؟» ينبع العرفان بالجميل في داخلي. أحس رئتي تمتلئان هواء. هنالك الآن من يقف إلى جانبي.

ثم أتذكر من هو ذلك الشخص.

يسأله ليتل: «أين كنت ليلة أمس يا سيد ويترز؟».

«كنت في كونيكتيكت. كان عندي عمل هناك». يكشر قليلاً ثم يسأله: «لماذا تسألني؟»

«التقط أحدهم صورة للدكتورة فوكس وهي نائمة. حدث هذا قرابة الثانية صباحاً. ثم أرسل إليها الصورة بالبريد الإلكتروني».

تلمع عينا ديفيد ويقول: «هذا غريب جداً». ثم ينظر إليّ... «هل دخل البيت أحد ما؟».

لا يترك لي ليتل وقت للإجابة: «هل لديك من يستطيع تأكيد وجودك في كونيكتيكت ليلة أمس؟».

يضع ديفيد قدماً أمام أخرى: «نعم، سيدةٌ كنت معها هناك».

«ومَن عساها تكون، تلك السيدة؟».

«لا أعرف اسم عائلتها».

«أليس لديها رقم هاتف؟».

«أليس لدى معظم الناس رقم هاتف؟».

يقول له ليتل: «سوف تكون في حاجة إلى ذلك الرقم؟».

أقول بنبرة ملحّة: «إنه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون قد التقط تلك الصورة».

هذه ضربة. يتغضن حاجبا ديفيد: «ماذا؟».

أنظر إليه، أنظر في تلك العينين العميقتين فأحس أنني أريد التراجع عما قلته: «هل التقطتَ تلك الصورة؟».

يقول مكشراً: «هل تظنين أنني صعدت إلى غرفتك و...».

تقول نوريلي: «لا يظن ذلك أحد هنا».

أقول لها: «بل أظن».

يبدو على ديفيد شيء يشبه الضجر: «ما هذا؟ لا أعرف ما تتحدثين عنه...» يقدم هاتفه إلى نوريلي... «خذي. اتصلي بها. اسمها إليزابيث».

تخطو نوريلي في اتجاه غرفة المعيشة.

لم أعد قادرة على سماع كلمة أخرى من غير أن أشرب. أتجه إلى المطبخ، لكنني أسمع صوت ليتل من خلفي.

«تقول الدكتورة فوكس إنها رأت امرأة تتعرض للطعن في الناحية الأخرى من الشارع. في بيت السيد روسل. هل تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟».

«لا. ألهذا كانت تسألني في ذلك اليوم إن كنت قد سمعت صراخاً...»

لا ألتفت إليه. إنني أسكب النبيذ في الكأس... «أقول لكم ما قلته لها: لا، لم أسمع شيئاً».

يقول ألستير: «بالطبع، أنت لم تسمع شيئاً».

أستدير لأصير في مواجهتهم... الكأس في يدي، وأقول: «لكن إيثان قال...».

يصيح ألستير: «إيثان... اخرج من هنا فوراً. كم مرة يجب أن أقول لك...».

يقول له ليتل وهو يهز إصبعه في اتجاهه: «اهدأ يا سيد روسل. د. فوكس، أنا لا أنصحك بأن تفعلي هذا الآن». أضع الكأس على الطاولة. لكن يدي تظل ممسكة به. تنتابني رغبة في العصيان.

يلتفت ليتل إلى ديفيد: «هل رأيت شيئاً غير معتاد في ذلك البيت خلف الحديقة؟».

يسأله ديفيد: «في بيته؟» وينظر في اتجاه ألستير الذي يبدو عليه التوتر فوراً.

يبدأ ألستير القول: «هذا...».

«لا، لم أر هناك أي شيء غير طبيعي». تنزلق حقيبة ديفيد عن كتفه فيشد قامته ويعيد الحقيبة إلى مكانها... «لم أكن أنظر».

يهز المحقق ليتل رأسه ويقول: «آ ـ ها. وهل التقيت السيدة روسل؟».

«لا».

«كيف تعرف السيد روسل؟».

تدخل ألستير قائلاً: «لقد استأجرته لكي...» لكن ليتل يرفع يده فيوقفه عن الكلام.

يقول ديفيد: «لقد استأجرني لكي أقوم ببعض الأعمال لديه. لكني لم ألتقِ زوجته».

«لكن قرطها موجود لديك. في غرفة نومك».

تتجه العيون كلها إليَّ أنا.

أشد يدي على كأسي وأقول: «رأيت قرطاً في غرفتك، على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. ثلاث لآلئ. إنه قرط جين روسل».

يتنهد ديفيد: «لا. إنه قرط كاترين».

أقول: «مَن هي كاترين؟»

يهز رأسه: «امرأة كنت أقابلها. لم أكن على علاقة بها في واقع الأمر. إنها امرأة أمضت الليل هنا بضع مرات فحسب».

يسأله ليتل: «متى كان هذا؟».

«في الأسبوع الماضي؟ ما أهمية الأمر؟».

تؤكد نوريلي لديفيد وهي عائدة لتقف إلى جانبه: «لا أهمية له».

تضع هاتفه في يده: «تقول أليزابيث هوفيس إنها كانت معه في بلدة داريين الليلة الماضية منذ منتصف الليل حتى الساعة العاشرة صباحاً».

يقول ديفيد: «يعني هذا أنني تمكنت من إثبات مكان وجودي».

تسألني نوريلي: «إذن، لماذا كنتِ في غرفة نومه؟».

يجيبها ديفيد: «كانت تتطفل وتتجسس هنا وهناك».

يحمّر وجهي، لكني أرد عليه: «لقد أخذتَ مني مشرطاً».

يتقدم ديفيد إلى الأمام. أرى المحقق ليتل يتوتر.

يقول ديفيد: «أنت أعطيتني إياه بنفسك».

«صحيح، لكنك أعدته إلى مكانه من غير أن تقول لي أي شيء».

«حدث هذا لأنه كان في جيبي عندما كنت ذاهباً إلى المرحاض فأعدته إلى حيث أخذته. مع الشكر».

«والمصادفة أنك أعدته مباشرة بعد رؤيتي جين...».

تقول نوريلي بصوت منخفض كالفحيح: «يكفي هذا».

أرفع الكأس إلى شفتي فينسكبِ النبيذ من جانبيه. ينظرون إليَّ جميعاً، فأشربه دفعة واحدة.

«الصورة التي رسمتها جين. والصورة الفوتوغرافية. والقرط. والمشرط». لقد أُطيحَ بهذه الأشياء كلها معاً. انفجرت كلها كالفقاعات. لم يبق منها شيء.

لم يبق شيء تقريباً.

أبتلع ما بفمي، وأتنفس.

«تعرفون أنه كان في السجن».

لا أستطيع تصديق أنني أقول هذه الكلمات وهي تخرج من فمي. لا أستطيع أن أسمع هذه الكلمات.

أقول مرة أخرى: «لقد كان في السجن». أحس أنني تحررت. أكمل جملتي... «لأنه هاجم شخصاً».

يتوتر فكا ديفيد. يحدق ألستير فيه غاضباً. نوريلي وإيثان ينظران إلي. أما ليتل... يبدو ليتل حزيناً إلى حد يصعب التعبير عنه.

أسألهما: «إذن، لماذا لا تتشددان معه؟ لقد رأيت امرأة تُقتل...». أرفع هاتفي في وجوههم... «وأنتم تقولون إنني أتخيل الأمر. تقولون إنني كاذبة». أصفع الطاولة بهاتفي... «لقد جعلتكم ترون صورتي التي رسمتها بنفسها ووضعت إمضاءها عليها...»، أشير إلى ألستير، إلى الصورة في يده... «وأنتم تقولون إنني رسمتها بنفسي. وهناك، في ذلك البيت، امرأة

ليست من تزعم أنها هي، لكنكم لم تهتموا حتى بالتحقق من هويتها. لم تزعجوا أنفسهم بالتحقق من هويتها، بل لم تحاولوا ذلك أصلاً». أتحرك إلى الأمام، أتحرك خطوة صغيرة وحيدة، واحدة. لكنهم يتراجعون جميعاً كأنني عاصفة تقترب منهم أو كأنني وحش مفترس. هذا جيد... «يدخل أحد بيتي أثناء نومي ويصوّرني، ثم يرسل لي الصورة، لكنكم تلقون باللائمة عليّ». أسمع الغصة في حلقي، أسمع التكسر في صوتي. دموع تجري على وجنتي. لكني أواصل كلامي.

«أنا لست مجنونة، ولست أختلق من هذا كله شيئاً». أشير بإصبعي الغاضب إلى ألستير وإلى إيثان... «لست أرى أشياء غير موجودة. بدأ هذا كله عندما رأيت زوجة هذا الرجل، أم هذا الطفل، تُطعَن. هذا ما ينبغي عليكم النظر فيه. وتلك هي الأسئلة التي يجب أن تطرحوها. لا تقولوا لي إنني لم أر ذلك يحدث... لأنني أعرف ما رأيته».

صمت. إنهم متجمدون جميعاً، كأنهم في لوحة. حتى بنتش صار هادئاً تماماً واتخذ ذيله شكل إشارة استفهام.

أمسح وجهي بظهر يدي. أمر بها على أنفي أيضاً. أدفع شعري بعيداً عن عيني. أرفع الكأس إلى فمي، وأشرب.

تدب الحياة في المحقق ليتل. يخطو في اتجاهي؛ خطوة واحدة بطيئة طويلة يجتاز بها نصف المطبخ. عيناه مثبتتان على عينيّ. أضع الكأس الفارغة على الطاولة. نتبادل النظرات من فوق تلك الطاولة.

يضع يده فوق كأسي، ثم يزيح الكأس جانباً كأنها سلاح.

يقول لي بصوت منخفض... يقول بصوت منخفض: «المسألة يا آنا هي أنني تحدثت مع طبيبك أمس. بعد المكالمة الهاتفية التي جرت بيني وبينك».

يغدو فمي جافاً.

يتابع ليتل: «إنه د. فيلدينغ. لقد ذكرتِ لي اسمه عندما كنا في المستشفى. لقد كنت أريد متابعة الأمر مع شخص يعرفك».

بدأ قلبي يضعف.

«إنه شخص مهتم بحالتك كثيراً. أخبرته بأنني شديد القلق في ما يتعلق بما قلته لي، بما قلته لنا. وكنت قلقاً عليك أيضاً لأنك وحيدة في هذا البيت الكبير، ولأنك قلت لي إن أسرتك بعيدة عنك، وإن ما من أحد هنا حتى تتحدثي معه. و...».

و... و... وأنا أعرف ما سيقوله بعد ذلك؛ وأنا ممتنة كثيراً لأنه الشخص الذي سيقول هذا. فهو شخص لطيف، وصوته دافئ. وأنا غير قادرة على احتمال الأمر بأي شكل آخر... أنا قادرة على احتماله.

إلا أن نوريلي تقاطعه: «اتضح أن زوجك وابنتك ميتان».

74

قبل هذه اللحظة، لم يقلها أحد على هذا النحو! لم يقل أحد تلك الكلمات بهذا الترتيب.

لم يقلها طبيب الإسعاف الذي أخبرني بأن زوجك لم يستطع تخطّي ما حدث. قال لي هذا بينما كانوا يطببون ظهري المتكدّم وحنجرتي المصابة.

لم تقلها لي رئيسة الممرضات التي جاءتني بعد أربعين دقيقة من ذلك وقالت لي: أنا آسفة جداً يا سيدة فوكس... بل إنها لم تكمل الجملة؛ لم تكن في حاجة إلى إتمام تلك الجملة.

لم يقلها الأصدقاء... أصدقاء إد في واقع الأمر؛ أدركت بأقسى الطرق أننا، أوليفيا وأنا، ليس لدينا أصدقاء شخصيون... أصدقاء يقدمون التعازي ويشاركون في الجنازة ويحرصون على استمرار العلاقة على مر الشهور: يقول الناس، لقد رحلا، أو يقولون إنهما لم يعودا معنا، أو يقول (أكثرهم فظاظة) إنهما ماتا.

لم تقلها بِينا. ولم يقلها د. فيلدينغ.

إلا أن نوريلي قالتها، نوريلي حطمت السحر، وقالت ما لا يُقال: زوجك وابنتك ميتان.

* * *

إنهما ميتان. نعم. لم ينجحا في اجتياز ذلك، رحلا، ماتا... إنهما ميتان. وأنا لا أنكر هذا.

«لكن، ألا ترين يا آنا...» أسمع الآن صوت د. فيلدينغ يتكلم... يكلمني وكأنه يتوسل إليّ... «ألا ترين معنى هذا. إنه إنكار». هذا صحيح تماماً.

* * *

رغم ذلك:

كيف يمكنني التفسير؟ التفسير لأي شخص... كيف يمكنني أن أفسر ما يحدث لنوريلي، أو ليتل، أو ألستير، أو إيثان، أو ديفيد، أو حتى جين؟ إنني أسمعهما؛ أسمع صدى صوتيهما في داخلي، وخارجي أيضاً. أسمعهما عندما يطغى عليَّ الألم، ألم غيابهما، ألم خسارتهما... يمكنني أن أقول: ألم موتهما. أسمع صوتيهما عندما أكون في حاجة إلى شخص أكلمه. أسمعهما عندما لا أتوقع سماعهما أبداً. يقولان لي: «احزري من؟» فأبتسم، ويغنّي قلبي.

ثم أستجيب لهما.

75

تعلق الكلمات في الهواء... تعوم الكلمات في الهواء كأنها دخان.

ومن خلف كتفي ليتل، أرى ألستير وإيثان. أرى عيونهما مفتوحة على اتساعها. وأرى ديفيد وقد انفتح فمه دهشة. ولسبب ما، تسبل نوريلي عينيها إلى الأرض.

«د. فوكس؟».

إنه ليتل. أنظر إليه حتى أراه؛ أراه خلف الطاولة الفاصلة بيننا وضوء شمس العصر يغسل وجهه.

يقول لي: «يا آنا».

لا أتحرك. لا أستطيع الحركة.

يستنشق نفساً عميقاً، ثم يحبسه. وأخيراً، يطلق ذلك النفس: «أخبرني د. فيلدينغ بالقصة كلها».

أغمض عيني بشدة. كل ما أراه ظلام. لا أسمع شيئاً غير صوت ليتل.

«قال لي إن دورية من شرطة الولاية وجدتكم في أسفل أحد الجروف».

هذا صحيح! أنا أتذكر صوت الشرطي الذي وجدنا؛ أتذكر تلك الصيحة العميقة التي راحت تتدحرج على صفحة الجبل.

«... وفي ذلك الوقت، كانت قد مضت عليكم ليلتان في العراء، في عاصفة ثلجية، في منتصف الشتاء»، ثلاث وثلاثون ساعة من لحظة انحرافنا عن الطريق إلى لحظة ظهور طائرة الهيلكوبتر التي كانت مروحيّتها تدور فوق رؤوسنا مثل زوبعة كبيرة.

«قال لي د. فيلدينغ إن أوليفيا كانت لا تزال حية عندما وصلوا إلينا».

ماما... هكذا همست لي عندما وضعوها على النقالة وغطوا جسدها الصغير ببطانية.

«... لكن زوجك كان قد رحل».

لا، لم يكن قد رحل. لقد كان هناك، كان هناك حقاً، كان هناك بكل معنى الكلمة؛ وكان جسمه يبرد في الثلج. قالوا لي: إصابات داخلية تفاقمت نتيجة البرد الشديد. لكنك لم تكوني قادرة على فعل شيء آخر غير ما فعلته. هنالك أشياء كثيرة كنت قادرة على فعلها بطريقة مختلفة.

«لقد بدأت مشكلاتك منذ ذلك الوقت. وصارت المشكلات تتجه إلى خارجك. إنه اضطراب ما بعد الصدمة. وهو شيء... أعني... أعني أنه شيء لا أستطيع تخيله».

يا إلهي، كيف خفت وانكمشت على نفسي تحت الأنوار البيضاء الساطعة في غرفة المستشفى؛ وكيف أصابني الذعر في سيارة الشرطة. كيف كنت أنهار عندما خرجت من البيت في المرات الأولى... مرة، مرتين، ثم مرتين بعد ذلك، إلى أن جرجرت نفسي آخر الأمر وقبعت في الداخل.

وأقفلت أبوابي.
وأقفلت نوافذي.
وأقسمت على أن أظل مختبئة.

«كنت تريدين مكاناً آمناً. إنني أفهم هذا. لقد عثروا عليك نصف متجمِّدة. كان ما مررت به جحيماً حقيقياً».

تنغرس أظافري في راحتَيْ يدي.

«قال لي د. فيلدينغ إنك... أحياناً... تسمعين صوتَيْهما». أشد على عينيَّ المغمضتين أكثر من ذي قبل محاولةً أن أغوص أكثر في الظلام. لقد قلت له: هذه ليست هلوسات... أنت تعرف هذا!. كل ما في الأمر هو؛ أنني أحب التظاهر بأنهما هنا، معي، في كل لحظة. إنني أستخدم هذا الأسلوب لكي أستطيع التلاؤم مع الوضع. وأنا أعرف أن التواصل مع الناس أكثر مما يجب ليس أمراً صحياً.

«قال لي أيضاً إنك تتحدثين معهما بعض الأحيان».

أشعر بدفء الشمس على رقبتي. لقد حذرني وقال لي: من الأفضل ألا تنغمسي في هذه الأحاديث مرات كثيرة. لا نريد أن يصير هذا عكازاً لك.

«أترين؟ لقد أصابتني الحيرة بعض الشيء لأنك قلت لنا كلاماً يجعل المرء يشعر بأنهما موجودان، لكن في مكان آخر». لا ألفت انتباهه إلى أن هذا صحيح من الناحية الشكلية. ما عادت عندي قدرة على القتال. لقد صرت مجوَّفة، فارغة مثل زجاجة.

«... قلتِ لي إنكما منفصلان. وقلت إن ابنتك تعيش مع والدها». هذا أمر شكلي آخر. أنا متعبة كثيراً.

«... قلت لي الشيء نفسه». أفتح عينيّ. أشعة الشمس تغمر الغرفة كلها الآن وتمتص الظلال. خمستهم متحلقون من حولي كأنهم أحجار شطرنج. أنظر إلى الستير.

أسمعه يقول: «إنهما يعيشان في مكان آخر». التوت شفته إلى الأسفل وبدا عليه شيء من خيبة الأمل. لم أقل هذا، بالطبع... لا، لم أقل له أبداً

إنهما يعيشان في أي مكان. إنني حذرة في ما أقول. لكن الأمر ما عاد مهماً الآن. لا أهمية لشيء.

يمد ليتل يده من فوق الطاولة ويضغط بها على يدي: «أظن أنك مررت بوقت عصيب جداً. وأظن أنك مقتنعة حقاً بأنك التقيت هذه السيدة، تماماً مثلما تظنين أنك تحدثين أوليفيا وإد».

يتوقف لحظة قبل أن ينطق الكلمة الأخيرة، كما لو أنه غير واثق من اسم إد؛ لكن من الممكن أنه كان يلتقط أنفاسه فحسب. أنظر في عينيه. لا قرار لهما.

يقول لي بصوت طري ناعم كالثلج: «لكن ما تظنيه ليس حقيقياً. يجب أن تنسي هذا الأمر».

أجد أنني أومئ برأسي. أفعل هذا لأنه محق. لقد بالغت كثيراً جداً. لقد قال ألستير: يجب أن يتوقف هذا!

تجمع يد ليتل أصابعي معاً، تجعل مفاصل أصابعي تطقطق ويقول: «ألا تعرفين أيضاً أن لديك أشخاصاً يهتمون بك حقاً؟ د. فيلدينغ، ومعالجتك الفيزيائية». ومن أيضاً؟... أريد أن أقول له هذا... ومن أيضاً؟... «و...» يقفز قلبي لحظة من مكانه؛ من الذي يهتم بأمري أيضاً؟ «... وهم يريدون مساعدتك».

تسقط نظراتي إلى الطاولة التي بيننا، تسقط إلى يدي المستقرة آمنة في يده. أتفحص اللمعة الذهبية الباهتة لخاتم الزواج في يده. أنظر إلى خاتم الزواج في يدي أيضاً.

يقول لي الآن بصوت أكثر هدوءاً: «لقد قال لي الطبيب... هو قال لي إن الأدوية التي تتناولينها يمكن أن تسبب هلوسات».

ويمكن أن تسبب اكتئاباً أيضاً. ويمكن أن تسبب أرقاً. ويمكن أن تسبب احتراقاً ذاتياً. لكن هذه ليست هلوسات. إنها...

«... قد لا تجدين مشكلة في هذا. وأعرف أنني لا أجد مشكلة فيه».

تقاطعه نوريلي: «جين روسل...»

لكن ليتل يرفع يده الأخرى من غير أن يبعد عينيه عني فتكف نوريلي عن الكلام.

يقول لي: «لقد تحققت زميلتي نوريلي من الأمر. تحققت من هوية السيدة التي تعيش في البيت مئتان وسبعة. إنها من تقول إنها هي...» لا أسأله كيف عرفوا هذا. ما عدت أبالي بالأمر كله. أنا متعبة كثيراً، كثيراً... «وتلك السيدة التي تظنين أنك التقيتها... وأنا أظن أنك... لم تلتقيها... »

فوجئت عندما أحسست برأسي يومئ بالموافقة على كلامه. لكن، في هذه الحالة، كيف...

لكنه يصل إلى هذه النقطة بالفعل: «قلت لي إنها ساعدتك في الخروج من حالة الشدة النفسية. لكن، أنت التي ساعدت نفسك. لعلك أنت من فعل ذلك... لست أدري... لعلك حلمت بها».

إن كنت أحلم بالأشياء وأنا مستيقظة... أين سمعت هذه الكلمات؟

يمكنني الآن أن أتصور هذا في رأسي، أن أتصوره كأنه فيلم بالألوان الحية: أنا... أجرجر نفسي عبر درجات الباب الأمامي العالية التي يشبه اجتيازها تسلق الصخور... أجرجر نفسي فأدخل الصالة، ثم أدخل البيت. أكاد أستطيع تذكر هذا.

«قلت لي أيضاً إنها كانت هنا، وإنها لعبت معك الشطرنج ورسمت لك صورة. لكن، من جديد...»

نعم، من جديد. أوه، يا ربي. ومن جديد، أرى هذا أيضاً: الزجاجات؛ وعلب الأدوية؛ وبيادق الشطرنج والوزيرين والجيشين المتقدمين معاً... يدي تمتد من فوق رقعة الشطرنج تحوم مثل طائرة هليكوبتر. أصابعي مبقعة بالحبر، وقلم مزروع بينها. لقد تدربت على ذلك الإمضاء، ألم أتدرب؟... تدربت على كتابة اسمها على باب الحمام وسط البخار ورشاش الماء فكانت الحروف تنزف على الزجاج وتختفي أمام عيني.

«... قال الطبيب إنه لم يسمع من قبل أي شيء عن هذا... فظننت أنك لم تخبريه بشيء، لأنك لم تريدي أن... أن يتحدث معك عن هذا».

أهز رأسي، ثم أومئ برأسي موافقة.

«... لست أدري ما هي تلك الصرخة التي سمعتِها...».

أنا من يدري. إنه إيثان. لم يزعم أي شيء آخر أبداً. وفي بعد ظهر ذلك اليوم، رأيته معها في ردهة بيتهما... لم يكن ينظر إليها. كان ينظر إلى شيء في حضنه لا إلى كرسي خالٍ إلى جانبه.

أنظر إليه الآن، فأراه ينزل بنتش إلى الأرض برفق. لا تترك عيناه عيني أبداً.

«... لست واثقاً مما يتعلق بهذه الصورة. يقول د. فيلدينغ إنك تمثلين أحياناً، وهذه قد تكون طريقتك الخاصة في طلب المساعدة».

هل رسمت تلك الصورة بنفسي؟ لقد رسمتها بنفسي، ألم أفعل هذا؟ لقد رسمتها. بالطبع رسمتها: احزروا من... هكذا أحيّي إد وأوليفيا. وهكذا حييت guesswhoanna.

«... أما فيما يتعلق بما رأيتِه تلك الليلة...».

أعرف ما رأيته تلك الليلة. لقد رأيت فيلماً. رأيت فيلم إثارة، فيلماً قديماً أنتج بالألوان من جديد. رأيت فيلم «النافذة الخلفية»؛ ورأيت «ازدواج الجسم»؛ ورأيت «انفجار». رأيت سلسلة أفلام، رأيت أرشيفاً كاملاً فيه مئة فيلم.

رأيت قتلاً من غير قاتل ومن غير ضحية. ورأيت غرفة جلوس فارغة، وأريكة فارغة. رأيت ما أردت رؤيته. ما كنت في حاجة إلى رؤيته. ألا تشعرين بالوحدة هنا؟ هكذا يسأل بوجي باكال في الفيلم، هكذا سألني.

وقد أجابته باكال: لقد ولدت وحيدة.

أنا لم أولد وحيدة. لقد جُعلت وحيدة.

إذا كنت قد تشوّهت إلى حد يجعلني أتكلم مع إد وأوليفيا، فمن المؤكد أنني قادرة على إنشاء جريمة قتل في عقلي، مع بعض المساعدة الكيميائية خاصة... مع بعض الأدوية. ثم، ألم أكن أقاوم الحقيقة طيلة الوقت؟ ألم ألوي الحقائق وأكسرها وأزيحها جانباً؟

جين... جين الحقيقية، جين التي من لحم ودم. طبعاً، إنها المرأة التي تقول إنها هي.

وطبيعي أيضاً أن القرط في غرفة ديفيد يخص كاثرين؛ أو هو يخص امرأة أخرى غيرها، كائنة من كانت.

ومن الطبيعي أيضاً أن أحداً لم يدخل بيتي ليلة أمس.

جاءني هذا كله، اقتحمني كأنه موجة. عصف بشواطئي، غسلها كلها. لم يترك خلفه شيئاً غير خطوط من رمل ناعم، خطوط مثل أصابع تشير إلى البحر.

لقد كنت مخطئة.

بل أكثر من هذا: لقد كنت واهمة.

بل أكثر من هذا: لقد كنت مسؤولة.

إنني مسؤولة.

إن كنت أحلم بأشياء وأنا مستيقظة، فهذا يعني أنني أفقد عقلي. هكذا هو الأمر. فيلم «المصباح الغازي».

صمت تام. لا أستطيع أن أسمع تنفّس ليتل.

وعند ذلك:

«هذا ما يحدث إذن...» ألستير يهز رأسه، وشفتاه مفتوحتان... «إنني... واو... يا إلهي». ينظر إليّ بإمعان... «أعني... يا إلهي».

أبتلع ريقي. ينظر إليَّ مرة أخرى، ويفتح فمه مرة أخرى، ثم يغلقه. يهز رأسه من جديد. وأخيراً يشير إلى ابنه ويسير في اتجاه الباب قائلاً: «نحن ذاهبان». يتبعه إيثان إلى الصالة. يرفع رأسه ملتفّتاً إلي. عيناه لامعتان. يقول لي بصوت منخفض: «أنا حزين جداً». أود أن أبكي.

ثم يذهب. أسمع صوت إغلاق الباب من خلفهما.

لم يبق الآن غيرنا نحن الأربعة.

يسير ديفيد خطوة إلى الأمام ويقول وهو مطرق برأسه كما لو أنه

يكلم أصابع قدميه: «هذا يعني أن الطفلة في تلك الصورة، في الأسفل... ميتة؟».

لا أجيبه بشيء.

«وعندما طلبتِ مني حفظ تلك المخططات، فهل كنت تريدين الاحتفاظ بها من أجل رجل ميت أيضاً؟».

لا أجيبه بشيء.

«و...» يشير إلى السلم الذي وضعته متراساً خلف باب القبو.

لا أقول شيئاً.

يومئ برأسه كأني قلت شيئاً. ثم يعلق حقيبته من كتفه ويستدير. يسير خارجاً من الباب.

تنظر إليه نوريلي أثناء خروجه وتقول: «أليس علينا أن نتكلم معه؟».

يسألني ليتل: «هل يزعجك؟».

أهز رأسي نفياً.

يترك يدي ويقول لي: «لا بأس. والآن... أنا لست... في الحقيقة... لست مؤهلاً للتعامل مع ما يحدث بعد هذا. عملي مقتصر على إنهاء الأمر كله والتأكد من سلامة الجميع ومواصلتهم لحياتهم. هذا يشملك أنت أيضاً. أعرف أن الأمر كله كان صعباً عليك. أعني... ما جرى اليوم. ولهذا أريد منك أن تتصلي مع د. فيلدينغ. أظن أن هذا مهم كثيراً».

لم أنطق بكلمة منذ أن قالت نوريلي ما قالته. زوجك وابنتك ميتان. لا يمكنني تخيل كيف سيكون صوتي إن نطقت، لا أعرف كيف سيكون صوتي في هذا العالم الجديد الذي قيلت فيه تلك الكلمات، العالم الذي سُمعت فيه تلك الكلمات.

لا يزال ليتل يتكلم: «أعرف أنك تكافحين، و...» يتوقف لحظة. وعندما يتكلم من جديد يكرر كلماته الأخيرة بصوت منخفض: «أعرف أنك تكافحين».

أومئ برأسي. ويومئ برأسه أيضاً.

«يبدو لي أنني أطرح عليك هذا السؤال كلما كنا هنا... لكن، هل لديك مشكلة في بقائك وحدك؟».

أومئ برأسي من جديد، بحركة بطيئة.

ينظر إلي: «آنا؟ د. فوكس؟».

لقد عدنا إلى د. فوكس. أفتح فمي وأقول: «نعم». أسمع نفسي مثلما يسمع المرء نفسه عندما تكون السماعات على أذنيه... يأتي الصوت بعيداً على نحو ما، يأتي مخنوقاً.

تبدأ نوريلي القول: «على ضوء...» لكن ليتل يرفع يده فتسكت. أتساءل عما كانت هذه المرأة تريد قوله.

يذكّرني ليتل: «إن لديك رقم هاتفي. وكما قلت لك... اتصلي مع د. فيلدينغ. أرجوك. أرجوك. إنه يريد أن يسمع كل شيء منك. لا تسببي لنا القلق. لا تسببي قلقاً لأي منا...» يشير إلى شريكته... «هذا يشتمل على نوريلي أيضاً. إنها مقاتلة في أعماق قلبها».

نوريلي تنظر إلي.

يسير ليتل متراجعاً الآن كما لو أنه لا يريد الاستدارة إلى الخلف. «وكما قلت لك، لديك الكثير من الأشخاص الجيدين الذين يمكنك الحديث معهم إذا أردت». تستدير نوريلي ثم تخرج وتختفي في الصالة. أسمع صوت حذائها على البلاط. أسمع صوت فتح الباب الأمامي.

أنا وليتل وحدنا الآن. إنه ينظر إلى ما خلفي. ينظر إلى النافذة. يقول لي بعد لحظة: «هل تعرفين؟... لا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله إذا حدث أي شيء لبناتي». عيناه في عينيَّ الآن... «لا أعرف ما يمكن أن أفعله».

يسعل قليلاً، ثم يرفع يده: «إلى اللقاء». يخطو خارجاً إلى الصالة، ثم يغلق الباب خلفه.

وبعد لحظة صغيرة، أسمع صوت إغلاق الباب الخارجي.

أظل واقفة في مطبخي. أنظر إلى مَجرّات الغبار تتشكل وتختفي في ضياء الشمس.

تتسلل يدي إلى كأسي. أرفعها بسرعة وأديرها في يدي. أرفعها إلى وجهي، ثم أستنشق الهواء.

وعندها، أرمي الكأس اللعينة إلى الجدار وأصرخ بصوت مرتفع؛ صرخة أعلى من أي صوت أطلقته في حياتي كلها.

76

أنا جالسة على حافة السرير أنظر أمامي مباشرة. ظلال تتراقص على الجدار قبالتي. أشعل شمعة... شمعة صغيرة موضوعة في وعاء صغير... شمعة أخرجها من علبتها الآن. إنها هديتي في عيد الميلاد، هدية من أوليفيا قبل سنتين. لهذه الشمعة شكل ثمرة تين. أوليفيا تحب التين.

كانت أوليفيا تحب التين!

يسري في الغرفة تيار هواء كأنه شبح يسكنها. يتمايل لهب الشمعة ويتمسك بالفتيل.

تمر ساعة. ثم تمر ساعة أخرى.

الشمعة تشتعل سريعاً. صار فتيلها نصف غارق في بركة من شمع ذائب. وأنا مسترخية حيث جلست. كفّايَ مستقران بين فخذيّ.

تضيء شاشة الهاتف، وأراه يهتز. جوليان فيلدينغ. الطبيب. من المفترض أن يراني غداً. لن يراني.

يسقط الليل مثلما تسقط ستارة.

لقد قال لي ليتل: عند ذلك، بدأت مشكلاتك. لكن مشكلاتك لا تريد أن تظل حبيسةً في داخلك. إنها تتجه إلى الخارج.

أخبروني في المستشفى أنني كنت في حالة صدمة. ثم صارت الصدمة خوفاً. ثم تغيّر شكل هذا الخوف وصار ذعراً. وعندما دخل د. فيلدينغ المشهد، كنت... لا بأس، لقد قالها بطريقة أبسط، بطريقة أحسن: «حالة حادة من رهاب الأماكن المفتوحة».

إنني في حاجة إلى أن أكون ضمن حدود بيتي التي ألفتُها، لأنني أمضيت ليلتين في تلك البريّة القاسية الغريبة، تحت تلك السموات الهائلة.

أنا في حاجة إلى بيئة أستطيع التحكم بها، لأنني كنت أنظر إلى زوجي وابنتي يموتان أمامي موتاً بطيئاً.

لاحظي أنني لا أسألك عن السبب الذي جعلك هكذا؛ هذا ما قالته لي، هذا ما قالته هي... أو، بالأحرى، هذا ما قلته لنفسي.

الحياة هي ما جعلني هكذا.

«احزري من؟».

أهز رأسي. لا أريد الحديث مع إد في هذه اللحظة.

«كيف حالك يا عزيزتي؟».

لكنني أهز رأسي من جديد. لا أستطيع الكلام. لن أتكلم.

«ماما؟».

لا.

«ماما؟».

أنتفض.

لا.

وفي لحظة ما، أميل جانباً وأنا جالسة، ثم أغفو. أجد رقبتي تؤلمني عندما أستيقظ، وأجد لهب الشمعة قد تضاءل حتى صار نقطة زرقاء صغيرة مرتجفة في الهواء البارد. الغرفة غارقة في الظلام.

أجلس، ثم أقف فتطقطق مفاصلي... عظامي سُلّم صدئ. أسير إلى الحمام.

عند عودتي، أرى بيت روسل مضاءً كله مثل بيوت الدمى. في الأعلى، إيثان جالس إلى كمبيوتره، وفي المطبخ، ألستير يقطّع شيئاً بالسكين على لوح التقطيع. إنه يقطع جزراً... جزر لامع تحت ضوء مصباح المطبخ القوي. كأس من النبيذ منتصبة على الطاولة أمامه. أحس جفافاً في فمي.

وفي الردهة، على الأريكة الصغيرة المخططة، تجلس تلك المرأة. أظن أنه صار عليّ الآن أن أدعوها باسم جين.

في إحدى يدي جين هاتف، وأصابع يدها الأخرى تتحرك على شاشته. لعلها تقلب صور الأسرة، لعلها تلعب لعبة سوليتير. أو لعلها تلعب شيئاً آخر... يبدو لي أن الألعاب كلها تدور من حول الفاكهة هذه الأيام.

أو لعلها تكتب لواحدة من صديقاتها: هل تذكرين عندما حدثتك عن تلك الجارة المجنونة؟...

تتقلص حنجرتي. أسير إلى النوافذ فأغلق ستائرها.

أقف هناك في الظلام: بردٌ، وأنا وحدي تماماً، يملؤني خوف وشيء أحسه أشبه بالاشتياق.

الثلاثاء

9 تشرين الثاني

77

أمضي فترة الصباح كلها في السرير. وفي وقتٍ ما قبل حلول الظهر، والنعاس يجعل نظري مشوشاً، أجد أصابعي تكتب رسالة إلى د. فيلدينغ: ليس اليوم.

يتصل بي بعد خمس دقائق من ذلك ويترك لي رسالة صوتية. لا أستمع إلى تلك الرسالة.

يمضي منتصف النهار؛ وفي الثالثة بعد الظهر يبدأ تقلُّص معدتي. أجرجر نفسي إلى الأسفل وأُخرج من الثلاجة حبة طماطم موشكة على الفساد.

أبدأ بقضمها فيحاول إد أن يتحدث معي. ثم تحاول أوليفيا. أستدير مبتعدة عنهما وعصير الطماطم يسيل على ذقني.

أضع طعاماً للقط. أبتلع قرص تيمازيبام. ثم أبتلع قرصاً ثانياً. ثم ثالثاً. أنطوي على نفسي في السرير لأنام. الآن، لا أريد شيئاً غير النوم.

الأربعاء

10 تشرين الثاني

78

يوقظني جوعي. في المطبخ، أسكب بعض محتويات علبة حبوب الإفطار في طبق عميق، ثم أضيف إليها شيئاً من الحليب. اليوم ينتهي تاريخ صلاحية علبة الحليب. أنا لا أحب حبوب الإفطار هذه؛ لكن إد كان يحبها. نعم، إد يحبها. إنها تزعج بلعومي وتخدش باطن فمي. لا أعرف السبب الذي يجعلني أستمر في شرائها.

لكنني أعرف السبب!

أنا راغبة في الانسحاب إلى سريري، لكني أجعل قدميّ تتجهان صوب غرفة المعيشة. ثم أسير ببطء إلى خزانة التلفزيون فأفتح الدرج. أظنني سأشاهد فيلم «الدوامة». خطأ في هوية شخص... أو بالأحرى، هوية مسلوبة من صاحبها. أحفظ حوار الفيلم عن ظهر قلب. ومن الغريب أنه سوف يهدّئني.

يصرخ الشرطي بجيمي ستيورات، يصرخ بي: «ماذا دهاك؟ أعطني يدك!». ثم يختل توازنه ويسقط من فوق سطح البناء.

شيء مهدّئ على نحو غريب. يصل الفيلم إلى منتصفه فأسكب لنفسي كمية إضافية من حبوب الإفطار. يتمتم إد عندما أغلق باب البراد؛ وتقول أوليفيا شيئاً لا أفهمه. أعود إلى الأريكة وأرفع صوت التلفزيون.

تسأل المرأة الجالسة في سيارة الجاكوار الخضراء: «هل هي زوجته؟ يا للمسكينة. لم أعرفها. قل لي، هل صحيح أنها تظن...».

أغطس أكثر بين الوسائد. ثم يغلبني النوم.

في وقت ما بعد ذلك، خلال مرحلة التحول في الفيلم («لا أريد أن ألبس مثلما يلبس شخص ميت!»)، يرن هاتفي: هزة صغيرة ترجّ زجاج طاولة القهوة الصغيرة. أظنه د. فيلدينغ. أمد يدي إلى الهاتف.

تصيح كيم نوفاك في الفيلم: «ألهذا أنا موجودة هنا؟... حتى أجعلك تحس كأنك مع شخص ميت؟».

أرى على شاشة الهاتف اسماً: ويسلي بريل.

أتجمد لحظة في مكاني. ثم أسكت صوت التلفزيون وأضغط على الهاتف بإبهام يدي فأفتحه. أرفعه إلى أذني.

أكتشف أنني لا أستطيع الكلام. لكني لست في حاجة إلى الكلام. فبعد لحظة صمت، أسمعه يحيّيني: «أسمعك تتنفسين هناك يا فوكس».

لم نلتقِ منذ أحد عشر شهراً تقريباً، لكن صوته لا يزال قوياً كالرعد، مثلما هو دائماً.

يتابع كلامه: «قالت لي فوبي إنك اتصلت بي. كنت أعتزم الاتصال يوم أمس، لكنه كان يوماً مزدحماً. كنت شديد الانشغال».

لا أقول شيئاً. ويظل دقيقة من غير أن يقول شيئاً.

ثم... «أنت تسمعينني يا فوكس، ألا تسمعينني؟».

«أنا هنا». لم أسمع صوتي منذ أيام. يبدو لي غير مألوف، يبدو لي هشاً كأن شخصاً غيري يتكلم من خلالي.

«جيد. هذا ما افترضته». يبدو كمن يمضغ كلماته مضغاً فأدرك أن سيجارته في فمه... يمسكها بين أسنانه. «كانت فرضيتي صحيحة». دفقة من صوت أبيض. إنه ينفث الدخان قبالة سماعة الهاتف.

أبدأ القول: «كنت أريد الحديث معك».

يهدأ تماماً. أستطيع الإحساس به. ينتقل إلى وضع آخر؛ أستطيع سماع ذلك عملياً... إنه شيء في تنفسه. إنه يتخذ وضعية الطبيب النفسي.

«أردت أن أقول لك...».

صمت طويل. يسعل ويسلي سعلة صغيرة. أدرك أنه متوتر؛ وهذا شيء غريب تماماً. ويسلي الذكي... متوتر!

أفلح أخيراً في القول: «إنني أمر بفترة عصيبة».

يسألني: «هل هنالك شيء محدد؟».

أود أن أصيح: الأمر متعلق بموت زوجي وابنتي... «الأمر متعلق بـ...».

«ممم». هل يريد أن أتوقف عن الكلام أم أنه ينتظر سماع المزيد؟

«في تلك الليلة...» لا أعرف كيف أكمل جملتي. أحس كما لو أنني إبرة بوصلة تدور حول نفسها بحثاً عن اتجاه تستقر عليه.

«بماذا تفكرين يا فوكس؟» ذكاء كبير منه أن يستحثني بهذه الطريقة. أعرف من تجربتي أن على الطبيب أن يترك المريضة تسير وفق إيقاعها الخاص؛ لكن ويسلي يتحرك بسرعة أكبر.

«تلك الليلة...».

* * *

في تلك الليلة أتاني اتصال منك، تماماً قبل أن تنحرف السيارة وتسقط من فوق جرف. لست ألومك ولا أقول إن لك علاقة بالأمر. أريدك فقط أن تعرف هذا.

كان الأمر قد انتهى في تلك الليلة... أربعة شهور من الكذب... من الكذب على فوبي التي يمكن أن تكون قد اكتشفت أمرنا. ومن الكذب على إد الذي يمكن أن يكون قد اكتشف أمرنا فعلاً. ففي عصر ذلك اليوم من أيام كانون الأول، أخطأت فأرسلت إليه على الهاتف رسالة كتبتها لك أنت.

في تلك الليلة، ندمت على كل لحظة أمضيناها معاً: الصباحات في الفندق الذي عند زاوية الشارع، والضوء الذي ينظر إلينا مستحياً عبر الستائر، والأمسيات التي أمضينا ساعات منها في تبادل الرسائل على هاتفينا. ندمت على ذلك اليوم الذي بدأ فيه كل شيء بكأس نبيذ في مكتبك.

في تلك الليلة، كان قد مضى على بداية عرضنا البيت في السوق أسبوع واحد عندما بدأ وكيلنا العقاري يضع مواعيد لمن يريدون رؤية البيت وكنت أعترف لإد وكان يحاول إجبار نفسه على النظر إليّ. كنت أنظر إليك كما أنظر إلى بنت الجيران.

تلك الليلة...

* * *

لكنه يقاطعني.

«سأكون شديد الصراحة معك يا آنا»... أتيبس لأنه (رغم كونه صريحاً معظم الأحيان) لا يخاطبني باسمي الأول إلا نادراً جداً... «لقد كنت أحاول أن أضع ما حدث خلف ظهري». يصمت قليلاً... «كنت أحاول هذا وأنجح فيه إلى حد كبير».

أوه!

«... لم تكوني راغبة في رؤيتي بعد ذلك. في المستشفى، لقد أردت... اقترحت أن آتي لرؤيتك في البيت، هل تذكرين هذا؟ لكنك لم توافقي. ولم تتواصلي معي بعد ذلك». إنه يتعثر في نطق الكلمات، ويتلعثم كأنه رجل يخوض في ثلج عميق. كأنه امرأة تدور حول سيارتها التي تعطلت.

«... أنا لم... لا أعرف إن كنت ترين أحداً. أعني... إن كنت ترين طبيباً متخصصاً. يسعدني أن أنصحك بأحدهم». صمت قصير... «أما إذا كنت ترين طبيباً، فعندها... حسنٌ...» صمت آخر، صمت أكثر طولاً هذه المرة... «لست واثقاً مما تريدينه مني».

لقد كنت مخطئة. إنه لا يلعب الآن دور الطبيب النفسي. إنه لا يحاول مساعدتي. لقد انتظر يومين قبل أن يرد على اتصالي. إنه يبحث عن مهرب.

وماذا عني أنا؟ ما الذي أريده منه؟ من المنصف طرح هذا السؤال. لستُ ألومه، حقاً. ولستُ أكرهه. ولستُ مشتاقة إليه.

عندما اتصلت بمكتبه... هل كان هذا قبل يومين فقط؟... لا بد أنني كنت أريد شيئاً. لكن نوريلي نطقت بتلك الكلمات السحرية فتغير العالم كله. ما عادت للأمر أيّ أهمية الآن.

أظنني قلت هذه الكلمات بصوت مرتفع. إنه يسألني: «ما الذي لم تعد له أهمية؟».

أقول في نفسي: أنت.

لكنني لا أقولها.

بدلاً من قول ذلك، أنهي المكالمة.

الخميس

11 تشرين الثاني

79

يرن جرس الباب في الساعة الحادية عشرة تماماً. أنتزع نفسي من السرير انتزاعاً وأسترق النظر من النافذة. إنها بِينا، واقفة عند الباب، وشعرها الأسود لامعٌ في شمس الصباح. لقد نسيت اتفاقنا على أن تزورني اليوم. لقد نسيت وجودها كله.

أخطو إلى الوراء خطوة، وأنظر إلى البيوت على الناحية الأخرى من الشارع. أمسحها بنظري من الشرق إلى الغرب: الشقيقتان غراي، وآل ميلر، وأسرة تاكيدا، وذلك البيت المزدوج المهجور. مملكتي الجنوبية.

يُرن جرس الباب من جديد. أنزل إلى الطابق السفلي وأصل إلى باب الصالة فأراها في شاشة الإنترفون. أضغط على الزر وأقول لها: «لست في حالة حسنة اليوم».

أنظر إليها وهي تقول: «هل أدخل؟».

«لا، إنني بخير».

«هل أستطيع الدخول؟».

«لا. شكراً لك. إنني في حاجة حقيقية إلى أن أكون وحدي».

تعض على شفتها وتقول لي: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أقول من جديد: «إنني في حاجة حقيقية إلى أن أكون وحدي».

تهز رأسها: «لا بأس».
أنتظر أن تنصرف.
«أخبرني د. فيلدينغ بما حدث. سمع بالأمر من الشرطة».
لا أقول لها شيئاً. أغمض عينيَّ فقط. صمت طويل.
تقول: «لا بأس... إذن، سأراك في الأسبوع المقبل. يوم الأربعاء، كعادتنا».
ربما لا... لكني أقول لها: «نعم».
«وهل تعدينني بأن تتصلي بي إذا كنت في حاجة إلى أي شيء؟».
لن أتصل بها... «سأتصل».
أفتح عيني فأراها تومئ برأسها من جديد. تستدير، ثم تهبط الدرجات أمام الباب.
انتهى الأمر. د. فيلدينغ أولاً، والآن بينا. هل بقي غيرهما؟ نعم: بقي إيف، غداً. سوف أكتب له من أجل إلغاء موعد الدرس. سأكتب له بالفرنسية: لست قادرة على...
بل سأكتب له بالإنكليزية.
قبل أن أعود إلى السلم، أملأ وعاءَيْ الماء والطعام من أجل بنتش. يجري إلى طعامه، ويغمس لسانه في وليمته المفضلة، ثم ينصُب أذنيه... يبدأ الهرير.
ديفيد الذي في الطابق السفلي. لم أفكر به منذ فترة.
أتوقف قليلاً عند باب القبو، ثم أمسك بالسلم وأزيحه جانباً. أدق الباب، ثم أناديه باسمه.
لا شيء. فأناديه من جديد.
هذه المرة، أسمع صوت خطواته. أدير المفتاح في القفل وأخاطبه بصوت مرتفع: «لقد فتحت القفل. يمكنك الدخول، إن أردت».
ينفتح الباب قبل أن أنهي كلامي. أراه واقفاً أمامي تحت الباب

بدرجتين؛ أراه بقميص ذي كمين قصيرين وبنطلون جينز حائل اللون.
ينظر كل منا إلى الآخر.

أنا أول من يتكلم: «كنت أريد أن...»

يقول لي: «إنني أحزم حقائبي لأترك البيت».

أنظر إليه بدهشة.

«لقد اتخذتْ الأمور مجرى... غريباً».

أومئ برأسي.

يبحث عن شيء في جيب بنطلونه الخلفي، ثم أراه يسحب قطعة من ورق. يعطيني الورقة.

آخذ الورقة من غير أن أتكلم، ثم أفتحها.

الأمر لا ينجح هكذا! يؤسفني أنني سببت لك الإزعاج. تركت المفتاح تحت الباب.

أومئ برأسي من جديد. أسمع تكتكة ساعة الجد من غرفة المعيشة.

أقول له: «لا بأس».

يقول: «ها هو المفتاح...» يقدمه إليّ... «سأغلق الباب خلفي عند خروجي».

آخذ المفتاح منه. صمت قصير آخر.

ينظر في عيني ويقول: «ذلك القرط...».

«أوه، لست مضطراً إلى...».

«إنه قرط امرأة اسمها كاثرين. مثلما قلت لك من قبل. وأنا لا أعرف زوجة ذلك الرجل الذي اسمه روسل».

أقول: «أعرف هذا! أنا آسفة».

يومئ برأسه ثم يغلق الباب.

أترك الباب غير مقفل.

أعود إلى غرفة نومي. أكتب للدكتور فيلدينغ رسالة نصية قصيرة جداً:

أنا على ما يرام. أراك يوم الإثنين. يتصل بي على الفور. يرن الهاتف، ثم يرن، ثم يرن، ثم يصمت.

بينا، ديفيد، د. فيلدينغ. إنني أُخلي البيت.

أتوقف في الممر المؤدي إلى الحمام الرئيسي وأنظر إلى الدوش مثلما قد ينظر المرء إلى لوحة في معرض. لا أريد الاستحمام، أقرر هذا، أو... ليس اليوم على الأقل. أختار ثوباً (يجب أن أغسل الثوب الذي تبقع؛ أذكر نفسي بهذا رغم معرفتي أن بقعة النبيذ لن تزول لأنها صارت الآن مثل وشم على النسيج)، ثم أمضي إلى غرفة المكتب.

مضت ثلاثة أيام منذ آخر مرة جلست فيها إلى كمبيوتري. أمسك بالفأرة وأزيحها جانباً. تضيء الشاشة وتطلب مني إدخال كلمة المرور.

أدخل كلمة المرور. ومن جديد، أرى صورة وجهي النائم.

أتراجع إلى الخلف في الكرسي. طيلة هذا الوقت، ظلت الصورة مختبئة خلف سواد الشاشة، ظلت سراً بشعاً. تضرب يدي الفأرة كأنها أفعى: أضع المؤشر عند الزاوية، وأغلق الصورة.

أنظر الآن إلى الرسالة التي حملت هذه الصورة. guesswhoanna.

أحزري من. لست أتذكر أنني فعلت هذا.

ما الذي قالته لي نوريلي؟ «صورة التقطتِها لنفسك بنفسك عند منتصف الليل؟» أضع يدي على قلبي؛ ليست عندي ذاكرة. لكن تلك الكلمات كلماتي أنا، كلماتنا؛ وديفيد لديه دليل يثبت عدم وجوده هنا (لم أعرف في حياتي أبداً أي شخص لديه دليل يثبت عدم وجوده، أو دليل يثبت وجوده)؛ ولا يمكن أن يكون أحدٌ غيري قد دخل غرفة نومي. ما من أحد يكرر معي ما يحدث في فيلم «المصباح الغازي».

لكن، أليس من المفترض أن تكون الصورة باقية في الكاميرا؟

يتجهم وجهي.

نعم، لا بد أن تكون هناك إلا إذا خطر في بالي أن أحذفها في تلك اللحظة. لكن... حسنٌ... لكن.

الكاميرا قابعة على حافة طاولة المكتب. وحمالتها متدلية إلى جانبه. أمد يدي إليها. أجذبها في اتجاهي. أشغّلها وأستعرض الصور التي فيها.

آخر الصور: ألستير روسل ملتفاً بمعطفه الشتوي يقفز صاعداً الدرجات التي أمام بيته. تاريخ هذه الصورة: السبت، السادس من تشرين الثاني. لا شيء بعد ذلك التاريخ. أغلق الكاميرا، ثم أضعها على الطاولة من جديد.

لكن هذه الكاميرا أثقل بكثير من أن تكون صالحة لأن ألتقط بها صورة لنفسي. أسحب هاتفي من جيب ثوبي، وأدخل رمز المرور، ثم أنقر على أيقونة الصور.

ها هي الصورة... أول صورة تظهر لي: «اللقطة نفسها لكنها صغيرة هنا بحجم شاشة الهاتف. الفم المفتوح، والشعر المحلول، والوسادة النافرة... والتوقيت الظاهر على الصورة أيضاً: الثانية ودقيقتان صباحاً. لا يعرف أحد غيري رمز الدخول إلى هذا الهاتف.

لا يزال هنالك اختبار ممكن آخر، لكنني صرت أعرف نتيجته منذ الآن.

أفتح متصفح الإنترنت، ثم أدخل إلى gmail.com. وعلى الفور، أصل إلى الرسالة وأرى في حقل اسم المستخدم: guesswhoanna.

لقد فعلتُ هذا بنفسي حقاً. احزري مَن، يا آنا؟

نعم، لا بد أن يكون الفاعل أنا. لا يعرف أحد غيري كلمة المرور لهذا الكمبيوتر. فحتى لو كان في البيت أحد غيري، حتى إن تمكن ديفيد من الوصول إلى هذه الغرفة، فإنني الشخص الوحيد الذي يعرف كلمة المرور.

ينخفض رأسي حتى ركبتي.

أقسم أنني لا أتذكر من هذا كله شيئاً.

80

أعيد الهاتف إلى جيبي، وألتقط أنفاسي، ثم أدخل إلى موقع Agora. فيض من الرسائل ينتظرني. أستعرض تلك الرسائل. معظمها رسائل

عادية: DiscoMickey، وPedro من بوليفيا، وTalia من منطقة الخليج. بل حتى Sally4th... كتبت: أنا حامل !!! سألد في نيسان!!

أحدق في الشاشة لحظة. يؤلمني قلبي. أعود إلى الرسائل الجديدة. أربعة يطلبون مساعدتي. تحوم أصابعي فوق لوحة المفاتيح، ثم تسقط في حضني. من أكون حتى أخبر أي شخص كيف يمكنه تدبير اضطراباته؟ أحدد تلك الرسائل كلها. ثم أحذفها.

أكون موشكة على مغادرة الموقع عندما تظهر نافذة المحادثة.

GrannyLizzie: كيف حالك يا دكتورة آنا؟

لِمَ لا؟ لقد ودعت الآخرين جميعاً.

thedoctorisin: أهلاً ليزي! هل لا يزال ولداك عندك؟

GrannyLizzie: ويليام لا يزال عندي.

thedoctorisin: عظيم! وكيف تقدمك؟

GrannyLizzie: أتقدم بطريقة مدهشة حقاً. إنني أخرج من البيت بانتظام. كيف حالك أنت؟

thedoctorisin: كل شيء بخير! اليوم عيد ميلادي.

أقول في نفسي: يا إلهي، هذا صحيح! لقد نسيت الأمر تماماً. يوم ميلادي. لم أفكر فيه ولا مرة واحدة خلال الأسبوع الماضي كله.

GrannyLizzie: عيد ميلاد سعيد! وهل صار الرقم كبيراً؟

thedoctorisin: لا، أبداً. إلا إذا كنت ترين 39 رقماً كبيراً!

GrannyLizzie: أنا مستعدة لإعطاء أي شيء حتى...

GrannyLizzie: هل تحدثت مع أسرتك أخيراً؟

تضغط يدي على فأرة الكمبيوتر.

thedoctorisin: يجب أن أكون صادقة معك.

GrannyLizzie: ؟

thedoctorisin: توفي زوجي وتوفيت ابنتي في كانون الأول الماضي.

لا إجابة.

thedoctorisin: في حادث سيارة.

thedoctorisin: لقد أقمت علاقة مع شخص آخر. تشاجرنا أنا وزوجي من أجل هذا الأمر، فانحرفت بنا السيارة عن الطريق.

thedoctorisin: كنت أقود السيارة عندما انحرفت.

thedoctorisin: وأنا أستعين بطبيب نفسي حتى يساعدني في التعامل مع إحساسي بالذنب، إضافة إلى مشكلة رهاب الأماكن المفتوحة.

thedoctorisin: أردت أن تعرفي الحقيقة.

يجب أن أُنهي هذا الأمر.

thedoctorisin: عليّ أن أذهب الآن. تسعدني معرفة أن حالتك في تحسُّن.

GrannyLizzie: أوه، يا فتاتي العزيزة.

أرى أنها تكتب رسالة أخرى، لكنني لا أنتظرها. أغلق النافذة، ثم أخرج من الموقع.

يكفيني هذا فيما يتعلق بموقع Agora.

81

مرت علي الآن ثلاثة أيام من غير أن أشرب شيئاً.

أنتبه إلى هذا وأنا أضع فرشاة الأسنان في فمي. (يستطيع جسمي انتظار الحمام؛ أما أسناني فلا تستطيع الانتظار). ثلاثة أيام... متى كانت آخر مرة استمر صمودي هذه الفترة كلها؟ بل إنني لم أكن أفكر بهذا على الإطلاق.

أحني رأسي، وأبصق في المغسلة.

خزانة الأدوية مزدحمة بأنابيب أقراص الدواء وعلبها وقواريرها. أخرج منها أربعة أدوية.

أنزل إلى الأسفل. يسقط ضوء أول المساء الرمادي عبر النافذة السماوية في أعلى السلم.

أجلس على الأريكة، ثم أختار إحدى العلب فأفتحها وأقلبها ثم

أسحبها على امتداد الطاولة الصغيرة. يرتسم خلف العلبة صف من الأقراص الصغيرة كأنها فُتات خبز.

أنظر إليها ملياً. أحصيها. أجرفها إلى راحة يدي. ثم أبعثرها فوق الطاولة.

أحمل قرصاً إلى فمي.

لا... ليس بعد.

يخيّم الليل سريعاً.

أذهب إلى النوافذ وألقي نظرة طويلة إلى ما خلف الحديقة. ذلك البيت. إنه مسرحُ دماغي الفريد من نوعه. أقول في نفسي: كم هذا شاعري!

نوافذ البيت متألقة كأنها شموع احتفال عيد ميلاد. غرفه فارغة.

أحس كأن جنوناً قد فارقني. أرتجف.

أحمل نفسي على صعود السلم، ثم أذهب إلى غرفتي. سوف أعيد غداً مشاهدة بعض أفلامي المفضلة. «حرير منتصف الليل». «المراسل الخارجي»... «عطر الطاحونة»، على الأقل. «ثلاث وعشرون خطوة إلى شارع بيكر». ربما أشاهد فيلم «الدوامة»، من جديد؛ داهمني النعاس فنمت أثناء مشاهدته.

ويوم بعد غد...

أنا مستلقية في السرير؛ يملأ النعاس رأسي. أصغي إلى نبض البيت... ساعة الجد في الأسفل تدق التاسعة؛ وطقطقة خفيفة في أرضيات البيت.

يهتف إد وأوليفيا معاً: «كل عام وأنت بخير». أنقلب في السرير، أنقلب مبتعدة عنهما.

اليوم عيد ميلاد جين أيضاً، أتذكر هذا. إنه يوم ميلادها الذي أعطيتها إياه، الحادي عشر من الشهر الحادي عشر. وبعد ذلك، في قلب الليل، عندما استيقظت لحظة، سمعت القط يجوس درجات السلم الغارقة في ظلام دامس.

الجمعة

12 تشرين الثاني

82

ينصبّ عبر النافذة السماوية في أعلى السلم شلال من ضوء الشمس فيغسل الظلمة عن الدرجات كلها وينسكب في الفسحة السفلى إلى جوار المطبخ. أحس كأنني واقفة تحت أضواء كاشفة عندما أخطو فأدخل هذه الدائرة المضيئة.

وأما خارجها فالبيت مظلم كله. لقد أسدلت الستائر كلها. وأغلقت النوافذ. الظلمة كثيفة كأنها دخان... أكاد أستطيع شمها.

المشهد الأخير من فيلم «الحبل» على شاشة التلفزيون الآن. شابان وسيمان، وزميل دراسة مقتول. وجثة موضوعة في صندوق أثري في مركز الردهة، ثم جيمي ستيورات من جديد يظهر في ما يبدو أنه لقطة واحدة (هي في الحقيقة مقاطع يبلغ طول الواحد منها عشر دقائق لكنها مجموعة معاً؛ إلا أن النتيجة تبدو مقطعاً موحداً لا شائبة فيه بالنظر، خاصة أن الفيلم من إنتاج سنة 1948). يقول فيرلي غرينغر والشبكة تطبق عليه: قط وفأر، قط وفأر. لكن، من هو القط ومن هو الفأر؟ أقول هذه الكلمات بصوت مرتفع.

وأما قطي، أنا فأراه ممدداً فوق مسند الأريكة. ذيله يتأرجح كأنه حية مسحورة. لا بد أن شيئاً أصاب قائمته الخلفية اليسرى؛ أجده يعرج في سيره هذا الصباح، يعرج كثيراً. لقد ملأت وعاء طعامه بما يكفيه عدة أيام، فقط حتى لا...

يرن جرس الباب.

أستند إلى الوسائد، ويلتفت رأسي في اتجاه الباب.

من عساه يكون.

ليس ديفيد؛ وليست بِينا. وبالتأكيد، ليس د. فيلدينغ. لقد ترك لي عدة رسائل صوتية، لكني أشك في احتمال مجيئه من غير سابق إنذار. إلا إذا كان قد أخبرني ذلك في إحدى رسائله الصوتية التي تجاهلتها فلم أسمعها.

يرن جرس الباب من جديد. أوقف الفيلم وأُنزل قدمي إلى الأرض، ثم أقف. أسير إلى الإنترفون. إنه إيثان. يداه في جيبيه، وشال يلف رقبته. يبدو شعره كأنه لهب تحت ضوء الشمس.

أضغط الزر وأسأله: «هل يعرف أهلك أنك هنا؟».

يقول لي: «نعم، لا مشكلة».

أتوقف لحظة.

يضيف قائلاً: «البرد شديد هنا».

أضغط زر فتح الباب.

وبعد لحظة، أراه يدخل غرفة المعيشة والهواء البارد يتدفق لاحقاً به. ينشق بأنفه ويقول: «شكراً»... أنفاسه متقطعة... «الطقس شديد البرودة في الخارج».

ينظر من حوله: «المكان هنا مظلم جداً».

أقول: «هذا لأن ضياء الشمس شديد في الخارج»؛ لكنه محق. أضيء المصباح.

«هل أفتح الستائر؟».

«بالتأكيد. في الحقيقة، لا. صار النور هكذا جيداً، أليس كذلك؟».

يقول لي: «لا بأس».

أجلس على الكرسي الطويل. يسألني إيثان وهو يشير إلى الأريكة: «هل علي أن أجلس هنا؟».

هل عليّ، هل عليّ؟ هذا حرص وتحفظ كبيران من ولد مراهق.

أجيبه: «طبعاً». فيجلس. يقفز بنتش عن مسند الأريكة، ثم يسرع فيزحف تحتها.

ينظر إيثان إلى الغرفة: «هل يعمل هذا الموقد؟».

«إنه يعمل على الغاز. نعم، إنه يعمل. هل تريد أن أشعل النار فيه؟».

«لا، كنت أتساءل فحسب».

صمت.

«لماذا هذه الأقراص؟».

أنظر إلى طاولة القهوة المرصعة بأقراص الدواء. عليها أربع علب، واحدة منها فارغة، تقف متقاربة في طبق بلاستيكي صغير.

أقول موضحة: «كنت أعدها».

«أوه، فهمت».

مزيد من الصمت.

أبدأ القول «إيثان...»؛ أقول اسمه فقط فيقول لي: «لقد جئت لكي...»

أندفع قائلة: «إنني آسفة جداً».

يميل برأسه: «وأنا آسف أيضاً».

«أنا آسفة»... أراه الآن ينظر في حضنه، لكنني أتابع... «آسفة على تلك المشكلات كلها، وعلى إدخالك فيها. لقد كنت... واثقة... كثيراً. كنت واثقة تماماً من أن شيئاً ما كان يحدث».

يومئ برأسه في اتجاه الأرض.

«لقد كانت... إنها سنة شديدة الصعوبة». أغمض عيني، وعندما أفتحهما من جديد أراه ينظر إلي بعينين لامعتين، باحثتين.

«فقدت طفلتي، وفقدت زوجي...» أبتلع ريقي، ثم أقول تلك الكلمة: «لقد ماتا. إنهما ميتان». تنفسي. تنفسي. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

«ثم بدأت الشرب. صرت أشرب أكثر من الحد المعتاد. وبدأت أحاول معالجة نفسي، وهو تصرف خاطئ وخطير». ينظر إيثان إليَّ باهتمام شديد.

«ليس الأمر كأنهما... أعني أنني لم أكن أصدق أنهما يتواصلان معي فعلاً... أظنك تفهم هذا، يتواصلان معي من...»

يقول بصوت منخفض: «من الجانب الآخر».

«تماماً». أغير جلستي، وأنحني إلى الأمام... «كنت أعرف أنهما رحلا. ماتا. لكنني أحب سماع صوتيهما. كما أن المشاعر... من الصعب كثيراً أن أشرح هذا».

«هل تقصدين أن المشاعر تظل كأنها متصلة؟».

أومئ برأسي. إنه مراهق غير اعتيادي أبداً.

«وأما بالنسبة لما تبقى، فأنا لست... لا أستطيع حتى أن أتذكر معظم ما جرى. أظنني كنت أريد التواصل مع أشخاص آخرين، أو كنت في حاجة إلى...» يحتك شعري بوجنتيّ عندما أهز رأسي... «أنا لا أفهم هذا...» أنظر إليه مباشرة... «لكني شديدة الأسف». أسعل قليلاً ثم أنصب قامتي... «أعرف أنك لم تأتِ إلى هنا حتى ترى شخصاً كبيراً يبكي».

يقول لي مذكِّراً: «لقد بكيت أمامك».

أبتسم: «نحن متعادلان».

«هل تتذكرين أنني استعرت منك فيلماً؟» يخرج غلافاً من جيب معطفه ويضعه على الطاولة الصغيرة «يجب أن يحل الليل». لقد نسيت أنه استعار هذا الفيلم.

أسأله: «هل تمكنت من مشاهدته؟».

«نعم».

«ما رأيك فيه؟».

«مخيف. ذلك الرجل!»

«روبرت مونتغومري».

«هل هو الذي يمثل دور داني؟».

«نعم».

«مخيف حقاً. أعجبني ذلك الجزء من الفيلم حيث يسأل الفتاة... ما اسمها؟»

«روزالينا روسل».

«هل هي أوليفيا في الفيلم؟».

«نعم».

«حيث يسألها إن كان يعجبها، فيبدو عليها كأنها تريد أن تقول له لا. أما هو فيقول: يحبني الجميع». يقهقه ضاحكاً. أبتسم له.

«يسعدني أن الفيلم أعجبك».

«نعم، أعجبني».

«ليست الأفلام التي بالأبيض والأسود أفلاماً سيئة».

«لا، كان فيلماً جيداً».

«يسرني أن تستعير أي فيلم تريد أن تشاهده».

«شكراً».

«لكني لا أريد أن تقع في مشاكل مع أبيك وأمك». أراه الآن يشيح بوجهه ويتشاغل بالنظر إلى الموقد. أتابع فأقول: «أعرف أنهما يغضبان كثيراً».

يضحك ضحكة صغيرة ساخرة ويقول: «إن لديهما مشاكلهما». ينظر إلي من جديد... «العيش معهما صعب فعلاً. شيء شديد الصعوبة».

«أظن أن هنالك الكثير من الأطفال والشبان ممن لديهم هذا الشعور تجاه أهلهم».

«لا، بل هما كذلك حقاً».

أومئ برأسي.

يقول لي: «لا أطيق انتظار لحظة ذهابي إلى الكلية. بقيت أمامي سنتان. بل أقل من سنتين».

«هل لديك كلية محددة تريد الذهاب إليها؟».

يهز رأسه ويقول: «في الحقيقة، لا. لكنني أريد مكاناً بعيداً». يدس يده خلف ظهره ويحكه: «وأنا ليس لدي أصدقاء كثير هنا أصلاً».

أسأله: «هل لديك صديقة؟».

يهز رأسه.

«صديق؟».

ينظر إلي وقد فوجئ بهذا. يرفع كتفيه ويقول موضحاً: «إنني أحاول استبيان الأمور لكي أعرف ما أريد».

أقول له: «هذا من حقك». أتساءل إن كان أبوه وأمه على علم بهذا.

تدق ساعة الجد دقة، دقتين، ثلاث دقات، أربع دقات.

«هل تعرف أن الشقة في الأسفل خالية؟».

يعبس إيثان: «ماذا حدث لذلك الشخص؟».

«لقد رحل...» أتنحنح وأسعل من جديد... «لكن... يمكنك استخدامها إن كنت راغباً في ذلك. تستطيع استخدام المكان. أعرف ذلك الإحساس عندما يكون المرء في حاجة إلى حيّز خاص به».

هل أحاول العودة إلى ألستير وجين؟ لا أظن هذا. لا أظن هذا. لكن الأمر قد يكون لطيفاً... سيكون لطيفاً. أنا واثقة... إذا صار لدي واحد هنا. وتحديداً إذا صار لدي شخص في مقتبل العمر، حتى وإن كان مراهقاً يشعر بالوحدة.

أتابع الشرح كما لو أنني أحاول إبرام صفقة بيع: «ليس في الشقة تلفزيون، لكنني أستطيع إعطاءك رمز المرور إلى الواي فاي. إن في المكان أريكة أيضاً...» أقول هذا كما لو أنني أحاول إقناع نفسي... «من الممكن أن يكون هذا مكاناً لك حتى تتمكن من الابتعاد عن الأشياء المزعجة في البيت».

يقول: «سيكون هذا شيئاً رائعاً».

أنهض واقفة قبل أن يغير رأيه. مفتاح ديفيد على طاولة المطبخ. قطعة فضية صغيرة في هذا الضوء الخافت. ألتقطه وأقدمه إلى إيثان فينهض واقفاً بدوره.

يكرر كلمته: «رائع»، ثم يضع المفتاح في جيبه.

أقول له: «يمكنك المجيء في أي وقت».

يلقي نظرة في اتجاه الباب: «أظن أن عليَّ العودة إلى البيت الآن».

«بالطبع».

«أشكرك على...» يربت على جيبه... «وعلى الفيلم أيضاً».

أسير خلفه في الصالة: «أنت مرحَّب بك أيضاً».

وقبل ذهابه، يستدير ويلوح بيده في اتجاه الأريكة قائلاً: «هذا الصغير مصاب بالخجل اليوم...» ثم ينظر إلي ويقول: «صار لدي هاتف»، ثم يخرجه معتزاً بنفسه.

«أهنؤك».

«ألا تريدين رؤيته؟».

«بالتأكيد».

يناولني هاتف آيفون يبدو عليه القدم: «إنه مستعمل... ومع ذلك...».

«هذا رائع».

«من أي جيل هاتفك؟».

«لا فكرة عندي».

«ماذا عن هاتفك؟».

«من الجيل السادس. أحدث طراز تقريباً».

«حسنٌ، بل رائع. يسعدني أنك صرت تحمل هاتفاً».

«لقد حفظت رقمك في هاتفي. هل تريدين رقمي؟».

«رقمك؟ نعم».

ينقر على الشاشة فأحس باهتزاز هاتفي في أعماق جيب ثوبي. يوقف الاتصال ويقول لي موضحاً: «صار رقمي عندك».

«أشكرك».

يمد يده إلى مقبض الباب، ثم يتركها تسقط وينظر إلي بعينين جادتين على نحو مفاجئ.

يقول لي بصوت شديد النعومة، بصوت يجعل حنجرتي تتقلص: «يؤسفني كثيراً كل ما أصابك».

أومئ برأسي. يذهب. وأقفل الباب من خلفه.

أعود إلى الأريكة وأنظر إلى طاولة القهوة، إلى أقراص الدواء المتناثرة عليها كأنها نجوم. أمد يدي وأتناول جهاز التحكم. أتابع مشاهدة الفيلم.

«أقول لك الحقيقة... هذا يخيفني بعض الشيء». إنها كلمات جيمي ستيورات في الفيلم.

السبت

13 تشرين الثاني

83

إنها العاشرة والنصف؛ أحس نفسي مختلفة.

لعل هذا الإحساس نتيجة النوم (قرصا تيمازيبام، اثنتا عشرة ساعة)؛ أو لعله بسبب الطعام، فبعد ذهاب إيثان، وبعد انتهاء الفيلم، صنعت لنفسي سندويتشاً. هذا أقرب شيء إلى الطعام الحقيقي منذ أسبوع كامل.

مهما يكن الأمر، ومهما يكن السبب، فإنني أحس نفسي مختلفة.

أحس أنني صرت أحسن حالاً.

أستحم. أقف تحت الماء المنهمر. يغمر الماء شعري وينسكب على كتفي. تمر خمس عشرة دقيقة، عشرون دقيقة. نصف ساعة. أحس أن جلدي قد صار جديداً بعد خروجي من الحمام، بعد الماء والشامبو. أرتدي بنطلون جينز وكنزة: (بنطلون جينز! متى لبست الجينز آخر مرة؟).

أجتاز غرفة النوم حتى أصل إلى النافذة، ثم أزيح الستائر. تمتلئ الغرفة نوراً. أغمض عينيّ، وأترك أشعة الشمس تدفئني.

أنا مستعدة للقتال، مستعدة لمواجهة اليوم. مستعدة لكأس من النبيذ. كأس واحدة فقط.

تبدأ رحلتي إلى الأسفل فأزور كل غرفة أمر بها، أفتح النوافذ وأرفع الستائر. الضوء يغمر البيت كله.

وفي المطبخ، أصب لنفسي بضع أصابع من نبيذ ميرلو. (أستطيع سماع إد يقول: «لا يقدّر الناس كمية الشراب بالأصابع إلا إذا كانوا يشربون الويسكي». أزيحه جانباً، وأسكب مقدار إصبع أخرى).

والآن، فيلم «الدوامة»، للمرة الثانية. أجلس على الأريكة وأعود بالفيلم إلى بدايته، إلى المشهد القاتل، مشهد السقوط عن السطح. يظهر جيمي ستيوارت على الشاشة. إنه يضع سلماً. إنني أمضي معه وقتاً طويلاً في الآونة الأخيرة.

بعد ساعة، خلال كأسي الثالثة:

يقول موظف المحكمة الذي يشرف على التحقيق: «لقد كان مستعداً لأخذ زوجته إلى مصحة حيث تكون صحتها العقلية بين أيدي أشخاص مؤهلين متخصصين». أتململ في جلستي، ثم أنهض لأملأ كأسي.

قررت أن ألعب الشطرنج هذا العصر، وأن أزور موقع الأفلام القديمة على الإنترنت. قد أنظف البيت أيضاً. يجب أن أنظفه لأن الغبار صار كثيراً في غرف الطابق العلوي. لن أراقب جيراني تحت أي ظرف من الظروف.

لن أراقب حتى بيت روسل.

لن أراقب بيت روسل خاصة.

إنني واقفة عند نافذة المطبخ، لكني لا أنظر إلى بيتهم.

أدير ظهري إليهم، وأعود إلى الأريكة، ثم أجلس عليها.

تمر بضع لحظات.

«من المؤسف بعد أن يعرف المرء بميولها الانتحارية...»

ألقي نظرة على أقراص الدواء المتناثرة على الطاولة. أستوي جالسة وأضع قدمي على السجادة، ثم أجرف الأقراص كلها فأضعها في راحة يدي. صارت كومة صغيرة في كفي.

«توصلت هيئة المحلفين إلى أن ميديلين ألستير انتحرت عندما كانت في حالة عقلية غير سليمة».

أقول له في نفسي: أنت مخطئ. ليس هذا ما حدث.

أسقط الأقراص واحداً بعد واحد في علبها، ثم أُحكم إغلاق الأغطية.

وعندما أعود إلى جلستي السابقة، أجد نفسي أتساءل: متى يأتي إيثان؟ لعله راغب في مزيد من الثرثرة معي.

يقول جيمي حزيناً: «كان هذا أقصى ما استطعت الوصول إليه».

أردد من خلفه: أقصى ما استطعت الوصول إليه.

تمر ساعة أخرى. وفي المطبخ، تميل أشعة الشمس إلى الغروب.

الآن صرت ثملة حقاً. يعرج القط سائراً في الغرفة. يموء حزيناً وهو ينظر إلى قائمته المصابة.

أعبس. هل فكرت في زيارة الطبيب البيطري هذا العام، مرة واحدة؟ أقول لبنتش: «هذا تصرف غير مسؤول من جانبي».

ينظر إليّ، ثم يغمض عينيه ويدس نفسه بين قدمَيّ.

على الشاشة، أرى جيمي يرغم كيم نوفاك على الصعود إلى برج الجرس. يصيح وهو ممسك بكتفي كيم: «لم أستطع اللحاق بها... يشهد الرب أنني حاولت ذلك. لا تتاح للمرء فرصة ثانية، أكثر الأحيان. لا أريد أن تسكنني الأفكار السيئة».

أقول: «لا أريد أن تسكنني الأفكار السيئة». أغمض عيني ثم أكرر ذلك من جديد. أداعب القط. أمد يدي إلى كأسي.

يصيح جيمي ويداه على عنقها: «ثم إنها هي من مات، لا أنت. الزوجة الحقيقية. أنت كنت نسخة فقط. كنت النسخة المزيفة».

يرن شيء ما في دماغي، شيء يشبه طنين الرادار. نغمة لطيفة، مرتفعة الصوت بعيدة، ناعمة، لكنها تلفت انتباهي.

لكن لا تلفت انتباهي إلا لحظة قصيرة. أستند إلى ظهر الأريكة، وأرتشف النبيذ.

راهبة، وصرخة، وجرس يقرع، ثم ينتهي الفيلم. أقول للقط: «هكذا أريد أن أمضي».

أجبر نفسي على النهوض عن الأريكة. ثم أضع القط على الأرض.

يموء متذمراً. آخذ كأسي إلى المغسلة. يجب أن أبدأ تنظيف البيت وترتيبه. قد يرغب إيثان في قضاء بعض الوقت هنا. لا يجوز أن أصير مثل الآنسة هافيشام.[1] هذا كتاب آخر من الكتب المختارة في نادي كريستين غراي للقراءة. يجب أن أكتشف ما يقرأونه هذه الأيام. لا ضرر من هذا، بالتأكيد.

أجلس في الأعلى، في غرفة المكتب، وأزور منتدى لعبة الشطرنج. تمضي ساعتان، وأخسر الحصان؛ لكنني أفوز في ثلاث جولات على التوالي. يجب أن أحتفل بهذا الفوز. أحضر زجاجة ميرلو من المطبخ. (يصير لعبي أفضل بعد «التزييت»)، وأسكب النبيذ في الكأس أثناء صعودي السلم فيتلوث البساط ببعض النبيذ. سوف أمسحه فيما بعد. تمر ساعتان إضافيتان. وأفوز من جديد. أنا لا أُقهر. أصب بقية الزجاجة في كأسي. لقد شربت أكثر مما كنت أريد شربه؛ لكن سلوكي سيكون أفضل يوم غد.

مع انتهاء جولة الشطرنج السادسة، أبدأ التفكير في الأسبوعين الماضيين، في الحُمى التي انتابتني. بدا ذلك لي شيئاً يشبه التنويم المغناطيسي، مثلما جرى لجين تييرني في فيلم «الدوامة». شيء يشبه الجنون، مثل إنغريد بيرمان في فيلم «المصباح الغازي»... لقد فعلتُ أشياء لا أستطيع تذكرها. لا أستطيع فعل أشياء لا يمكنني تذكرها. تفرك الطبيبة التي في داخلي كفيها وتقول: نوبة اضطراب تفارُقي حقيقية؟ د. فيلدينغ سوف... اللعنة!

لقد فرّطتُ بوزيري مصادفة... ظننته فيلاً. أشتم، أقذف بكلمة بذيئة كأنها قنبلة. لم أشتم منذ عدة أيام. ألوك تلك الكلمة في فمي، وأستمتع بها.

---

(1) الآنسة هافيشام شخصية رئيسية في رواية «آمال كبيرة» لتشارلز ديكنز: امرأة عجوز تعيش في بيت كبير لا تدخله الشمس منذ أن تخلى عنها عريسها وتركها يوم الزفاف. بيت كبير، وعفونة، وظلام دائم، وزمن متوقف.

لكن قصة الوزير لم تنته بعد. إنه الوزير!! ينقض عليه خصمي، ينقض عليه طبعاً، ويأخذه. تصلني رسالة منه: ما هذا؟ نقلة سيئة يا عزيزتي!!

أجيبه: ليس أكثر من حجر شطرنج! ثم أرفع الكأس إلى فمي.

وعندها أتجمّد في مكاني.

84

ماذا لو؟

فكري.

تفر الفكرة مني متلوية كأنها دم يذوب في الماء.

أمسك بالكأس. ماذا لو؟

لا.

نعم.

ماذا لو: ماذا لو أن جين... المرأة التي أعرف أنها جين، لم تكن جين على الإطلاق؟

... لا.

... نعم.

ماذا لو: ماذا لو أنها كانت امرأة أخرى تماماً؟

هذا ما قاله لي المحقق ليتل. لا... هذا نصف ما قاله لي المحقق ليتل. قال إن تلك المرأة في البيت رقم مئتين وسبعة، المرأة ذات الشعر القصير والورك الرشيق هي جين روسل بكل تأكيد.

عظيم! أنا أقبل هذا.

لكن، ماذا لو أن المرأة التي التقيتها، أو التي ظننت أنني التقيتها، كانت في واقع الأمر امرأة حقيقية... شخصاً آخر يزعم أنه جين؟ ماذا لو كانت قطعة شطرنج أخطأتُ فظننتها قطعة شطرنج أخرى؟ ماذا لو كانت وزيراً أخطأتُ فظننته فيلاً؟

ماذا لو كانت تلك المرأة هي النسخة... المرأة التي ماتت حقاً؟ ماذا لو كانت هي النسخة المزورة؟

ترتفع الكأس إلى شفتي من جديد. أضعها على الطاولة، ثم أدفعها بعيداً عني.

رغم ذلك... لماذا؟

فكري. افترضي أنها امرأة حقيقية... نعم: أزيحي المحقق ليتل جانباً، وأزيحي المنطق جانباً، وافترضي أنك كنت محقة طيلة الوقت... أو أنك كنت محقة معظم الوقت. لقد كانت امرأة حقيقية. لقد كانت هنا. لقد كانت هناك، في بيتهم. لماذا ينكرون؟... لماذا تنكر أسرة روسل وجودها؟ كان في وسعهم الإصرار على أنها ليست جين، الإصرار على نحو مقنع، لكنهم ساروا خطوة أبعد من ذلك.

ثم، كيف لها أن تعرف هذه الأشياء عنهم؟ ولماذا تتظاهر بأنها امرأة أخرى؛ لماذا تتظاهر بأنها جين.

يسألني إد: «كيف أمكنها فعل ذلك؟».

لا. كُفّي عن هذا.

أنهض، ثم أسير في اتجاه النافذة. أرفع عينيَّ إلى بيت روسل، إلى ذلك البيت. أرى ألستير وجين واقفَيْن في المطبخ. يتحدثان. إنه ممسك بكمبيوتر محمول بإحدى يديه. أما هي فتقف طاوية ذراعيها إلى صدرها.

أقول في نفسي: فلينظروا إليّ الآن. أحسن أنني آمنة في ظلمة المكتب. أحس أن أحداً لا يراني.

أرى من زاوية عينيَّ حركة. ألقي نظرة إلى الأعلى، إلى غرفة إيثان.

إنه عند النافذة، مجرد ظل ضيق على خلفية إنارة المصباح وراءه.

يداه مضغوطتان على الزجاج كما لو أنه يحاول أن يرى من خلاله.

وبعد لحظة، أراه يرفع يده. إنه يلوح لي بيده.

تتسارع نبضات قلبي. ألوح له، بخفر.

النقلة التالية...

تجيبني بِينا من الرنة الأولى.

«هل أنت بخير؟».

«إنني...».

«اتصل بي طبيبك. إنه قلق كثيراً عليك».

«أعرف هذا». أنا جالسة على درجات السلم في ضوء القمر الواهي. وعلى الأرض عند قدمي بقعة رطبة حيث دلقت النبيذ في وقت سابق. يجب أن أنظفها.

«يقول إنه يحاول الاتصال بك».

«لقد اتصل بالفعل. وأنا بخير. قولي له إنني بخير. اسمعي...».

«لقد كنت تشربين، أليس كذلك؟».

«لا».

«يبدو صوتك... إنك تتلعثمين».

«لا. لقد كنت نائمة قبل قليل. اسمعي، كنت أفكر...».

«هذا ما ظننته... أنك نائمة».

أتجاهل هذا وأقول: «كنت أفكر في بعض الأشياء».

تسألني وفي صوتها قلق واضح: «أية أشياء؟»

«الناس الذين خلف الحديقة. تلك المرأة».

تتنهد وتقول: «أوه، يا آنا. هذا... هذا ما كنت أريد الحديث عنه يوم الخميس، لكنك لم تتركيني أدخل البيت».

«أعرف، وأنا آسفة. لكن...».

«تلك المرأة لم يكن لها وجود».

«ليس الأمر هكذا. كل ما في الأمر هو أنني غير قادرة على إثبات وجودها؛ وعلى إثبات أنها كانت موجودة».

«آنا. هذا جنون. لقد انتهى الأمر».

أظل صامتة.

تقول بلهجة آمرة تكاد تكون حانقة. لم أسمعها تستخدم هذه اللهجة من قبل: «لا شيء يستدعي الإثبات. لا أعرف فيم تفكرين، ولا أعرف ما كان يحدث لك. لكن الأمر انتهى. أنت تفسدين حياتك».

أُصغي إلى صوت تنفسها.

«كلما طال استمرارك على هذا النحو كلما طالت المدة اللازمة لشفائك».

صمت.

ثم أقول لها: «أنت محقة».

«هل تعنين ما تقولين؟».

«نعم».

«من فضلك، قولي لي إنك لا تعتزمين فعل شيء جنوني».

«لا أعتزم فعل شيء».

«أريد أن تعديني بهذا».

«أعدك».

«أريد أن تقولي إن هذا كله كان في رأسك فقط».

«كان هذا كله في رأسي فقط».

صمت

«بينا... أنت محقة. وأنا آسفة. كان هذا مجرد... ما بعد الصدمة، أو شيء من هذا القبيل. هذا مثل استمرار الأعصاب في عملها فترة بعد الموت».

تقول لي وقد حل في صوتها شيء من الدفء: «لا بأس، أنا لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور».

«آسفة، لكن الفكرة هي أنني لن أفعل أي شيء جنوني».

«وأنت تعدينني بهذا».

«أعدك».

«هذا يعني أنني لن أسمع أي شيء منه عندما آتي من أجل جلستنا في الأسبوع القادم. لن أسمع أي شيء... أنت تعرفين هذا... أي شيء مزعج».

«لن تجدي شيئاً مزعجاً غير الأصوات التي أطلقها عادة».

أستمع إلى ابتسامتها: «قال د. فيلدينغ إنك خرجت من البيت مرة أخرى. قال إنك ذهبت إلى المقهى».

حدث هذا قبل دهر بأسره: «هذا صحيح».

«وكيف كان خروجك؟».

«أوه، كان مرعباً».

«رغم هذا...»

«رغم هذا...»

فترة صمت أخرى، ثم تقول لي: «شيء واحد أخير...».

«إنني أعدك. أفهم الأمر تماماً».

تودعني وأودعها، ثم ننهي المكالمة.

يدي تفرك رقبتي من الخلف مثلما تفعل عادة عندما أكذب.

86

يجب أن أفكر قبل التقدم خطوة أخرى. لا مجال عندي لارتكاب أي خطأ. ليس لدي الآن أي حليف!

أو، لعل لديَّ حليف واحد. لكنني لن أطلب مساعدته الآن، ليس الآن. لا أستطيع.

فكري. أنا في حاجة إلى التفكير. وأنا في حاجة إلى النوم أولاً. لعل هذا بسبب النبيذ (أُرجّح أنه بسبب النبيذ)، لكنني أشعر فجأة بتعب شديد. أتفقد هاتفي. إنها العاشرة والنصف تقريباً. الزمن يطير طيراناً.

أعود إلى غرفة المعيشة وأطفئ المصباح. أصعد إلى غرفة المكتب وأغلق الكمبيوتر (إن فيه رسالة من Rook&Roll: أين ذهبت؟؟). أصعد

إلى غرفة النوم من جديد. يلحق بي بنتش وهو يعرج. يجب أن أفعل شيئاً من أجل قائمته. لعل إيثان يستطيع أخذه إلى الطبيب البيطري.

ألقي نظرة تجاه الحمام. إنني مرهقة، مستنفذة إلى حد يجعلني غير راغبة في غسل وجهي أو في تنظيف أسناني. ثم إنني فعلت هذا وذاك اليوم... سوف أعوّض غداً. أخلع ثيابي، وأرفع القط عن الأرض، ثم أندس في السرير.

يتنزه بنتش على السرير، ثم يجلس في الزاوية البعيدة. أصغي إلى صوت تنفسه.

ومن جديد... لعل هذا بسبب النبيذ (أنا شبه واثقة من أنه النبيذ)، لكني لا أستطيع النوم. أستلقي على ظهري وأحدق في السقف. أنظر إلى التشكيل الذي يشبه التاج عند حواف السقف. أنقلب إلى جانبي ويمتد نظري إلى ظلمة الممر خارج الغرفة. أنقلب على بطني وأدس وجهي في الوسادة.

أقراص تيمازيبام. لا تزال تلك الأقراص في علبها على طاولة القهوة. يجب أن أنهض وأن أنزل إلى الأسفل. لكني أنقلب على جانبي الآخر بدلاً من ذلك.

صرت الآن قادرة على الرؤية إلى ما بعد الحديقة. لقد آوى بيت روسل إلى النوم: المطبخ مظلم، وستائر الردهة مسدلة. ولا ينير غرفة إيثان غير تألّق شبحي صادر على شاشة الكمبيوتر.

أحدّق في ذلك الألق إلى أن تتعب عيناي.

«ماذا ستفعلين يا ماما؟».

أنقلب من جديد، ثم أدفن وجهي في الوسادة، وأغمض عينيَّ بأقصى شدة. ليس الآن. ليس الآن. ركزي على شيء آخر؛ ركزي على أي شيء آخر.

ركزي على جين.

أحاول شيئاً آخر. أستعيد المحادثة التي جرت مع بِينا؛ وأتصور إيثان

عند نافذته، مُناراً من الخلف، وقد بسط أصابعه على الزجاج. أنتقل إلى شيء آخر، وأستعرض فيلم «الدوامة»، ثم أستعرض زيارة إيثان. تندفع ساعات الوحدة طيلة الأسبوع مارة بي؛ ومطبخي ممتلئ بالزوار: المحققان أول الأمر، ثم ديفيد، ثم ألستير وإيثان. تتسارع الصور الآن، يقل وضوحها، أصير في المقهى، ثم أصير في المستشفى، ثم أصير في تلك الليلة التي رأيت فيها موتها... تقفز الكاميرا من الأرض إلى يدي، إلى الخلف، إلى الخلف، إلى الخلف حتى اللحظة التي كانت واقفة عندها إلى جانب المغسلة، ثم استدارت وواجهتني.

توقفي. أحني ظهري وأفتح عيني. السقف منبسط فوقي مثل شاشة عرض كبيرة.

صورة جين تملأ الشاشة. صورة المرأة التي كنت أعرفها بأنها جين. أراها واقفة عند نافذة المطبخ وتلك الجديلة متدلية بين كتفيها.

يتكرر المشهد كله بحركة بطيئة.

جين تتقدم مني، وأنا أقرّب الصورة على وجهها المتألق... العينان الكهربائيتان، والقلادة الفضية اللامعة. أبعّد الصورة الآن، يتسع المشهد: كأس الماء في إحدى اليدين، وكأس البراندي في اليد الأخرى. تصدح بصوت كأنه آت من كل الجهات: «لا أعرف حقاً إن كان البراندي نافعاً!».

أجمّد الصورة.

ماذا يمكن أن يقول ويسلي في هذه الحالة؟ سيقول: فلندقق بحثنا يا فوكس.

السؤال الأول: لماذا تقدم نفسها إليّ على أنها جين روسل؟

... ملحق للسؤال الأول: هل فعلت ذلك حقاً؟ أم أنني من تحدث أولاً ودعاها بذلك الاسم؟

أجعل المشاهد تجري مرة أخرى حتى تصل إلى لحظة سماعي صوتها أول مرة. إنها مستندة إلى المغسلة. أشغّل المشهد: «كنت في طريقي إلى بيت الجيران...».

نعم. هكذا كان الأمر... تلك هي اللحظة التي قررتُ فيها هوية تلك المرأة. تلك هي لحظة قراءتي الخاطئة.

إذن، السؤال الثاني: كيف كانت استجابتها؟

أتقدم إلى الأمام سريعاً. أنظر إلى السقف، ثم أركز الصورة على فمها عندما أسمع نفسي اتكلم. أقول لها: «أنت المرأة التي تعيش في البيت خلف الحديقة. أنت جين روسل».

يتورد وجهها. تنفرج شفتاها. ثم تقول...

أسمع الآن شيئاً آخر، شيئاً ليس من تلك الشاشة.

أسمع شيئاً في الطابق السفلي.

أسمع صوت زجاج يتكسر.

87

إذا طلبت رقم الطوارئ فما سرعة وصولهم؟ إذا اتصلت بالمحقق ليتل، فهل سيجيب؟ تندفع يدي إلى جانبي مفتشة عن هاتفي.

لا أجد الهاتف.

أقلب الوسادة التي إلى جانبي، ثم أزيح الأغطية. لا شيء. الهاتف ليس هنا.

فكري، فكري. متى استخدمت الهاتف آخر مرة. كنت على السلم عندما استخدمته... عندما كنت أتحدث مع بِينا. ثم... ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة لكي أطفئ النور. ماذا فعلت بالهاتف؟ هل أتيت به معي إلى غرفة المكتب؟ هل تركته هناك؟

أدرك أن هذا كله لا أهمية له؟ الحقيقة الآن هي أن الهاتف ليس معي.

الصوت يمزق الصمت من جديد. تكسُّر زجاج.

أخرج من السرير... قدم تلو الأخرى. أضغط قدمي على السجادة. أدفع نفسي لأنهض. أجد ثوبي ملقى على أحد الكراسي فأرتديه. أسير صوب الباب.

في الخارج ضوء رمادي ساقط من الفتحة السماوية في أعلى السلم. أتسلل عبر الممر. ينزلق ظهري على امتداد الجدار. أنزل السلم الملتفّ. أنفاسي قصيرة، وقلبي كالمدفع.

أتمهل عند فسحة السلم التالية. كل شيء هادئ في الأسفل. وببطء... وببطء... أدخل غرفة المكتب على رؤوس أصابعي وأحس نسيج البساط القاسي تحت قدمي، ثم نسيج السجادة العادية. أمسح طاولة المكتب بعيني من عند الباب. الهاتف ليس هناك.

أستدير. أنا الآن في الطابق الثاني. وأنا غير مسلحة. لا أستطيع طلب النجدة.

صوت تحطم الزجاج في الأسفل.

أرتعد ويصطدم ردفي بمقبض باب الخزانة الجدارية.

الخزانة الجدارية.

أمسك بمقبض الباب. أفتح الباب. أسمع صريره. أفتحه.

ظلمة كالفحم فاغرة فاها أمامي. أخطو متقدمة.

أصير في الداخل فأمد يدي جهة اليمين حتى تمس أصابعي الرف. خيط المصباح يلمس جبهتي. هل أغامر بإشعاله؟ لا... المصباح قوي أكثر مما يجب. سوف يتسرب الضوء إلى السلم.

أتقدم متحركة في الظلام ويداي تتلمسان الطريق كأنني ألعب الطميمة (الغميضة). ثم تقع يدي عليه: صندوق الأدوات المعدني البارد. تبحث أصابعي عن قفله، ثم تفتح الصندوق وتمتد إلى داخله.

أجد المشرط.

أخرج من خزانة الحائط. سلاحي في راحة يدي. أجعل شفرة المشرط تنزلق إلى الأمام. تخرج الشفرة من غمدها البلاستيكي وتلمع تحت شعاع هارب من ضوء القمر. أسير إلى أعلى السلم. مرفقي ملتصق بجسدي على نحو محكم. المشرط موجه إلى الأمام. أمسك الدرابزين بيدي الأخرى. أخطو خطوة واحدة.

ثم أتذكر الهاتف في غرفة المكتبة. الهاتف الأرضي. لا يبعد عني سوى أمتار قليلة.

أستدير.

لكنني أسمع صوتاً آخر في الأسفل قبل أن أفلح في اجتياز خطوة واحدة. يناديني أحدهم: «يا سيدة فوكس. تعالي إليّ. أنا في المطبخ».

88

أعرف هذا الصوت.

ترتجف شفرة المشرط في يدي وبينما أخطو نازلة درجات السلم؛ أخطو بحذر. الدرابزين صقيل تحت راحة يدي. أسمع صوت تنفّسي. أسمع وقع خطواتي.

«صحيح هكذا. بسرعة أكبر من فضلك».

أصل إلى الأسفل، لكني لم أجتز الباب بعد. أستنشق نفساً عميقاً إلى حد يجعلني أسعل. أسعل بشدة. أحاول كتم سعالي رغم علمي أنه يعرف بوجودي.

«هيا، تعالي».

أجيء.

ضياء القمر يغمر المطبخ ويجعل سطوح الطاولات فضية. يملأ ضياؤه الزجاجات الفارغة عند النافذة. يلمع الصنبور؛ ويبدو المجلى حوضاً متألقاً. حتى الخشب الداكن يتألق.

إنه مستند إلى الطاولة التي في منتصف المطبخ.

خيال في ضياء أبيض؛ خيال مسطح كأنه ظل. شظايا الزجاج تلمع عند قدميه: كسرات وقطع من زجاج متناثرة على الأرض. وعلى الطاولة إلى جانبه، أرى صفاً منتصباً من زجاجات وكؤوس مترعة ضوء القمر.

يقول وهو يشير بيده إلى الغرفة من حوله: «آسف جداً... هذه الحالة. لم أرد الصعود إلى الأعلى».

أظل صامتة ولا أقول شيئاً لكني أشد أصابعي على مقبض المشرط.

يتنهد ألستير مديراً رأسه إلى ناحية حتى أستطيع رؤية وجهه في الضوء: «لقد كنت صبوراً يا سيدة فوكس»... أرى جبهته المرتفعة وأنفه الحاد... «د. فوكس... أو، مهما يكن الاسم الذي تطلقينه على نفسك». كلماته تقطر كحولاً. أدرك الآن إنه ثمل تماماً.

يكرر ما قاله: «لقد كنت صبوراً جداً. وقد تحملت الكثير». ينشق بأنفه، ثم يختار كأساً ويديرها بين كفيه... «تحملنا الكثير، كلنا... لكن، أنا خاصة». أستطيع الآن رؤيته بوضوح أكبر. سترته مغلقة حتى ياقتها. وفي يديه قفازان أسودان. تتقلص حنجرتي.

لكنني لم أستجب بعد. أذهب إلى مفتاح المصباح، ثم أمد يدي إليه.

تنفجر الكأس على مسافة سنتيمترات من يدي الممدودة. أقفز مرتدة إلى الخلف فأسمعه يصرخ عاوياً: «لا تقتربي من مفتاح الضوء».

أقف ساكنة في مكاني. أصابعي قابضة على إطار الباب.

إنه يهز رأسه ويضحك ويقول: «كان يجب أن يُحذّرنا منك أحد ما». أبتلع ريقي. تتقطع ضحكته، ثم تموت.

«لقد أعطيت ابني مفتاح بيتك...» يرفع المفتاح أمامي... «وأنا أعيده إليك». يرن المفتاح عندما يلقيه على الطاولة... «حتى لو لم تكوني فاقدةً... عقلك اللعين، فأنا لا أريد أن يمضي ابني الوقت مع امرأة في سنك».

أقول هامسة: «سوف أطلب الشرطة».

يضحك باستخفاف: «هيا، اطلبي الشرطة. ها هو هاتفك». يرفع هاتفي عن الطاولة ويؤرجحه بيده، مرة، مرتين. نعم، لقد تركت الهاتف في المطبخ. أنتظر لحظة، أنتظر أن يقذف بالهاتف على الأرض، أو يقذف به إلى الجدار. لكنه يعيده إلى الطاولة. يضعه إلى جانب المفتاح. يقول وهو يتقدم خطوة واحدة في اتجاهي: «تظن الشرطة أنك مجنونة». أرفع المشرط.

أراه يبتسم: «أوه! أوه! ما الذي تريدين فعله بهذا الشيء؟». ومن جديد، يقترب مني خطوة أخرى.

وهذه المرة، أقترب منه خطوة.

أقول له: «اخرج من بيتي». ذراعي مرتعشة؛ ويدي مهتزة. يلمع نصل المشرط في الضوء... مساحة صغيرة من معدن فضي.

لقد توقف عن الحركة؛ توقف عن التنفس.

أسأله: «من كانت تلك المرأة؟»

وفجأة، تندفع يده إلى رقبتي فتمسك بها. يدفعني إلى الخلف، حتى أصطدم بالجدار، حتى يصطدم رأسي بالجدار فأصرخ. تنغرس أصابعه في جلدي.

«أنت مريضة بالوهم». تتردد على وجهي أنفاسه المشبعة بالكحول، تتردد كاللهب فتحرق عيني... «ابتعدي عن ابني. ابتعدي عن زوجتي».

إنني أختنق، أحس حشرجة في حلقي. تتشبث إحدى يدي بأصابعه، وتنغرس أظافري في معصمه.

تندفع يدي الأخرى بالمشرط صوب خصره.

لكني أخطئ التسديد فأسمع صوت المشرط يقع ويصطدم بالأرض. يدوس عليه، ثم يواصل الضغط على رقبتي. يصدر عنها صوت كالنعيب.

يقول هامساً: «ابتعدي عنا جميعاً».

تمر لحظة.

ثم تمر لحظة أخرى.

يتشوش نظري. دموعي منهمرة على وجنتي.

إنني أفقد الوعي...

يترك رقبتي.

أنزلق ساقطة على الأرض؛ لاهثة.

أراه الآن واقفاً فوقي. يسحب قدمه إلى الخلف بحركة حادة فيقذف بالمشرط حتى زاوية الغرفة.

يقول لي بصوت متقطع لاهث: «تذكري هذا». لا أجد نفسي قادرة على النظر إليه.

لكني أسمعه يقول كلمة أخرى، كلمة صغيرة ناعمة إلى حدٍ يجعلها تكاد تنكسر: «أرجوك».

صمت. أرى الحذاء الذي في قدميه يستدير، ثم يخطو مبتعداً عني.

وعند مروره بالطاولة، أراه يمسحها كلها بيده. تندفع موجة زجاج فتتحطم على الأرض، تتشظّى، وتتفتت. أحاول الصراخ، لكن حنجرتي تصدر صفيراً فحسب.

يسير إلى باب الصالة، ثم يفتح القفل. أسمع صوت فتح باب البيت، ثم أسمع صوت إغلاقه.

أتحامل على نفسي حتى أقف. إحدى يدي على رقبتي. والأخرى ممسكة بجسدي. إنني أنتحب.

يزداد نحيبي عندما يعرج بنتش قادماً من عند الباب ويلعق يدي بحركة حذرة.

الأحد

14 تشرين الثاني

89

أتفحص عنقي في مرآة الحمام. خمس كدمات زرقاء فاقعة... طوق قاتم حول عنقي.

أنظر إلى بنتش القابع على بلاط الأرض يلعق كف قائمته العرجاء. يا لنا من زوج!

لن أخبر الشرطة بما حدث ليلة أمس. لن أخبر الشرطة، ولا أستطيع إخبار الشرطة. لدي دليل بالطبع؛ لدي آثار أصابع حقيقية على جلد رقبتي. لكنهم سيكونون راغبين قبل كل شيء في معرفة سبب وجود ألستير هنا؛ والحقيقة هي... لا بأس. لقد دعوت مراهقاً كنت أضايق أسرته وأزعجها... دعوته إلى قضاء الوقت في قبو بيتي. الأمر واضح: إنه تعويض عن طفلتي الميتة وزوجي الميت. لن يبدو مظهر هذا الكلام حسناً.

أقول... أجرّب صوتي: «لن يكون مظهر هذا الكلام حسناً». يبدو صوتي ضعيفاً.

أخرج من الحمام، ثم أنزل السلم. هاتفي المستقر عميقاً في جيب ثوبي يصطدم بفخذي في كل خطوة.

أكنس حطام الزجاج، أجساد الزجاجات والكؤوس المحطمة. ألتقط

قطع الزجاج عن الأرض وأضعها كلها في كيس قمامة. أحاول عدم التفكير فيه وهو ممسك برقبتي، وهو يعصرني. أحاول عدم التفكير فيه وهو واقف فوقي. أحاول عدم التفكير فيه وهو شامخ فوق الحطام البشري الملقى عند قدميه.

ومن تحت حذائي البيتي، يطقطق خشب البتولا الأبيض كأنه شاطئ رملي.

أعبث بالمشرط على طاولة المطبخ وأصغي إلى صوت نصله وهو ينزلق داخلاً غمده ثم خارجاً منه.

أنظر إلى ما خلف الحديقة. أرى بيت روسل يبادلني النظر. أرى نوافذه خالية. أتساءل أين هم الآن. أتساءل أين هو الآن.

كان يجب أن يكون تسديدي أكثر إحكاماً. كنت قادرة على الطعن بقوة أكبر. أتخيل النصل يخترق سترته ويمزّق جلده.

وعندها، سيكون في بيتك رجل جريح.

أضع المشرط على الطاولة، وأرفع كأس الماء إلى شفتيّ. لا يوجد شاي في الخزانة... لم يكن إد مهتماً بالشاي أبداً؛ أما أنا فكنت أفضل شرب أشياء أخرى... وهكذا فأنا أشرب ماء دافئاً فيه قليل من الملح. يحرق الماء المالح حلقي. يتقلص وجهي.

أنظر عبر الحديقة من جديد. وعندها أنهض فأسدل الستائر على النافذة... بإحكام.

تبدو لي ليلة الأمس مثل حلم محموم، مثل دخان يتطاير ملتفاً في الهواء. الفيلم الذي كنت أتابعه على سقف غرفة نومي. وصوت تحطم الزجاج الواضح. وخواء الخزانة الجدارية. والتفاف السلم. وهو... عندما رأيته واقفاً هناك، منادياً إياي، منتظراً إياي.

ألمس عنقي. لا تقولي لي إنه كان حلماً. لا تقولي لي إنه لم يكن هنا أبداً. أين... نعم: فيلم «المصباح الغازي» من جديد.

هذا لأنه لم يكن حلماً على الإطلاق. (هذا ليس حلماً على الإطلاق!

هذا يحدث حقاً. ميا فارو، طفلة روزميري). لقد تعرض بيتي للاقتحام. لقد تعرضت ممتلكاتي للتدمير. لقد تعرضت للتهديد. لقد وقع عليَّ اعتداء. وأنا غير قادرة على فعل شيء فيما يتعلق بهذا كله.

لا أستطيع فعل أي شيء في ما يتعلق بأي شيء. أعرف الآن أن ألستير شخص عنيف. أعرف الآن ما هو قادر على فعله. لكنه محق: لن تستمع الشرطة إلى ما أقوله. يرى د. فيلدينغ إنني مصابة بالوهم. لقد أخبرت بِينا أن حالتي قد تحسنت، بل أكدت لها أن حالتي قد تحسنت. لا أستطيع الوصول إلى إيثان. ويسلي قد ذهب. لا أحد هنا.

«احزري من؟».

إنها هي هذه المرة؛ صوتها خافت، لكنه واضح.

لا. أهز رأسي.

لقد سألتِ ألستير: من هي تلك المرأة؟

إن كانت موجودة أصلاً.

لا أعرف. لن أعرف أبداً.

90

أمضي بقية فترة الصباح في السرير، ثم أمضي فيه فترة بعد الظهر محاولة ألّا أبكي، محاولة ألّا أفكر... ألّا أفكر في الليلة الماضية، ألّا أفكر في الغد... ألّا أفكر في جين.

تتزايد السحب خلف النافذة. بطونها واطئة قاتمة. أنقر على تطبيق توقعات الطقس في هاتفي. عواصف رعدية في وقت لاحق من هذه الليلة.

يحل غسق قاتم. أغلق الستائر وأفتح الكمبيوتر. أضعه إلى جانبي. يدفئ الجهاز ملاءات السرير وأنا أتابع فيلم «الأحجية».

تسأل كاري غرانت: «ما الذي يتعين عليّ فعله لإرضائك؟ أأصير الضحية التالية؟».

أرتجف.

لكنني أكون شبه نائمة عندما ينتهي الفيلم. تنطلق موسيقى النهاية فتمتد يدي إلى الجهاز وتغلقه.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، أستيقظ على اهتزاز هاتفي.

حالة طارئة.

إنذار باحتمال حدوث فيضانات في هذه المنطقة حتى الساعة الثالثة بتوقيت شرق الولايات المتحدة. تجنبوا مناطق الفضيان. تابعوا وسائل الإعلام المحلية ـ الهيئة الوطنية للإرصاد الجوية.

كم هي يَقِظة تلك الهيئة الوطنية للأرصاد الجوية! تريد أن أتجنب منطقة الفيضان! أكبح تثاؤبي، وأجرجر نفسي لأخرج من السرير، ثم أذهب لأفتح الستائر.

ظلمة في الخارج. لم يبدأ هطول المطر حتى الآن، لكن السماء مقتربة من الأرض. ازدادت الغيوم انخفاضاً. أغصان الأشجار تتحرك. أستطيع سماع الريح. أطوّق جسدي بذراعيَّ.

ومن خلف الحديقة، يتلألأ ضوء في مطبخ بيت روسل: إنه هو يجتاز المطبخ متجهاً إلى البراد. يفتح البراد ويخرج منه زجاجة. أظنها زجاجة بيرة. أتساءل إن كان يسكر من جديد.

تمر أصابعي على رقبتي من جديد، بحركة بطيئة. تؤلمني الكدمات.

أعيد إغلاق الستارة وأرجع إلى السرير. أحذف رسالة التحذير من هاتفي، وأنظر إلى الوقت: إنها التاسعة ليلاً وتسع وعشرون دقيقة. أستطيع مشاهدة فيلم آخر. أستطيع تناول شيء من الشراب أيضاً.

تمر يدي على الشاشة. أنا شاردة الذهن. أظنني سأتناول شراباً. كأس واحدة فقط... يؤلمني البلع.

أرى ألواناً تتألق تحت أطراف أصابعي. ألقي نظرة إلى شاشة الهاتف فأجد أنني فتحت حافظة الصور. تبطئ ضربات قلبي: ها هي صورتي... نائمة. الصورة التي يُزعم أنني التقطتها بنفسي.

أنكمش على نفسي. وبعد لحظة، أحذف تلك الصورة.

وعلى الفور تظهر الصورة التي بعدها.

لا أتعرف على هذه الصورة للوهلة الأولى. ثم أتذكرها: لقد التقطتها من نافذة المطبخ. غروب الشمس، وأفق برتقالي، وبنايات بعيدة كأنها أسنان تعض ذلك الأفق. الشارع ذهبي في ضياء الشمس الغاربة. وطائر وحيد كأنه متجمد في السماء. يطير بجناحين مفتوحين على اتساعهما.

وصورة منعكسة على الزجاج الذي أمامي، صورة المرأة التي كنت أعرفها باسم جين.

91

صورتها شبه شفافة، غائمة عند أطرافها... لكنها جين، لا مجال لأن أخطئ في هذا. إنها تحتل الزاوية اليمنى السفلى في الصورة كأنها شبح، تنظر إلى الكاميرا، على مستوى عينيها؛ شفتاها منفرجتان. إحدى ذراعيها ممتدة خارج إطار الصورة. أتذكر الآن أنها كانت تسحق سيجارتها في الطبق الصغير المقعَّر. ومن فوق رأسها ترتفع سحابة كثيفة من دخان. التوقيت مكتوب على الصورة. إنها السادسة مساء وأربع دقائق. التاريخ قبل أسبوعين تقريباً.

هذه جين. أنا منحنية فوق الشاشة لا أكاد أتنفس تقريباً.

جين.

قالت لي: العالم مكان جميل.

قالت لي: لا تنسي هذا، ولا تفوّتي على نفسك هذا.

قالت لي: أنت فتاة طيبة!

لقد قالت لي هذه الأشياء؛ قالتها كلها لأنها كانت موجودة، حقيقية.

جين.

أنزل من السرير متعثرة وتنسحب الملاءات من خلفي. ينزلق الكمبيوتر إلى الأرض. أندفع إلى النافذة، ثم أفتح الستائر.

الآن، أرى النور في ردهة بيت روسل ـ تلك الغرفة التي بدأ فيها كل

شيء. إنهما جالسان هناك. كلاهما، على الأريكة الصغيرة المخططة: ألستير وزوجته. إنه مسترخ. زجاجة البيرة في يده. ساقاها مطويتان تحتها. أصابع يدها تتنزّه في شعرها اللامع.

الكاذبة.

أنظر إلى الهاتف في يدي.

ما الذي أفعله بهذه الصورة؟

أعرف ما سيقوله المحقق ليتل: الصورة لا تثبت أي شيء غير أن تلك المرأة موجودة... وهي صورة امرأة مجهولة.

يقول لي إد: «د. فيلدينغ لن يستمع إليك أيضاً».

أطبق فمك.

لكنه على حق.

فكري. فكري.

«وماذا عن بِينا، يا ماما؟».

كفّي عن هذا!

فكري.

هنالك نقلة واحدة فقط. ترتحل عيناي من الردهة إلى غرفة النوم المظلمة في الأعلى.

خذي البيدق.

«مرحباً؟».

صوت مثل صوت عصفور صغير؛ صوت هش، ضعيف. أنظر من النافذة، أنظر في الظلمة. لا أرى أثراً له.

أقول له: «إنني آنا».

تأتيني الإجابة شبه هامسة: «أعرف هذا».

«أين أنت؟».

«في غرفتي».

«لا أراك».

وبعد لحظة واحدة، أراه يظهر في النافذة كأنه شبح، أراه نحيلاً شاحباً في قميص أبيض قصير الكمين. أضع راحة يدي على الزجاج.

أسأله: «هل تستطيع رؤيتي؟».

«نعم».

«أريد أن تأتي إليّ».

يهز رأسه ويقول لي: «لا أستطيع هذا. ليس مسموحاً لي».

ألقي نظرة في اتجاه ردهتهم. ألستير وجين لم يتحركا من مكانهما: «أعرف هذا. لكن الأمر في غاية الأهمية. الأمر في غاية الأهمية».

«لقد أخذ أبي المفتاح مني».

«أعرف هذا».

صمت قصير، ثم يقول لي: «إن كنت قادراً على رؤيتكِ...» يتوقف عن الكلام.

«ماذا؟»

«إن كنت قادراً على رؤيتك، فإنهما قادران على رؤيتك أيضاً».

أتراجع إلى الخلف واقفة على قدم واحدة، ثم أسحب الستائر فلا أترك إلا شقاً صغيراً. أنظر إلى ردهتهم. لا يزالا كما هما.

أقول له: «تعال فقط. أرجوك. أنت لست...».

«ماذا؟».

«أنت... متى يمكنك الخروج من بيتك؟».

صمت آخر. أنظر إليه يتفقد هاتفه، ثم يضعه على أذنه من جديد: «يشاهد أبي وأمي فيلم الزوجة الطيبة عند الساعة العاشرة. قد أكون قادراً على الخروج من البيت وقتها».

دوري الآن في النظر إلى هاتفي. بقيت عشرون دقيقة. «لا بأس، هذا جيد. هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم». لا أريد إخافته. أنت لست آمناً.. «لكن هناك ما أريد أن أحدثك عنه».

«سيكون من الأسهل أن آتي إليك غداً».
«الأمر لا يحتمل انتظاراً. إنه بالفعل...»
ألقي نظرة إلى النافذة التي في الأسفل. جين تنظر في حضنها. إنها ممسكة بزجاجة بيرة. ألستير قد اختفى.
أقول بصوت مرتجف: «أغلق الهاتف».
«لماذا؟»
«أغلق الهاتف».
ينفتح فمه دهشة. يضاء النور في غرفته كأنه انفجار.
ألستير واقف خلفه. يده على مفتاح النور.
يستدير إيثان وتتدلى ذراعه إلى جانبه. أسمع صوت إغلاق الخط.
ثم أراقب المشهد الصامت.
ألستير واقف عند الباب. إنه يتكلم. يتقدم إيثان منه. يرفع يده. يهز الهاتف أمامه.
يقفان لحظة ساكنَيْن.
ثم يخطو ألستير في اتجاه ابنه. يأخذ الهاتف منه. ينظر إليه.
ينظر إلى إيثان.
يتحرك فيتجاوزه. يأتي إلى النافذة ويحدّق. أنسحب أكثر إلى أعماق غرفة نومي.
يمد ألستير يده فيغلق مصراعي النافذة الخارجية. يغلقهما بإحكام.
صارت الغرفة مقفلة تماماً.
شاه مات!

92

أستدير مبتعدة عن الستائر وأنظر إلى غرفتي.
لا أستطيع تخيل ما يحدث هناك... ما يحدث بسببي.
أجرجر قدميّ إلى السلم. ومع كل خطوة، أفكر في إيثان خلف تلك النوافذ؛ أفكر فيه وحيداً مع أبيه.

إلى الأسفل، إلى الأسفل، إلى الأسفل. أصل إلى المطبخ. أسمع دمدمة رعد منخفض وأنا أغسل الكأس في المجلى فأسترق نظرة عبر النافذة. السحب تتحرك الآن بسرعة متزايدة، وأغصان الشجرة تصطفق. الريح في اشتداد. العاصفة في طريقها إلينا.

أجلس إلى الطاولة؛ وأشرب النبيذ. أقرأ على لصاقة الزجاجة اسم النبيذ «الخليج الفضي» صنع نيوزيلاندا. وفي أسفل اللصاقة رسم صغير لسفينة تتقاذفها أمواج البحر. لعلي قادرة على الانتقال للعيش في نيوزيلاندا، للبدء من جديد هناك. يعجبني وقْع هذا الاسم... «الخليج الفضي». وأحب أن أبحر من جديد.

لو أنني أغادر هذا البيت... فقط.

أسير إلى النافذة وأرفع طرف الستارة. المطر ينسكب على الزجاج. أنظر عبر الحديقة. لا يزال مصراعا نافذته مغلقين.

وفور عودتي إلى الطاولة، أسمع صوت جرس الباب.

يدوي صوت الجرس في الصمت كأنه جهاز إنذار. تقفز يدي مذعورة فيندلق النبيذ عن حافة الكأس. أنظر إلى الباب. إنه هو. إنه إلستير.

ينتابني الذعر. تغوص أصابعي في جيبي وتقبض على هاتفي. تمتد يدي الأخرى إلى المشرط.

أقف، ثم أجتاز المطبخ بخطى بطيئة. أقترب من الإنترفون. أحاول تثبيت نفسي، ثم أنظر إلى الشاشة. إنه إيثان. تسترخي رئتاي.

إيثان واقف هناك. يطوق نفسه بذراعيه. أضغط الزر فينفتح الباب. يصير في الداخل بعد لحظة. شعره مرصع بقطرات المطر.

«ما الذي تفعله هنا؟».

ينظر إلي: «أنت قلت لي أن آتي».

«ظننت أن أباك...».

يغلق الباب، ثم يتجاوزني فيدخل غرفة المعيشة: «قلت إنني ذاهب إلى صديق لي من درس السباحة».

أسأله وأنا سائرة خلفه: «ألا يتفقد هاتفك؟».
«لقد حفظت رقم هاتفك باسم مختلف».
«وماذا لو اتصل بهذا الرقم؟».
يرفع إيثان كتفيه: «لن يتصل. ما هذا؟» إنه ينظر إلى المشرط.
«هذا لا شيء». أترك المشرط يسقط في جيبي.
«هل يمكنني استخدام الحمام؟».
أومئ برأسي.
أثناء وجوده في الغرفة الحمراء، أنقر على هاتفي وأستعد للنقلة التالية. أسمع صوت اندفاع الماء في المرحاض، ثم أسمع صوت الصنبور.
إنه آت إليّ من جديد. ثم يقول لي: «أين بنتش؟».
«لست أدري».
«كيف صارت قائمته؟».
«إنه بخير»... الآن تحديداً، لست أبالي ببنتش... «أريد أن أريك شيئاً...» أضع الهاتف في يده وأقول له: «انقر على أيقونة الصور».
ينظر إيثان إليّ. يعبس قليلاً.
أكرر ما قلته: «افتح الصور، مثلما أخبرتك».
أراقب وجهه وهو يفعل ذلك. تبدأ ساعة الجد دقاتها معلنة تمام العاشرة. إنني أحبس أنفاسي.
تمر لحظة... لا شيء. إنه سلبي تماماً. يقول لي: «هذا شارعنا. وقت شروق الشمس... أو... انتظري؛ إنها جهة الغرب. هذا يعني أنه ليس شروق الشـ...».
يتوقف عن الكلام.
ها هو.
تمر لحظة.
يرفع عينيه المتسعتين إلى وجهي.
ست دقات؛ سبع دقات. يفتح فمه. ثماني. تسع.

يبدأ القول: «ماذا...».
وعندها أقول له: «أظن أن وقت قول الحقيقة قد حان».

93

مع آخر دقة للساعة، مع الدقة الرنانة العميقة الأخيرة، يقف إيثان أمامي وهو لا يكاد يتنفس إلى أن أمسك بكتفه وأقوده في اتجاه الأريكة. نجلس معاً. لا يزال إيثان حاملاً هاتفي بيده.

لا أقول شيئاً. أنظر إليه فحسب. قلبي في حالة جنونية كأنه ذبابة علقت في فخ. أفرد يدي على فخذي حتى أوقف رجفانهما.

يهمس شيئاً.

«ماذا قلت؟».

يسعل قليلاً: «متى وجدت تلك الصورة؟».

«هذه الليلة، تماماً قبل أن أتصل بك».

يومئ برأسه.

«من هي؟».

لا يزال إيثان ينظر إلى الهاتف. تمر لحظة أظن خلالها أنه لم يسمع سؤالي.

«من هي الـ...؟».

«إنها أمي».

أعبس قليلاً: «لا؛ قال المحقق إن أمك في...».

«تلك ليست أمي الحقيقية. ليست أمي التي أنجبتني».

أحدق فيه، وأقول له: «هل أنت ولد متبنى؟».

لا يقول لي شيئاً، لكنه يومئ برأسه من جديد وقد أسبل عينيه إلى الأرض.

«إذن...» أنحني إلى الأمام، ثم أمرر يدي في شعري... «إذن...».

«إنها... لا أعرف حتى كيف أبدأ الكلام».

أغمض عينيّ وأزيح ارتباكي وترددي جانباً. إنه في حاجة إلى توجيه. وهذا ما أستطيع فعله. هذا شيء أستطيع فعله.

أميل صوبه بجسدي وأسوّي وضع ثوبي على ساقيّ، ثم أنظر إليه وأسأله: «متى جرى تبنيك؟».

ينتهد، ثم يستند إلى الخلف. تئن الوسائد تحت ثقله: «عندما كنت في الخامسة من عمري».

«لماذا كان ذلك متأخراً إلى هذا الحد؟».

«لأنها كانت... لأنها كانت تتعاطى المخدرات». يتوقف عن الكلام مثل مهر وليد يخطو خطواته الأولى. أتساءل كم مرة قال هذا الشيء قبل الآن... «كانت تتعاطى المخدرات، وكانت صغيرة السن حقاً».

هذا يفسر مظهر جين الشاب.

«وهكذا ذهبت للعيش مع أبي وأمي». أنظر بتمعن في وجهه وأراه يمر على شفتيه بطرف لسانه. أرى بقايا حبات المطر على صدغيه.

أسأله: «وأين كنت تعيش؟».

«هل تعنين أين كنت أعيش قبل بوسطن؟».

«نعم».

«في سان فرانسيسكو. هناك تبناني أبي وأمي».

أغالب رغبتي في لمسه. وبدلاً من ذلك، آخذ الهاتف من يده ثم أضعه على الطاولة.

يتابع كلامه: «لقد عثرتْ عليّ مرة واحدة عندما كنت في الثانية عشرة. لقد وجدتنا في بوسطن. أتت إلى البيت وسألت أبي إن كانت تستطيع رؤيتي. لقد رفض ذلك».

«هذا يعني أنك لم تتمكن من الحديث معها؟».

«لا...» يتوقف لحظة، ثم يستنشق نفساً عميقاً. أرى عيناه لامعتين.

«غضب أبي وأمي كثيراً. قالا لي إن عليّ إخبارهما إذا حاولت رؤيتي مرة أخرى».

أومئ برأسي. ثم أستند إلى ظهر الأريكة. إنه يتحدث بحرية الآن.

«ثم انتقلنا إلى هنا».

«لكن أبوك فقد عمله».

يقول بنبرة حذرة: «هذا صحيح».

«لماذا فقد عمله؟».

يتململ في جلسته: «شيء ما مع زوجة رئيسه في العمل. لست أدري. كانا يصرخان كثيراً عندما يتحدثان عن هذا الأمر».

لقد قال لي أليكس إن الأمر كان غامضاً جداً. لكنني أعرف الآن ما حدث. علاقة غرامية صغيرة. ليست بالشيء المهم كثيراً. أتساءل إن كان الأمر يستحق ذلك.

«بعد انتقالنا إلى هذا البيت مباشرة، عادت أمي إلى بوسطن لكي تهتم ببعض الأمور هناك. أظنها ذهبت لكي تبتعد عن أبي. ثم سافر إليها. تركاني وحيداً... ليلة واحدة فقط. لقد فعلا هذا من قبل. وعندها... ظهرتْ...».

«هل تعني أمك الحقيقية؟».

«نعم».

«ما اسمها؟».

ينشق بأنفه، ثم يمسحه بأنفه ويقول: «كاتي».

«وهل أتت إلى بيتكم هذا؟».

«نعم»... ينشق بأنفه من جديد.

«متى أتت؟ بالضبط؟».

«لا أذكر هذا». ثم يهز رأسه... «لا، انتظري. كان هذا يوم الهالووين. إنها ليلة لقائنا».

«قالت لي إنها صارت... نظيفة». يقول هذه الكلمة مشدداً عليها كأنه يعصرها... كأنها منشفة رطبة... «قالت إنها لم تعد تتناول المخدرات أبداً».

أومئ برأسي.

«قالت لي إنها قرأت في الإنترنت عن نقل أبي، واكتشفت أننا ذاهبون إلى نيويورك. وهكذا لحقت بنا. كانت تنتظر ريثما تتخذ قرارها بشأن ما تريد فعله عندما غادر أبي وأمي بوسطن». يتوقف لحظة ويحك يده بيده الأخرى.

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

«وبعد ذلك...» عيناه الآن مغمضتان... «بعد ذلك، جاءت إلى البيت».

«وهل تحدثت معها؟».

«نعم، تركتها تدخل البيت».

«هل كان هذا يوم الهالووين؟».

«نعم. في النهار».

أقول له: «التقيتها بعد ظهر ذلك اليوم».

يطأطئ رأسه ناظراً إلى ساقيه: «ذهبت لتجلب ألبوم صور من فندقها. أرادت أن تريني بعض الصور القديمة. صوري عندما كنت رضيعاً، وأشياء من هذا القبيل. ثم رأتك عندما كانت عائدة إلى بيتها».

أفكر في ذراعيها تطوّقان وسطي. وفي شعرها يتدلى عند وجنتي.

«لكنها قالت لي إنها أمك. أعني... قالت إنها... جين روسل».

يومئ برأسه من جديد.

«أنت تعرف هذا».

«نعم، أعرفه».

«فلماذا؟... لماذا تقول لي إنها امرأة أخرى؟».

وأخيراً، يرفع رأسه وينظر إلي: «قالت لي إنها لم تقل ذلك. قالت إنك دعوتها باسم أمي فلم تستطع التفكير بسرعة في شيء مختلف تقوله حتى تبرر موقفها. تذكري أنه لم يكن من المفترض أن تكون هنا». يشير بيده إلى الغرفة... «لم يكن من المفترض أن تكون هنا». يتوقف لحظة ويحك يده من جديد... «وأظن أيضاً أنها أرادت التظاهر بأنها... أنت تفهمين هذا... بأنها أمي».

انفجر الرعد... كأن السماء تتكسر. أجفلنا معاً. وبعد لحظة، عدت أستحثه على الكلام: «ماذا حدث بعد هذا؟ ماذا حدث بعد أن ساعدتْني؟».

ينظر إلى أصابعه ويقول: «عادت إلى بيتنا وتحدثنا بعض الوقت. كانت تحدثني عن أيام طفولتي الأولى. حدثتني أيضاً عما كانت تفعله بعد أن تخلت عني. وقد أرتني صوراً».

«وبعد ذلك؟».

«بعد ذلك ذهبت».

«هل عادت إلى فندقها؟».

يهز رأسه مرة أخرى، لكنها هزة بطيئة هذه المرة.

«أين ذهبت؟».

«الحقيقة أنني لم أكن أعرف ذلك الوقت».

أحسّ شيئاً يضايقني في بطني: «أين ذهبت بعد ذلك؟».

يرفع عينيه إلى وجهي من جديد: «أتت إلى هنا».

أسمع تكات الساعة.

«ماذا تعني بهذا؟».

«لقد التقت ذلك الشخص الذي يعيش في الأسفل. أعني الشخص الذي كان يعيش هنا».

أنظر إليه وأقول: «ديفيد؟».

يومئ برأسه.

أفكر في ذلك الصباح بعد الهالووين، وكيف سمعت صوت اندفاع الماء في الأنابيب بينما كنت أنظر مع ديفيد إلى الفأر الميت. أفكر في القرط الذي رأيته إلى جانب سريره. قال: إنه لامرأة اسمها كاثرين.

كيتي! إنها كاثرين!

أقول له: «لقد كانت في قبو بيتي».

يقول بإصرار: «لم أعرف بالأمر إلا في وقت لاحق».

«وما المدة التي أمضتها هنا؟».

«إلى أن...» يتردد صوته في حنجرته.

«إلى أن... ماذا؟»

يشبك أصابعه الآن: «عادت في اليوم التالي للهالووين وتحدثنا قليلاً. قلت لها إنني سأخبر أبي وأمي بأنني أريد رؤيتها. أعني، على نحو رسمي. هذا لأنني أكاد أبلغ السابعة عشرة. وعندما أصبح في الثامنة عشرة يمكنني أن أفعل أي شيء أريده. وهكذا اتصلت بأمي وأبي في اليوم التالي وأخبرتهما بالأمر».

يتابع كلامه: «انفجر أبي غاضباً. غضبت أمي، لكن أبي جنَّ غضباً. عاد من فوره وأراد أن يعرف مكانها. وعندما رفضت إخباره...». تتدحرج دمعة من عينيه.

أضع يدي على كتفه، ثم أسأله: «هل ضربك؟»

يومئ برأسه من غير صوت. نجلس معاً صامتين.

يستنشق إيثان نفساً عميقاً، ثم يستنشق نفساً آخر ويقول بصوت مبحوح: «عرفت أنها كانت معك. رأيتكما هناك...» ينظر في اتجاه المطبخ... «رأيتكما من غرفتي. أخبرته آخر الأمر. إنني آسف. أنا آسف حقاً». إنه يبكي الآن.

أقول: «أوه...» أمسح بيدي على ظهره.

«كنت أريد فقط أن أجعله يبتعد عني».

«أفهم هذا».

يمسح ما تحت أنفه بإصبعه... «أعني.. رأيت أنها قد غادرت بيتك. وهكذا أدركت أنه لن يعثر عليها هنا. كان هذا عندما جاء إليك».

«نعم».

«كنت أراقبك. وكنت أدعو الرب أن يتمالك نفسه فلا يطلق جنون غضبه عليك».

«لا، لم يفعل ذلك». أردت فقط أن أعرف إن كان أحد قد زارك هذا

المساء، هكذا أوضح لي الأمر. ثم قال بعد ذلك: كنت أبحث عن ابني، لا عن زوجتي. أكاذيب.

«وعندها، تماماً بعد عودته إلى البيت، أتت... أتت إلى البيت من جديد. لم تكن تعرف أنه موجود هناك. كان من المفترض أن يعود في اليوم التالي. جاءت وقرعت جرس الباب فطلب مني أن أفتحه وأن أدعوها إلى الدخول. كنت في غاية الذعر».

أظل صامتة ولا أقول شيئاً. إنني مصغية فحسب.

«حاولنا الحديث معه. حاولنا، كلانا».

أتمتم قائلة: «في ردهة بيتكم».

ينظر إليّ بدهشة: «هل رأيت هذا؟».

«نعم، رأيت». أتذكرهم هناك، إيثان وجين (أعني كيتي) جالسين على الأريكة الصغيرة، وألستير في مقعد قبالتهما. من عساه يدري ما يجري في أسرة من الأسر؟

«لم تسر الأمور سيراً حسناً». صارت أنفاسه ضحلة الآن. إنه يحوزق... «قال لها أبي إنه سيتصل بالشرطة إذا عادت إلى البيت مرة أخرى وسيجعلهم يعتقلونها لأنها تضايقنا».

لا أزال أفكر في تلك اللوحة في النافذة: طفل، وأب، و«أم». من عساه يدري ما يجري...؟

لكنني أتذكر شيئاً آخر.

أبدأ القول: «وفي اليوم التالي...»

يومئ برأسه، ويحدق في الأرض. تتلوى أصابعه في حجره: «لقد عادت. قال لها أبي إنه سيقتلها. أمسك بها من عنقها». صمت. أكاد أسمع تردد صدى تلك الكلمات: قال لها إنه سيقتلها. أمسك بها من عنقها.

أتذكر كيف ثبّتني ألستير إلى الجدار، وكيف كانت يده ممسكة بعنقي.

«وعند ذلك صرخَتْ». يبدو صوتي هادئاً.

«نعم».

«كان ذلك عندما اتصلت ببيتكم».

يومئ برأسه من جديد.

«لماذا لم تخبرني بما كان يحدث؟».

يقول لي: «لقد كان هناك. وكنت خائفاً...» يرتفع صوته. وجنتاه رطبتان... «أردت إخبارك. أتيت إلى بيتك بعد ذهابها».

«أعرف هذا. أعرف أنك أتيت».

«لقد حاولت».

«أعرف، أعرف».

ينشق من أنفه: «ثم عادت أمي من بوسطن في اليوم التالي... وهي عادت أيضاً. كيتي. عادت في تلك الليلة. أظنها افترضت أن الكلام مع أمي سيكون أكثر سهولة». يدس وجهه في كفيه. يمسح وجهه بكفيه.

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

يظل لحظة من غير أن يقول شيئاً. ينظر في عينيَّ فقط. ينظر من طرف عينه كأنه في حالة شك. يسألني: «ألم تري ما حدث؟... حقاً؟»

«لا. لم أر إلا أمك... رأيتها تصرخ على أحد ما، ثم رأيت شيئاً في...» ترتفع يدي إلى صدري... «رأيت شيئاً في...» أتوقف لحظة ثم أقول: «لم أرَ أحداً غيرها هناك».

عندما يتكلم من جديد، يأتي صوته أكثر انخفاضاً، وأكثر ثباتاً: «التقوا في الأعلى، حتى يتحدثوا، أبي وأمي وهي. كنت في غرفتي. لكنني كنت أسمع كل شيء. أراد أبي أن يتصل بالشرطة. أما هي... فظلت تقول إنني ابنها، وإن من المفترض أن نكون قادرين على رؤية أحدنا الآخر. قالت لهما إنه ليس من حقهما أن يمنعانا من هذا. كانت أمي تصرخ عليها وتقول إنها ستحرص على ألّا تتمكن من رؤيتي من جديد. ثم هدأت أصواتهم جميعاً. وبعد دقيقة، نزلت إلى الأسفل، فكانت...» يتقلص وجهه، وأسمعه يغمغم. أسمع نشيجاً يتصاعد من مكان عميق في صدره ثم ينفجر خارجاً. أراه ينظر إلى يساري ويتململ في جلسته.

«كانت ملقاة على الأرض. لقد طعنَتْها»... إيثان يشير إلى صدره الآن... «طعنَتْها بسكين فتح الرسائل».

أومئ برأسي، ثم أقول له: «انتظر، مَن الذي طعنها؟».

يقول بصوت مخنوق: «أمي».

أحدّق فيه.

«قالت إنها لا تريد أن يأخذني أحد...» يغص قليلاً... «لا تريد أن يأخذني أحد منها». يميل إلى الأمام ويضع يديه مثل قناع على وجهه. يرتفع كتفاه، يقفزان ويهتزان، وهو يبكي.

أمي... لقد فهمت الأمر على نحو خاطئ. فهمته كله على نحو خاطئ.

«قالت إنها انتظرت هذا الزمن الطويل كله حتى يصير لديها طفل، ثم...» أغمض عيني... «وقالت إنها لن تسمح لها بأن تؤذيني مرة أخرى».

أسمعه يبكي بصوت منخفض.

تمر دقيقة، ثم دقيقة أخرى، أفكر في جين، في جين الحقيقية. أفكر في غريزة الأمومة الهائلة، الغريزة نفسها التي تملكتني عندما كنت عالقة في ذلك الوادي. لقد انتظرَتْ زمناً طويلاً جداً حتى يكون لديها طفل. لم ترد أن يأخذني أحد منها.

عندما أفتح عيني أرى أن دموعه قد توقفت عن الجريان. إيثان يشهق الآن مثل شخص كان يعدو عدواً سريعاً.

يقول لي: «لقد فعلتْ ذلك من أجلي. فعلَتْه لتحميني».

تمر دقيقة أخرى.

يتنحنح قليلاً، ثم يقول: «لقد أخذاها... أخذاها إلى بيتنا في المنطقة الشمالية من الولاية، ثم دفناها هناك».

يضع يديه في حجره.

أقول له: «هل هي هناك الآن؟».

أنفاسه عميقة، كثيفة: «نعم».

«وما الذي حدث عندما جاءت الشرطة في اليوم التالي لتسأل عن الأمر؟»

يقول: «كان ذلك مخيفاً. كنت في المطبخ، لكني سمعتهم يتحدثون في غرفة المعيشة. قالوا إن شخصاً ما أبلغهم بحدوث شيء في الليلة الماضية. أنكر أبي وأمي أي شيء. ثم عرفا أنك الشخص الذي أبلغ الشرطة فأدركا أن كلامك سيكون في مواجهة كلامهما. في مواجهة كلامنا. لم يرها أحد غيرك».

«لكن ديفيد رآها. لقد أمضى معها...». أحاول تذكر التواريخ بسرعة... «أمضى معها أربع ليالٍ».

«لم نعرف بهذا الأمر إلا في وقت لاحق. لم نعرف به إلا بعد أن نظرنا في هاتفها لنرى من الذين كانت تتحدث معهم. قال أبي إن أحداً لن يقبل الإصغاء إلى شخص يعيش في شقة في القبو. وهكذا كان كلامهما في مواجهة كلامك. قال أبي أيضاً إنك...» يتوقف عن الكلام.

«قال إنني ماذا؟».

يبتلع ريقه: «إنك غير مستقرة عقلياً. وإنك تشربين كثيراً».

لا أقول شيئاً. أستطيع الآن سماع صوت قرع المطر على النوافذ كأنه وابلٌ من رصاص.

«في ذلك الوقت، لم نكن نعرف شيئاً عن أسرتك». أغمض عيني، ثم أبدأ العد، واحد، اثنان.

عندما أصل إلى العدد ثلاثة، يتكلم إيثان من جديد. يأتي صوته متوتراً، مشدوداً: «أحس كأنني كنت أخفي هذه الأسرار كلها عن الناس جميعاً. لا أستطيع الاستمرار في فعل هذا».

أفتح عيني. في غسق غرفة المعيشة، في النور الواهي الآتي من المصباح، أراه كأنه ملاك.

«علينا أن نخبر الشرطة».

ينحني إيثان إلى الأمام ويحتضن ركبتيه. ثم ينصب قامته وينظر إلي لحظة، ثم يشيح بوجهه عني: «إيثان!»

«أعرف». لا أكاد أسمع صوته.

صوت من خلفنا. أستدير في مقعدي. بنتش جالس خلفنا ورأسه مائل جانباً. يموء من جديد.

«ها هو». يمد إيثان يده من فوق ظهر الأريكة، لكن القط يبتعد عنه. يقول إيثان بصوت منخفض: «أظنه لم يعد يحبني».

«انظر! هذا أمر خطير جداً جداً. وسوف أتصل بالمحقق ليتل حتى يأتي ويسمع منك كل ما قلته لي».

«هل يمكنني أن أتصل بهم؟ قبل ذلك؟».

أعبس قليلاً: «تخبر من؟ هل تريد إخبار...؟».

«أريد إخبار أمي... وأبي».

أقول له وأنا أهز رأسي: «لا. إننا...».

تنهمر توسلاته كأنها طوفان مندفع: «أوه، من فضلك، من فضلك».

«يا إيثان، إننا...».

«من فضلك. من فضلك». كاد صوته الآن يصير صراخاً. أنظر إليه: الدموع متدفقة من عينيه، ووجهه محمر. يكاد الذعر يفقده عقله. هل أتركه يبكي إلى أن يرتاح؟

لكنه بدأ الكلام من جديد... سيل من الكلمات والدموع: «لقد فعلتْ هذا من أجلي...». عيناه تفيضان من جديد... «فعلتْ هذا من أجلي. لا أستطيع... لا أستطيع أن أشي بها. لا أستطيع ذلك بعد ما فعلته من أجلي».

أقول له شبه هامسة: «إنني...».

يسألني: «ألن يكون من الأفضل لهما أن يذهبا إلى الشرطة بنفسيهما ويعترفا هناك؟»

أفكر في هذا. هذا أفضل لهما... مما يعني أنه أفضل له أيضاً. لكن...

«إنهما في حالة ذعر شديد منذ حدث ذلك الأمر. يكاد الجنون يصيبهما». يلمع العرق على شفته العلوية، يلمع العرق والمخاط معاً.

يمسح شفته... «قال أبي لأمي إن عليهما أن يذهبا إلى الشرطة. وسوف يصغيان إليّ عندما أكلمهما».

«إنني، لست...».

«سوف يصغيان»... إنه يومئ برأسه بحركة واثقة حازمة، ويتنفس بعمق... «إذا قلت لهما إنني تحدثت معك وإنك ستخبرين الشرطة إذا لم يذهبا بنفسيهما...».

«هل أنت واثق من...؟» أنك تستطيع أن تثق بأمك؟ وهل أنت واثق من أن ألستير لن يهاجمك؟ هل أنت واثق من أن أي منهما لن يأتي فيهاجمني؟

«ألا يمكنك الانتظار قليلاً ريثما أتحدث معهما؟ أنا لا أستطيع... إذا تركت الشرطة تأتي وتأخذهما الآن، فأنا لست...» ترتحل نظرة عينيه إلى كفيه... «أنا لا أستطيع فعل هذا. وأنا لا أعرف كيف يمكن أن... أن أعيش وحدي». صوته محتقن من جديد... «من غير أن أمنحهما فرصة قبل ذلك. يجب أن أمنحهما فرصة لمساعدة نفسيهما...» صار شبه عاجز عن الكلام... «إنها أمي».

هو يعني جين.

ليس في تجاربي كلها ما يجعلني مستعدة لمواجهة هذا. أفكر في ويسلي، وفي النصيحة التي يمكن أن يقدمها في هذه الحالة. فكري بنفسك يا فوكس.

هل يمكنني تركه يعود إلى ذلك البيت؟... يعود إلى أولئك الناس؟ لكن... هل يمكنني أن أحكم عليه بالندم طيلة حياته؟ أعرف كيف يكون هذا الإحساس. أعرف الألم الذي لا يهدأ، وكيف يطن ويطن من غير توقف. لا أريد أن يكون إحساسه هكذا.

أقول له: «لا بأس».

ينظر إليَّ غير مصدق: «هل قلتِ لا بأس؟».

«نعم، اذهب وأخبرهما».

إنه ينظر إليَّ الآن مستغرباً، كأنه لا يصدقني. لكنه يستعيد رشده بعد لحظة، ثم يقول لي: «شكراً لك».

«كن في غاية الحذر، أرجوك».

يبدأ بالنهوض واقفاً: «سوف أكون حذراً».

«ما الذي تعتزم قوله؟».

يجلس من جديد، ثم يتنهد تنهداً حزيناً: «أظن أنني... سوف أقول إنك... إنك تعرفين. سأقول إن لديك دليلاً...» يومئ برأسه... «سوف أقول لهما الحقيقة. سأقول إنني أخبرتك بما حدث. وسأقول إنك قلت لي إن علينا الذهاب إلى الشرطة». يرتعش صوته، ثم يفرك عينيه ويقول: «قبل أن تفعلي ذلك... ماذا سيحدث لهما، برأيك؟»

أتمهل لحظة ريثما أبحث عن طريقة للإجابة على سؤاله: «الأمر هو... أظن أن الشرطة ستتفهم أن أباك وأمك كانا يتعرضان للمضايقة، وأنها... وأن كيتي كانت تلاحقك خلسة. وقد تكون في ذلك مخالفة لما تم الاتفاق عليه عند تبنيك...» أراه يومئ برأسه بحركة بطيئة. فأضيف... «كما أن الشرطة ستأخذ بعين الاعتبار أن ذلك حدث في خضم مناوشة كلامية عنيفة».

يعض على شفته.

أقول له: «لن يكون الأمر سهلاً».

يخفض عينيه ويقول هامساً: «لا، لن يكون سهلاً». ثم يرفع عينيه إليّ وينظر بقوة تجعلني أهتز في مكاني، ويقول: «أشكرك!».

«حسن، إنني...».

يبتلع ريقه ويقول: «حقاً. إنني أشكرك».

أومئ برأسي: «إن هاتفك معك، أليس هذا صحيحاً؟».

يضع يده على جيب معطفه: «إنه هنا».

«اتصل بي إذا... فقط، دعني أعرف أن كل شيء على ما يرام».

يقف من جديد: «لا بأس». أنهض معه. يستدير متجهاً إلى الباب.

«إيثان...» يستدير في اتجاهي.

«أريد أن أعرف: أبوك...».

ينظر إلي.

... «هل... أتى إلى بيتي في الليل؟».

يعبس قليلاً: «نعم، أتى الليلة الماضية. ظننت أنـ...».

«لا. أعني، في الأسبوع الماضي».

إيثان لا يقول شيئاً.

«... أسألك لأنهم قالوا لي إنني أتخيل أن شيئاً حدث في بيتكم؛ وأنا أعرف الآن أنني لم أكن أتخيل. قيل لي أيضاً إنني رسمت صورة، لكنني لم أرسمها في حقيقة الأمر. وأنا أريد... يجب أن أعرف من الذي التقط تلك الصورة لي. لأن...» أسمع صوتي مرتعشاً... «لأنني لا أريد... حقاً، لا أريد... أن أكون أنا من التقط تلك الصورة».

سكون.

يقول إيثان: «لست أدري. كيف يمكن أن يكون قد دخل بيتك؟».

ليست لدي إجابة على هذا.

نسير معاً حتى الباب. وعندما يمد يده إلى المقبض ليفتحه، أطوّقه بذراعيَّ، ثم أقرّبه مني وأحتضنه بقوة.

أهمس له: «حافظ على نفسك، أرجوك».

يقف هناك لحظة بينما ينسكب المطر على النوافذ وتصفر الريح في الخارج.

يخطو مبتعداً عني، ثم يبتسم ابتسامة حزينة.

ثم يذهب.

أباعد بين الستائر قليلاً وأنظر إليه يصعد الدرجات التي أمام بيته، ثم يضع المفتاح في القفل. يفتح الباب، ثم يغلقه من خلفه. لقد اختفى داخل البيت.

هل كنت مصيبة في تركه يذهب؟ ألم يكن علينا إخطار المحقق ليتل قبل ذلك؟ ألم يكن علينا أن نتصل بألستير وجين ونطلب إليهما القدوم إلى بيتي؟

تأخر الوقت على هذا، تأخر كثيراً.

أواصل النظر عبر الحديقة، إلى النوافذ الخاوية والغرف الفارغة. في مكان ما في أعماق ذلك البيت، يتحدث إيثان مع أبيه وأمه الآن كمن يهوي بمطرقة على عالمهما. إحساسي الآن مثلما كان في كل يوم في حياة أوليفيا: كوني آمنة، وحافظي على نفسك، أرجوك.

إن كان هنالك شيء واحد قد تعلمته خلال سنوات عملي الطويلة مع الأطفال، وإن كنت قادرة على اختصار تلك السنين كلها في شيء واحد، فهو كما يلي: إنهم مطواعون إلى حد فائق. إنهم قادرون على احتمال الإهمال، وعلى احتمال الأذى. إنهم قادرون على تحمل المشاق، بل قادرون على التفوق عليها حيث يمكن أن ينهار الكبار مثلما تنهار المظلات في الريح. قلبي يخفق من أجل إيثان. إنه في حاجة إلى تلك المرونة. إن عليه أن يتحمل.

ثم... يا لها من قصة... يا لها من قصة كلها شر. أرتعد وأنا عائدة إلى غرفة المعيشة. أطفئ المصباح. تلك المرأة المسكينة. ذلك الطفل المسكين. ثم... جين. ليس ألستير، بل جين.

تجري دمعة على خدي. أمسحها بإصبعي فتنتشر على جلدي. أنظر إليها متعجبة. ثم أمسح يدي بثوبي.

يتهدل جفناي. أصعد إلى غرفة نومي، أصعد حتى أنتظر هناك، حتى أقلق هناك.

أقف عند النافذة، وأنظر إلى ذلك البيت خلف الحديقة. ليس فيه ما يشير إلى الحياة.

أقضم ظفري إلى أن أدميه.

أذرع الغرفة، ثم أسير في دوائر حول السجادة.

ألقي نظرة إلى الهاتف. لقد مرت نصف ساعة.

أنا في حاجة إلى شيء يلهيني. أنا في حاجة إلى شيء يهدئ أعصابي... إلى شيء مألوف... إلى شيء مهدئ.

«ظل من الشك». مسرحية سينمائية لثورنتون وايلدر. إنها العمل المفضل لدى هيتشكوك من بين أفلامه كلها: امرأة ساذجة في مقتبل العمر تعرف أن بطلها ليس الشخص الذي يدّعي شخصيته. تقول شاكية: «إننا نعيش معاً، ولا يحدث شيء. إننا في مشكلة عويصة. إننا نأكل وننام، وهذا كل شيء. بل إنه ليس بيننا أي أحاديث حقيقية». يستمر ذلك إلى أن يزورها عمها تشارلي.

الصراحة أنني ظللت فترة غير قادرة على أن أحبها، فترة أطول مما يجب.

أتابع الفيلم على كمبيوتري. وأضع إبهام يدي الذي جرحته في فمي. يأتي القط بعد بضع دقائق ويقفز إلى السرير فيجلس معي. أضغط على قائمته المصابة فيصدر صوتاً كالهسيس.

مع تعقّد حبكة الفيلم، يتعقد شيء في داخلي أيضاً، شيء لا أستطيع أن أضع له اسماً. أتساءل عما يجري الآن في البيت الذي خلف الحديقة.

يهتز هاتفي، وأراه يزحف على الوسادة إلى جانبي. أمسك به وأفتحه.

هما في الطريق إلى الشرطة.

إنها الحادية عشرة ليلاً وثلاث وثلاثون دقيقة. لقد سهوت عن مرور الزمن.

أخرج من السرير وأزيح الستائر جانباً. المطر يضرب نافذتي، يصفعها بعنف كأنه قذائف مدفع. برك من الماء على الزجاج.

البيت مظلم خلف الحديقة، عبر العاصفة.

لا يزال الفيلم مستمراً من خلفي: «هنالك الكثير مما لا تعرفينه، هنالك الكثير...» يزمجر العم تشارلي... «أنت تعيشين في حلم. أنت مثل السائر في نومه، عمياء. كيف تعرفين شيئاً عن العالم؟ هل تعرفين أنك ستجدين خنازير إذا مضيت إلى ما هو أعمق من واجهات البيوت؟ استخدمي ذكاءك. تعلمي شيئاً».

أسير في اتجاه الحمام، أسير على امتداد بقعة الضوء الساقط عبر النافذة. أريد شيئاً يساعدني في العودة إلى النوم. ميلاتونين، أظن هذا. سوف أكون في حاجة إليه الليلة.

أبتلع حبة. وعلى الشاشة، يسقط جسد، ثم أسمع زعيق قطار؛ وتتتالى على الشاشة أسماء الممثلين.

«احزري من؟».

لا أستطيع إبعاده عني هذه المرة، لأنني نائمة؛ لكنني أدرك وجوده. إنه حلم واضح جداً.

لكنني أحاول، رغم ذلك: «اتركني، اتركني يا إد».

«هيا، تحدثي معي».

«لا».

لست أراه، ولست أرى شيئاً. مهلاً، هنالك أثر له، مجرد ظل.

«أظن أن علينا أن نتحدث».

«لا. اذهب عني».

ظلمة. صمت.

«هنالك شيء ليس على ما يرام».

«لا». لكنه محق... هنالك شيء ليس على ما يرام. ذلك الاضطراب في أحشائي.

«عجباً... ذلك الرجل، ألستير، اتضح أنه شخصية غريبة حقاً. أليس كذلك؟»

«لا أريد الحديث عن هذا».

«أوه، كدت أنسى. أوليفيا تريد أن تسألك سؤالاً».

«لا أريد أن أسمع سؤالها».

«سؤال واحد فقط...» لمعة أسنان؛ وابتسامة كبيرة... «سؤال بسيط واحد».

«لا».

«هيا يا حبيبتي. اسألي ماما».

«قلت لكَ...».

لكني أحس فمها عند أذني، وأحس كلماتها الصغيرة تنسكب في رأسي، أسمع صوتها الذي يأتيني عميقاً هامساً عندما تريد أن تطلعني على سر.

تسألني: «كيف صارت قائمة بنتش؟».

أنا مستيقظة؛ وضوح مفاجئ كأن أحداً غمرني بالماء. تنفتح عيناي على اتساعهما. أرى شعاع ضوء يجري على السقف من فوقي.

أنقلب، ثم أخرج من السرير وأذهب إلى الستائر فأعيد إغلاقها. تخبو الغرفة وتصير رمادية من حولي. أرى عبر النافذة، أرى عبر المطر، أرى بيت روسِل منتصباً تحت سماء قاتمة. ومن فوقه شرارة برق متكسر. صوت رعد متدحرج هادر عميق.

أعود إلى السرير. يئن بنتش بصوت منخفض عندما أجلس.

كيف صارت قائمة بنتش؟.

ذلك هو الأمر... تلك هي العقدة التي أحسها في أحشائي.

عندما زارني إيثان أول أمس فوجد القط متمدداً على ظهر الأريكة، انزلق بنتش إلى الأرض واختبأ تحت تلك الأريكة. أشد على عينيَّ، وأعيد رؤية المشهد نفسه من كل زاوية ممكنة. لا: لم ير إيثان قائمة القط العرجاء... لا يمكن أن يكون قد رآها.

أو لعله رآها. أتحسس بنتش الآن وتطبق أصابعي على ذيله. يقاوم ليتخلص مني. أنظر إلى الساعة على الهاتف. إنها الواحدة صباحاً وعشر دقائق.

ضوء شاشة الهاتف يؤلم عينيّ. أغمضهما بشدة. ثم أفتحهما قليلاً وأنظر إلى السقف.

أسأل القط الجاثم في الظلام: «كيف عرف بأمر قائمتك؟».

أسمع صوت إيثان: «لأنني زرتك في الليل».

الاثنين

15 تشرين الثاني

95

يرتد جسدي إلى الخلف تحت وقع هذه الصدمة. يلتفت رأسي في اتجاه الباب.

برق يضيء الغرفة فيحيلها بياضاً في بياض. إيثان واقف في الممر، واقف بالباب، مستند إلى إطاره. حبات المطر تكلل رأسه، ووشاحه مرتخ حول رقبته.

تنزلق الكلمات على لساني: «لقد ظننت أنك... أنك ذهبت إلى البيت».

صوته منخفض، لكنه واضح: «لقد ذهبت. تمنيت لهما ليلة طيبة. انتظرت إلى أن ذهبا إلى السرير...» تتخذ شفتاه شكل ابتسامة ناعمة صغيرة، ثم يضيف... «ثم عدت إليك، هنا. إنني آتي إلى هنا كثيراً».

«ماذا؟» لا أفهم ما يحدث.

يقول لي: «يجب أن أخبرك أنني التقيت أطباء نفسيين كثيرين. أنت أول من لا يشخص إصابتي باضطراب في الشخصية». يرتفع حاجباه... «أظنك لست أفضل طبيبة نفسية في العالم».

ينغلق فمي بصعوبة، ثم ينفتح من جديد، كأنه باب معطوب.

يقول لي: «لكنك تثيرين اهتمامي، رغم ذلك. أنت تثيرين اهتمامي.

هذا ما جعلني أواصل العودة إليك حتى عندما كنت أعرف أنني يجب ألا أعود. تثير اهتمامي النساء المتقدمات في السن...» يتجهم وجهه قليلاً... «آسف، هل كان هذا التعبير مهيناً؟».

لا أستطيع الحركة.

ينتهد: «آمل ألا يكون مهيناً. كانت زوجة مدير أبي تثير اهتمامي أيضاً. كان اسمها جينيفر. كانت تعجبني. وكنت أعجبها... إلى حد ما. لكن...» يحرك جسده الطويل الضامر ويستند إلى الجهة الأخرى من جهة الباب... «كان هنالك نوع من سوء التفاهم. مباشرة قبل انتقالنا. زرت بيتهم. زرته في الليل. وهي... لم يعجبها هذا. أو لعلها قالت إن هذا لم يعجبها». ينظر إليَّ نظرة سخط... «كانت تعرف ما تفعله».

وعند ذلك، أراه في قبضة يده. أرى شيئاً فضياً لامعاً.

إنه نصل. إنه أداة فتح الرسائل.

تنتقل عيناه من وجهي إلى يده، ثم تعودان إلى وجهي. تتقلص حنجرتي.

يقول لي مزهواً: «هذا ما استخدمته مع كيتي لأنها لم تكن تريد أن تتركني وشأني. لقد طلبت منها ذلك. طلبت منها ذلك مرات كثيرة جداً، لكنها...» يهز رأسه وينشق بأنفه «لم تكن لتتوقف أبداً. كانت عنيدة مثلك، نوعاً ما».

أقول بصوت متحشرج: «لكنك، الليلة... أنت...» يجف صوتي، ثم يموت.

«ماذا؟»

ألعق شفتي: «لقد قلت لي...».

«لقد قلت لك ما يكفي لكي... أنا آسف لهذه الكلمة، لكي أجعلك تطبقين فمك. يؤسفني أن أقولها بهذه الطريقة لأنك لطيفة حقاً. لكني كنت في حاجة إلى جعلك تطبقين فمك ريثما أتمكن من متابعة كل شيء». يتململ في وقفته، ثم يتابع... «لقد كنت تريدين الاتصال بالشرطة. وأنا

كنت في حاجة إلى قليل من الوقت حتى... أنت تعرفين... حتى يصير كل شيء جاهزاً».

من زاوية عيني، أرى حركة في الغرفة. القط يمط جسده على السرير. إنه ينظر إلى إيثان، ثم يموء.

يقول لي: «هذا القط البائس. أعجبني ذلك الفيلم عندما كنت صغيراً. 'ذلك القط البائس؟...» يبتسم لبنتش... «بالمناسبة، أظنني كسرت ساقه. أنا آسف لهذا». تلمع أداة فتح الرسائل عندما يشير بها في اتجاه السرير... «لقد ظل يتبعني طيلة الوقت عندما كنت في البيت في الليل، ففقدت أعصابي بعض الشيء. ثم إن لدي حساسية من القطط. لقد أخبرتك بهذا. لم أكن أريد أن أعطس فأوقظك. يؤسفني أنك مستيقظة الآن».

«هل جئت إلى هنا في الليل؟».

يتقدم خطوة في اتجاهي. يلوح نصل أداة فتح الرسائل سائلاً في الضوء الرمادي.

«إنني آتِ كل ليلة تقريباً».

أقول له، وأسمع صوت تنفسي يتوقف: «كيف؟».

يبتسم من جديد: «لقد أخذت مفتاحك. أخذته عندما كتبت رقمك ذلك اليوم. رأيته معلقاً من الخطاف يوم زرتك أول مرة، ثم أدركت أنك لن تلاحظي اختفاءه. هذا لأنك لا تستخدمين ذلك المفتاح. صنعت لنفسي نسخة ثم أعدته إلى مكانه. أمر سهل». يبتسم مرة أخرى.

ثم يقهقه فيضع يده على فمه: «آسف. آسف. الأمر هو أنني، فقط... ظننت أنك فهمت الأمر عندما اتصلت بي الليلة. لقد كنت كأنني... لم أعرف كيف أتصرف. والحقيقة أن هذا كان في جيبي». لوّح بأداة فتح الرسائل من جديد... «حملته معي من باب الاحتياط. لقد كنت مرتبكاً حقاً. لكنك جعلت الأمر سهلاً فقلت لك 'إن أبي صاحب مزاج سيئ'. 'أوه. أنا خائف جداً'. 'لا يسمحان لي بأن يكون لدي هاتف'. لقد أشفقتِ عليّ كثيراً. وكما قلت لك، أنت لست طبيبة نفسية ماهرة. اسمعي! لدي

فكرة جميلة: حلليني نفسياً. أنت تريدين معرفة كل شيء عن طفولتي، أليس كذلك؟ كلهم يريدون معرفة كل شيء عن طفولتي». أومئ برأسي كأنني مخدرة.

«سوف يعجبك هذا. أظنه شيئاً يحلم به كل معالج نفسي. لقد كانت كيتي...» ينطق اسمها بنوع الازدراء والقرف... «مدمنة على المخدرات. كانت مثل عاهرة مع أنواع المخدرات كلها، عدا الهيروين. بل كانت عاهرة هيروين أيضاً. بل إنها لم تخبرني أبداً باسم أبي. وهي... ما كان يجوز أبداً أن تصير أماً».

ينظر إلى أداة فتح الرسائل... «بدأت حكايتها مع المخدرات عندما كان عمري سنة واحدة. هذا ما قاله لي أبي وأمي. إلا أنني لا أكاد أتذكر شيئاً من ذلك في حقيقة الأمر. أعني كنت في الخامسة عندما أخذاني منها. لكنني أتذكر كيف كنت أجوع... أجوع كثيراً. أتذكر بعض الأشياء عن الحقن التي كانت تستعملها. وأتذكر كيف كان أصحابها يضربونني كلما كانت لديهم رغبة في ذلك».

صمت.

«أنا واثق من أن أبي الحقيقي ما كان ليفعل هذا بي».

لا أقول شيئاً.

«أتذكر رؤية واحدة من صديقاتها تتناول جرعة زائدة من المخدرات. رأيتها تموت أمام عيني. تلك هي أول ذكرياتي. كنت في الرابعة».

مزيد من الصمت. يطلق تنهيدة خفيفة.

«بدأت أسلك مسلكاً سيئاً. لقد حاولَتْ مساعدتي، أو حاولتْ إيقافي، لكنها كانت مُخدَّرة معظم الوقت. وبعد ذلك، ذهبتُ إلى الملجأ، ثم جاء أبي وأمي وأخذاني». يرفع كتفيه ويتنهّد... «إنهما... نعم. لقد أعطياني الكثير.. أعرف أنني أسبب لهما متاعب كثيرة. هذا ما جعلهما يخرجانني من المدرسة. وقد فقد أبي عمله، لأنني أردت التعرف إلى جينيفر. جعله هذا يجن غضباً، لكن... أنت تفهمين...» يقطب حاجبيه... «كان حظه سيئاً».

يضيء البرق الغرفة كلها من جديد. وينفجر الرعد.

إنه ينظر من النافذة الآن، ينظر إلى ما خلف الحديقة: «على أية حال، عثرت كيتي علينا في بوسطن... مثلما قلت لك. لكن أمي ما كانت لتتركها تأخذني. ثم عثرت علينا في نيويورك. ظهرت فجأة ذات يوم عندما كنت وحدي. أرتني تلك القلادة التي فيها صورتي. وقد تحدثتُ إليها لأن الأمر أثار اهتمامي. تحدثت إليها خاصة لأنني أردت أن أعرف منها هوية أبي».

تعود عيناه إليّ ويقول: «هل تعرفين كيف يكون هذا، وكيف تتساءلين إن كان أبوك سيئاً مثلما هي أمك؟ وتأملين في ألّا يكون كذلك؟ لكنها اكتفت بالقول إن هذا أمر لا أهمية له. لم تكن له صورة في الصور التي أتت بها. لقد كانت لديها صور. كان ذلك كله صحيحاً، كما تعلمين».

تبدو عليه الوداعة فجأة: «حسن... لم يكن صحيحاً كله. في تلك الليلة، عندما سمعت صراخها!... كنت قابضاً على عنقها بيدي. لم أكن أضغط على عنقها كثيراً، لكني كنت قد سئمتها في تلك اللحظة. أردت أن أجعلها تنصرف. لقد جن جنونها. لم تكن تريد أن تطبق فمها. لم يعرف أبي بوجودها هناك حتى تلك اللحظة. لقد قال لها: اخرجي من البيت قبل أن يفعل لك شيئاً سيئاً. ثم اتصلتِ أنت، وكان لا بد لي من التظاهر بأنني في غاية الذعر، ثم اتصلتِ من جديد فتظاهر أبي بأن كل شيء على ما يرام». راح يهز رأسه... «ورغم ذلك، أتت تلك العاهرة مجدداً في اليوم التالي. عند ذلك، كان ضجري منها قد بلغ أقصاه. جدياً، ضجرت. لم أكن أبالي بالصور. ولم أكن أبالي بأنها تعلمت الإبحار أو بأنها تتلقى دروساً في لغة الإشارة، أو بأي شيء من هذا. ومثلما قلت لك، ظلت ترفض إخباري أي شيء عن أبي. لعلها لم تكن تعرف شيئاً. بل لعلها لم تكن تعرفه أصلاً». يطلق ضحكة صغيرة ساخرة.

«وهكذا، نعم... لقد عادت مرة أخرى. كنت في غرفتي فسمعت مجادلة بينها وبين أبي. ما كنت قادراً على احتمال مزيد من ذلك. أردتها أن تذهب، ولم يكن لديَّ أيّ اهتمام بقصتها الحزينة البائسة. كرهتها بسبب

ما فعلته بي؛ وكرهتها، لأنها لم تخبرني شيئاً عن أبي؛ وأردتها أن تخرج من حياتي تماماً. وهكذا، أخذت هذه من درج مكتبي...» يلوّح بأداة فتح الرسائل... «ونزلت إلى الأسفل فدخلت الغرفة جرياً، ثم...» يهوي بأداة فتح الرسائل... «حدث الأمر بسرعة حقاً. بل إنها لم تصرخ».

أفكر في ما قاله لي قبل ساعات قليلة: كيف طعنَتْ جين كيتي. وأتذكر كيف ابتعدت عيناه عن عيني في تلك اللحظة، كيف انحرفتا يساراً.

أما الآن، فعيناه لامعتان: «لقد كنت كأنني مبتهج نوعاً ما. المصادفة وحدها هي ما جعلك لا ترين حدوث ذلك. أو أن المصادفة هي ما جعلتك لا ترين معظم ما حدث...» ينظر إليَّ نظرة حادة... «لقد رأيتِ ما فيه الكفاية، حقاً».

يتقدم في اتجاه السرير بخطوات بطيئة. لكنه يتوقف ويقول من جديد: «لم تكن أمي تعرف شيئاً. لم تكن تعرف أي شيء عن هذا كله. بل إنها لم تكن هناك. لقد عادت صبيحة اليوم التالي. جعلني أبي أقسم على ألّا أقول شيئاً. أراد أن يحميها. لديّ شعور سيء تجاه ذلك. إنه سر كبير يصعب إخفاؤه عن زوجته».

خطوة ثالثة في اتجاهي: «هي تظنك مجنونة فحسب».

خطوة أخرى. صار واقفاً إلى جانبي الآن. وصار النصل على مستوى رقبتي.

يسألني: «والآن؟»

أئِن من شدة خوفي. لكنه يجلس على حافة الفراش فيمسّ ظهره ركبتي. يقول لي وهو يميل برأسه جانباً: «حلّليني. أصلحيني».

أنكمش على نفسي. لا، لا أستطيع هذا.

لكنك تستطيعين يا ماما.

لا. لا. لقد انتهى الأمر.

هيا يا آنا!

إن لديه سلاحاً.

وأنت لديك عقلك.

لا بأس. لا بأس. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

يقول إيثان بصوت ناعم يكاد يكون مهدئاً: «أعرف ما أنا؛ فهل لهذا فائدة؟».

الخلل العقلي. المظهر الخارجي الساحر، والشخصية غير المستقرة، والتكلف الظاهر. أداة فتح الرسائل في يده.

أقول وأنا أحاول أن أجعل صوتي ثابتاً: «أنت... هل كنت تؤذي الحيوانات في صغرك؟»

«نعم، لكن ذلك سهل. لقد أعطيت قطك جُرذاً قتلته بنفسي. وجدته في قبو بيتنا. هذه المدينة مقززة». ينظر إلى الطاولة، ثم ينظر إليَّ من جديد... «هل لديك شيء آخر؟ هيا... يمكنك أن تكوني أفضل من هذا».

استنشقت نفساً عميقاً، ثم واصلت التخمين: «من الممتع لك أن تتلاعب بالآخرين».

«حسنٌ، هذا صحيح. أعني... نعم، إنه صحيح. هذا ممتع. وهو سهل أيضاً. إن التلاعب بك سهل حقاً». يغمز لي بعينه.

يربت على ذراعي. ألقي نظرة سريعة إلى جانبي فأرى أن هاتفي قد انزلق عن الوسادة واستقر عند مرفقي.

يبدو عليه مظهر التفكير العميق: «لقد استعجلتُ كثيراً مع جينفر. وقد صارت... أوه، كان ذلك مبالغة مني. كان عليَّ أن أسير بخطى أكثر بطئاً».

يضع النصل على فخذه ويحرّكه على بنطلونه فأسمع صوت احتكاكه بالقماش القاسي... «وهكذا، لم أرد أن أجعلك تريني مصدر خطر. هذا سبب قولي لك إنني مشتاق إلى أصدقائي. وقد تظاهرت أيضاً بأنني قد أكون مثلياً. وبكيت أمامك تلك المرات اللعينة كلها. فعلت هذا كله حتى تشفقي عليّ وتظني أنني هكذا... ولأنني أيضاً، مثلما قلت لك، لا أستطيع الاكتفاء منك على ما يبدو».

أغمض عيني. أستطيع رؤية الهاتف في رأسي كأن شعاعاً من ضوء يسقط عليه.

«اسمعي... هل لاحظتِ أنني خلعت ملابسي أمام النافذة؟ فعلت ذلك بضع مرات. وأعرفت أنك رأيتني في إحداها».

أبتلع ريقي. وأضغط بمرفقي على الوسادة، ببطء، فينزلق الهاتف ويصير ملامساً للحم ذراعي.

«وماذا أيضاً؟ لعلها تلك القصص عن أبي؟» يبتسم ابتسامة متكلفة جديدة... «أعرف أنني حدثتك عنه كثيراً. أبي الحقيقي، وليس ألستير. ألستير ليس أكثر من رجلٍ صغير حزين».

أحسّ شاشة الهاتف تَمس معصمي، باردة، صقيلة... «أنت لا...».

«ماذا؟».

«أنت لا تحترم الحيز الخاص بالآخرين».

«حسن، إنني هنا، أليس هذا صحيحاً؟».

أومئ برأسي من جديد. أضع إبهام يدي على شاشة الهاتف.

«لقد أخبرتك بهذا... أنت تثيرين اهتمامي. أخبرتني عنك جارتنا العاهرة العجوز. الحقيقة أنها لم تخبرني بكل شيء. هذا واضح. لكنني عرفت بعض الأشياء بعد ذلك. هذا ما جعلني آتيك بتلك الشمعة. أمي ليست لديها أية فكرة عنها. لم تكن لتسمح لي بذلك أصلاً...» يتوقف لحظة، ثم ينظر إليّ نظرة متمعّنة... «أراهن أنك كنت امرأة جميلة».

يُقرّب أداة فتح الرسائل من وجهي. يدخلِ نصلها تحت خصلة شعر تدلت على خدي، ثم يزيح تلك الخصلة جانباً. أجفل، وأئنّ.

«لم تقل تلك السيدة إلا أنك تلازمين بيتك طيلة الوقت. وقد أثار هذا اهتمامي. هذه المرأة الغريبة التي لا تخرج أبداً. هذه المرأة غريبة الأطوار».

تلتف أصابعي حول الهاتف. سوف أفتح الشاشة، وسوف تكتب أصابعي تلك الأرقام الأربعة. لقد كتبتها مرات كثيرة جداً، أستطيع فعل

ذلك حتى في الظلام. أستطيع فعل ذلك حتى بوجود إيثان جالساً إلى جانبي.

«وعندها، أدركت أن عليّ أن أعرفك أكثر».

الآن. ألمس زر الهاتف ثم أضغط عليه. أسعل حتى أموّه صوت التكة المنخفض الصادر عنه.

«أبي وأمي...» يبدأ القول وهو يلتفت في اتجاه النافذة؛ ثم يتوقف.

رأسي يدور مع رأسه. وأنا أرى ما يراه: وهج شاشة الهاتف في الظلام منعكساً على الزجاج.

يشهق شهقة صغيرة؛ فأشهق.

أنظر إلى وجهه. أراه ينظر إليّ.

ثم يبتسم ابتسامة كبيرة ويقول: «إنني أمزح». يشير إلى الهاتف بأداة فتح الرسائل... «لقد غيرت رمز الدخول إلى الهاتف. غيرته قبل أن تستيقظي مباشرة. أنا لست غبياً. ولا يمكن أن أترك إلى جانبك هاتفاً تستطيعين استخدامه».

أنا عاجزة عن التنفس.

«وقد أخرجت البطارية من الهاتف الذي في غرفة المكتبة. لعلك تتساءلين عن ذلك الهاتف».

يتجمّد دمي في عروقي.

يشير إلى الباب: «على أية حال... كنت آتي ليلاً على امتداد أسبوعين. كنت أتجول في المكان فحسب وأنظر إليك. يعجبني المكان هنا. إنه هادئ، ومظلم. ثم إن طريقة عيشك مثيرة للاهتمام بعض الشيء... أحس كما لو أنني أُجري بحثاً عليك. شيئاً يشبه برنامجاً وثائقياً. بل إنني... » يبتسم... «بل إني التقطت صورتك بهاتفك...» يكشر... «هل كان هذا مبالغة مني؟ لدي إحساس يقول إنه مبالغة مني. أوه... لكن، كيف تمكنتُ من معرفة رمز الدخول إلى هاتفك يا تُرى؟».

لا أقول شيئاً.

يقول بنبرة مهددة هذه المرة: «اسأليني».

أقول هامسة: «كيف تمكنت من معرفة رمز الدخول إلى هاتفي؟».

يبتسم ابتسامة عريضة مثل طفل يعرف أنه موشك على قول شيء ذكي: «أنت قلت لي ذلك».

أهز رأسي: «لا، لم أقل لك».

ينظر إليَّ مستغرباً: «حسن، لا بأس... أنت لم تقولي لي مباشرة...» يميل في اتجاهي... «قلت ذلك لتلك العاهرة العجوز في مونتانا».

«ليزي؟».

يومئ برأسه.

«أنت... هل كنت تتجسس علينا؟».

يزفر زفرة عميقة: «يا إلهي، أنت غبية حقاً. بالمناسبة، أنا لا أُعلّم الأطفال المقعدين كيف يسبحون. أفضّل أن أقتل نفسي بدلاً من فعل ذلك. لا يا آنا: أنا ليزي».

ينفتح فمي دهشة.

يقول لي: «أو، كنت ليزي. لقد صارت تخرج من البيت كثيراً في الآونة الأخيرة. أظنها تحسنت تماماً. هذا بفضل ولديها... ما اسماهما؟».

أجيبه قبل أن أتمكن من إيقاف نفسي: «بيو وويليام».

يقهقه ضاحكاً من جديد: «يا إلهي. لا أستطيع تصديق أنك تتذكرين هذين الاسمين». يضحك الآن ضحكة أكبر... «بيو! أقسم أنني اخترعت هذا الاسم في تلك اللحظة».

أحدّق فيه.

«في ذلك اليوم، عندما زرتك أول مرة، كان ذلك الموقع الغريب ظاهراً على شاشة كمبيوترك. أنشأت حساباً عندما عدت إلى البيت. وتعرفت على مختلف أنواع الفاشلين المتوحّدين. DiscoMickey، شيء من هذا القبيل...». يهز رأسه... «شيء يدعو إلى الرثاء. لكنه وصلني بك. لم أكن راغباً في الكتابة إليك مباشرة من غير مقدمات. لم أكن أريد

أن تصيري... أنت تفهمين قصدي... لم أكن راغباً في أن أثير عندك أية تساؤلات. على أية حال، لقد أخبرتِ ليزي كيف تخفي كلمات المرور التي تستخدمها، وكيف تضع أعداداً بدل الحروف. هذا شيء عبقري... شيء يشبه اختراعات ناسا».

أحاول ابتلاع ريقي؛ لا أستطيع.

«أو، استخدام تاريخ الميلاد... هذا ما قلته لها، لي. وقد أخبرتِني أيضاً أن ابنتك ولدت يوم الفالنتاين. 14فبراير. هكذا تمكنت من الدخول إلى هاتفك، والتقطت صورة لك وأنت نائمة تشخرين. ثم غيرت الرمز بعد ذلك، حتى أسخر منك فقط... ثم نزلت إلى الأسفل ودخلت كمبيوترك».

يميل في اتجاهي ويتكلم ببطء... «بالطبع، لم يكن رمز الدخول إلى الكمبيوتر إلا اسم أوليفيا، ابنتك. كان هذا رمز الدخول إلى كمبيوترك وإلى بريدك الإلكتروني. وكان سهلاً استنتاج أنك قلبت الحروف إلى أرقام. مثلما قلت للعجوز ليزي...» يهز رأسه... «كم أنت غبية؟».

لا أقول شيئاً.

ينظر إليَّ غاضباً ويقول: «لقد سألتك سؤالاً. كم أنت غبية؟».

أجيبه: «كثيراً».

«كثيراً ماذا؟».

«غبية كثيراً».

«من التي هي غبية كثيراً؟»

«أنا التي هي غبية كثيراً».

«بل في غاية الغباء».

«صحيح».

يومئ برأسه.

المطر يصفع النوافذ.

«وهكذا أنشأت لنفسي حساباً على جيميل. أنشأته على كمبيوترك أنت. تذكري أنك أخبرت ليزي كيف كانت أسرتك تستخدم عبارة

'احزري من؟' دائماً. كانت تلك عبارة ممتازة. احزري من يا آنا؟» يقهقه ضاحكاً... «ثم أرسلت تلك الصورة إلى بريدك. أتمنى لو كنت قادراً على رؤية وجهك في تلك اللحظة». يقهقه من جديد.

صارت الغرفة من غير هواء. أنا شبه عاجزة عن التنفس.

«وقد كان عليَّ أن أضع اسم أمي على ذلك الحساب. أراهن أن رؤية اسمها على ذلك الحساب قد أثارتك تماماً...» يبتسم ابتسامة عريضة... «لكنك قلتِ لليزي أشياء أخرى أيضاً». ينحني إلى الأمام من جديد ويوجه أداة فتح الرسائل إلى صدري... «كانت لك علاقة غرامية، يا عاهرة. وقد تسببتِ في موت أسرتك».

كنت عاجزة عن الكلام. لم يبق لدي شيء.

«وعند ذلك، كنتُ في غاية الذعر فيما يتعلق بكيتي. كان هذا جنوناً. وقد كانت مجنونة. أعني... لقد فهمتُ هذا. لقد فعلتها أمام أبي تماماً، وقد أصابه الذعر، هو أيضاً. لكني أظن أن موتها كان مريحاً له... إن أردتِ الصدق. ارتحت أنا أيضاً. لقد قلت لك إنها كانت مزعجة لي كثيراً».

يتزحزح في جلسته على السرير، ويقترب مني قائلاً: «أفسحي مكاناً». أطوي ساقيّ فتصيران مستندتين إلى فخذه... «كان عليّ أن أتفقد النوافذ، لكن الأمر كله جرى بسرعة كبيرة. ثم إن إنكار حدوث ذلك كان شيئاً في غاية السهولة. كان شيئاً أسهل حتى من الكذب، أسهل حتى من قول الحقيقة». يهز رأسه... «لدي إحساس... بالحزن عليه. لم يكن يريد شيئاً غير حمايتي».

أقول له: «لقد حاول حمايتك مني، على الرغم من معرفته بأن...».

يقول لي بصوت ليس فيه أي تعبير: «لا! كان يحاول حمايتك مني».

لقد قال لي ألستير: لا أريده أن يمضي الوقت مع امرأة أكبر منه. لم يكن ذلك من أجل إيثان، بل من أجلي أنا.

«لكن، كما تعلمين، ما الذي كان يمكنك فعله؟ أليس هذا صحيحاً؟

لقد قال أحد الأطباء النفسيين لأبي وأمي إنني شخص سيئ بتكويني...» يرفع كتفيه من جديد... «جيد. جيد جداً».

الغضب، والتصعيد... إنه يُصعّد حالته بنفسه.

يندفع الدم إلى رأسي. ركزي. تذكري. فكري.

«هل تعرفين؟... أشعر أيضاً بنوعٍ من الحزن على الشرطيين. ذلك الشرطي الذي كان يحاول جاهداً أن يساير حالتك. يا له من رجل قديس!...» يضحك ضحكة هائزة... «وأما الشرطية فقد بدت لي امرأة عاهرة حقاً».

لا أكاد أصغي إلى ما يقوله. أتمتم قائلة: «حدثني عن أمك».

ينظر إلي: «ماذا قلتِ؟».

أومئ برأسي وأقول: «أمك، حدثني عنها». لحظة صمت. أسمع هدير الرعد في الخارج.

يقول لي حذراً: «مثل... ماذا؟».

أتنحنح لأفتح حنجرتي: «قلت لي إن أصدقاءها كانوا يسيئون معاملتك».

ينظر إليَّ غاضباً: «قلت لك إنهم كانوا يوسعونني ضرباً».

«صحيح. أظن أن هذا كان يحدث كثيراً».

لا تزال نظرته غاضبة... «نعم، لماذا تسألين؟».

«قلت لي إنك كنت تظن نفسك شخصاً سيئاً».

«بل قلت لك إن هذا ما قاله أحد الأطباء النفسيين».

«أنا لا أصدق هذا. ولا أصدق أنك شخص سيئ».

يميل برأسه في اتجاهي ويسألني: «ألا تصدقين؟».

أحاول ضبط أنفاسي... «لا، لا أصدق أن هنالك أشخاصاً مصنوعين على هذا النحو». أنتصب في جلستي مستندة إلى الوسائد وأمسّد الملاءات التي تغطي ساقيَّ... «أنت لست مصنوعاً هكذا».

«ألستُ مصنوعاً هكذا؟» أرى قبضة يده على أداة فتح الرسائل وقد ارتخت قليلاً.

«حدثتْ لك أشياء سيئة عندما كنت طفلاً صغيراً. وكانت هنالك أشياء... أشياء رأيتَها. أشياء تتجاوز سيطرتك...» صوتي يكتسب بعض القوة... «أشياء عشتَها».

أراه يرتعش قليلاً.

«وهي لم تكن أماً صالحة لك. أنت محق في هذا...» أراه يبتلع ريقه؛ أبتلع ريقي أيضاً... «وأظن أن الضرر الذي لحق بك كان قد صار كبيراً جداً عندما جاء أبوك وأمك وتبنياك. أظن...» هل أخاطر بهذا يا ترى؟... «أظن أنهما مهتمان بأمرك كثيراً. حتى لو لم يكونا شخصين من غير عيوب».

ينظر في عيني. يتشوه وجهه لحظة بفعل رجفة صغيرة.

يقول لي: «إنهما خائفان مني».

أومئ برأسي، ثم أذكّره: «لقد قلتَ لي هذا بنفسك. قلت إن ألستير كان يحاول حمايتي من خلال إبقائك... من خلال إبقائنا متباعدين».

لا تظهر عليه أي ردة فعل.

«لكنني أظنه كان خائفاً عليك أيضاً. أظنه كان يحاول حمايتك أيضاً». أمد ذراعي... «أظن أنهما أرادا إنقاذك عندما أخذاك إلى بيتهما». يحدّق بي... «إنهما يحبانك. وأنت تستحق الحب. وأنا أعرف أننا، إذا تحدثنا معهما... بل أنا واثقة من هذا... فسوف يفعلان كل ما في وسعهما لكي يستمرا في حمايتك. كلاهما سيفعل هذا. أعرف أنهما حريصان عليك راغبان بالبقاء على صلة بك».

تقترب يدي من كتفه، ثم تظل معلقة هناك.

أهمس له: «ما حدث لك عندما كنت صغيراً ليس غلطتك أنت. و...».

يبتعد عني قبل أن أتمكن من لمسه ويقول: «كفّي عن هذا الهراء».

أسحب يدي.

لقد فقدته. أحس الدم يغيض من دماغي. ويصير فمي جافاً.

يميل في اتجاهي، ثم ينظر في عيني. عيناه لامعتان، غير هازلتين: «كيف هي رائحتي؟».

أهز رأسي.

«هيا. شميني. كيف هي رائحتي؟».

أشمه. أتذكر تلك المرة الأولى عندما شممت رائحة الشمعة. رائحة الخزامى.

أجيبه: «رائحة المطر».

«وماذا أيضاً؟».

لا أكاد أطيق قولها: «كولونيا».

«إنها كولونيا رومانس، من رالف لورين. أردت أن يكون هذا لطيفاً من أجلك أنت».

أهز رأسي من جديد.

يتابع كلامه وقد بدت عليه لمحة من تفكير عميق: «أوه، نعم. الشيء الذي لا أستطيع تقريره هو إن كان ذلك سيكون سقوطاً على السلم أو جرعة زائدة من الأدوية. لقد كنتِ حزينة جداً في الآونة الأخيرة، وكل هذه الأشياء. هنالك أقراص دواء كثيرة على طاولة القهوة. لكنك في حالة جسدية سيئة أيضاً. هذا يعني أيضاً أنك يمكن أن تتعثري على السلم، كما تعلمين».

لا أصدق أن هذا يحدث لي. أنظر إلى القط. إنه مستلق على جانبه من جديد. إنه نائم.

«سوف أشتاق إليكِ. لن يشتاق إليك أحد غيري. ولن ينتبه أحد إلا بعد أيام. ثم لن يهتم أحد بالأمر بعد ذلك».

أطوي ساقي تحت الملاءات.

«قد يهتم طبيبكِ بالأمر، لكنني متأكد من أنه سئم حالتك تماماً. لقد قلتِ لليزي إنه يحاول مسايرة إحساسك بالذنب، وحالة رهاب الأماكن العامة التي أصابتك. يا إلهي! أهو قديس لعين آخر؟».

أغمض عيني بشدة.

«انظري إليَّ عندما أكلمك... يا عاهرة».

وبكل ما لدي من قوة، أرفسه.

96

أصيبه في معدته. ينطوي على نفسه فأركله من جديد، في وجهه هذه المرة. يصطدم كعبي بأنفه. أراه يسقط على الأرض.

أزيح الأغطية عني وأندفع خارجة من السرير فأجري إلى الباب، إلى ظلمة الممر التي خلف الباب.

ومن فوقي، ينسكب المطر على النافذة السماوية في الأعلى. أتعثر على فسحة السلم وأسقط على ركبتيّ. أمسك الدرابزين بإحدى يدي الخائرتين.

وفجأة، يشتعل السلم كله بضياء البرق الأبيض المنسكب من الأعلى. في تلك اللحظة، ألقي نظرة سريعة عبر قضبان الدرابزين فأرى كل درجة من درجات السلم مضاءة، أراها ماضية إلى الأسفل مثل حلزون، إلى الأسفل، فالأسفل، فالأسفل. طيلة المسافة حتى القعر.

إلى الأسفل، إلى الأسفل، إلى الأسفل.

ترتفع عيناي. السلم يغرق في الظلمة من جديد. لا أرى شيئاً، ولا أحسّ شيئاً إلا صوت انهمار قطرات المطر.

أتحامل على نفسي حتى أقف، وأنزل درجات السلم مسرعة. يتدحرج الرعد في الأعلى.

وعند ذلك أسمعه: «يا عاهرة...» أسمعه مندفعاً إلى فسحة السلم؛ أسمع صوته متألماً: «يا عاهرة». يطلق الدرابزين صريراً مرتفعاً عندما يصطدم به.

يجب أن أصل إلى المطبخ. يجب أن أصل إلى المشرط الذي لا يزال موضوعاً على الطاولة هناك. يجب أن أصل إلى شظايا الزجاج التي تلمع

في سلة المهملات. يجب أن أصل إلى الإنترفون. يجب أن أصل إلى الباب.

يسألني إد بصوت لا يعدو الهمس: لكن، هل يمكنك الخروج من البيت؟

عليَّ أن أخرج من البيت. اتركني وشأني.

سوف يلحق بك في المطبخ. لن تتمكني من الخروج من البيت. وحتى إذا تمكنت من الخروج...

أصل إلى فسحة الدرج في الطابق الذي تحتي. ثم أدور مثل إبرة البوصلة، أحاول توجيه نفسي. أربعة أبواب من حولي. غرفة المكتب، وغرفة المكتبة، والخزانة الجدارية، والحمّام الصغير. اختاري واحداً منها.

انتظر. اختاري واحداً منها.

الحمام. نشوة سماوية. أمسك بالمقبض، أفتح الباب، ثم أدخل. أنا قابعة في مدخل الحمام، أنفاسي متقطعة، صغيرة...

إنه قادم الآن. إنه ينزل السلم مندفعاً. أوقف تنفسي. يصل فسحة السلم. يتوقف. لا يبعد عني أكثر من متر واحد. أحس اضطراب الهواء.

تمر لحظة لا أسمع فيها شيء غير قرع المطر. العرق ينساب على ظهري.

«آنا». صوته منخفض، بارد. أنكمش على نفسي.

وبيد واحدة، أمسكُ إطار الباب. أفتحه قليلاً وأسترق نظرة إلى الظلمة في الخارج.

أرى خياله باهتاً، مجرد ظل بين ظلال أخرى. لكنني أستطيع تمييز كتفيه وبياض يديه العائم في الظلام. ظهره في اتجاهي. لا أستطيع تحديد اليد الممسكة بأداة فتح الرسائل.

يدور في مكانه، يدور ببطء. أراه جانبياً، أراه يواجه باب غرفة المكتبة. أراه ينظر أمامه تماماً، من غير حركة.

ثم أراه يلتف من جديد، لكن بحركة أسرع هذه المرة. وقبل أن أتمكن من التراجع إلى داخل الحمام، أراه ينظر إليّ.

لا أتحرك. لا أستطيع أن أتحرك.

يقول بصوت منخفض: «آنا».

تنفرج شفتاي. ويتصاعد قرْع الطبول في قلبي.

يحدق كل منا في الآخر. أنا على وشك الصراخ.

أراه يستدير مبتعداً عني.

لم يرَني! إنه غير قادرة على النظر عميقاً في الظلام. أما أنا فمعتادة على هذا، معتادة على الضوء المنخفض، معتادة على غياب الضوء أيضاً. أستطيع أن أرى ما لا...

أراه الآن يتحرك في اتجاه السلم النازل. النصل لامع في إحدى يديه. تغوص يده الأخرى في جيبه.

يناديني: «آنا».

يخرج يده من جيبه ويرفعها أمامه.

يندفع الضوء من راحة يده. إنه هاتفه. إنه المصباح الكاشف في هاتفه.

من موقعي في مدخل الحمام، أرى قمة السلم تدخل مجال الرؤية. الجدران بيضاء تماماً. ينفجر رعد قريب.

يدور على نفسه مرة أخرى. شعاع الضوء يمسح فسحة السلم كأنه شعاع منبثق من منارة بحرية. باب الخزانة الجدارية أولاً. يخطو في اتجاهه، ثم يفتحه، يوجه الهاتف إلى داخل الخزانة.

ثم غرفة المكتب. يدخل الغرفة. يمسحها بضوء هاتفه. أنظر إلى ظهره وأستعد للجري نزولاً. إلى الأسفل، إلى الأسفل، إلى الأسفل.

لكنه سيمسك بك.

ليس لديَّ مخرج آخر.

بل لديك مخرج.

أين؟

إلى الأعلى، إلى الأعلى، إلى الأعلى.

أهز رأسي رافضة الفكرة وأرى إيثان عائداً من غرفة المكتب. غرفة المكتبة هي الهدف التالي. وبعد ذلك، يأتي الحمام. عليَّ أن أتحرك قبل أن...

يمس ردفي مقبض الباب فيطلق الباب أنيناً خافتاً. يستدير إيثان بعنف فيتجاوز شعاع النور باب غرفة المكتبة. يتجه إلى عيني مباشرة.

إنه يعميني. يتوقف الزمن.

يقول هامساً: «ها أنت هنا».

وعندها... أنقض عليه.

أعبر الباب فأصطدم به، أدفن كتفي في بطنه. يلهث وأنا أدفعه. لا أستطيع الرؤية، لكنني أزيحه جانباً، أزيحه في اتجاه درجات السلم. وفجأة... يختفي. أسمع صوت سقوطه على الدرجات كأنه انهيار جليدي. الضوء يسقط على السقف بجنون.

إلى الأعلى، إلى الأعلى، إلى الأعلى... أسمع همسات أوليفيا.

أستدير، لا تزال نجوم تلمع في عيني. أضع قدمي على الدرجة الأولى، ثم أترنح، وأصعد درجة أخرى كأنني أزحف. أدفع بنفسي إلى الأعلى، أجري.

أستدير عندما أصل فسحة السلم. وقد اعتادت عيناي الظلمة من جديد. أرى غرفة نومي، وأرى غرفة الضيوف من بعدها.

إلى الأعلى، إلى الأعلى، إلى الأعلى...

لكن ما من شيء في الأعلى غير الغرفة الاحتياطية، وغرفتك أنت.

إلى الأعلى.

إلى السطح؟

إلى الأعلى.

لكن كيف؟ كيف أستطيع هذا؟

يقول إد: ليس لديك خيار آخر.

على مسافة طابقين تحتي، أسمع صوت إيثان يصعد الدرجات من جديد. أستدير وأتابع الصعود. يحرق البساط الخشن أسفل قدمي، ويصرّ الدرابزين تحت يدي.

أبلغ فسحة السلم التالية، وأنسل إلى الزاوية تحت باب فتحة السقف. أمد يدي فوق رأسي. أعثر على السلسلة. تقبض أصابعي عليها، ثم أجذبها بقوة.

97

ينصب رشاش الماء على وجهي عندما ينفتح باب السطح. ينزلق السلم في اتجاهي مصدراً زعيقاً معدنياً. يصرخ إيثان بشيء ما في أسفل السلم، لكن الريح تطير بكلماته.

أغمض عيني في مواجهة المطر، ثم أتسلق السلم. واحدة، اثنان، ثلاثة، أربعة، الدرجات باردة زلقة، والسلم يصرّ تحت ثقلي. يمس رأسي السقف عندما أبلغ الدرجة السابعة، ثم ينفجر الصوت...

يكاد ذلك الصوت يوقعني. العاصفة تزمجر كأنها حيوان. مخالب الريح تُعمِل في الهواء تمزيقاً. والمطر، حادٌّ كأنه أنياب، يعضني ويخترق جلدي. الماء يتصبب على وجهي ويُغرق شعري فيزيحه إلى الخلف.

يده تقبض على كاحلي.

أتخلص من قبضته مذعورة وأشد نفسي إلى الأعلى، إلى الخارج، ثم أنقلب جانباً فأصير بين الباب والنافذة السماوية. أضع يدي على زجاج النافذة المقوَّس وأقف على قدميَّ بصعوبة، ثم أفتح عيني.

العالم يتمايل من حولي. ورغم ضجيج العاصفة كله، أسمع صوت أنيني.

حتى في هذا الظلام، أستطيع رؤية أن سطح بيتي مثل أجمة في البرية. النباتات نامية في كل اتجاه في أحواضها وأوعيتها. أغصان الكرمة ممتدة مثل عروق على الجدران. وأوراق اللبلاب تغطي وحدة التهوية. وأمامي،

تنتصب التعريشة كلها ممتدة أربعة أمتار مائلة إلى أحد جانبيها تحت ثقل الأغصان والأوراق.

لا يتساقط المطر بيني وبين تلك التعريشة، بل ينسكب انسكاباً، يمتد مثل أشرعة أو مثل ملاءات كبيرة من ماء. ينهمر ثقيلاً على السطح، ويتناثر على الزخارف الحجرية. يلتصق ثوبي بجلدي.

أستدير ببطء. ركبتاي خائرتان. تحيط بي من ثلاث جهات هاوية ارتفاعها أربعة طوابق. ومن جهة الشرق ينتصب جدار القديسة ديمفنا كأنه جبل.

السماء من فوقي. والفضاء من حولي. تنكمش أصابعي. تضعف ساقاي. تتقطع أنفاسي. وينداح ضجيج العاصفة من حولي.

أرى الثقب الأسود إلى جانبي... باب السطح. وأرى ذراعاً تظهر منه منحنية تحت المطر، ذراع إيثان.

يصعد الآن إلى السطح. أسود كأنه ظل. أداة فتح الرسائل تلوح مثل حربة فضية في إحدى يديه.

أتمايل، وأتعثر راجعة إلى الخلف. تدوس قدمي القبة الزجاجية فأحس طقطقة الزجاج الخفيفة. لقد حذرني ديفيد: إنها ضعيفة. الأغصان تصطدم بالزجاج وتسقط عليه، وسوف تغطي النافذة كلها.

يقترب الظل مني. أصرخ، لكن الريح تسرق صرختي من فمي وتقذف بها بعيداً كأنها ورقة شجر ميتة.

يتراجع إيثان إلى الخلف لحظة وقد فاجأته تلك الصرخة. ثم يضحك. يصيح بصوت أعلى من هدير العاصفة: «لا يستطيع أحد سماعك. إننا في...» لكن صوت المطر يشتد قبل أن ينهي تلك الكلمات.

لا أستطيع التراجع أكثر من هذا وإلا فسوف أدوس على زجاج النافذة. أخطو جانباً، سنتيمترات قليلة فقط. فتمس قدمي شيئاً معدنياً رطباً. أنظر إلى الأسفل. إنه وعاء السقاية الذي اصطدم به ديفيد ذلك اليوم عندما صعد إلى السطح.

يقترب إيثان غارقاً في المطر... عينان لامعتان في وجه قاتم. يلهث.

أنحني وألتقط وعاء السقاية، ثم أقذفه به... لكنني خائرة القوى فاقدة توازني... ينزلق الوعاء من قبضة يدي، ويطير منحرفاً.

يخفض إيثان رأسه.

ثم أجري.

أجري في الظلام، أجري في تلك البرية، أجري خائفة من السماء فوقي، مذعورة من الصبي الذي خلفي. تستعيد ذاكرتي تفاصيل السطح: صف شجيرات الزينة إلى جهة اليسار، وأحواض الزهور من بعدها. أحواض زراعة فارغة إلى جهة اليمين، وأكياس من التراب موزّعة مثل سكارى يترنحون بينها. نفق التعريشة أمامي مباشرة.

ينفجر الرعد. يشحب لون الغيوم في ضوء البرق الذي يغمر السطح كله بضياء أبيض. أشرعة من مطر تخفق وتتهاوى.

أندفع عبر تلك الأشرعة.

قد تسقط السماء فوقي فتسحقني في أي لحظة، لكن قلبي لا يزال نابضاً، ولا يزال دمي يدفئ عروقي. أندفع في اتجاه التعريشة.

ستارة من ماء تحجب مدخل التعريشة. أندفع عبر ذلك الجدار فأدخل النفق المظلم كأنه جسر مغطى، المورق كله كأنه غابة استوائية. المكان هنا أكثر هدوءاً، تحت مظلة الأغصان والأوراق والقماش المشمع... كأن جداراً قد حجب الضجيج. أستطيع الآن سماع لهاثي. وإلى جانبي، أرى المقعد الصغير المنخفض. اتذكر ما كان مكتوباً عليه: «صوب النجوم، رغم الفاجعة».

إنه عند آخر النفق. آمل أن يكون هناك. أندفع إليه. أقبض عليه بيدي الاثنتين، ثم أستدير. أرى شبحه يحوم خلف جدار الماء. هكذا رأيته أول مرة، أتذكر الآن... شبحه يتشكل من خلف زجاج باب البيت المغشى.

ثم أراه يدخل النفق.

«هذا عظيم». يمسح الماء عن وجهه ويتحرك في اتجاهي. معطفه

غارق بالماء. ووشاحه متهدل، ثقيل، حول عنقه. أداة فتح الرسائل بارزة من قبضته... «كنت سأكسر رقبتك، لكن هذا أفضل...» يرفع حاجبه... «كنت مجنونة إلى حد جعلك تقفزين من فوق سطح البيت».

أهز رأسي.

إنني أبتسم الآن.

«أنت لا تظنين هذا؟ ما الذي لديك هناك؟» ثم... يرى ما لدي هناك.

إنه مقص الحديقة يرتعش بين يدي... المقص ثقيل، وأنا أرتجف. لكنني أرفعه إلى صدره وأتقدم.

لم يعد مبتسماً. يقول لي: «أنزليه».

أهز رأسي من جديد، وأقترب خطوة أخرى. أراه متردداً.

يكرر ما قاله: «أنزليه». خطوة أخرى. أُطبق شفرتَيْ المقص معاً.

تلقي عيناه نظرة خاطفة في اتجاه النصل الذي في يده، ثم يتراجع عبر جدار المطر.

أنتظر لحظة. تخفق أنفاسي في صدري.

لقد ذاب واختفى.

وببطء، ببطء، أقترب من قوس مدخل التعريشة. وهناك أتوقف ورشاش الماء ينصبّ على وجهي. أدفع بطرف المقص في ذلك الشلال المائي كأنه عصا سحرية.

الآن.

أرفع المقص أمامي وأقفز عبر الماء. إن كان ينتظرني هناك، فسوف...

أتجمد في مكاني. الماء يقطر من شعري، وملابسي مبتلّة كلها. إنه ليس هناك.

أنظر إلى السطح من حولي.

لا أثر له عند أحواض شجيرات الزينة.

لا أثر له عند وحدة التهوية.

لا أثر له عند أحواض الزهور.

يسطع البرق فيتوهج السطح كله بياضاً. أرى أن المكان خالٍ كله... نباتات مهملة ومطر عنيف.

لكن، إذا لم يكن هنا، فمعنى هذا...

ينقضّ علي من الخلف، ينقض بسرعة وعنف يخنقان الصرخة في حلقي. يفلت المقص من يدي وأسقط على الأرض معه. تتهاوى ركبتاي، ويصطدم رأسي بالسطح الرطب. أسمع صوت شيء ينكسر. يمتلئ فمي دماً.

نتدحرج على أسفلت السطح؛ نتدحرج مرة، مرتين، إلى أن يصطدم جسدانا بحافة النافذة السماوية. أحس زجاجها يرتجف ويهتز.

يدمدم: «يا عاهرة». أنفاسه حارة في أذني. يوازن نفسه الآن ويقف. قدمه تضغط على رقبتي. أكاد أختنق.

يقول بصوت كالصرير: «لا تعبثي معي. سوف تقفزين من هذا السطح. وإذا لم تقفزي، فسوف أدفعك بنفسي». أنظر إلى قطرات المطر تصطدم بالإسفلت إلى جانب وجهي.

«أي جانب تختارين؟ الحديقة أم الشارع؟».

أغمض عيني.

أهمس: «إن أمك...».

«ماذا؟».

«إن أمك...».

يتراجع الضغط على رقبتي، يتراجع قليلاً فقط: «أمي؟».

أومئ برأسي.

«ماذا بها أمي؟».

«لقد قالت لي...» إنه يضغط الآن على رقبتي بقوة أكبر، يكاد يخنقني تماماً.

«ماذا قالت لك؟»

تجحظ عيناي. يفتح فمي. أكاد أتقيأ.

يخفف الضغط على رقبتي من جديد. ثم يسألني من جديد: «ماذا قالت لك؟»

آخذ نفساً عميقاً، ثم أقول: «لقد أخبرتني باسم أبيك».

لا يتحرك. المطر يغسل وجهي. طعم الدم اللاذع يزداد حدة على لساني.

«أنت كاذبة».

أسعل فيصطدم رأسي بالأرض: «لا».

يقول لي: «أنت لا تعرفين حتى من كانت تلك المرأة. لقد ظننتها شخصاً آخر. ولم تكوني تعرفين شيئاً عن أنني متبنّى...» ومن جديد يضغط بقدمه على رقبتي... «إذن، كيف يمكنك أن...».

أبتلع ريقي، يلهتب حلقي: «لقد أخبرتني. أنا لم أفهم ما قالته أول الأمر، لكنها أخبرتني...».

إنه صامت من جديد. أسمع هسيس الهواء في حلقي، وأسمع هسيس المطر على الأسفلت.

«من هو؟».

أظل صامتة.

«من هو؟» يركلني في بطني. أتجمع على نفسي وأشهق طالبة الهواء، لكنه سرعان ما يمسكني من قميصي ويرفعني فأصير جاثية على ركبتي. أسقط إلى الأمام. يقبض على رقبتي بيده ثم يضغط.

يقول صارخاً: «ماذا قالت لك؟».

يشتد ضغط أصابعه على رقبتي. يبدأ برفعي إلى الأعلى فأرتفع معه. ركبتاي مرتجفتان. نصير واقفين وجهاً لوجه.

إنه يبدو لي الآن صغيراً جداً. جلده صقيل يغسله ماء المطر. شفتاه ممتلئتان. شعره منسدل على جبهته. صبي لطيف جداً. ومن خلفه، أرى امتداد الحديقة، وأرى ظل بيته الضخم. وعند كعبَيْ قدمَيّ، أحس انحناءة زجاج النافذة السماوية.

«أخبريني!».

أحاول الكلام، لكنني أعجز.

«أخبريني».

يتحشرج صوتي.

يخفف الضغط قليلاً عن عنقي. ألقي نظرة إلى يده. لا تزال أداة فتح الرسائل في قبضته.

أقول لاهثة: «كان أبوك معمارياً».

ينظر إليّ. المطر يسقط من حولنا. يسقط بيننا.

أقول له: «كان يحب الشوكولا الداكنة. وكان يطلق على أمك اسم اللاعبة».

تسقط يداه عن عنقي.

«كان يحب الأفلام. كلاهما كان يحب الأفلام. وكانا يحبان أيضاً...»

يتجهّم وجهه ويقول لي: «متى أخبرَتْك بهذا؟».

«أخبرتني يوم زارتني. قالت لي إنها تحبه».

«وماذا حدث له؟ أين هو الآن؟»

أغمض عيني وأنا أقول: «لقد مات».

«متى مات؟».

«مات منذ فترة. لا أهمية لهذا. مات أبوك فانهارت أمك».

تقبض يده على رقبتي من جديد فأفتح عيني. يقول لي: «بل له أهمية. عندما...»

أقول له وأنا أنطق الكلمات بصعوبة: «ما له أهمية هو أنه كان يحبك».

يتجمّد. وتترك يده عنقي وتسقط إلى جانبه.

أكرر ما قلته: «لقد كان يحبك. كلاهما كان يحبك».

إيثان ينظر إليّ فاتحاً عينيه على اتساعهما ويده قابضة على أداة فتح الرسائل. أما أنا فأتنفس بعمق. أحتضنه.

يتيبّس جسده، لكنه لا يلبث أن يتراخى. يقف هناك، تحت المطر، ذراعيَّ من حوله، وذراعاه مسبلتان إلى جانبيه.

أتمايل، مترنحة، وأكاد أفقد وعيي فيمسكني قبل أن أسقط. وعندما أعود واقفة على قدمي من جديد، نكون قد تبادلنا موضعينا: كفاي على صدره... تحسان ضربات قلبه.

أتمتم قائلة له: «لقد أحبك أبوك، وأحبتك أمك».

وفي تلك اللحظة، أميل عليه بكل ثقلي وأدفعه فوق زجاج النافذة السماوية.

98

يسقط على ظهره. تهتز النافذة السماوية. لا يقول لي شيئاً، بل ينظر إليّ فحسب، ينظر حائراً كما لو أنني طرحت عليه سؤالاً صعباً. تسقط أداة فتح الرسائل من يده وتنزلق جانباً. يفتح كفيه على الزجاج ويبدأ دفع نفسه حتى يقف. تتباطأ ضربات قلبي. يتباطأ الزمن.

ثم تتهاوى النافذة السماوية وتنهار من تحته، تنهار من غير صوت في تلك العاصفة.

وفي لحظة واحدة، أراه يسقط ويختفي عن عيني. إن صرخ، فلست قادرة على سماعه.

أسير مترنحة إلى حافة الفتحة حيث كانت النافذة السماوية، وأنظر من هناك، أنظر إلى أعماق ذلك البئر في بيتي. تندفع خيوط المطر وتُدوّم في ذلك الفراغ كأنها شرارات. وعلى فسحة السلم في الأسفل، يتلألأ نثار الزجاج المتكسر. لا أستطيع الرؤية أبعد من ذلك... الظلمة شديدة هناك.

أظل واقفة في العاصفة. أشعر بالدوار. الماء يتجمع عند قدمي.

ثم أخطو مبتعدة. أدور بحذر من حول الفتحة. أسير في اتجاه السلم المنزلق الذي لا يزال ممتداً إلى الأسفل.

أنزل السلم. إلى الأسفل، إلى الأسفل، إلى الأسفل.

تنزلق أصابعي على درجاته.

أبلغ الأرض فأجدها غارقة بالماء. أسير إلى أعلى السلم مارة تحت تلك الفتحة في السقف. المطر ينسكب فوقي.

أصل إلى باب غرفة أوليفيا. أتوقف. أنظر في الغرفة.

يا طفلتي. يا ملاكي. أنا آسفة جداً.

أستدير بعد لحظة، ثم أنزل السلم. البساط القاسي جاف خشن تحت قدمَيّ. أتوقف من جديد عند فسحة السلم التالية فأعبر تحت الوابل المنهمر، ثم أقف بباب غرفة نومي والماء يقطر منّي. تمسح عيناي السرير والستائر وشبح بيت روسل الأسود خلف الحديقة.

أعبر تحت المطر مرة أخرى، ثم أنزل السلم من جديد. أنا في المكتبة الآن. إنها مكتبة إد؛ إنها مكتبتي... أنظر إلى المطر يصفع النافذة. ومن فوق رف الموقد، تدق الساعة معلنة الثانية صباحاً.

أحوّل نظري عنها، ثم أخرج من الغرفة.

أستطيع الآن رؤية حطام جسده وأنا واقفة على فسحة السلم؛ أراه مرمياً على الأرض، ملاكاً ساقطاً. أنزل الدرجات إليه.

تاج قاتم من الدم يحيط برأسه كأنه شعلة من لهب. إحدى يديه مطوية فوق قلبه. عيناه تنظران إلي.

أنظر إليهما.

أخطو فأتجاوزه.

ثم أدخل المطبخ.

ثم أوصّل سلك الهاتف الأرض حتى أستطيع الاتصال بالمحقق ليتل.

بعد ستة أسابيع

99

تساقطت آخر ندف الثلج منذ ساعة. والآن، تعوم شمس الظهيرة في زرقة السماء التي تؤلم العيون... سماء « لا لكي تدفئ لحم الإنسان، بل لكي تمتّع ناظريه فحسب». نابوكوف،[1] كتاب «حياة سيبستيان نايت الحقيقية». لقد وضعت لنفسي منهجاً خاصاً في القراءة. ما عدت في حاجة إلى نادي قراءة عن بُعد.

سماء تُسرّ العين حقاً. ومثلها الشارع في الأسفل، الشارع المفروش بالأبيض، المتوهج في ضياء الشمس. خمسة وعشرون سنتيمتراً من الثلج هطلت على المدينة هذا الصباح. ظللت ساعات أنظر من نافذة غرفة نومي ورأيت الثلج يتكوّم كثيفاً فيغلف الأرصفة وينفرش مثل سجادة عند أبواب البيوت ويتكوم في أحواض الزهور. وفي وقتٍ ما، بعد العاشرة، خرج أفراد أسرة غراي الأربعة من بيتهم كأنهم سرب سعيد. راحوا يصيحون ويزعقون وسط الثلج المنهمر ويجرون عبر دفقات الثلج التي تتقاذفها الريح حتى اختفوا عن ناظريَّ عند البيوت البعيدة. وعلى الناحية الأخرى من الشارع، ظهرت ريتا ميلر عند باب بيتها لتتأمل الطقس. كانت

(1) - فلاديمير نابوكوف. روائي روسي/ أميركي. من أشهر رواياته «لوليتا».

ملتفّة بثوبها حاملة فنجاناً حاراً في يدها. ظهر زوجها من خلفها فطوّقها بذراعيه وأراح ذقنه على كتفها. قبّلته على خده.

وبالمناسبة، لقد صرت أعرف اسمها... أخبرني به ليتل بعد أن تحدث مع الجيران. اسمها سو... اسم مُخيّب!

الحديقة بستان من الثلج، بستان من ثلج نظيف متلألئ. ومن خلفها، نوافذ مغلقة قابعة تحت تلك السماء الباهرة. إنه البيت الذي وصفته الصحف الأكثر ميلاً إلى الإبهار بأنه «بيت القاتل المراهق الذي يبلغ ثمنه أربعة ملايين دولار». أعرف أن ثمنه أقل من هذا، لكنني أظن أن كتابة «3,45» مليون دولار، ليست بالشيء المثير كثيراً.

البيت خالٍ الآن. إنه خالٍ منذ أسابيع. زارني المحقق ليتل في بيتي مرة ثانية ذلك الصباح. زارني بعد مجيء الشرطة وبعد مجيء عمال الطوارئ لأخذ الجثة. أخذوا جثته. قال لي المحقق إنهم اعتقلوا ألستير روسل واتهموه بالمشاركة في جريمة القتل وقد اعترف على الفور. اعترف فور سماعه بموت ابنه. جرى الأمر مثلما وصفه إيثان تماماً؛ هكذا كانت اعترافات ألستير. من الواضح أن ألستير قد انهار. أما جين فكانت أقوى منه. أتساءل عما كانت تعرفه. أتساءل إن كانت تعرف شيئاً.

قال ليتلِ وهو يهز رأسه: «إنني مدين لك باعتذار. وزميلتي... يا إلهي... حقاً إنها مدينة لك بالاعتذار أيضاً».

لم أخالفه الرأي.

زراني في اليوم التالي أيضاً. وبحلول ذلك الوقت، كان المراسلون الصحفيون قد بدأوا يقرعون بابي ويضغطون زر الجرس. تجاهلتهم. لقد صرت خلال السنة الماضية ماهرة في تجاهل العالم الذي من حولي.

سألني ليتل: «كيف حالك يا آنا فوكس؟ لا بد أن هذا اسم الطبيبة النفسية الشهيرة».

لحق بي د. فيلدينغ من غرفة المكتبة. إنه واقف إلى جانبي الآن ينظر إلى المحقق، ينظر إلى كتلة جسده الضخمة.

قال ليتل وهو يمد يده له: «يسعدني أنك موجود إلى جانبها يا سيدي».
أجابه د. فيلدينغ: «هذا يسعدني أيضاً».
وأنا سعيدة بهذا. منحتني الأسابيع الستة الماضية استقراراً، ومنحتني وضوحاً. وتم أيضاً إصلاح النافذة السماوية. أتت شركة متخصصة فطلت البيت كله. صرت أنام جيداً، وصرت أشرب أقل من ذي قبل. بل لم أعد أشرب أبداً في حقيقة الأمر. والفضل في هذا عائد، في جزء منه إلى امرأة ذات وشم، امرأة قادرة على فعل العجائب، امرأة اسمها بام. قالت لي في زيارتها الأولى: «لقد تعاملت مع مختلف أنواع البشر، وفي مختلف الظروف».
قلت لها: «وهذه يمكن أن تكون حالة جديدة».
حاولت الاعتذار من ديفيد. اتصلت به عشر مرات على الأقل، لكنه لم يجبني أبداً. أتساءل أين هو الآن. أتساءل إن كان آمناً. وجدت القرط تحت سريره في القبو. أخذته إلى الأعلى، ووضعته في الدرج. قد يتصل بي.
عدت إلى موقع Agora منذ بضعة أسابيع. إنهم أهلي؛ إنهم عائلتي على نحو ما. سوف أساعد في الشفاء والتعافي وأضع مصالح الآخرين قبل مصالحي.
وأنا أقاوم صوتَيْ إد وأوليفيا. لا أقاومهما طيلة الوقت، ولا أقاومهما تماماً. في بعض الليالي، أسمع صوتيهما فأتمتم لهما بشيء.
لكن زمن الأحاديث بيننا قد ولى.

100

«هيا».
يد بِينا جافّة. يدي ليست جافة.
«هيا، هيا».
لقد فتحتْ باب الحديقة. اندفعت إلى البيت ريح مرتعشة.
«لقد فعلتِ هذا على السطح، تحت المطر».

لكن ذلك كان شيئاً مختلفاً. كنت أقاتل من أجل حياتي.

«هذه حديقتك، حديقتك تحت ضوء الشمس».

هذا صحيح.

«وقد ارتديتِ حذاء الثلج».

هذا صحيح أيضاً. وجدت حذاء الثلج في خزانة الأدوات. لم أرتدِ ذلك الحذاء منذ تلك الليلة الرهيبة في فيرمونت.

«فماذا تنتظرين إذاً؟».

لا شيء. لم أعد أنتظر. لقد انتظرت أسرتي فلم تعود. وقد انتظرت زوال اكتئابي؛ لكنه لن يزول من غير عونٍ مني.

لقد انتظرت لكي أعود فأنضمّ إلى العالم من جديد.

والآن، حان الوقت.

والآن، تحت الشمس الساطعة المشعّة فوق بيتي. الآن، عندما صار رأسي صافياً، عندما صارت عيناي صافيتين. الآن، مع بِينا تقود خُطاي إلى الباب، إلى الدرجات التي من خلفه.

إنها محقة: لقد فعلتُ هذا على السطح، تحت المطر. كنت أقاتل من أجل حياتي. هذا يعني أنني لا أريد الموت.

وإذا كنت لا أريد أن أموت، فعليّ أن أبدأ الحياة.

ماذا تنتظرين؟

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

تترك بِينا يدي وتسير أمامي في اتجاه الحديقة مقتفية آثار أقدام في الثلج، تستدير في اتجاهي ثم تدعوني إليها ملحّةً: «هيا».

أغمض عيني.

ثم أفتح عيني.

ثم أخطو في ضياء الشمس.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شكر وتنويه

جينفر جويل، صديقتي، وكيلة أعمالي، مرشدتي التي لا تقدر بثمن؛
فيليستي بلنت، التي اجترحت العجائب من أجلي.
جيك سميث بوزانكيت وأليس ديل اللذان منحاني العالم كله؛
العاملون في مؤسستيّ (ICM) و(Curtis Brown).
جينفر بريهل وجوليا ويسدوم، بطلتاي ذواتا القلبين المتألقين والبصيرة الصافية.
العاملون في (Morrow) و(Harper).
الناشرون في أنحاء العالم، مع شكري وامتناني.
جوسي فريدمان، وكريغ مورواديان، وأليزابيث غابلر، ودرو ريد.
هوب بروكس، القارئ الأول الفطن، المشجّع الذي لا يعرف التعب؛
روبرت دوبلاس فيرهست، مبعث إلهامي على الدوام؛
لياتي ستيهليك التي قالت إنني قادر على هذا؛
أسرتي وأصدقائي، الذين قالوا إن عليَّ أن أفعل هذا.

آ.ج. فين

امرأة في النافذة

استحوذت عليَّ. مكتوبة ببراعة.. *Louise Penny*

مدهشة، مشوِّقة، وممتعة. استطاع فين خلق رواية التشويق للألفية الجديدة، شخصياتها مدوِّخة، أحداثها صادمة، مكتوبة بجمال استثنائي...

(1# New York Times bestselling author Gillian Flynn)

امرأة في النافذة واحدة من الروايات التي يصعب فعلا أن تتركها قبل الانتهاء منها، مكتوبة بأسلوب سلس وشديد التميز. إن الطريقة التي اشتغل فيها (فين) على القصة الأصلية البسيطة بخلفية "الفيلم الأسود والأبيض" هي طريقة ممتعة ومحفِّزة.

(Stephen King)

تعيش آنا فوكس لوحدها في بيتها في مدينة نيويورك، غير قادرة على الخروج. تمضي أيامها في شرب النبيذ ومشاهدة الأفلام القديمة، واستعادة ذكريات الأوقات السعيدة التي عاشتها... وأيضا في التلصص على جيرانها.

تنتقل عائلة راسل إلى بيت في الجهة المقابلة من الشارع، يبدون كعائلة مثالية: أب وأم وابنهما المراهق. ولكن أثناء تلصص آنا عليهم من نافذتها تشاهد شيئا غريبا... يبدأ عالمها بالتخبط، وتتعرى أسراره الصادمة.

ما الواقعي؟ وما المتخيَّل؟ ومَن في خطر؟ ومَن المسؤول؟

في هذه القصة الجذابة المشوِّقة لا يبدو أحد ولا شيء على ما هو عليه!

قصة قوية التأثير، مكتوبة ببراعة.. ذكية، راقية، مركَّبة، عن التشويق السيكولوجي الذي يذكرنا بهتشكوك.

ISBN: 978-614-472-014-1
9 786144 720141

منشورات الرمل
دار التنوير